شارل ديديه

رحلة إلى الحجاز

في النصف الثاني

من القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٥٤م



ترجمها

وقدم لها وعلق عليها

الدكتور محمد خير البقاعي

دار الفيصل الثقافية

الرياض

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

اهداءات 2002

دار الفيصل الثقافية

السعودية

صورة الغلاف: مقهى في جدة (تصوير لورانس - ١٩١٨م)

المصدر: صور من الماضي: المملكة العربية السعودية، بدر الحاج، رياض الريس للكتب والنشر، لندن ١٩٨٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

شارل ديدييه

رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي

١٨٥٤م

ترجمها وقدم لها وعلق عليها

الدكتور محمد خير البقاعي

دار الفيصل الثقافية

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

ح دار الفيصل الثقافية ، ١٤٢٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
ديدييه، شارل
رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٥٤م.
ترجمة محمد خير البقاعي - الرياض.
ص ٤٠٠ ؛ ١٧ × ٢٤ سم
ردمك ١-١٤- ٦٧٧-٩٩٦٠
١- الحجاز- وصف رحلات أ - البقاعي، محمد خير (مترجم)
ب - العنوان
ديوي ٩١٥،٣١٢٠٤ ٢٢/٠٦٩٤

رقم الإيداع: ٢٢/٠٦٩٤
ردمك: ١-١٤- ٦٧٧-٩٩٦٠

هذا الكتاب ترجمة تامة لنص عنوانه الأصلي :

SÉJOUR CHEZ LE GRAND-CHÉRIF
DE LA MEKKE

PAR CHARLES DIDIER

PARIS

Librairie De L. Hachette et cie
Rue Pierre – sarrazin, No 14

1857

فهـرس المحتـويـات

مقدمـة المتـرجم

١ - الكلمـة الأولـى :

لم يعد من المشكوك فيه أن الرحلات تُعَدّ مصدراً من المصادر التاريخية؛ وإنْ كان هناك تفاوت في مدى صحة المعلومات التي يوردها الرحالة، وتأثرها بالمهمات الموكلة إليهم، أو بالاتجاه السياسي والرؤية الإيديولوجية للكاتب، إذا صح كل ذلك، فإن معرفة هذه المعلومات، ودراستها، يظل من الأعمال العلمية المهمة التي ينبغي على المؤسسات الثقافية والجامعات، وكل الجهات التي تهتّم بتاريخ بلد ما أن تنشرها وتيسرها للباحثين.

لقد شهدت المملكة العربية السعودية عَبْر رجال الثقافة وروادها فيها اهتّماماً بهذا الجانب، أرهصت له ندوات وإصدارات، اهتّمت بالوثائق الأجنبية والرحلات؛ للاطلاع على رؤية الآخر لتاريخ الجزيرة العربية عموماً، والمملكة العربية السعودية بأطوار نشوئها الثلاثة، خصوصاً الدولة السعودية الأولى، والثانية، ثم توحيد المملكة على يد المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود.

إن متتبع التّأريخ للدولتّين السعوديتّين، وللمملكة يلاحظ أن الباحثين صرفوا جهودهم إلى معالجة الوثائق البريطانية، والرحلات التي كُتبت بالإنجليزية، سواء كان كُتّابها بريطانيين أم لا. ولم تلق الوثائق الفرنسية، والرحلات الفرنسية، والأبحاث الجغرافية الفرنسية عن الجزيرة العربية عموماً، وعن التاريخ السعودي بأطواره المختلفة خصوصاً، اهتمام الباحثين، وربما كان الحاجز اللغوي هو السبب، مع أن تاريخ

الوجود الفرنسي في المنطقة، مترافق مع الوجود البريطاني الذي يمكن القول: إنه في جانبه الرسمي، ركز على الجوانب السياسية بداية، والاقتصادية لاحقاً. أما الوجود الفرنسي فقد كان عسكرياً واجتماعياً وثقافياً. نقول هذا اعتماداً على الوثائق الفرنسية التي نُشرت ضمن موسوعة "الملك عبد العزيز آل سعود، سيرته وفترة حكمه في الوثائق الأجنبية "[1].

وقد تنبه الباحثون السعوديون إلى ذلك، فوجدنا الدكتور محمد بن عبد الله آل زلفة يقول: "... وعالم البحث في دور المخطوطات الفرنسية، وكذلك في أرشيف البحرية عَمّا فيها من وثائق تتعلق بأحداث قيام الدولة السعودية الأولى، وتوسع نفوذ تلك الدولة الذي شمل معظم أنحاء الجزيرة العربية، وما تلا ذلك من اهتمام الباحثين الفرنسيين بأحوال الجزيرة العربية حتى بعد سقوط الدولة السعودية الأولى التي أسهم الخبراء الفرنسيون العسكريون خاصة في إسقاطها أثناء عملهم في خدمة محمد علي باشا، ومشاركتهم في كثير من حملاته العسكرية، بدءاً بحملة إبراهيم باشا على الدرعية عام ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م، ودور هؤلاء الخبراء في رسم الخرائط لطرق الحملة، وتحديد المواقع على تلك الخرائط، وكتابة تقارير مطولة عن أحوال البلاد الاقتصادية والسكانية وغيرها. فكانت تقاريرهم المادة الأولية التي استقى منها مَنْ تفرغ من الفرنسيين لكتابة تاريخ وجغرافية مصر في عهد محمد علي باشا، وما امتّد

(١) أصدرتها دار الدائرة في عشرين مجلداً، ثمانية للوثائق البريطانية، وسبعة للوثائق الأميركية، وخمسة للوثائق الفرنسية، ١٤٢٠-١٤٢١هـ / ١٩٩٩-٢٠٠٠م. انظر: **مجلة: عالم الكتب السعودية**، العددين الخامس والسادس، المجلد العشرين، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

إليه من نفوذ من بلدان خارج مصر مثل المؤرخ مانجان F. Mengin، وإدوارد جوان Edward Jouen، والجغرافي جومارد M. Jomard . وكذلك لم تخل حملة من حملات محمد علي العسكرية على عسير، التي قدرتها بعض المصادر سبع عشرة حملة، من خبراء فرنسيين إضافة إلى غيرهم من خبراء أوروبيين من جنسيات أخرى، لا يزال مع الأسف بعيداً عن اهتمام الباحث السعودي، ولم ينفض عنها الغبار حتى هذا التاريخ، وسيكون لكشفها أثر بالغ في سد مازال ناقصاً من كتابة تاريخنا الوطني، وإجلاء مازال غامضاً في بعض فتراته. كما أنه لم يترجم أي من أعمال المؤرخين، أو الجغرافيين الفرنسيين المتعلقة بالجزيرة العربية، ما عدا كتاباً واحداً هو كتاب إدوارد جوان الذي جاء مشتملاً على فصول ممتعة ومهمة لحملات محمد علي المبكرة على الجزيرة العربية. لقد تم ترجمته إلى اللغة العربية، وطبع في القاهرة عام ١٩٣١م. ولكنه أصبح في عداد الكتب النادرة" [١].

نقلت هذا النص الطويل تأكيداً لما قلته: من انصراف الباحثين في تاريخ الجزيرة العربية عن المؤلفات الفرنسية، والوثائق الفرنسية على اختلاف أنواعها ومشاربها.

ومن المفارقات اللطيفة، أن الكتاب الذي مهد الطريق لمؤلفات كثير من الغربيين عن الجزيرة العربية، وعرّفها، كُتب بالفرنسية، وتُرجم في وقت مبكر نسبياً إلى اللغة

(١) تاميزييه، موريس، **رحلة في بلاد العرب، الحملة المصرية عسير ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٤م**، ترجمه وعلق عليه د. محمد بن عبد الله آل زلفة، د. ن، الرياض ١٤١٤هـ / ١٩٩٣، ص ٢١ – ٢٢. وهو ترجمة للجزء الثاني من **كتاب تاميزييه** عن الإنجليزية بعد أن ترجم هذا الجزء إليها أحد المختصين، على حساب الدكتور آل زلفة، انظر: (ص ١٩). وقد كتبنا اسم تاميزييه كما يقتضيه اللفظ الفرنسي.

العربية، أعني كتاب جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، خمسة قرون من المغامرة والعلم[1]، وعلى الرغم من ذلك، فقد ظل الاهتمام منصباً على المؤلفات المكتوبة بالإنجليزية.

وما دمنا في سياق الحديث عن كتاب "بيرين": فإننا نقول: إنها تقدم فيه ملامح واضحة، لبداية اهتمام الفرنسيين بالبحر الأحمر، والجزيرة العربية. وتشير إلى كثير من الرحالة الفرنسيين الذين يحتاج البحث في تاريخ الجزيرة إلى تفصيل ما أوجزَتْه عنهم، وعن أعمالهم لما في ذلك من أهمية لا تخفى، ولنا بحث قيد الإنجاز، يُفصِّل ما أوجزته جاكلين بيرين، ويَتّخذ من كتابها منطلقاً إلى الحديث عن الرحالة الفرنسيين إلى الجزيرة العربية.

لقد تُرجم إلى العربية عن الفرنسية، ناهيك عن كتاب "جوان" و"بيرين" بعض الرحلات منها: رحلة استكشافية في وسط الجزيرة العربية، لفيليب ليبنز[2]، ولكن

---

(1) ترجم الكتاب قدري قلعجي عام ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣ م، وقدّم له الشيخ حمد الجاسر، وطبعته دار الكتاب العربي في بيروت.

(2) ترجمها الدكتور محمد الحناش، وراجعها وعلّق عليها وحقق المواضع الدكتور فهد بن عبد الله السماري، ونشرتها دارة الملك عبد العزيز في الرياض ١٤١٩هـ / ١٩٩٩ م. وقد علمت أن الدكتور الحناش ترجم كتاب: **الحج إلى بيت الله الحرام**، لناصر الدين دينيه، وأنه قيد الطبع في دارة الملك عبد العزيز، وقد قام بمراجعته الدكتور فهد السماري. وللدكتور الحناش مقالتان بعنوان "**المملكة في الكتابات الفرنسية في عهد الملك عبد العزيز**" وثقناهما في مقالتنا: "**قراءة في رحلة إلى الحجاز، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر** عنوانها: **إقامة في رحاب الشريف الأكبر – شريف مكة المكرمة**، تأليف شارل ديديه، الدرعية، س ٢، ع ٨، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، ص ٨٩. ولعلّ أول اهتمام بترجمة نصوص الفرنسيين إلى العربية في المملكة العربية السعودية يعود الفضل فيه إلى الكاتب الجزائري أحمد رضا حوحو، رحمه الله، أول سكرتير لمجلة =

هذا غيض من فيض، فما تذكره جاكلين بيرين يوضح مدى المسؤولية الملقاة على عاتق الباحثين ممن يتقنون الفرنسية لنقل الكتب والوثائق الفرنسية إلى العربية مترجمة بأمانة، ثم إقامة الأبحاث حول تلك الدراسات لاستجلاء حقيقة ما فيها، واكتشاف مدى أهميتها وما تضيفه من جديد .

وتأتي ترجمة رحلة ديديه إسهاماً في نشر الكتابات الفرنسية عن الجزيرة العربية. ونرجو أن تكون فاتحة خير لتقديم أعمال أخرى بالاشتراك مع بعض الزملاء الذين يهتمون بذلك.

ولابد لي في ختام هذه الكلمة من أن أشكر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية الذي اقترح علي ترجمة هذا الكتاب ، وقدم لي نسخة مصورة منه ، بادرت فوراً عند الاطلاع عليها بالموافقة على ترجمته لما وجدته فيه من فائدة ونفع عميمين .

كما أشكر للدكتور عوض البادي، مدير إدارة البحوث والدراسات في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، اهتمامه، واستقباله الأخوي، وحرصه

= "**المنهل**" السعودية؛ إذ نشر فيها مجموعة من المقالات بعنوان "**ملاحظات مستشرق مسلم على بعض آراء المستشرقين وكتبهم المتعلقة بالعرب والإسلام**" وقد وثقنا ذلك في مقالتنا: "**ناصر الدين دينيه وكتابه: الحج إلى بيت الله الحرام**" دراسة ووثائق وترجمة مختارة، ستظهر في **مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية**، العدد الأول من المجلد السابع، ١٤٢٢هـ.

على الإجابة عن كل أسئلتي العلمية التي كانت تجد على الدوام إجابات شافية من علمه الغزير، وأخلاقه السمحة، وحبه للتعاون، واحترامه رأي الآخر.

أما الصديق عبد الله المنيف، مدير إدارة المخطوطات والنوادر في مكتبة الملك فهد الوطنية، فقرأ هذه الرحلة مخطوطة، وأفدت من ملاحظاته السديدة التي كان يبديها.

وأخيراً، فإن الصديق يوسف العتيق، الباحث في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، لم يأل جهداً في توفير المصادر والمراجع التي كنت أطلبها منه، ولم يبخل بمعلومة أو مساعدة لتخرج هذه الرحلة إلى الناس كما ينبغي، وليس ذلك بغريب عليه، وقد نذر نفسه لمعاونة أهل العلم فيما يرومون.

لكل هؤلاء شكري واعترافي بالجميل، ولعل في اجتماعنا وتعاوننا خدمة لتاريخ هذه البقعة المباركة؛ المملكة العربية السعودية خصوصاً، والجزيرة العربية عموماً، لما لها من منزلة في قلب كل عربي ومسلم.

٢ – لمحة تاريخية :

بدأ ديديه رحلته بتاريخ ١٦ يناير (كانون الثاني) ١٨٥٤م / ١٢٧٠هـ من مصر. ويذكر ناشر الرحلة في مقدمته: أن ديديه كان في طريق عودته إلى بلاده، عَبْر أثينا، ولكن رجلاً إنجليزياً تعرف عليه آنذاك، اقترح عليه رحلة إلى جبل سيناء يتقاسمان تكاليفها، فرحب ديديه بالفكرة، وقاما بالرحلة معاً. ومن هناك قررا السفر إلى

الحجاز، وزيارة شريف مكة المكرمة عبد المطلب بن غالب، الذي كان موجوداً آنذاك في الطائف.

كان يحكم مصر إبان زيارة ديديه، عباس باشا بن طوسون باشا بن محمد علي (١٨٤٨م – ١٨٥٤ م). وقتل عباس في يوليو (تموز) عام ١٨٥٤ م؛ أي سنة قيام ديديه بالرحلة. ويسجل ديديه ظروف مقتل عباس الذي يلقى من ديديه هجوماً عنيفاً، وانتقاداً لاذعاً ساخراً، شأنه شأن الكتّاب والرحالة والسياسيين، والعسكريين الفرنسيين الذين بالغوا في انتقاد عباس باشا بسبب ميله إلى البريطانيين، واستبعاده الفرنسيين من خدمته، فأقصى معظم الخبراء الذين كانوا في خدمة جده محمد علي، فتضاءل النفوذ الفرنسي في عهد عباس، ولم يعد إلى الظهور إلاّ في عهد سعيد باشا. ويندرج نقد ديديه لعباس باشا في هذا الإطار، وإنْ كان ديديه يُلبسه لبوساً إنسانياً يبدو من خلاله حريصاً على البلد ومواطنيه، ويردد ما ذكره الفرنسيون عن عباس مثل قول غابريل هانوتو Gabriel Hanotaux، الذي يرى أنه لم تتم في عهد عباس أي إنجازات ضخمة أو عظيمة "باستثناء بناء القصور في المناطق المنعزلة" (١).

أما في الحجاز، فقد كان شريف مكة عبد المطلب بن غالب في فترة شرافته الثانية التي امتدت من عام ١٨٥١ – ١٨٥٦م / ١٢٦٧ – ١٢٧٣هـ ، وكان عبد المطلب يقضي الصيف في الطائف، عندما نشب خلاف بينه وبين باشا جدة، ونجد فيما يقوله ديديه، أصداء ذلك الخلاف بين الباشا والشريف. ويقول سنوك

---

(١) انظر: **مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر**، د. إلهام محمد علي ذهني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥ م، ص ٣٧.

هورخرونيه عن سياسة عبد المطلب في هذه الفترة: "... وعندما تسلم عبد المطلب زمام الأمور في مكة، أظهرت تصرفاته، أنه لا يحسن تقدير أولئك الأشخاص الذين كان يتملقهم في إسطنبول كلما لزم الأمر. فما إن وصل إلى مكة حتى توجه إلى بلاد حرب، حيث بنى لنفسه بعض الحصون في هذه المنطقة المحمية من هجمات الحكومة، بقصد اللجوء إليها في حالة وقوع صراع في المستقبل. وقد دخل في خلاف مع الباشا الذي حضر احتفال تنصيبه في السلطة. وتمكن بواسطة نفوذه عند الصدر الأعظم، من تغيير الباشا وتعيين باشا آخر. غير أن الصداقة بينهما لم تدم طويلاً أيضاً فقد انتهت بسرعة. فعندما أطلقت بعض العيارات النارية التي اخترقت طربوش الباشا، في أثناء وجوده في المثناة بالطائف التي كان يقضي الشريف فيها فترة الصيف[1] لم يستطع الباشا أن يتصور أن حدوث ذلك كان صدفة، بل إنه أمرٌ وقع بتدبير من الشريف نفسه. ومرة أخرى تم تغيير الباشا، والسبب هو شك الشريف

(١) في هذا الصيف زاره ديديه، وتحدث عن حادثة جرت بين حراس حرم الشريف الأكبر اللواتي كنّ في بستان يملكه الشريف في وادي المثناة واسمه: الشريعة، وبين الباشي بوزوق الذين كانوا يرافقون والي جدة العثماني أحمد عزت باشا. وقد حاول هؤلاء الجنود دخول بستان الشريعة عنوة، واستفزوا خدم الشريف واشتبكوا معهم وسالت دماء الجانبين، ولما وصلت الأنباء إلى البدو، سارعوا إلى المكان مسلحين، ولكن الأتراك كانوا قد غادروه. ولما وصل خبر الحادثة إلى أسماع الباشا، حل به الخوف، وهرب من الطائف على وجه السرعة خوفاً من ثورة البدو عليه. و لم تفلح مساعي الشريف الأكبر وإلحاحه في ثنيه عن الذهاب إلى جدة. هذا ما يرويه ديديه في رحلته (ص / ٢٥٧ /، من الأصل الفرنسي الذي وضعنا أرقامه في الأصل بين / /). ويبدو أن إطلاق النار على الباشا، تم خلال هذه الحادثة وبذلك تكتمل الصورة. انظر: **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، سنوك هورخرونيه، نقله إلى العربية د. علي عودة الشيوخ، أعاد صياغته وعلّق عليه د. محمد محمود السرياني و د. معراج نواب مرزا.

في أن الباشا كان يريد اعتقاله. لقد أخطر الشريفَ أصدقاؤه بأن الوالي سيحتال للإمساك به في أثناء تمرين على السلاح، كان من المفروض أن يحضره مع الباشا نفسه. لهذا ابتعد الشريف دون أن يلحظه أحد، وتوجه نحو الطائف، حيث جهز نفسه لمقاومة الهجمات المتوقعة من الدوائر التركية. وبناء على تقرير سريع من الوالي، الذي غادر إلى جدة، قدم في أكتوبر من عام ١٨٥٥م (١٢٧١هـ) مبعوث غير عادي، أرسله الباب العالي، لإعادة تعيين الشريف محمد بن عون الأمير السابق المطرود ..."[1].

أما في نجد، فقد كان الإمام فيصل بن تركي في ولايته الثانية[2] ١٨٤٣ - ١٨٦٥م/ ١٢٥٩ - ١٢٨٢هـ عندما وصل ديديه إلى الحجاز، وقابل في جدة خالد بن سعود الذي تولى الحكم في البلاد النجدية بين عامي ١٨٣٨ - ١٨٤١م / ١٢٥٤ - ١٢٥٧هـ، ولكنه لم يستمر في الحكم، بسبب حركة المقاومة السعودية الوطنية التي قادها الأمير السعودي عبد الله بن ثنيان، الذي تولى الحكم من عام ١٨٤١- ١٨٤٣م / ١٢٥٧ - ١٢٥٩هـ قبل أن يعود الإمام فيصل بن تركي إلى الحكم ثانية[3].

---

(١) **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، ج ١ - ص ٢٨٥ - ٢٨٦. انظر في حواشي الرحلة: ترجمة عبد المطلب بن غالب، ومحمد بن عون الذي تبادل معه الشرافة.

(٢) كانت الولاية الأولى من عام ١٨٣٤ - ١٨٣٨م / ١٢٥٠ - ١٢٥٤هـ. انظر: **تاريخ الدولة السعودية الثانية، ١٢٥٦ - ١٣٠٩هـ / ١٨٤٠ - ١٨٩١ م**، ط ٤، دار المريخ، الرياض ١٤١١هـ / ١٩٩١ م، ص ٣٣٦.

(٣) انظر في أحداث هذه السنوات: **عنوان المجد في تاريخ نجد**، للشيخ عثمان بن عبد الله بن بشر النجدي الحنبلي، حققه وعلق عليه عبد اللطيف بن عبد الله الشيخ، ط ٤، دارة الملك عبد العزيز ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م، مج ٢، ص ١٤٠؛ وانظر: **مثير الوجد في أنساب ملوك نجد، للشيخ راشد بن علي الحنبلي بن جريس** ، تحقيق محمد بن عمر =

أما على المستوى الدولي فقد كانت تركية في حرب مع روسيا، وكانت فرنسا تقف إلى جانب تركية بسبب مصالحها، وخلافها مع روسيا وليس حباً بتركية. نجد أصداء هذا الموقف في رحلة ديديه، الذي يبدو أنه غير راضٍ عن هذا الموقف، ويستنكره ويقول: إن تركية لا تستحق ذلك، يقول ديديه: "... لقد كنت منزعجاً كل الانزعاج من عدم التقدير الذي يلقاه ممثل فرنسا من ذلك التركي، في الوقت الذي تبذل فيه فرنسا دماء أبنائها، وذهبها من أجل تركية ..."[(١)].

أما في فرنسا فقد كانت مرحلة ما يسمى الإمبراطورية الثانية (١٨٠٨-١٨٧٣م) la Seconde Empire ، وحكم خلالها نابليون الثالث الذي أصبح في البداية رئيس جمهورية خلفاً للويس نابليون بونابرت الذي أزيح عن الرئاسة بسبب خلافه مع المجلس الوطني بعد انقلاب (٢ ديسمبر ١٨٥١م)، وقد حول نابليون الثالث الجمهورية إلى إمبراطورية وراثية (١٨٥٢ — ١٨٧٠م)، واتخذ من الضغوط الخارجية وسيلة لإلهاء الناس فخاض عدداً من الحروب (حرب القرم ١٨٥٤ — ١٨٥٥م) ضد

= ابن عبد الرحمن العقيل، ط. دارة الملك عبد العزيز ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م، ص ١٢٧ — ١٢٨؛ وكتاب جبران شامية، **آل سعود ماضيهم ومستقبلهم**، ص ٧٠ — ٧١؛ وانظر: **الموسوعة العربية العالمية**، ج ١٠، ص ٩، وفيها: أن خالد بن سعود توفي في مكة المكرمة ١٢٧٦هـ / ١٨٥٩م أي بعد خمس سنوات من التقائه ديديه في جدة. أما عبد الله بن ثنيان فقد توفي في سنة ١٢٥٩هـ، وتولى بعده ابن عمه فيصل بن تركي (الولاية الثانية) بعد أن هرب من حبس مصر.

(١) انظر: **الرحلة** ص / ٣٠٨ / من الأصل الفرنسي. ويقول ناشر الرحلة في المقدمة: "إن هدف مؤلف الرحلة من نشرها يتحقق إذا استطاعت أن تلفت نظر العقلاء إلى الكوميديا التي تمثلها أوروبا لصالح تركية ...".

روسيا، مما أكسب فرنسا دوراً رئيسياً في أوروبا، ولكنه خسر الحرب الفرنسية البروسية، فخُلِع عن العرش عام ١٨٧٠ م. وكانت تحكم بريطانيا إبان مجيء ديديه إلى الجزيرة العربية الملكة فكتوريا الأولى Victoria 1 re (Alexandrine) (١٨١٩ – ١٩٠١ م) التي توجت في عام ١٨٣٧م وظلت تحكم حتى ماتت عام ١٩٠١، وقد أصبحت إمبراطورة الهند من (١٨٧٦ – ١٩٠١ م) واتسعت في عهدها رقعة الإمبراطورية البريطانية. أما في روسيا فقد كان يحكم القيصر نيقولا الأول (١٧٩٦ – ١٨٥٥ م) الذي تولى الحكم في عام (١٨٢٥ – ١٨٥٥ م) وقد عرف برجعيته الشديدة، وسحق ثورة الديسمبريين في عام (١٨٢٥م) وفي عهده جرت الحرب الروسية التركية، التي تدخلت فيها فرنسا وبريطانيا لصالح الإمبراطورية العثمانية، وانتهت بتوقيع معاهدة السلام في باريس ١٨٥٦ م. أما في تركية فقد كان في الحكم السلطان عبد المجيد الأول (١٨٢٣ – ١٨٦١م)، الذي تولى الحكم من عام (١٨٣٩ – ١٨٦١ م) وقد حاول إجراء إصلاحات عرفت بالتنظيمات، وقد جرت في عهده حرب "القرم" مع روسيا، ووقعت معاهدة باريس ١٨٥٦م. تلك كانت لمحة سريعة عن الحالة السياسية التي كانت سائدة إبان رحلة ديديه إلى الحجاز في عام ١٨٥٤ م.

٣ – صاحب الرحلة :

شارل ديديه Charles Didier، أديب، وشاعر وصحفي سويسري من أصل فرنسي، ولد في جنيف عام ١٨٠٥ م، وكانت أسرته البروتستانتية قد هربت إليها طلباً للحرية الدينية، درس ديديه في جنيف، القانون، وعلم النبات، والرياضيات، ثم

عاد إلى باريس واستقر فيها، واكتشف ميله إلى الرحلات. ونشر أولى قصائده الشعرية[1] في جنيف عام ١٨٢٥ م، وفي عام ١٨٤٨م أرسلته حكومته في مهمة رسمية إلى بولندا، فأصبح خبيراً بشؤون تلك البلاد، وكذلك ألمانيا وما جاورها. وعمل في الصحافة[2]، وأدار جريدة سياسية وأدبية اسمها Le Courrier du Leman = "لو كوريه دو لومان"، وكانت له صلاته مع مشاهير عصره، وخصوصاً الروائية الفرنسية التي برعت في تصوير الحياة الريفية جورج صاند George Sand (١٨٠٤م– ١٨٧٦م)، وتعاون معها، لإصدار جريدة "العالمين" Les Deux Mondes، وفي عام ١٨٤٩م أصدر كتيباً عنوانه: زيارة لدوق بوردو Une Visite M. le Duc de Bordeaux أحدث ضجة وطبع خمس عشرة طبعة خلال أسبوعين. وكان المغرب أول بلد عربي يزورها في عام ١٨٣٣ م. ثم ذهب بعد ذلك إلى إيطاليا وإسبانيا، وعندما أصابه الإجهاد والإحباط من عمله، ومن مجموعة من المشكلات العامة والخاصة كما تشير مقدمة ناشر الرحلة، قرر القيام بمجموعة من الرحلات إلى إسبانيا، ومراكش، والجزيرة العربية، وسنار، ومصر. ونستنتج مما ورد في الرحلة / ٢٧٤ و ٣٠٥ / (من الأصل الفرنسي) أن المؤلف كان على وشك أن يفقد بصره إبان الرحلة، وقد شكا في غير موضع منها ضعفه، يقول في / ٢٧٤ /: "... أرخيت العنان لبصري، ليجول في قبة السماء الواسعة المتلألئة، التي لم تكن قد انطفأت بعد في نظري كما هي الحال عليه

---

(١) بعنوان: **القيثارة الإلفيتيكية (السويسرية) La Harpe Helvêtique**، ثم نشر في باريس عام ١٨٢٨م أشعاراً أخرى بعنوان: **نغمات إلفيتيكية Mélodies Helvêtique**.

(٢) في مقدمة الترجمة الإنجليزية لرحلته إشارة إلى الصحف الجمهورية التي عمل فيها، وقد أسس في عام ١٨٤٣م **صحيفة L'État**.

اليوم"؛ وهذا يعني أن المؤلف كان في عام ١٨٥٦م قد فقد بصره لأن هذا التاريخ (٢٠ أكتوبر (تشرين الأول) ١٨٥٦ م) هو تاريخ مقدمة الناشر، ويبدو أن ديديه فقد بصره قبل هذا التاريخ، وأملى رحلته إملاءً. ويقول في (ص / ٣٠٥ /): إن فقدان بصره منعه من الذهاب إلى بغداد عبر دمشق وحلب وصحراء الرافدين الواسعة، ليصل بعد ذلك إلى إستانبول، ولم ينجز من ذلك إلا مرحلة صغيرة.

وقد تلقى رسالة من أسرة محمد علي شمس الدين في ١٥ فبراير (شباط) ١٨٥٥ م، وكان قد نزل في بيت أسرة شمس في الطائف، وظلّ على علاقة بهم، وأثبت ترجمة الرسالة (إلى الفرنسية بالطبع) في نهاية الفصل الأول الذي تحدث فيه عن الطائف (ص / ٢٦٥ – ٢٦٦ /). وجاء في ترجمته في معجم لاروس[1] القرن العشرين أنه مات منتحراً في ١٣ مارس (آذار) في باريس عام ١٨٦٤م بعد أن أصيب بالعمى. وله كتب عديدة؛ منها عدد من قصص رحلاته وأشهرها: سنة في إسبانيا (طبع في بر وكسل عام ١٨٣٧ م)، حملة على روما (١٨٤٢ م)، جولة في المغرب (١٨٤٤ م)، ورحلته هذه (١٨٥٧م)، وخمسون يوماً في الصحراء[2] (١٨٥٧م)،

---

(١) Larousse du xxe Siécle, Tome 2, 1929, P. 854

(٢) في **معجم لاروس** ورد العنوان: **خمسون يوماً في الصحراء**، وكذلك في كتاب: **مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر**، د. إلهام محمد علي ذهني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥ م، ص ١١١، وأعلن في أول رحلته التي نترجمها أنه سيصدر للكاتب نفسه قريباً، وفي دار النشر نفسها كتاب بعنوان: **أربعون يوماً في الصحراء** Quarante Jours au Désert، وانظر: كتاب: **مصر في كتابات ...**، موثق أعلاه، ص ١٣٧.

وخمسمائة فرسخ على النيل (١٨٥٧ م)، وليالي القاهرة (١٨٦٠ م) وغير ذلك(١).

وقد راجعنا كتب رحلات ديديه غير المترجمة فوجدناه كما يقول كاريه في كتابه عن الرحالة والكتاب الفرنسيين في مصر: لا يهتم بوصف الآثار والقصور، وإنما يركز على البشر والجوانب الاجتماعية، وخصوصاً في كتابه "خمسمائة فرسخ على النيل"، الذي

---

(١) انظر ترجمة ديديه في:

- Carré, Jean Marie: **Voyageurs et écrivains Français en Egypte**, Le Caire, T. 2, 1960, P. 248.
- **La Rousse du XXe Siécle**, Paris, 1929, Tome2, P. 854.

وكتاب: **مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر**، د. إلهام محمد علي ذهني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥، ص ١١١ – ١١٢. وكتاب: **التراث الشعبي في أدب الرحلات**، د. أحمد عبد الرحيم نصر، الدوحة ١٩٩٥، ص ٦.

وقد ترجمت رحلته إلى الإنجليزية بعنوان:

Sojourn With the Grand Sarif of Makkah, Didier Charles; Translated by Richard Boulindi; with an Introductory Note by Philip Ward. Cambridge: Oleander Press, 1985. X, PP. 157. 23Cm. ISBNO-906672-11-2.

وقدم لها المترجم بحديث عن ديديه: حياته وآثاره. انظر مقالة بعنوان: **أدب الرحلات إلى المملكة العربية السعودية** (القسم الإنجليزي)، **مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية**، مج ٤، ع ٢، رجب – ذو الحجة ١٤١٩هـ / نوفمبر ١٩٩٨م – أبريل ١٩٩٩ م.

وتحدث عنه الأستاذ فائز بن موسى الحربي وترجم بعض المواضع من رحلة ديديه مما له علاقة برجالات الدولة السعودية الأولى والدعوة الوهابية في مقالة بعنوان: مع كتاب: **رحالة غربيون في بلادنا، ديدير رحالة أنصف السعوديين وتجاهلناه، صحيفة الرياض**، ع ١٠٨٤٠، ١ ذو القعدة ١٤١٨هـ / ٢٧ فبراير (شباط) ١٩٩٨م. وذكر د. محمد بن عبدالله آل زلفة في القسم الثاني من مقالاته المعنونة: **الطائف في كتب الرحالة الأوروبيين (٢ / ٦)**، **الجزيرة**، ع ١٠١٥٨، ١٩ ربيع الآخر ١٤٢١هـ / ٢١ يوليو (تموز) ٢٠٠٠م أنه نشر البحث عن ديديه في: **المجلة التاريخية للعهد الحديث والمعاصر**، السنة العاشرة، ع ٢٩ – ٣٠، يوليو (تموز) ١٩٨٣ م، وأعيد نشره في كتابه: **دراسات من تاريخ عسير الحديث**، مطابع الشريف، الرياض، ١٤١٢هـ / ١٩٩١ م.

يتحدث فيه عن مشاهداته على ضفاف النيل، وعن زيارته للخرطوم، وسنار ومقابلته رفاعة الطهطاوي[1]. وله رواية سماها: روما تحت الأرض (١٨٣٣ م) Rome Souterraine، قدم فيها صورة حية وطريفة عن الحياة الاجتماعية والسياسية في إيطاليا، وعن الحركة الثورية، وهي في مجلدين صدرت لها طبعة معدلة عام ١٨٤١ و ١٨٤٨ م.

لقد التقى ديديه خلال رحلته من القاهرة إلى السويس بالرحالة الإنجليزي المشهور ريتشارد بيرتون (١٨٢١ – ١٨٩٠ م) Richard Burton الذي كتب رحلته بعنوان: قصة رحلة شخصية للحج إلى مكة والمدينة، وترجم ألف ليلة وليلة وغيرها إلى اللغة الإنجليزية[2]، ولما طبعت رحلة بيرتون لم يشر هذا الأخير إلى ديديه إلا في حاشية علمنا منها اسم الإنجليزي الذي كان يرافق ديديه، الذي لم يذكر اسمه أبداً،

---

(١) انظر كتاب: **مصر في كتابات ...**، موثق سابقاً، ص ١١٢. وذكرت في ص ١٣٧ من هذا الكتاب أسماء كتب ديديه بالفرنسية ونذكرها هنا مقرونة بسنة الطبع:

1. **Quarante Jours au Désert** (1857)
2. **Cinq Cent Lieues sur le Nil** (1858)
3. **Les Nuits du Caire** (1860)
4. **Campagne de Rom** (1842)

وله كتب أخرى عن صقلية خصوصاً وإيطاليا عموماً تراجع في مقدمة الترجمة الإنجليزية لرحلته.

(٢) انظر: **رحلة ديديه**، ص / ١٣ /، ويشير ديديه في حاشية إلى أن المجلة البريطانية نشرت قطعـاً من **رحلة بيرتون**، ويدلي بشهادته حول مطابقة ما في الرحلة للواقع. وقد حمل ديديه رسالة من بيرتون إلى القنصل البريطاني في جدة السيد كول M. Cole، انظر النص الأصلي **لرحلة ديديه** (ص / ١٤٤ /).

ولكنه تحدث عنه فقال[1]: "...يتحدث العربية، ويكتبها عند الحاجة، وكان يتجول منذ عدة سنين في الشرق ..." ثم أعاد الحديث عنه باستفاضة في الفصل الذي خصصه للطائف، لأنه كان منزعجاً من تصرفاته واستعلائه[2].

٤ - أهمية الرحلة ومصادرها :

وصف ديديه في كتابه مسار الرحلة من القاهرة إلى السويس، وجبل سيناء، ودير سانت كاترين، ومدينة الطور، ثم تحدث عن البحر الأحمر، وينبع، وجدة، والطائف التي قابل فيها شريف مكة المكرمة عبد المطلب بن غالب، ثم وصف طريق جدة – الطائف، والطائف – جدة، لأنه عاد من طريق أخرى تختلف عن طريق الذهاب، وتحدث عن مغادرته جدة إلى سواكن عبر البحر الأحمر، وتضمنت الرحلة فصلاً عن الأشراف والوهابيين تحدث فيه عن الأشراف وتاريخهم وعلاقاتهم بالدعوة الوهابية، وأنحى باللائمة على الشريف غالب، الذي أسهم في رأيه بانتصار محمد علي باشا على الدولة السعودية الأولى التي كانت، كما يقول ديديه، وحدها قادرة على

---

(١) وعلمنا من حاشية بيرتون في كتابه: **قصة رحلة شخصية للحج إلى مكة والمدينة،** (النص الإنجليزي)، مج ١، ص ٧٨ – ١٧٩، ط ١٩٦٤، الحاشية (٤) أن اسم الإنجليزي مرافق ديديه هو القس هاملتون Abbé Hamilton، وأنهما دفعا ١٠٠٠ قرش ما يعادل (١٠ جنيهات استرلينية) أجرة السنبوك من السويس إلى جدة، ويقول بيرتون: إنهما من علية القوم وإنه رافقهما من القاهرة إلى السويس، انظر **رحلة ديديه**، ص/ ٣٢ – ٣٣ /.

(٢) انظر النص الأصلي **لرحلة ديديه** ص / ٢٦٢ – ٢٦٣ /.

الوقوف في وجه السيطرة التركية. وتتضمن الرحلة فصلاً آخر، سماه "لوحة نابضة بالحياة" تحدث فيه عن الأشخاص الذين قابلهم في جدة، خصوصاً مثل الوالي العثماني، وخالد بن سعود، وغيرهم من العسكر والتجار. ونجده في فصل آخر سماه "بعض التأملات" يتحدث عن رحلته، وصدقه في حكاية الأحداث، وعرض لبعض المقارنات بين العرب والأتراك، وقال: إن الأمة العربية يحق لها الطموح إلى التخلص من الأتراك، كما هو شأن كل الشعوب التي تخضع لسلطتهم. يحتوي الكتاب على ذكريات ديديه الشخصية، وملاحظاته التي كان يدونها يومياً في أثناء الرحلة بكل أمانة وإخلاص، وعلى الرغم من أهمية الرحلة في معرفة أحوال الحجاز في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فإننا لا نجد له ذكراً في الكتب التي تحدثت عن الرحالة في الجزيرة العربية وخصوصاً كتاب مواطنته[1] جاكلين بيرين: اكتشاف الجزيرة العربية La Dcouverte de L Arabie (١٩٥٩ م). وقد رأينا أن بيرتون لم يشر إليه إلا في حاشية صغيرة. وقد وجدت ناصر الدين دينيه في كتابه: الحج إلى بيت الله الحرام، يذكر ديديه في الفصل الذي خصصه للحديث عن الوهابيين، الذي وضع له عنواناً كلمة الملك عبد العزيز آل سعود، يرحمه الله، "لسنا أصحاب مذهب

---

(١) انظر: **مقدمة الترجمة الإنجليزية لرحلة ديديه**، موثق سابقاً، ص ٨. ولم يشر إليه هوغارث Hoggarth (١٩٠٤ م)، ولا بدول Bidwell (١٩٧٦ م)، وخصص له بيلي وندر R. Bayly Winder في كتابه: **Saudi Arabia in the Nineteenth Century** (١٩٧٧م) **المملكة العربية السعودية في القرن التاسع عشر**، فقرة قصيرة. وأشار إليه توماس ل. ولي Thomas L. Wolley في تمهيده للطبعة الأولى من **رحلة بيرتون**.

جديد"[١]. وقد أشار إلى ديديه جورج رينتز George Snavely Rentz في مصادر رسالته المعنونة: محمد بن عبد الوهاب وبداية امبراطورية الموحدين في شبه الجزيرة العربية[٢].

ويبدو أن نوال سراج ششة هي أول من أشار بالعربية إلى رحلة ديديه ووصوله إلى جدة في عام ١٨٥٤ م، وذلك في كتابها: جدة في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي[٣]، ثم أشار إليه وترجم مقاطع من رحلته (عن الإنجليزية) الدكتور أحمد عبد الرحيم نصر في كتابه: التراث الشعبي في أدب الرحلات[٤]، وأشارت إليه، وترجمت له وتحدثت عن بعض أحداث حياته، وعن كتبه التي لها علاقة بمصر الدكتورة إلهام محمد علي ذهني في كتابها: مصر في كتابات الفرنسيين في القرن التاسع عشر[٥].

---

(١) انظر: **الحج إلى بيت الله الحرام**، ناصر الدين دينيه والحاج إبراهيم باعامر، (النص الفرنسي)، دار نشر هاشيت، باريس ١٩٣٠، ص ١٩٩. وكلمة الملك عبد العزيز آل سعود المقتبسة من خطبته التي ألقاها عام ١٩٢٩ م، خلال العشاء الذي أقامه على شرف وجهاء الحجاج في ذلك العام، انظر مقالنا: **ناصر الدين دينيه** وكتابه: **الحج إلى بيت الله الحرام**، الذي سيصدر في مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية.

(٢) انظر القسم المنشور من هذه الرسالة في كتاب: **الحركة الوهابية في عيون الرحالة الأجانب**، ترجمة وتعليق أ. د. عبد الله بن ناصر الوليعي، الرياض، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧ م، ص ١٧٢.

(٣) كتابها المنشور في مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، العزيزية ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦ م، ص ١٣٩، وقد سمته (شارلز ديدير) وهو خطأ والصواب: شارل ديديه كما أثبتنا.

(٤) المطبوع في الدوحة، مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، ١٩٩٥م، ص ٦٣ – ٦٩ وسماه: (تشالز ديديه) وهذا خطأ أيضاً.

(٥) المطبوع في الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥ م، ص ١١١ – ١١٢، وانظر: ص ١٣٧ وقد سمته (شارل ديديه) والصواب (ديديه).

إن أهمية هذه الرحلة تكمن في أنها تقدم صورة واضحة عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي فترة تقل مصادرها، ونحتاج إلى مثل هذه النصوص، لزيادة معرفتنا بها . وللرحلة أهمية لا تنكر في مجال المعلومات الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية عن الأماكن التي مَرّ بها ديدييه انطلاقاً من السويس حتى الطور، وجبل سيناء، والبحر الأحمر، وينبع، وجدة، والطائف؛ إذ نجده يصف الأماكن والأسواق والمياه والأشجار، ويركز على البشر بطباعهم ولباسهم ومساكنهم، وسيجد علماء الانثروبولوجيا (الإناسة)، وعلماء الاجتماع، والجغرافيون فائدة جُلى في رحلة ديدييه.

لقد التقى ديدييه بأشخاص من الطراز الأول إبان رحلته مثل: خالد بن سعود، وعبد المطلب بن غالب شريف مكة المكرمة، وغيرهما من الأشراف، وبالقنصل الفرنسي في جدة روشيه ديريكور Rochet D'Hericourt، والقنصل البريطاني فيها السيد كول M. Cole، والوالي العثماني أحمد عزت باشا، وكرد عثمان باشا، أحد القادة العسكريين الأتراك. وغيرهم من التجار من ذوي الأصول الهندية والأوروبية، ويجد القارئ في الرحلة تحليلاً سلوكياً رائعاً لكل تلك الشخصيات المختلفة في أخلاقها وطبائعها والحضارات التي تنتمي إليها . إن المعلومات التي يقدمها ديدييه، بأسلوب رائع، ومقدرة على الوصف هائلة، تذكرنا بالكاتب الفرنسي الكبير إميل زولا، الذي كان يبلغ من العمر (١٤) عاماً عندما قام ديدييه برحلته، وكان عمره (١٧) عاماً عندما نشرت رحلة ديدييه، فهل قرأ زولا ما كتب ديدييه؟ وقد ضمن ديدييه رحلته كثيراً من معالم

ثقافته، وهو الشاعر الذي بدأ نشر قصائده في سن مبكرة. لقد قرأ ديديه كما يبدو من رحلته الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، وقرأ روايات الأدباء اللاتينيين واليونان، وأشعار شعراء الأمتين، واطلع على الفنون التشكيلية لهما، وأتقن الأدب الفرنسي، وقرأ كُتب المفكرين والفلاسفة في عصره، كل ذلك يجده القارئ في هذه الرحلة.

أما بخصوص العرب، فهو بلا شك قرأ ألف ليلة وليلة[١] مترجمة، واطلع على كتب الرحلات، خصوصاً رحلات بوركهارت، الذي يستشهد به ديديه في مكان واحد من رحلته[٢]، ولكنه اعتمد عليه كلية في الفصل الذي كتبه عن "الأشراف والوهابيين". وقد وضحنا كل ذلك في حواشي الترجمة. لقد كان ديديه مطلعاً على رحلة تاميزييه[٣]، وعلى رحلة روشيه ديريكور، الذي توفي في جدة يوم ٩ آذار

(١) أشار إليها ديديه في مواضع من رحلته ص/ ٢٤ / وص / ١٥٠ / وص / ٢٣٨ / وص / ٢٩٤ / ويدل أحد هذه الأماكن على الأقل على أنه قرأها ويتذكر تفاصيل حكاياتها.

(٢) انظر النص الأصلي **لرحلة ديديه** ص / ١١٨ /؛ إذ ينقل عن بوركهارت: أن نوعاً من النسور الجريئة التي تختطف الطعام من صحون الحجاج، تعيش في جبال الحجاز الممتدة بين المدينة المنورة ومكة المكرمة. انظر: **رحلات في شبه الجزيرة العربية**، جون لويس بوركهارت، ترجمة د. عبد العزيز الهلابي و د. عبد الرحمن الشيخ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢ م، ص ٣٧٢.

(٣) استنتجنا ذلك بالاعتماد على معلومات أوردها ديديه ووجدناها عند تاميزييه في كتابه: **رحلة في بلاد العرب**، انظر نص ديديه بالفرنسية، ص / ٢٢٠ / وتعليقنا عليه. ويبدو أن ديديه قد اطلع على أخبار الرحلات الفاشلة التي جرت لسبر القارة الإفريقية، انظر: ص / ٣٦ / من الأصل الفرنسي.

(مارس) ١٨٥٤م وشارك ديديه في دفنه. وتظهر الفقرات التي تحدث فيها عن الأمة العربية أنه مطلع على تاريخ الحضارة العربية وإنجازاتها الأدبية والعلمية فهو يقول: "إنها أمة عالمة ومثقفة، نبغت في العلوم قدر ما نبغت في الفن والحروب. لقد كانت خلال أمد طويل، أمة مبتكرة حيثما قادها حماسها الديني، لقد كان لها مدارس تزدهر فيها دراسة الطب والعمارة والرياضيات والفلك. وفي هذه المدارس تعلم الغرب، وأبدعت روائع أدبية مازالت حتى اليوم متعة العقول المثقفة كلها"(١).

تنوعت مصادر ديديه التي استخدمها أحسن استخدام، فأغنت ملاحظاته الشخصية، ومدوّناته اليومية، وكان مآل ذلك كله هذه الرحلة الممتعة.

٥ - ملابسات الرحلة (٢):

يكرر ديديه في غير موضع من رحلته، أنه ليس في مهمة رسمية، وأن رحلته ليس لها أي هدف سياسي، وأن المصادفة وحدها هي التي قادته إلى الجزيرة العربية، وأنه، نفسه، اعترته الدهشة من الاستقبال الحافل الذي لقيه من الشريف الأكبر، يقول على سبيل المثال: "... إن وجود بريطاني وفرنسي يجوبان الحجاز في هذه الفترة السياسية السائدة فيه، مدعاة للشك، مما يجعل الناس يظنون أن حكومة كُلٍّ منهما أرسلت مواطنها لدراسة الأوضاع في الحجاز، واستطلاع مدى ارتباطه بالباب العالي،

---

(١) انظر: النص الأصلي لرحلة ديديه ص / ٣٠٠ /.

(٢) نشكر للأستاذ الدكتور أحمد خالد البدلي ملاحظاته التي دعتنا إلى إعادة النظر فيما كنا قد كتبناه عن الرحلة في مقالنا في مجلة "الدرعية".

وموقفه منه. وعلى الرغم من أن ذلك غير صحيح، ولكنه غير مستبعد، ولا مبالغ فيه، وإن شك الشريف الأكبر في ذلك، جعله يعاملنا تلك المعاملة اللائقة ..."[1].

يمكن أن يُصَدّق المرء للوهلة الأولى ما يدعيه ديديه، ولكن حياة الرجل، واطلاعه على الأحداث الدولية، واهتماماته السياسية، وارتباطه القوي بهويته المسيحية، وكرهه الشديد للإمبراطورية العثمانية، ولكل من يرتبط بها (محمد علي وأتباعه)، وانعكاس ذلك الكره الذي ينقلب في بعض الأحيان إلى عنصرية، كل ذلك يجعلنا نتساءل، عمّا سميناه ملابسات الرحلة.

لقد سبق لديديه أن تولى مهمات سياسية لصالح بلده كما رأينا في أطوار حياته، وليس بالغريب أن تُسْند إليه مهمات أخرى!

إن تدخل القنصل البريطاني السيد كول، ومرافقة المترجم في القنصلية الفرنسية وموثق العقود فيها السيد دوكيه M. Dequié لديديه ورفيقه البريطاني، والاستقبال الحافل الذي لقياه في الطائف، والحراسة التي أرسلها الشريف، كل ذلك يدفعنا إلى طرح سؤال ربما يجد إجابة في أبحاث لاحقة ليس مكانها هنا. يتحدث ديديه عن أحداث هامة على المستوى الفرنسي المحلي (انقلاب الثاني من ديسمبر ١٨٥١ م)، وعن موقف فرنسا من الإمبراطورية العثمانية الذي يصفه بأنه (كوميديا)[2] ، ثم يتحدث عن حرب (القرم) بين تركية وروسيا التي جرت بين عامي (١٨٥٣م — ١٨٥٦م)،

---

(١) الأصل الفرنسي ص / ٢٩٥ /.

(٢) انظر ما ذكرناه في الحاشية (رقم ١ ، ص ١٦) من هذه المقدمة.

ووقوف بريطانيا وفرنسا إلى جانب تركية لا حباً بها، وإنما للوقوف في وجه روسيا. ويُخيّل إليه من خلال حديثه مع الشريف عبد المطلب؛ أن هذا الأخير يميل إلى دعم روسيا[1] لا حباً بها أيضاً، وإنما لأنه في رأي ديدييه لا يمكن لعربي أن يتمنى انتصار تركية التي تستعمر الأمة العربية، وتعامل العرب أسوأ معاملة: إن هذه الإشارات التي تصدر عن ديدييه تجعل السؤال التالي مشروعاً: هل كان ديدييه في عام (١٨٥٤ م) مع القس هاملتون Abbé Hamilton رفيقه في الرحلة في مهمة لاستطلاع آراء الشريف والشخصيات الأخرى في الحجاز في الدولة العثمانية، ومدى ارتباط الشعب بتلك الدولة التي كانت على وشك السقوط أمام الزحف الروسي؟ فقد أكدت الأحداث اللاحقة أن فرنسا وبريطانيا تدخلتا لصالح تركية طمعاً في اقتسام تركتها بعد ذلك، وإبعاد روسيا عن مناطق نفوذهما، ودفعتا روسيا قسراً إلى توقيع معاهدة باريس (١٨٥٦م)، ناهيك عن أن سياسة نابليون الثالث (الإمبراطورية الثانية) كانت تقوم على إيجاد ضغوط خارجية للاستمرار في الحكم، وكان ديدييه كما يقول هو نفسه شاهد عيان على انقلاب (٢ ديسمبر ١٨٥١ م) في فرنسا. فهل كان ديدييه مبعوث نابليون الثالث لاستكشاف منطقة الحجاز؟ والإجابة تحتاج إلى مكان أوسع، ودراسة نترك للمختصين القيام بها، ونكتفي بطرح القضية هنا، ونختم بالإشارة إلى ما

---

(١) يقول الدكتور آل زلفة في مقالته الرابعة من المقالات المذكورة في الحاشية (١، ص٣١) من هذه المقدمة: "أما موقف الشريف عبدالمطلب من الحرب الروسية التركية فربما يلمح المؤلف من خلاله، تأييده لروسيا. هذا رأي المؤلف، وربما كان للشريف رأي آخر".

ذكره الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل في تعليقه على رحلة بلجريف[1]"... ولما كان نابليون الثالث إمبراطور فرنسا مهتماً بكشف خبر جزيرة العرب، وبحاجة إلى شراء خيول من أصول عربية لجنوده، عثر هذا على بلجريف الذي كان يرغب في القيام برحلة إلى بلاد العرب ليكشف عن حقيقة الوضع فيها ... وقد قيل: إن بلجريف كان يمثل نابليون الثالث الذي كان مهتماً اهتماماً خاصاً بمصر والشام، وربما كان قد وجه اهتمامه إلى نجد لعلاقتها بموضوع قناة السويس الذي كان قد تم اقتراحه آنذاك بالفعل".

وإذا علمنا أن بلجريف جاء إلى الرياض حسب ما يدعي في عام ١٨٦٣م / ١٢٨٠ هـ) أي بعد تسع سنوات من رحلة ديديه الذي لم يذهب إلى نجد، فهل كانت رحلة بلجريف، إنْ صحت، امتداداً لاهتمام نابليون الثالث بأوضاع الجزيرة العربية والقوى السياسية فيها ؟

---

(١) **مسائل في تاريخ الجزيرة العربية**، ألفها وحققها أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري، منشورات مؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، الرياض، ط ١، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م، ص ٢٠٦، ٢٠٨؛ وانظر: **دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر**، د. عبد الفتاح حسن أبو علية، دار المريخ، الرياض، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص ١٢٥ – ١٤٤. ونضيف إلى ما ذكره الشيخ أبو عقيل من أدلة على كذب بلجريف وعدم إنصافه، ما أورده ناصر الدين دينيه في كتابه: **الحج إلى بيت الله الحرام**، إذ يقول: "... ولكننا لا نولي ما يورده هذا الرحالة ثقة كبيرة؛ لأنه يكره الإسلام كرهاً مسعوراً ..." انظر مقالنا: **ناصر الدين دينيه وكتابه الحج إلى بيت الله الحرام**، موثق سابقاً.

٦ – عملي في الترجمة [١] :

إذا كانت الترجمة هي نقل المعلومات من نظام لغوي إلى نظام لغوي آخر، فهي تَمَثُّل لثقافة النص المترجم وثقافة النص المترجم إليه أيضاً، ناهيك عن عمليات أخرى معقدة تترافق مع الانتقال من نظام لغوي إلى نظام لغوي آخر، لأن اللغة في واقع الأمر هي كالموقع الأثري تجد فيها عند التنقيب أخبار مستخدميها، وتاريخهم، ومعتقداتهم، وعاداتهم، وتقاليدهم مما ينبغي الانتباه إليه إذا أردنا ترجمة نصوص تنتمي إليها.

كان كل ذلك يجول في خاطري وأنا أقرأ نص ديديه، وحاولت في أثناء الترجمة أن أنقّب في نصه عما يريد قوله، وكنت أنقب في العربية أيضاً لأجد مقابلات نص ديديه، لكي لا يكون الفتى العربي في الترجمة غريب الوجه واليد واللسان.

(١) نشر الأستاذ الدكتور محمد بن عبد الله آل زلفة، مجموعة من المقالات بعنوان: الطائف في كتب الرحالة الأوروبيين، **شارلز ديديه Charles Didier** نموذجاً (**شارل ديدييه**)، في صحيفة "**الجزيرة**"، تحدث فيها عن الرحالة الأوروبيين الذين زاروا الطائف، وتوقف عند ديدييه في المقالة الثانية، ع ١٠١٥٨، ١٩ ربيع الآخر ١٤٢١هـ / ٢١ يوليو (تموز) ٢٠٠٠ م، ص ٧، وبدأ في المقالة الثالثة المنشورة في العدد ١٠١٦٢، ٢٣ ربيع الآخر ١٤٢١هـ / ٢٥ يوليو (تموز) ٢٠٠٠ م، ص ١٢، والمقالة الرابعة المنشورة في العدد ١٠١٦٥، ٢٦ ربيع الآخر ١٤٢١هـ/ ٢٨ يوليو (تموز) ٢٠٠٠م، ص ٦، والخامسة في العدد ١٠١٧٢، ٤ جمادى الأولى ١٤٢١هـ / ٤ أغسطس (آب) ٢٠٠٠م، ص ٦، والسادسة في العدد ١٠١٧٩، ١١ جمادى الأولى ١٤٢١هـ / ١١ أغسطس (آب) ٢٠٠٠ م، ص ٨، بنشر الفصل الذي خصصه ديدييه للحديث عن الطائف. ويبدو أنه يترجم عن الإنجليزية، وقد استفدنا من ترجمته وتعليقاته.

لم أكتف بالترجمة، وإنما علّقت عليها بما يزيدها وضوحاً؛ فعرّفت بأشخاص الرحلة، وما غمض من أمكنتها وحوادثها، ووثقت النصوص قدر الطاقة من كتب الرحالة الآخرين، وأحلت إلى القرآن الكريم في الموضوعات الدينية لتتضح الحقيقة في كتاب الله. ورأيت من المناسب أن أثبت في متن النص العربي صفحات الأصل الفرنسي للرحلة فوضعتها بين / / لتسهل المقابلة بالأصل، وليسهل اختبار دقة الترجمة على من أراد.

كتبت الأسماء الأجنبية بالعربية، وبلغتها الأصلية عند أول ورود لها، وتحققت من أسماء الأماكن بالاعتماد على المعاجم الجغرافية، وقد لقيت من ذلك عنتاً سببه أن ديديه لم يكن يحسن العربية، وكان يكتب الأسماء كما يسمعها من أصحابها الذين كانوا لا يراعون في الغالب النطق الفصيح فالسكارى يكتبها Al-Sakara والمهر يكتبها Al-Mahr. أما الحروف الحلقية فيتخبط في كتابتها تخبطاً كبيراً. وقد أشار هو نفسه إلى صعوبة كتابتها(١)، ناهيك عن الأخطاء المطبعية عندما يتحول: صبح، إلى Loubh، ولقيم، إلى Goum، والعباسي إلى العباري Al-Abbari. وقد أثبتُّ في الحواشي الأسماء كما كتبها ديديه لأن بعضها استعصى عليَّ بسبب تغير أسماء المواضع أو بسبب خطأ الكتابة(٢). لقد اجتهدت في قراءة مااستعصى علي ثم تركته في الأصل مكتوباً كما ورد.

---

(١) انظر: ص / ١٠٤ / من النص الأصلي حيث يقول: "... ليس من السهل نقل الحروف الحلقية في العربية إلى الحروف الفرنسية، وخصوصاً إذا كنا لم نرها مكتوبة أبداً".

(٢) الصلاة على النبي، والترضي على الصحابة، ووصف مكة بالمكرمة والمدينة بالمنورة لا وجود له في النص الأصلي، لذا أضفنا ذلك. وما هو بين قوسين ( ) زيادة من المترجم للإيضاح.

وحرصت على أن يكون للرحلة فهرس يتضمن أسماء الأعلام والأماكن المذكورة في الرحلة لكي تزيد الفائدة منها بإذن الله.

إن هذه الرحلة إسهام في تاريخ الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكل ما نأمله أن يجد القارئ فيها المتعة والفائدة، وأن نكون قد أفلحنا في تقديم نص يدفع بالمعرفة خطوة إلى الأمام؛ وإلاّ فإن "مبلغ نفسٍ عذرها مثل منجح"، والله من وراء القصد.

د. محمد خير البقاعي

الرياض ٢٧ / ٤ / ١٤٢١ هـ

٢٩ / ٧ / ٢٠٠٠ م

نَصُّ الرِّحْلَة

المقدمة

لقد ذهب مؤلف الرحلة إلى الشرق بحثاً عن الطمأنينة والنسيان، بعد أن كره باريس، وفرنسا، وأوروبا كلها، بسبب ظروف خاصة وعامة لا جدوى من ذكرها، وليس بالإمكان التعرض لها في هذا المكان. وبعد أن أمضى في القاهرة شتاء لا يدانيه شيء في الروعة، وظلت ذكراه متمكنة في نفسه، كان يستعد للعودة إلى أوروبا. وكان قد مَهَر جواز سفره بتأشيرة إلى أثينا، عندما عرض عليه أحد البريطانيين الذين ربطته به علاقات اجتماعية محدودة، أن يقوما برحلة يقتسمان تكاليفها إلى جبل سيناء، مع إمكانية متابعة الرحلة من هناك إلى مدينة جدة في الجزيرة العربية؛ بهدف زيارة الشريف الأكبر - شريف مكة المكرمة الذي كان حينئذٍ يقيم في الطائف.

لقد طلب المؤلف مهلة أربع وعشرين ساعة للتفكير، ولكن ميوله إلى الترحال / VI / دفعته إلى اتخاذ قرار عاجل: فلم تمضِ ساعة حتى كان موافقاً على ما عرضه البريطانيّ عليه. وعمدا في الحال إلى إعداد لوازم الرحلة، وحُدد موعد الانطلاق بعد يومين، ١٦ يناير (كانون الثاني)١٨٥٤م؛ وبذلك وجد المؤلف نفسه منطلقاً إلى الجزيرة العربية، بدلاً من الذهاب إلى اليونان.

وهو ينشر هنا قصة تلك الرحلة أملاً في أن تجد بعض الاهتمام، إذا كان هناك عدا المال شيء يهتم به الناس اليوم.

لا يدعي المؤلف أنه يقدم لوحة تاريخية، ولا لوحة صغيرة، وإنما يقدم مجرد رسم بسيط لأحداث الرحلة، ويعلن بصراحة، مخلصاً بذلك لما اعتاده فيما سبق، أنه لم يسمح لنفسه، وهو يرسم الأشخاص والأشياء، باستخدام أي تجميل، ولا تعديل، إن لم يكن متوافقاً مع الواقع. لقد استطاع بذلك أن يبتعد عن كل ما يغري الجهلة أو المنحرفين، وعزاؤه في ذلك، أنه يعتقد اعتقاداً راسخاً أن الرحلة المتخيلة أسوأ الروايات كلها.

ومهما يكن من أمر، فإنه يستطيع القول مع مونتيني[1] Montaigne: إن هذا كتاب صادق، وإنه، بحالته الراهنة، كتابه. لم يُؤلفه مستعيناً بكتب أخرى، ولا بحسب انطباعات الآخرين، ولكنه يحتوي على ذكريات شخصية، وعلى ملاحظات سُجّلت يوماً / VII / بيوم في أماكن حدوثها.

ولكي يطمئن القارئ (نقول): إن الهدف من نشر هذه الرحلة يتحقق إذا استطاعت الأحداث التي تتضمنها أن تجعل بعض الأذكياء يطلعون على المهزلة التي تقوم بها أوروبا لصالح تركية.

باريس، في ٢٠ أكتوبر (تشرين الأول) ١٨٥٦ م

(١) Michel Eyquem de Montaigne = ميشيل إيكيم دو مونتيني (١٥٣٣ – ١٥٩٢ م): أديب ومربٍّ فرنسي. اشتهر كتابه "مقالات Essais".

الفصل الأول

صحراء السويس

يفصل القاهرة عن السويس صحراء مساحتها ١٠٠ ميل. كان الناس في الماضي يخشونها؛ إما بسبب انعدام الماء فيها بتاتاً، وإما بسبب البدو الذين كانوا ينهبون القوافل فيها . ولكن مظاهر الحضارة دخلت الصحراء، فلم يعد من المناسب معه إطلاق اسم الصحراء عليها؛ فقد قامت حكومة محمد علي الحازمة بتطهيرها من اللصوص الذين كانوا ينتشرون فيها، وانتشر الأمن فيها انتشاره في طريق باريس في فرساي، بل ربما أصبحت أكثر أمناً منها . ثم إن إدارة العبور (الترانزيت) المكلفة نقلَ الأمتعة والركاب إلى الهند عبر مصر أنشأت لهذا الغرض طريقاً / ٢ / وسيّرت عليه عربات، وأقامت محطات (مراكز) بريدية بلغ عددها خمسة عشر مركزاً، زودتها بماء النيل الذي يباع بأسعار مرتفعة، وأهم تلك المراكز: هي الرابع، والثامن، والثاني عشر، والثاني على وجه الخصوص. وتُعَدّ تلك المراكز مجموعة من النزل، نعم، أيها القارئ، إنها نزل في قلب الصحراء، وسيكون التحوّل في هذه المنطقة جذرياً عند الانتهاء من أعمال سكة الحديد التي يجري العمل فيها لإتمام السكة المقامة بين الإسكندرية والقاهرة، والتي تسير القُطُر عليها منذ زمن. وسترتبط السكة الجديدة البحر الأحمر بالبحر المتوسط بانتظار أن يأخذ شق القناة في المستقبل بيد مصر القديمة إلى مصير جديد .

أمّا عربات النقل فهي علب بشعة، مطلية باللون الأبيض، لتعكس أشعة الشمس ويتقاضى أصحابها ٩ جنيهات وسطياً من كل راكب، وتحمل كل عربة ستة ركاب في مكان لا يكاد يتسع لأربعة، يقود العربة أحصنة يُرْخى لها العنان فتقطع مسافة ١٠٠ ميل في تسع ساعات، ولا يحتاج البريد المحمول على الحصان لقطع تلك المسافة ست ساعات، ويمكن أن تتقلص إلى خمس. وسيكون الفارق الزمني بينها وبين القطار ضئيلاً كما هو واضح. تلك هي أحوال الذين هم في عجلة من أمرهم.

لم أكن في عجلة من أمري، ولم يكن هدفي من الرحلة قطع أطول مسافة في أقصر زمن ممكن، لذلك لم ألجأ إلى أيّ من وسيلتي النقل اللتين ذكرتهما، بل عمدت إلى وسيلة أكثر بطئاً، ولكنها أكثر إثارة وتثقيفاً، لقد رافقت السكان الأصليين، نصبت خيمتي على الطريق، وقضيت فيها ثلاث ليالٍ / ٣ /، واستغرقت الرحلة مني زمناً يزيد على وقت العربات بثماني مرات. غادرت القاهرة ثالث اثنين على ظهر واحد من تلك الحمير الجميلة التي تكثر في مصر، والتي ليس لها ما تشترك به مع الحمير الأوروبية إلا الاسم؛ هذا الحيوان المعذب الذي يحتقره الفلاحون بغير حق، ويعاملونه معاملة قاسية. إن المسلمين أكثر رفقاً بالحيوان من النصارى. إن لون الحمار المصري أسمر داكن، وهو رشيق، حسن الهيئة، ممراح، قدماه دقيقتان، وأذناه مستقيمتان مدببتان، ذلك مظهره، أما مَخْبَره فهو حيوان لا يقف شيء في وجه شجاعته، ولا ينال التعب من همته، أمّا قناعته بالمأكل والمشرب فهي مضرب المثل؛ فهو يكتفي بقبضة من الفول في اليوم، ويمكن أن يسير ثلاثة أيام دون أن يشرب في جو ترتفع فيه درجة الحرارة ما

بين ٣٥ و ٤٠ درجة، ولا يمكن لأي حصان أن يقارعه، وهو ينافس في ذلك الجمل نفسه. وإن لهذه الحمير القوية قيمة مادية كبيرة، وإن أحد الأطباء من أصدقائي تلقى هدية من أحد نواب الملك (في مصر) حماراً أبيض اللون قُدّر ثمنه من ١٢٠٠ إلى ١٥٠٠ فرنك.

تجتمع آلاف من هذا الحيوان الأثير في الساحات والشوارع، كما تجتمع الفياكر في مدن أوروبا، والأحصنة في إستانبول: يستخدمه كل الناس دون حرج، وليس لسيدات المجتمع من ذوات الخدم والحشم من ركوب سواه. ومع أن برادع تلك الحمير قاسية، وتشبه كل الشبه / ٤ / البَرْدعة المستخدمة في أوروبا، إلا أن لها سمات خاصة بها، ولا نشعر بالضيق ونحن نجلس فوقها. وتنتشر التزيينات الأنيقة فوق السجاد ذي الطرر الذهبية، التي يكون لها وقع في النفوس عجيب. وأضيف في هذا السياق أن مُكاري القاهرة هم أطفال حيويون وأذكياء، ولكنهم يصبحون في سنوات قليلة بلهاء: إذ إن ضرباً من الطيش المبكر هو الذي يجعلهم يتحولون هذا التحول المؤسف.

كانت قافلتنا الصغيرة تتألف من أربعة من الأعيار، ومن عشرة جمال لازمة لنقل خدمنا وعددهم خمسة، وكانت أمتعتنا ذات حجم مقبول؛ لأننا مقدمون على رحلة طويلة، وينبغي أن نحمل معنا كل لوازمها من خيام وأسرة، وسجاد، ومؤن من كل الأنواع، والنبيذ حتى الماء، كان ينبغي أن نحمل كل شيء حتى آنية الطعام وأدواتها ولوازم الطبخ.

كان قصر العباسية، آخر مكان مسكون تراه بعد مغادرة القاهرة، والعباسية قصر فخم، رهيب، بناه الخديوي عباس باشا[1] على حدود الصحراء ليكون سكناً له. إن هذا القصر بالنسبة إلى عباس باشا هو كجزيرة كابري[2] Caprée بالنسبة إلى تيبيريوس[3] Tibère، وعباس ليس إلا نسخة مصغرة عن تيبيريوس وهو نصف نمر ونصف ضبع، لا يجد من وحشيته إلا الخوف.

---

(١) عباس باشا بن طوسون باشا بن محمد علي باشا (١٨٤٩ – ١٨٥٤)م تولى حكم مصر في عام ١٨٤٨ بعد وفاة والده طوسون في ١٠ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٤٨ م. وتوفي في يوليو (تموز) ١٨٥٤ م، وقد كثرت الروايات عن وفاته، وقد نال نصيباً وافراً من انتقادات الرحالة، ويبدو أنه كان يكره القناصل الأجانب ويؤثر عنه قوله: "إذا كان يتحتم علي الخضوع لأحد ما، فإنني أفضل الخضوع للخليفة، لا للمسيحيين الذين أكرههم". وقد حاول إخراج مصر من دائرة النفوذ الفرنسي، فصبّ عليه الرحالة والسياسيون الفرنسيون جام غضبهم. اقتنى عباس باشا الحيوانات، وخصوصاً الجمال القوية التي حصل عليها من الحجاز، ولم يكن يأذن لأحد بزيارة حظائره لأنه كان يخشى شر العين الحسود على الجياد ولذلك أصدر أوامره بإلقاء القبض على كل من يقترب من الاصطبلات والحظائر، وكذلك من أبراج الحمام، لأنها كانت تحوي أجمل وأندر الأنواع. لقد أقام عباس في المناطق البعيدة النائية حيث الهواء النقي، فبنى القصور في العباسية، وعند جبل المقطم، فكان محل إقامته أشبه بالقلعة، يعسكر فيها مع موظفيه بعيداً عن دسائس القناصل. انظر بخصوص فترة عباس باشا كتاب: **مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر**، د. إلهام محمد علي الذهبي، سلسلة مصر النهضة رقم (٥١)، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥، ص ١٥٧ – ١٦٢. وسنشير إليه من الآن فصاعداً بـ "**مصر في كتابات ...**"

(٢) caprée جزيرة إيطالية كانت مستوطنة يونانية ثم أصبحت أيام الرومان مُتَنَزَّهاً، وسكنها الإمبراطور أغسطس، أما الإمبراطور تيبيريوس فبنى هناك عدة مبان أو مساكن.

(٣) Tibre أو Tiberius (٤٢ ق.م – ٣٧ م): إمبراطور روماني حكم بين (١٤ – ٣٧ م) سلك في الحكم سبيل التعقل في البداية، ثم أطلق العنان لنزواته وشهواته.

كان هـذا الجُحْـر الغـامض والمـنيع، في أثـناء حيـاة الخديـوي عـباس، مسـرحاً لمفاسـد لا تصدق، ولجرائم لا تغتفر. وإن آخر جرائمه التي عاقبه الله عليها لأنه أهلك شـابين من المماليك كانا يسـهران على ملـذاته؛ فاشـترك الشـابان اللـذان خلفاهما، / ٥ / خوفاً من أن يلقيا المصير نفسـه، بخنق سيدهما في ظروف شنيعة لا يستطيع تصويرها إلا قلم بيترون[١] Pétrone أو مارسيال[٢] Martial؛ هذه المأساة الفظيعة التي لانجد مثيلاً لها إلا في سـدوم[٣] وقعت في بلدة بنها – العسل في وجه مصر البحري، وقد اختفى القاتلان فترة من الزمن، ثم عـادا للظهور، ويعلم الناس كلهم أنهما اليوم موظفان في القلعة؛ باعتبار أن الأطباء الشرعيين أفادوا في تقاريرهم الرائعة أن سموّه

---

(١) بيترون، (بيترونيوس، الحكم) Petronius Arbiter كاتب وشاعر لاتيني من القرن الميلادي الأول (٢٠؟ – ٦٦ م) كـان بارعاً في وصف المشاهد المأساوية وأشهر أعماله: **رواية ساتيريكون Satyricon**. انظر الحاشية رقم (١٩١) .

(٢) مارسـيال أو ماركوس فالوريوس مارسياليس Marcus Valerius Martialis شاعر لاتيني ولد في بيلبيليس Bilbilis في شمـال إسبـانيا حوالي سنة (٤٠ م) ومات حوالي سـنة (١٠٤ م)، سكن روما بين عامي (٦٤ – ٩٨ م).

(٣) سـدوم: مدينة في سهل الأردن تذكر عادة مقرونة بأخرى هي عمورة ورد ذكرهمـا في الكتـاب المقـدس (العهد القديم) دمرهما يهوه إله اليهود بالنار والحجارة الكبريتية بسـبب اللواط. انظر: **معجم ديانات وأساطير العالم**، د. إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة، د. ت، مج ٣، ص ٢٦٤ – ٢٦٦ وسنشير إليه بـ "**معجم الديانات** ...". وقد تحدث القرآن الكريم عما أصاب قوم لوط فقال تعالى في سورة هود الآيات ٨٢ – ٨٣: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ(٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾.

قضى بنزيف دماغي[1](سكتة دماغية). وقد كان من آخر ما قام به في حياته، بل ربما كان آخر أعماله، أنه أخاط شفتي خادم مسكين من خدم حريمه ارتكب خطأً بسيطاً، ولم ينقذ موتُ ذلك الحاكم الفظ الخادمَ المسكين الذي قضى نحبه هو الآخر جوعاً بعد ساعات من موت سيده، وقد كان قبل ذلك بفترة وجيزة قد أمر خدمه بذبح أحد المساكين أمام عينيه؛ لأنه كان يجري قرب سيارته ليسلمه عريضة؛ لأن عباساً كان يخاف من كل شيء، ويشك في كل الناس. لقد شاهدنا على طريقنا قبل مغادرة الأراضي المصرية أثراً آخر من آثار ذلك الأمير الإفريقي الذي لم يترك وراءه إلاّ أسوأ الذكريات؛ إذ أقيم قرب القصر مسجد كان يحتفل فيه بعيد أحد الأولياء المسلمين / ٦ /، وكان ينطلق منه الصراخ والأغاني، وضرب من الموسيقى البشعة.

إن الشعب المصري، وأهل القاهرة على وجه الخصوص، يعشقون الاحتفالات بكل أنواعها: دينية أم دنيوية، عامة أم خاصة، ويسمونها جميعاً دون تمييز باسم "فنتازيا[2]" وهي كلمة لاتني تتردد على الأفواه، وهم يطلقونها على كل شيء.

وهناك عدد من السواقي التي تنقل من النيل الماء البارد والصافي الذي لم أر مثله، منذ زمن طويل، إلى هذا المكان، ويصب ذلك الماء في خزانات من الحجارة.

---

(١) انظر: **مصر في كتابات ...**، موثق سابقاً، ص ١٥٩ – ١٦١.

(٢) Fantasia، وتنطقها العامة في مصر بالطاء: الفنطظة أو الفنطظية بالمعنى الذي أشار إليه ديدييه، وسبقه إليه بيرتون في رحلته، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٠٤، وانظر **تعليق المترجم**.

ارتوت الحمير والجمال من ذلك الماء ما يكفي لثلاثة أيام، ثم ولجنا الصحراء أخيراً.

سرنا مدة ساعات دون حوادث ودون معوقات، على أرض صلبة متعرجة.

ولّما كان انطلاقنا قد تأخر، فقد ضربنا الخيام في نهاية النهار قرب المحطة رقم ٣ على ست مراحل فقط من القاهرة، وبالتحديد تحت برج اللاسلكي الذي أنشئ في هذه المنطقة بالإضافة إلى عربات النقل، ووردیات النقل، والفنادق ووسائل أخرى من وسائل الحضارة الغربية التي تجعلك تحس بالغربة، والتي تزيل بَهَاءَ صحراء السويس.

إلاّ أنه، وعلى الرغم من هذه المظاهر المزعجة، ومن وجود المحطة؛ لم يكن هناك أحد لتعكير صفو العزلة، وكان الصمت مُطبقاً. أما سلسلة المقطم الحجرية التي تسير الطريق على امتداده بمحاذاتها، والتي تمّد على يمينه من النيل إلى البحر الأحمر، فإنها كانت بلونها الأسود متباينة كل التباين مع الخلفية المضيئة لغروب متلألئ.

كان / ٧ / رمل الصحراء زهري اللون، وكان هدوء المساء يعلن بجلال نهاية يوم هادئ، ويرهص بليلة لن تكون أقل هدوءًا، إلا أن الهواء كان بارداً، بارداً حتى إنني وجدت نفسي مدفوعاً إلى ارتداء البرنس الصوفي الفضفاض الذي كنت اشتريته صباح ذلك اليوم من سوق القاهرة، وليس ذلك بغريب فقد كنّا في يوم ١٦ يناير (كانون الثاني).

نُصبت الخيام بعد قليل، وقُدّم طعام العشاء، دون أن ننسى تقديم العشاء للحيوانات؛ إذ تلقت الجمال المناخة حول المعسكر، والحمير الواقفة على عراقيبها الفولاذية حصتها البسيطة من الفول أو الذرة، دون أن يُقَدم لها قطرة واحدة من الماء.

ثم نام المكارون والجمّالة بعد ذلك مختلطين بحيواناتهم، يلتحفون السماء المزدانة بالنجوم، ومرت ليلتي الأولى تحت الخيمة دون أحداث تذكر، يحرسني رجال الصحراء المهرة، الذين اعتادوا الأسفار.

نهضت في اليوم الثاني مبكراً، وكان أول ما وقع تحت ناظري بعد خروجي من الخيمة برج التلغراف: الذي نصب على أكمة كثيرة الحصى، كان ينتصب أمامي كأنه شبح مخيف في لون الغسق الشاحب. لقد سررت بوجوده في هذه اللحظة، وبالمصير الذي حمله إلى هذا المكان بفضل الأثر الرائع الذي كان يضفيه على المنظر الطبيعي. بزغت الشمس بعد أن أرهص بها فجر / ٨ / بهي، بزغت، وهي لامعة كما كانت عند الغروب، تَعِدُ بيوم أكثر جمالاً من سابقه، وقد وفت بما وعدت.

بدأنا برفع الأحمال على الجمال، وذلك عمل يقوم به الجمّالة برشاقة وخفة عندما يوافق ذلك هواهم، ولكنهم اعتادوا أن يقوموا به متثاقلين لأنهم يكرهون الرحيل في الصباح الباكر. إذاً كان الوقت متأخراً عندما أصبحت القافلة جاهزة للمسير.

لقد لفت نظري في المحطة التالية بيوت منخفضة، نصفها غائر في الأرض، يسكنها بعض الفلاحين الفقراء، القابعين بهذه الجحور كأنهم ثعالب مع إناثهم وصغارهم، يمارسون مهنة لست أدري ما كنهها ؟ ولست أدري كيف يعيشون؟ وأترك حل هذه المسألة لمن هم أكثر تبصراً. كانت إحدى نسائهم المحجبات، كما هي حال كل النساء، تجلس القرفصاء على قارعة الطريق كأنها طائر العنقاء، وأمامها

سلة مملوءة بالبرتقال الذي تبيعه للمارة بقليل من البارات[1]، وإنه لمن المشكوك فيه أن تجني تلك البائعة البائسة ثروة من ذلك، لأن المارة قلة نادرة، ولأنه ينبغي العلم أن ثمانية من تلك البارات الهزيلة التي تلهف للحصول عليها، لا تكاد تساوي فلساً من العملة الفرنسية.

إن أي حدث يُعَدّ في الصحراء ظاهرة، أقل حدث في السماء أو الأرض يخطف الأبصار ويأسر النظر، / ٩ / انطلاقاً من الجَنْبة Arbuste المنفردة التي تأخذ على البعد حجم شجرة عملاقة، حتى السحب التي تمر فوق الشمس، والتي ينساب ظلها الخفيف كأنه كائن حي على صفحة الرمال المستوية والمتوهجة. مازالت أذكر ذلك الأثر الآسر الذي أحدثته في ذلك اليوم رؤية بدوي يمتطي جمله بجلال، ويتدلى من رحله العالي المغطى بسجادة وجرابان لهما حشفات طويلة وكبيرة من الحرير الأحمر، وكانت تتأرجح بانتظام حسب خطوات الحيوان المنتظمة وكأنها رقاص ساعة

---

(١) جمع بارة وهي جزء من الريال العثماني ومن النحاس، وعرفت بين الناس بالبارات المجيدية نسبة إلى السلطان عبد المجيد خان الذي عاش في الفترة ما بين ١٨٢٣– ١٨٦١م، وولي الحكم منذ عام ١٨٣٩ حتى وفاته وكانت تحمل غالباً في الوجه الطغرى باسم السلطان العثماني عبد المجيد، وسنة الجلوس على العرش، أما الظهر فكان يحوي تاريخ السك ومكانه وتاريخ تولي السلطان. انظر: **تطور النقود في المملكة العربية السعودية**، موثق سابقاً، ص ٢١. وتشكل الجزء الأربعين من القرش التركي، وقال بوركهارت إنها أصغر عملة معدنية تركية (تسمى هنا ديواني)، متداولة في كل أنحاء الحجاز، ويطلبها الناس بكثرة بسبب أن سعرها الحقيقي أكثر من القرش المصري. انظر: **رحلات بوركهارت ...**، موثق سابقاً، ص ٤٩.

الحائط. وقد رأيت في اللحظة التي تليها منظراً مناقضاً وكأنه رسم كاريكاتوري (ساخر) للوحة الرائعة الأولى: رأيت جملاً هزيلاً يجر متثاقلاً عربة قديمة؛ لكأنني كنت أرى علائم الدهشة بادية على ذلك الجمل المسكين بسبب عمله الذي لم يعتده ! لم تكن عجلتا العربة ذواتي شكل دائري بل كانتا بيضاويتين، وتصدران جلبة وصريراً تحت الجازع. لقد كانت تلك الآلة البشعة، وهي تقليد غير متقن لعربات النقل، تحتك بقائمتي ذلك الحيوان المسكين، وتعيق حرية الحركة لديه حتى إنه لم يكن يتمكن من السير إلا بصعوبة وبارتباك يبعث على الضحك. ما أوسع الشقة بين هذا التجديد البربري والغبي، وبين المظهر الرائع الذي يبدو عليه الجمل وقد علاه الأعرابي حسب وظيفته المعتادة في الطبيعة. / ١٠ /

كان هناك أيضاً منظر أكثر إثارة للاشمئزاز، إنه منظر جيف الجمال المنتشرة على الطريق، بعضها أكلت الحيوانات اللاحمة نصفها، وبعضها الآخر أفسدته الشمس. عندما يصل الجمل إلى مرحلة الإرهاق يسقط بما يحمله، ولا تستطيع قوة إنسانية أن تجعله يقف على قدميه ثانية؛ عندئذ يُوَزّع حمله على الجمال الأخرى التي مازالت تحتفظ بقوتها، ويترك الجمل لمصيره المحتوم: يموت من الجوع في المكان الذي سقط فيه، ويصبح بعد موته بقليل طعاماً للضباع والنسور.

تلك هي النهاية الحتمية لذلك الحيوان الأثير الذي يصلح كل الصلاحية للمكان الذي ولد فيه. وبعد أن رأيت هدوءه وشجاعته وخضوعه فإنني أسميه بكل طيبة خاطر: شهيد الصحراء وليس سفينة الصحراء.

لقد صادفنا في ذلك اليوم، وفي الأيام التي تلته عدداً من القوافل القادمة من الحجاز وهي تحمل الصمغ والتمر الهندي والرقيق الذي يؤتى به ليباع في سوق القاهرة؛ وكان هؤلاء المساكين مربوطين مثنى مثنى على الرحال، وكانوا في ميعة الصبا، ولونهم أسود يتفاوت في شدة السواد؛ وقد جيء بهم من حدود دارفور، ومن الحبشة، وكان التجار الذين يسمون (جلاب) يأتون بهم أولاً إلى جدة عبر سواكن والبحر الأحمر، ولا يحملون إلى مصر إلا أولئك الذين لم يستطيعوا بيعهم بسعر رابح في الجزيرة العربية.

وكان في إحدى تلك القوافل / ١١ / امرأة من سكان مكة المكرمة كانت ترتدي ثيابها الفاخرة التقليدية؛ كانت على ظهر جملها تعلو عن الأرض سبعة أقدام، وتحميها من الشمس مظلة بيضاء كبيرة، وكانت محجبة بإحكام كما ينبغي على أية مسلمة ملتزمة. ومع أنها جاءت من مكة المكرمة، وولدت فيها، فإنها لم تجد حرجاً من الكشف بإدلال عن وجهها عندما مرت بنا، لقد كانت جميلة وشابة. لقد كان فيما فعلته مخالفة دينية، ولكن ما يغفر لها ذلك هو أننا من (الجاورين Giaours) الكفار.

ولا بد من الإشارة، لكي تكتمل لائحة المقابلات في ذلك اليوم، إلى عمّال البريد الذين كانوا ينهبون الطرق تاركين العنان لخيولهم التي كانوا يستبدلونها بسرعة في كل محطة، وكانوا يقطعون المسافات بينها بسرعة، كانوا يسبقوننا أو يمرون بقربنا بسرعة البرق فلا نكاد نراهم حتى يختفوا عن الأبصار. تسير الجمال بسرعة أقل ولكن إلى مسافات أطول.

كانت أعيّارنا القوية تسبق الجمال التي لا تقطع إلا ميلين أو ميلين ونصفاً في الساعة؛ لذلك توقفنا في منتصف النهار لمدة ساعتين للاستراحة وانتظار القافلة، لقد بدأنا ونحن مستلقون على الرمال على قارعة الطريق الرئيسي بالإعداد لتناول غداء تقشفي، كان يعتمد أساساً على البرتقال الذي اشتريناه من البائعة المسكينة في المحطة رقم (٤). / ١٢ / وكانت أسراب الغربان والصقور الآتية من المقطم تحوم فوق رؤوسنا، مستعدة كل الاستعداد وقد نفد صبرها، لكي تنقض على فضلات طعامنا، مع أنها قليلة، وكانت في هذه الأثناء بعض القبرات التي لا تكاد ترى تغني بنغمة فرحة في طبقات الهواء العليا، وكان القطا، عصفور الصحراء الذي سمي بذلك محاكاة لصوته الرتيب الذي يشبه النواح، وهو خاص به، ويكرره آلاف المرات وهو يتطاير من حولنا.

كان الجو جميلاً، والهواء عليلاً حتى إننا لم نستطع أنا وأحد رفاق الرحلة مقاومة الرغبة في السير؛ وقد كان ذلك رغبة في التسلية، ولإعطاء حميرنا استراحة هي بالتأكيد مستحقة كل الاستحقاق لها. لقد تمكنا من السير لأن الطريق كانت صلبة، وكان بالإمكان أن تنقلب تلك التسلية إلى تعب لا يحتمل، لو أننا كنا نسير على الرمال المتحركة. لقد سرنا لأميال عدة دون أن نلحظ ذلك، ونحن نتجاذب أطراف الحديث. لقد كان رفيقي يحب المشي شأنه شأني، وكان رحالة مجرباً، إنجليزياً وضابطاً في جيش بومباي، واشتهر في بريطانيا بكتبه عن الشرق؛ أحدها عن الصيد بالصقور في سورية. وكان عائداً إلى فرقته العسكرية بعد عطلة عدة أشهر

خصصها لأداء الحج إلى مكة المكرمة شأنه شأن أي مؤمن حقيقي، كان يتكلم العربية بإتقان، ويحفظ القرآن، / ١٣ / وكان يرتدي بسهولة عجيبة الزي التقليدي، ولا يخلعه أبداً، إنه باختصار تَمَثَّل أخلاق هذه البلاد وعاداتها حتى إنه أصبح ذا سحنة شرقية، وأصبح من المستحيل على أيٍّ كان أنْ يقول: إنه أوروبي، وكان العلماء والأئمة في مكة المكرمة يظنون من هيئته أنه أحد الهنود المسلمين.

لقد استطاع بفضل تنكره المتقن أن يُتِمَّ دون خطر مشروعه المحفوف بالمخاطر؛ لأننا نعلم أن مكة المكرمة والمدينة المنورة لا يدخلهما - حتى اليوم - غير المسلمين، وإن دخلوها فهم يعرضون أنفسهم لعقوبة الموت أو التخلي عن دينهم، واتباع الإسلام.

نشر السيد بيرتون[١] Burton رحلته بالإنجليزية، ولم أقرأها، ولكن ما حدثني به عنها يجعل منها مصدراً في غاية الأهمية، وإنني على صحة ما ورد فيها

---

(١) Richard Francis Burton = رتشار فرانسيس بيرتون (١٨٢١م - ١٨٩٠ م). ولد بيرتون عام ١٨٢١م وادعت أمه أنها منحدرة من سلالة أحد الأولاد غير الشرعيين للملك لويس الرابع عشر، ومع أن أباه كان ضابطاً في الجيش، لكنه كثيراً ما قيل: إنه من أصل غجري، وتعلم عدداً من اللغات المحلية، والتحق بالجيش البريطاني في بومباي (الهند) برتبة نقيب في القوات المسلحة لشركة الهند الشرقية، وقد برع كل البراعة في إتقان اللغات الأجنبية حتى إنه كان في أواخر حياته يستطيع أن يتكلم تسعاً وعشرين لغة، وما لا يقل عن اثنتي عشرة لهجة مختلفة. قام بأسفار عديدة. وزار الجزيرة العربية متنكراً بزي حاج مسلم عام ١٢٦٩هـ / ١٨٥٣م وألف كتاباً بعنوان: **مناجم الذهب في مدين والمدن الأثرية** وذلك بعد رحلته الثانية إلى مدين عام ١٨٧٧ م، وإن قائمة مؤلفاته لتغطي أكثر من ٣٠٠ صفحة. ترجم إلى الإنجليزية: **ألف ليلة وليلة**، =

لشهيد[1]. لقد قام بيرتون بعد فترة من زمن رحلته ولقائي به بزيارة القبائل المتعصبة التي تقطن حول مدينة عدن، وقد كان منذ وقت قريب يفكر في محاولة العبور من شاطئ زنجبار إلى النيل الأبيض عبر خط الاستواء. وهو مشروع كان يشغل حيزاً كبيراً من تفكيره منذ أن لقيته.

كنا ذات مساء نخيم قرب المحطة رقم (٨) بعد يوم من السير قطعنا فيه عشر مراحل، وكانت مشاهد الغروب تتكرر متطابقة في التفاصيل؛ فالشرق، / ١٤ / كما نعلم ليس بلد التنوع، ما فعلناه البارحة سنفعله غداً وبعد غد، وهكذا دواليك في كل

= **والـروض العاطر** ووضع شروحات لها تضمنت عصارة أفكاره وتجاربه، ومنح لقب "فارس" في عام ١٨٨٦م قبل أن يتوفى في عام ١٨٩٠ م. وقد طبعت **رحلة بيرتون** في مجلدين في لندن ١٨٩٣، وأعيد طبعها جزئياً في نيويورك Dover Publication، عام ١٩٦٤. وقد ترجمت رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، ترجمة وتحقيق د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج ١، ١٩٩٤ م، ج ٢، ١٩٩٥ م. وانظر في حياة بيرتون كتاب: **الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية**، لروبن بدْول ترجمة د. عبد الله نصيف، الرياض ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩ م، ص ٥٤ — ٦٦، وكتاب **التراث الشعبي في أدب الرحلات**، مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربي، الدوحة ١٩٩٥ م، ص ٣١ — ٦٠. وانظر حديث ناصر الدين دينيه عن رحلة بيرتون في كتابه: **الحج إلى بيت الله الحرام**، وقد ترجمنا الفصل المخصص للحديث عن رحلات الغربيين في كتاب دينيه وسيظهر مضمناً في مقالنا: **ناصر الدين دينيه وكتابه "الحج إلى بيت الله الحرام"** الذي سينشر في **مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية**.

(١) نشرت **المجلة البريطانية**، كما علمت، بذلك قطعا من هذه الرحلة (المؤلف).

يوم حتى آخر الزمن. كان الليل صافياً صفاء لا نجده إلا في سماء مصر، كانت النجوم تلتمع كأنها جواهر مرصعة باللازورد، وكأنها رمز شعار بيزنطة القديم قبل أن يؤول إلى العثمانيين في إستانبول. كان القمر هلالاً يتطاول بجلال إلى قبة السماء. وكان عواء الكلاب في وسط الظلمات يدل على وجود مضارب بدو في الجوار، وإن مثل ذلك الجوار كان يثير قلقاً وخوفاً مسوغَيْن في الماضي، وهو اليوم بلا أدنى خطورة؛ مما جعلني أنام في خيمتي دون أي قلق، ولم يزعجني إبان نومي أي عارض مقلق.

ولم تكن القافلة في اليوم التالي جاهزة للمسير إلا في وقت متأخر عن اليوم السابق، وكانت الشمس قد ارتفعت عندما لاحظت إلى يساري قصر دار البيضا، كان محاطاً بالأبراج ولا يختلف بقليل أو كثير عن القُصَيْر الصغير الذي كان يبنيه الإقطاعيون في القرون الوسطى (في أوروبا). إن قصر العزلة هذا، هو أيضاً أحد أمكنة إقامة عباس باشا؛ ذلك التركي المتوحش، والمتعصب الذي كان يمقت المدن وخصوصاً تلك التي يقيم بها القناصل الذين كانوا في رأيه أناساً مزعجين، وكان يهرب منهم بقدر ما كان جده محمد علي يتقرب منهم، ومع ذلك فإنه كان يظن أنه ليس بعيداً عنهم بقدر كافٍ. ولذلك كان يمقت الإسكندرية مقتاً كبيراً، ولا أظن / ١٥ / أنه زارها مرة واحدة خلال فترة حكمه: وكان يقول لكي يسوغ غيابه عنها: إنه "يرى فيها كثيراً من القبعات".

وكانت القاهرة نفسها تبدو له موبوءة بالطاعون الأوروبي، ولكي يتلافى العدوى قام بإنشاء قصر العباسية على حدود الصحراء، وكنا قد رأيناه، خلال مرورنا،

ولكن ذلك القصر المنعزل سيبدو له بعد قليل شديد الاقتراب من القاهرة، وانتهى به الأمر إلى الالتجاء إلى حضن الصحراء. كان يعيش هنا مع أكثر المقربين إليه، ويا للمقربين! كان على الدوام يؤجل أكثر الأعمال المستعجلة، ولا يسمح للقناصل بمقابلته إلا عندما لا يجد دفعاً لذلك؛ ويكون مجبراً على ذلك بسبب الخوف.

كان مفرطاً في الريبة، تلاحقه الشكوك الدائمة حتى هنا، وكان لا يثق بأحد حتى إنه لم يكن يشرب إلا الماء الذي كانت ترسله من القاهرة أمه في زجاجات مختومة. وكانت تسليته المفضلة هي أن يملأ حظائره بالحيوانات ذات الأسعار المرتفعة، كان بالطبع بخيلاً، ولكن أعظم التضحيات لم تكن تعني له شيئاً عندما يتعلق الأمر بتحقيق رغباته التي تسيطر عليه. كان له في كل مكان، وفي أمكنة بعيدة في بعض الأحيان، عملاء مكلفون بأن يشتروا له أجمل الخيول والجمال وأغلاها، وقد وصل سعر عدد منها إلى عشرة آلاف فرنك، ولكنه لم يكن يسمح لأحد برؤيتها / ١٦ / خوفا عليها من العين، لقد كان تطيره يوازي حذره.

كان الموضع الذي أقيم عليه قصره يسمى قديما الدار الحمراء؛ وهو اسم يطلقه العرب على جهنم بسبب ألسنة اللهب التي يعتقدون أنها أبدية الاشتعال. وقد سمي هذا المكان بهذا الاسم المخيف لكآبته.

وقد وافق المقام كل الموافقة ظهور بعض النكت الماكرة، ولم يعدم الشعب أبداً أن يخلط عبر جناس مناسب وجيد بين القصر وجهنم، وبين جهنم والقصر. وقد بلغت تلك الطرفة أسماع عباس فأسرع إلى تغيير ذلك الاسم المزعج: فتحول اسم

الدار الحمراء بأمر عباس إلى الدار البيضاء، ولكنه لم يزدد في أذهان العامة إلا سواداً وشيطانية.

تقع المحطة رقم (٨) قرب الدار البيضاء، وتكتسب من هذا الجوار بعض الأهمية، فقد كان الأشخاص الذين لهم علاقة بنائب الملك المتوفى، أو بأحد ضباطه يسكنون في المحطة، ويقضون هناك أسابيع وأشهراً كاملة، لأن أقل الأشياء تحتاج كثيراً من الوقت. إن المسافرين الذين يمرون بالمحطة يفضلون، كما فعلنا نحن، وسائل النقل القديمة على عربات السفر السريعة (الترانزيت) لأنهم مع الأولى يستطيعون التمتع بهذه المحطات على الأقل، ولكن يشرط عليهم في القاهرة الحصول على بطاقة دخول تباع بسعر غال، ودون هذا الإجراء / ١٧ / تظل المحطات مغلقة في وجوههم، ويمكن أن يموتوا عطشاً على الباب دون أن يفتح لهم. توجد غير بعيد عن المحطة رقم (٨) في نصف الطريق بين القاهرة والسويس شجرة الحجاج.

يُكِنُّ العرب للأشجار احتراماً كبيراً، ولما كانوا لا يرون إلاّ قليلاً منها في صحرائهم فإنها بالنسبة إليهم شيء نادر وجديد. وقد وعدهم القرآن بجنان رائعة في الحياة الآخرة [. . .] .

وناهيك عن حب العرب للأشجار، فإن هناك بعض الأشجار المباركة التي تلقى معاملة خاصة: إنها الأشجار التي تنبت قرب ضريح أحد الأولياء، أو في أي مكان آخر يكرسه الدين أو التطير. فهم يحرصون في أثناء مرورهم بهذه الأشجار،

على تعليق شيء يملكونه عليها لكي يدفعوا عنهم مصائب الدهر؛ وهذا الشيء هو عادة قطعة من قماش ثيابهم. تلك هي حالة الشجرة التي تحدثت عنها، وقد اكتسبت اسمها من الحجاج المتوجهين إلى الحج، والذين لا يفوّت أحد منهم أن يقوم بهذه الممارسة الطقوسية: لذلك تبدو هذه الشجرة مملوءة بالخرق الوسخة من كل الأشكال، ومن كل الألوان، بدلاً من أن تحمل أزهاراً وثماراً، بل أوراقاً[1]. إنه ضرب من النذور غريب!

---

(١) تحدث سنوك هورخرونيه في كتابه: **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، ترجمة د. علي عودة الشيخ وأعاد صياغته وعلّق عليه د. محمد محمود السرياني، و د. معراج نواب مرزا، ط. دارة الملك عبد العزيز، الرياض ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م، ج ٢، ص ٣٧٦ – ٣٧٧ عن شجرة مماثلة فقال: "وعلى الطريق المؤدي من جدة إلى مكة المكرمة، توجد هناك شجرة يقدسها أهالي المنطقة المجاورة، التي تحوي كل أنواع الخرق الملونة. ومن المعلوم أن عبادة الأشجار وتقديسها عادة جاهلية قديمة في الجزيرة العربية. والسؤال هو: لماذا كل هذه الخرق البالية على هذه الشجرة؟ والجواب عن ذلك يأخذ صوراً عديدة، فبعض الناس يقولون: إن هناك شيخاً مدفوناً تحت هذه الشجرة، وإن ذلك من قبيل تبجيله. وفي رواية أخرى: أن هذه الشجرة هي شجرة الرضوان التي تمت تحتها بيعة الرضوان سنة ٦٢٨م (ذي القعدة ٦هـ). وهناك تفسير ثالث: هو أن الرسول الكريم قد نشبت عمامته في الشجرة، فتمزق بعضها وعلق في الشجرة، ولهذا فإن الناس يعلقون هذه الخرق كذكرى لما حدث مع الرسول الكريم ﷺ" وعلق مخرجا الكتاب بالقول في ص (٣٧٧) الحاشية: من المستحيل أن تكون الشجرة المذكورة هي شجرة الرضوان؛ لأن الثابت تاريخياً أن هذه الشجرة قد قطعها عمر بن الخطاب ﷺ؛ دفعاً لهذه البدع. غير أن الناس لم يتورعوا عن ذلك فيما بعد فاتخذوا لهم شجرة ربما كانت في المنطقة المجاورة للشجرة القديمة. ولكن الشجرة التي يتحدث عنها ديديه تقع على الطريق بين القاهرة والسويس ولعلها عند مقام ضريح أحد الأولياء الذين يكثرون في تلك المناطق.

ولما كانت حميرنا قد سبقت الجمال بقدر / ١٨ / ما سبقتها في اليوم السابق فقد كان علينا أن نتوقف عند الظهيرة لانتظار القافلة، وتناولنا غداءنا على الرمل كما فعلنا في اليوم السابق. وبينما كنا نزيل قشور البيض المسلوق والبرتقال أدركنا مسافر يمشي على قدميه، ويسير وراءه مرافق يسوق أمامه حماراً تعتليه امرأة: كان المسافر هندياً، وكانت المرأة زوجته، وكان عائداً من مكة المكرمة بعد الحج، وقد أراد مع زوجته ومرافقه أن يمروا بالقاهرة قبل العودة إلى بلادهم؛ بأية طريقة؟ الله أعلم ! وعندما شاهد الهندي السيد بيرتون عرفه من النظرة الأولى لأنه سبق أن رآه في جبل عرفات قبل بضعة أشهر، وهو يؤدي بورع شأنه شأن الهندي مناسك الحج الأخير؛ وقد حيّاه مناديا إياه باسم الشيخ عبد الله؛ وهو الاسم الذي يحمله بيرتون في الشرق. لقد عرف كل منهما الآخر، وأخذ الحاجان يتجاذبان أطراف الحديث باللغة الهندية العالية، وهي لغة كان بيرتون يتقنها كل الإتقان شأنه مع اللغة العربية، وربما كان يتحدثها أفضل من الهندي نفسه باعتبار أنه ألف كتاباً في قواعد واحدة من أكثر اللغات الهندية صعوبة وهي الهندوستانية. لقد كانت مرافقة اثنين من غير المسلمين مثلنا محرجة لبيرتون؛ ولكنها على أي حال لم تزعزع الثقة التي كان الهندي العجوز يضعها في عقيدة مواطنه المزعوم الذي استطاع أن يخرج منتصراً من هذا الموقف الحرج. / ١٩ / كانت تبدو في الأفق غزالة مسرعة، سرعان ما اختفت في عمق الصحراء. وكانت أولى الغزلان التي رأيتها طليقة في الطبيعة، ثم رأيت بعد ذلك مئات منها في السودان وفي النوبة.

وعندما حل المساء اكتسى جبل المقطم لوناً بنفسجياً لا يضاهى في جماله، كان صفاء الجو يسمح برؤية أصغر الأشياء بوضوح من مسافة بعيدة كل البعد .

ولكن فجأة لم نعد نرى شيئاً، لأن الشمس غربت، وفترة الغروب قصيرة في هذه المناطق حتى إنه بمجرد غياب الشمس يهبط الليل دفعة واحدة ودون تدرج.

نصبنا خيامنا قرب المحطة رقم (١٣)، على أرض حجرية تنتشر عليها نباتات الداتورة[1] Daturas . لقد كتب بعض الرحالة أن شجرة الحجاج هي الشجرة الوحيدة التي نراها على طريق القاهرة – السويس؛ وليس ذلك بصحيح، فقد كان هناك حول خيامنا ما يقرب من عشر أشجار ميموزا (السنط) . وتوقف قرب مضاربنا لقضاء الليل أحد الألمان، وكان يعبر الصحراء مع جمل واحد وجَمَّال واحد . وكنا ننوي استقباله استقبالاً لائقاً بدعوته إلى مشاركتنا طعام العشاء؛ ولكن طبعه الكئيب، وصمته، بدد رغبتنا في استضافته؛ لقد انزوى، وتركناه كذلك، وكأنه دب في غابته التي ولد فيها . أما جمّاله، وكان لين العريكة أكثر من الألماني، فإنه سرعان ما استأنس بجمّالتنا، وعلى الرغم من أنهم كانوا قد ساروا / ٢٠ / على أقدامهم عشر ساعات، فإنهم ظلوا يتسامرون جميعاً حتى وقت متأخر من الليل.

انطلقنا في اليوم الرابع، في وقت أكثر تأخراً من اليومين السابقين؛ لأننا لم نكن إلا على بعد ستة فراسخ من السويس. سرنا على الطريق ما يقارب مئة خطوة، ثم تركناها متجهين يساراً نحو بئر عجرود، المحاطة بالأسوار، وتقع في قلب قصر مهدم، واستبدل بالحامية التي كانت تقيم فيها عائلة بدوية أوكل إليها أمر حماية البئر، وكانت

---

(١) نبات ذو خصائص تخديرية. انظر: **رحلة بيرتون**، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٣٠.

تأخذ رسوماً من كل من يأتي للتزود بالماء. شربت حميرنا هنا لأول مرة، ولعلنا نتخيل بأي شراهة فعلت ذلك، بعد أن ظلت تسعاً وستين ساعة محرومة من الماء؛ قطعت خلالها مسافة ثمانية وعشرين فرسخاً. لقد كان للموقع، على الرغم من جفافه، مظهر مدهش؛ فهذه البئر التي تردها الجمال، وذلك القصر المتداعي، والبدو الذين يسكنونه، كل ذلك يوحي إلى الفنان بفكرة لوحة أصيلة.

كان هناك على بعد عدة فراسخ بئر أخرى، تسمى بئر السويس، بسبب قربها من المدينة التي منحتها اسمها، ولكن ماءها أجاج ولا يصلح إلا للمواشي؛ وهي محاطة بالأسوار أيضاً، وكانت في تلك الأثناء قافلة تحمل الرقيق قد توقفت عندها. كان العبيد السود عراة تماماً، ويجلسون على الرمل وقد اختلطوا بالجمال، وهم يتناولون طعام الغداء المتواضع المكوّن من قبضة من التمر وقطعة / ٢١ / من الخبز العربي المدور والمرقوق كأنه الصحن، والطري كالإسفنج، عجينته لم تختمر، ولم ينضج كما ينبغي له، وقد وجدت له في كل مكان أكلته فيه طعماً غير مستحب هو طعم النحاس. لم يكن يبدو أن أولئك الأحداث الذين أُخذوا من أسرهم صغاراً يشعرون بما هم فيه من أسى، بل كانوا تحت مراقبة الجلاب وسوطه يترنمون فرحين بصوت خافت وكأنهم جماعة نحل. إن الرق في الشرق أقل صعوبة مما هو عليه في الغرب، وستسنح لي الفرصة بلا شك كي أعود إلى الحديث عن تطور تجارة الرقيق ووضع العبيد عند المسلمين[1].

---

(١) سيتحدث ديدييه عن رفيق رحلته هذا ببعض التفصيل في ص ١٣٧ - ١٤٢ من أصل الرحلة الفرنسي الذي وضعنا أرقامه في النص العربي بين / / وسنذكر بعض المصادر الأخرى في المكان المشار إليه.

لقد تغير مدى الرؤية، وبدأنا نلمح البحر الأحمر الذي تعجز الأوصاف عن نعت لونه الأزرق الصافي. وكانت جبال الجزيرة العربية تنتصب في الجنوب الشرقي، ويعلو كل ذلك القمم الجرانيتية لسلسلة جبال سيناء الممتدة على شكل مدرج حتى أبعد نقطة في الأفق. كان منظرها رائعاً، وكانت الذكريات الجليلة التي تستدعيها تلك الجبال تطبعها بطابع هو أكثر مهابة وجلالاً. وصلنا في ظهيرة اليوم الرابع من الرحلة إلى أبواب السويس، وقبل أن نتجاوز باب المدينة، وندلف إلى الأماكن المأهولة وجدتني مدفوعاً إلى الاعتراف بأن الرحلة في كل مراحلها، وساعاتها، لم تُحدث في نفسي أياً من تلك المشاعر المثيرة / ٢٢ / والاحتفالية التي شعرت بها بعد ذلك في صحراء النوبة الكبرى وفي صحراء السودان التي كانت تغريني بجدتها المثيرة على الدوام، ولكنها لم تشعرني بالبرود وعدم الاهتمام.

إن لخيبة الأمل هذه أسباباً عدة: أولها أن جبل المقطم يقطع صحراء السويس طولياً، فيحجب أفق الرؤية من هذا الجانب، ولا يتنوع إلا من الجانب الآخر تنوعاً محدوداً بسبب الهضاب التي تنتشر فيه.

إن مثل هذه المناظر، ليست مصدر لذة تأملية، ولا مصدر شعور باللامنتهي، الذي يمكن لمنظر الرمال الممتدة بلا حدود، كما هي الحال مع البحر بلا شاطئ أن يبث الروح فيها وحده. وإذا كان المكان ضيقاً، فإن الشعور بالوحدة هو الآخر كان غائباً، وقد قلت في البداية: إن بعض المخترعات التي أصبحت قديمة بالنسبة إلينا، وإن بعض وسائل الترفيه الشائعة في الحياة الغربية التي لا نأتي إلى هنا بحثاً عنها، كل

ذلك، غزا هذه الصحراء وأفسدها، وغيّر حياتها البدائية: نشم رائحة الإنسان فيها ونراه كثيراً، ليس إنسان الخيمة والحرية، ولكن إنسان الوكالات الأجنبية والمصانع. وليس في ذلك أي جوانب مغرية، وليس بالمستغرب أن تفسد عليّ تلك الصورة غير المناسبة أولى خطواتي في هذه الطبيعة الموحشة. أرجع مع ذلك إلى الحديث عن السويس. / ٢٣ /

الفصل الثاني

السويس

إن موقع السويس الهام، في قلب خليجٍ على البحر الأحمر، جعل منها منذ أمدٍ بعيـد مركزاً تجاريـاً مهمـاً . وكان بطليموس فيلادلف[1] Ptolme Philadelphe الذي شق بين النيل والبحر الأحمر قناة مازلنا حتى اليوم نجد بعض آثارها مدفونة تحت الرمال؛ وهو ابن وريث الإسكندر الأكبر، قد أطلق على هذه المدينة اسم أخته أرزينوي[2] Arsino التي كان مشغوفاً بها، وتزوجها حسب تقاليد سلالة البطالمة[3] Des Lagides . أما اسمها الحديث "السويس" فإن بعض علماء الاشتقاق الجريئين

---

(١) بَطْلَيموس الثاني Ptolme II (٣٠٤ – ٢٤٦ ق. م): ملك مصر الملقب فيلادولفوس، لقب بذلك لأنه تزوج أخته أرزينوي (٢٨٥ – ٢٤٦ ق. م): بنى منارة الإسكندرية، وجعل منها مركزاً للثقافة الهيلينية، وقيل: إنه في عهده ترجم العهد القديم العبري إلى اليونانية. انظر: تاريخ سيناء ...، موثق سابقاً، ص ٧٠٦.

(٢) Arsino II أرزينوي الثانية، أميرة مصرية ابنة بطليموس سوتير (المنقذ) المسمى لاغوس Lagos، وأخت بطليموس الثاني فيلادولفوس، ولدت حوالي عام ٣١٦ ق. م.، وتزوجت أخاها بطليموس الثاني بعد أن تزوجت مرتين قبل ذلك، ولما تزوجها حسب التقاليد الفرعونية أطلق اسمها على عدد من المدن.

(٣) اسم السلالة التي أرسى دعائمها في حكم مصر أحد أفضل مساعدي الإسكندر الأكبر بطليموس سوتير الذي كان يعرف بالأول، وحكم مصر من (٣٢٣ – ٢٨٥ ق. م.)، واستمر البطالمة في الحكم حتى سنة (٣٠ ق. م.)، وقد استطاع بطليموس الأول أن يقيم حكمه الغريب حسب العادات والتقاليد المصرية القديمة. وآخر من حكم من هذه السلالة هي كليوباترة التي سقطت مصر في عهدها بأيدي الرومان.

يرون فيه تحريفاً لكلمة: Oasis التي تعني بالعربيّة: الواحة. فإنْ كان الأمر كذلك، فإن هناك تباعداً بين الاسم والمسَمّى: لأن السويس بعيدة عن أن تكون واحة؛ إذ ليس فيها شجرة واحدة، ولا خيط ماء رفيع، وليس هناك ما هو أكثر قحطاً منها، ولا ما هو أكثر كآبة منها. إنها أرض ضيقة محصورة بين البحر والصحراء؛ وهما محيطان يغزوان الأرض ويحطمانها، وهي تكافح بصعوبة ضد هذين العدوَّين المخيفين. فالبحر يشق ويقضم بلا كلل ولا ملل، الرأسَ الترابيَّ الذي تقع عليه، أما الرمل فيزحف إليها في كل يوم، ولم تعد تتسع / ٢٤ / إلا بصعوبة للأربعة أو الخمسة آلاف نسمة الذين لم يغادروها[١]. إن من يقرأ عدد السلع التجارية التي تفخر السويس بأنها مركز تجمعها: كالمعادن، والنسيج من أوروبا، والحرير والتّوابل من الهند، منتجات مصر والجزيرة العربية، والرز والصوف، والعطور والجواهر والبن اليمني - يتوقع أن يجد مدينة مزدهرة في إمبراطورية الخلفاء التي تحدثنا عن روعتها ألف ليلة وليلة.

ليس هناك شيء من ذلك. فكل تلك السلع الثمينة تعبرها ليس إلا، دون أن تتوقف إلا في محطات الصحراء، وإن تجارتها البائسة، تسيطر عليها جماعة من الوسطاء اليونانيين الذين لا يعملون لحسابهم. أما السويس نفسها فهي لا تبيع شيئاً، لأنها لا تنتج أبسط الحاجات الضرورية الأولية، ماذا أقول؟ لا ينمو فيها أي نوع من

---

(١) انظر حول الوصف الذي قدمه الرحالة لمدينة السويس وغيرها من مدن البحر الأحمر في كتاب: **مصر في كتابات ...**، موثق سابقاً، ص ٣٦٠ - ٣٦٣. وفصّل بيرتون في الحديث عن السويس في رحلته، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٣٥ - ١٥١.

الخضار، وليس هناك قطعة واحدة من العشب الأخضر على أديمها، ولا يهديها البحر إلا بعض الأسماك القليلة والصغيرة. يأتيها كل شيء من القاهرة، وليس فيها الماء الذي تشربه الحيوانات، والذي ينبغي أن يذهب الناس إلى مكان يبعد أكثر من مرحلة للبحث عنه، أما الماء الذي يشربه البشر فهو أكثر بعداً أيضاً؛ إذ يذهب الناس بحثاً عنه إلى بركة موسى، الواقعة على الشاطئ الآخر لخليج السويس، وإن هذا الماء الذي لا يقل ثمنه عن قرشَيْن للقِرْبة غير صالح للشرب دائماً: وإن الأشخاص الحريصين على ما يشربون، لا يشربون إلا ماء النيل الذي يُسْتَقدم على ظهور الإبل عبر الصحراء، وذلك مبالغ فيه للحصول على كأس من الماء. / ٢٥ / أما المدينة نفسها فلا تكاد تستحق الوصف، شوارعها وأزقتها ضيقة وملتوية، وتعج بالغبار، وهي وسخة غالباً. أما البيوت فسيئة العمارة، لا يهتم أصحابها بترميمها، وأغلبها من الخشب أو من اللَّبن، وفيها بعض المساجد البسيطة، ومناراتها أشد بساطة منها أيضاً؛ فيها فنادق واسعة، ولكنها وسخة جداً، مخصصة للبضائع والتّجار، وفيها سوق واحد يفتقر في ثلاثة أرباع السنة إلى الحاجات الضرورية جداً: تلك هي اليوم حال تلك المدينة، التي كانت في سالف الدهر مزدهرة بلا شك، ويمكن أن تعود إلى ما كانت عليه من ازدهار بل أكثر، عندما يتم فتح القناة التي ستجعل منها واحداً من أهم الموانئ التجارية، بل السياسية في العالم كله. وإن لمينائها، مع ذلك، وعلى حالته الراهنة، مكانة متوسطة، تحيط به بيوت صالحة للسكن، وله رصيف على البحر

تجده بعض الأحيان يعج بالناس. إن هناك عدداً كبيراً من المراكب المصنوعة محلياً، والمخصصة لتمخر عباب البحر الأحمر، ولكن عدد المراكب التي تقضي الليل في المرفأ يدل على أن حركة الملاحة ليست بالنشاط المطلوب. وقد كان أحد تلك المراكب المشحونة بالرقيق يفرغ حمولته البشرية لحظةَ وصولنا .يقيم قليل من الأوروبيين في هذا المكان الكئيب، ومع ذلك عرفت سيدة فرنسية يعمل زوجها بالتّجارة في هذه الأنحاء، وكانت / ٢٦ / تعيش في انتظاره مع ابنتها الجميلة البالغة من العمر ثمانية عشر عاماً – في عزلة تكاد تكون مطلقة. ورأيت أيضاً القنصل أو نائب القنصل البريطاني الذي تجدر الإشارة إلى أنه يسكن المنزل الذي كان ينزل به الجنرال نابليون في عام ١٧٩٩ م. وكان ذلك القنصل يجمع بين وظيفة القنصل ووظيفة الوكيل التّجاري لشركة الهند الشرقية، وإن هذه الازدواجية السياسية التّجارية صفة مشتركة للقناصل البريطانيين جميعهم؛ ولكنني أفضل القانون الفرنسي الذي يحظر التّجارة على قناصلها؛ حفاظاً على كرامتهم، وإنْ كانوا يخسرون مادياً.

لقد اكتسب موقع السويس بعض الأهمية لدى القنصل البريطاني منذ أن أصبحت شركة بريد الهند La malle des Indes تمرّ بهذا الطريق مرتين في الشهر؛ إذ أصبحت سفن بومباي وكلكتا تُنزل في السويس الركاب الذين يذهبون إلى الإسكندرية ليركبوا السفينة إلى بريطانيا وبالعكس. ويُحدث هذا في كل خمسة عشر يوماً نشاطاً ينتج عن توفير الخدمات لمئتين أو ثلاث مئة شخص يزيدون أو ينقصون عن

ذلك بقليل؛ مما يعني أن هناك متوسطاً سنوياً يبلغ ستة إلى سبعة آلاف راكب. ينزل هذا الجَمْع الموسمي من مسافري العبور في مصر، وكأنهم يريدون ابتلاعها، شأنهم شأن جراد موسى[1]؛ فأولئك الذين يصلون من بريطانيا يكادون يكونون جميعاً من الشباب المشاغبين، ومن الفتيات البيض المتوردات اللواتي يأتين إلى المستعمرات الهندية للبحث عن أولئك الذين لهم مكانة إدارية أو تجارية ليتخذن منهم أزواجاً / ٢٧ /. أمّا في العودة فالمشهد يتغير، فالشباب أصبحوا رجالاً سمراً، وقد شاخوا قبل سن الشيخوخة، والفتيات أصبحن أمهات أو جدات.

لقد أقيم في السويس على شاطئ البحر، فندق بريطاني واسع مخصص لإسكان القادمين وإطعامهم وسقايتهم، وليس ذلك بيسير، بسبب نَهَم القادمين الجدد، وفقر السوق بالبضائع. حينئذٍ تصبح المدينة ضحية غزوٍ أوروبي حقيقي. أما بقية العام فهي كئيبة ساكنة. أمّا في هذه الأيام، ففيها حركة مفتعلة، تكاد تكون محمومة، وليس لها من نتائج إلاّ أنها تجعل السكون عندما يعود أكثر عمقاً، ثم تعود إلى حالة الخمود في اليوم التالي. ولما رفضنا النزول في محطة الطريق، ولم نرض بالنزول في الفندق البريطاني المريح فقد عسكَرْنا في المدينة، وكأننا في الصحراء، لقد نصبنا خيامنا على الشاطئ، وسط عدد من المدافع المنصوبة في هذا المكان للدفاع عن

---

(١) الجراد الذي أرسله الله على آل فرعون، كما في قوله تعالى (الأعراف، ١٣٣): ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾.

الساحل – زعموا –، وهي لم تستخدم ولن تستخدم أبداً، لقد كانت متروكة هنا دون أن يكون قربها ظل حارس يسهر عليها، ولا تستخدم إلاّ لعباً للأطفال يلهون بها، ويعتلونها دون خوف وكأنها أحصنة خشبية. يمتد هذا الشاطئ الواسع والجميل كل الجمال بعيداً حتى سفح الجبل الذي يبدو منحدراً انحداراً عمودياً في البحر. أما الميناء فيمتد إلى الجنوب وكأنه سماط أزرق، و / ٢٨ / تسد الأفق قمم سلسلة جبال سيناء الوعرة.

لقد كانت السويس قبل وصولنا بفترة وجيزة، مسرحاً لاضطرابات شعبية ضد الأوروبيين الذين يسكنونها، فقد تجمع الناس أمام منازلهم، وبدؤوا يكيلون لهم الشتائم ويهددونهم، ويرمون نوافذ بيوتهم بالحجارة، وكان يمكن لسلطات المدينة أن تعيد الهدوء إليها ببساطة، لأن الشعب المصري لين العريكة، ولا يحب الشراسة، ولكن حاكم المدينة لم يأبه للأمر، أو أنه تهاون في اتخاذ الإجراءات، معتقداً – دون شك – أن مثل هذا التصرف لا يعدم أن يعجب الباشا الحاكم، ويشجع الحقد المتطرف، ولم يكن بالتالي من الحكمة أن يبدي الحاكم حماسة بالغة لضبط الأمور في مثل هذه الأحوال. ولكن العاصفة مرت بسلام، ولم تخلّف أي أضرار، وهدأت وحدها، ولكن ليس دون أن تترك آثارها في الجالية الأوروبية في القاهرة.

وصلنا والمعمعة محتدمة، وتلقيت من يد مجهولة حجراً وأنا أتجول في أحد الأزقة الضيقة. وأقر أنه كان عليّ التزام الحذر الواجب في مثل هذه الظروف، وعدم التخييم

في العراء دون أن يكون لنا ما يحمي رؤوسنا إلاّ سقوف خيامنا، ولكننا مع ذلك لم نكن نستطيع التراجع عن خطوتنا الجريئة؛ ولم يتعرض مخيمنا لأية مضايقة. ولكننا تعرضنا لحادثتَين / ٢٩ / من نوع آخر، ويحسن أن أسجلهما لتكونا عظة للرحالة الذين يسيرون على خطانا في المعاناة من حياة الرحيل ومشكلاتها البسيطة التي لا تخلو منها الحياة الإنسانية عموماً، وحياة كل فرد على وجه الخصوص. كان يقوم على خدمتي شاب أسود، كان من قبل في خدمة كلوت بيك[1] Clot- Bey الذي اصطحبه إلى باريس، حيث تعلم الفرنسية هناك، وكان اسمه عبد الله، وكان يحب الموسيقى، ويحب أن ينفخ بالمزمار، وهي بلا شك تسلية بريئة، إلاّ أنها كانت مع ذلك وبالاً عليّ. كان عبد الله في إحدى الأمسيات يمتطي أحد المدافع التي تحدثت عنها، وكأنه على ظهر حصان، وكان ينفخ في آلته الموسيقية المفضلة، وقد نسي شمعة مضاءة في خيمتي مما تسبب في إشعال النار فيها، وأكلت النار الخيمة تماماً، وحولتها إلى كومة من الرماد، وقد عانينا صعوبات جمة في إنقاذ أمتعتي الخاصة من ألسنة اللهب. ولست بحاجة إلى القول: إن أحداً من السكان الأصليين لم يفكر بمد يد العون

---

(١) كلوت بك Clot-Bey ضابط وطبيب فرنسي عضو الأكاديمية الملكية الطبية في باريس، زار مصر ثم استقر فيها، ويعد مؤسس الخدمات الطبية فيها. وضع كتاباً بعنوان: **لمحة عامة عن مصر** نشر في عام ١٨٤٠ م. اتهمه عدد من الرحالة بأنه كان من المدافعين عن سياسة محمد علي. انظر: **مصر في كتابات ...** موثق سابقاً، ص ١٠٠.

لنا؛ وأشير هنا إلى جزئية تدل على التخلق بأخلاق الشرقيين؛ وهي أن أحد السكان من أصول بريطانية، كان يعمل موظفاً في النقل، وكانت خيمتي منصوبة أمام البيت الذي يسكنه، وكان ينظر ببرود من نافذته إلى الخيمة تحترق، ولم يكلف نفسه عبء السؤال عن حاجتنا للمساعدة في هذه اللحظة الحرجة، مع أنني كنت أحمل إليه رسائل توصية.

أمّا الحادثة الثانية فتتمثل في أنه كان لدينا طباخ من القاهرة؛ وإن من ولدوا في هذه /٣٠/ المدينة العاصمة يحبونها حباً لا يستطيعون معه الابتعاد عنها إلاّ على مضض. ومع ذلك فإن طباخنا العربي وافق على مرافقتنا، وهو يظن أننا لن نذهب إلى أبعد من جبل سيناء. ومنذ أن علم أننا سنمضي في رحلتنا حتى جدة، بل أبعد من ذلك، تراجع عن مرافقتنا، ولم يكن هناك ما يمكن أن يغريه بالسير خطوة واحدة، حتى النقود. لقد كنا في حيرة من أمرنا، لأننا كنا بحاجة ماسة إلى أي طباخ بسبب طبيعة الرحلة التي ننوي القيام بها. وكانت الوسيلة الوحيدة أن نحاول إيجاد طباخ في السويس، ويبدو أن أقدار الله ساعدتنا فساقت إلينا غاسبارو مازانتي Gasparo Mazzanti وهو من سكان فلورنسة الأصليين، وكان يتحدث اللغة التوسكانية Toscan بلهجة واضحة، خاصة بأهل فلورنسة، ولم يكن يعرف أي كلمة عربية، على الرغم من أنه أقام في مصر خمسة عشر عاماً، بعد أن ساقته إليها خلافات أسرية. وكان يمتلك مطعماً في الإسكندرية، وكان في هذه الأثناء موجوداً بالمصادفة في

السويس، وعرض علينا خدماته، فقبلنا، وقد كان على استعداد للذهاب معنا إلى آخر الدنيا من أجل عشر تلرات[1] Talari في الشهر. لقد قضى هذا الرجل الشجاع في خدمتي ثمانية أشهر كان خلالها مثالاً في التفاني والاستقامة. وإن مثل هذا الخلق أصبح نادراً كل الندرة لدى الأوروبيين الذين يقيمون في الشرق، حتى إنه ينبغي الوقوف عنده وتسجيله.

ترسل فرنسا إلى السويس قنصلاً، ولكنه بالطبع يفضل الإقامة / ٣١ / في القاهرة أو الإسكندرية على الإقامة في هذا المنفى. ويدير أعمال القنصلية التي لاتكاد تذكر في غيابه تاجر من السكان الأصليين اسمه كوستا Costa؛ وهو يوناني الأصل كما أظن. وهو لا يتقن لغة البلد التي يمثلها، ولكنه في مقابل ذلك يتقن الحديث بالعربية، ويحفظ عدداً من الحكايات والقصص الممتعة التي يوشّي بها أحاديثه. وقد كان أحد أبنائه يتكلم الفرنسية، فأفدنا منه فوائد جمة، ولا يسعني إلاّ الإشادة بما قدمه لي من خدمات جيدة إبان إقامتي.

---

(١) ريال ماريا تيريزا – ثالر (النمساوي)، وقد اشتهر في الجزيرة العربية باسم (الريال الفرنسي) وقد طغى هذا على الاسم الحقيقي للريال ... ويُعد من أشهر العملات الأجنبية التي استخدمت على نطاق واسع في الجزيرة العربية، وقد سكت من معدن الفضة في عام ١٧٨٠م ووزنها يوازي الأوقية الواحدة، وظل التعامل بها قائماً في أقطار الجزيرة العربية حتى وقت قريب بسبب ثبات وزنها وعيارها اللذين لم يتغيرا، وقد أطلق العامة عليه اسم (أبو طاقة) بسبب الرسم الموجود على ظهره. انظر كتاب: **تطور النقود في المملكة العربية السعودية**، الصادر عن مؤسسة النقد العربي السعودي، ١٤١٩هـ، ص ١٩.

كنا بحاجة إلى مركب يحملنا إلى جدة، ولم يكن الحصول على مركب يناسبنا بالسهولة التي نعتقدها، لأن مراكب السويس كلها مرقمة، ومسجلة، ليبحر كل واحد بدوره، دون أن يكون بالإمكان تغيير الدور أبداً. إذاً، لا نستطيع اختيار المركب الذي نريد، ونحن مجبرون على ركوب المركب الذي جاء دوره في الإبحار سواء كان مناسباً أم لا. لم يكن هذا الأمر ليناسبنا. ولم يكن بوسعنا تجاوز ذلك إلّا بموافقة الحاكم، وقد كان بلا شك سيوافق على استثنائنا من الدور، ولكنْ كان ينبغي طلب ذلك، وهو إجراء شكلي ممل.

وجدنا أنفسنا بفضل المصادفة وكوستا في غير حاجة لطلب مساعدة أحد، أو لدفع شيء؛ وهما أمران متطابقان في الشرق. لقد كان يرسو في المرفأ / ٣٢ / مركب من جدة، ولم يكن ينتظر للعودة إليها إلّا أن يجد أي حمولة كانت، لقد استأجرناه كاملاً لنا ولمرافقينا ولأمتعتنا مقابل مبلغ بسيط بلغ ألف قرش(١)؛ وهو بالتّأكيد مبلغ تافه إذا علمنا أن المسافة تبلغ ستة آلاف كيلومتر بحرية، ناهيك عن أنه كان على المركب أن ينتظرنا في الطور الزمن اللازم لزيارة جبل سيناء. وقد وقع كوستا نفسه عقداً بالعربية، وختمه بالخاتم القنصلي زيادة في الاحتراز.

ولم يكن بيرتون ليسافر معنا لأنه كان، كما قلت سابقاً، ذاهباً للالتحاق بوحدته العسكرية في بومباي. وإن الباخرة التي ستحمله إلى هناك مع الركاب البريطانيين الآخرين، التي كان وصولها إلى السويس منتظراً بين لحظة وأخرى، رست على بعد

(١) ذكر بيرتون ذلك في كتابه: **قصة رحلة شخصية إلى الحج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة**، مج ١، ص ١٧٨ – ١٧٩، من النص الإنجليزي، ط ١٩٦٤ م.

خمسة أو ستة أميال عن الشاطئ؛ لأن ضحالة البحر لا تسمح للقطع البحرية الكبيرة بالاقتراب أكثر، دون أن تتعرض للخطر. وكان أحد الزوارق التابعة للباخرة يؤمن الاتصال بينها وبين المدينة، ويقوم بعدد من الرحلات بينهما يومياً؛ وكان على متنه ثمانية أو عشرة من الشجعان الذين يرتدون ستراً بيضاء وأحزمة حمراء، وكان يسير على وجه الماء المستوي كأنه طائر النَّوْء[1] Pétrel.

وقدم لي الشيخ عبد الله، أعني بيرتون، عند الفراق تذكاراً منه نسخة من القرآن الكريم كان يحملها معه إبان / ٣٣ / الوقوف على عرفات؛ وهي الشعيرة التي يتوج بها الحج إلى مكة المكرمة، والتي تكفل للمؤمن أن يحمل اللقب الأثير (الحاج)، وكان على المصحف إهداء بالعربية كتبه بيرتون بخطه، يسجل الذكرى، ويحدد تاريخ تلك الأيام التي لا تنسى في حياة المسلم، ولعلها أكثر رسوخاً في حياة مسيحيٍ.

إذاً، غادرت السويس مع رفيق رحلة واحد، وهو إنجليزي أيضاً، يتحدث العربية جيداً، ويكتبها عند الحاجة، وكان يتجول مسافراً في الشرق منذ عدد من السنين، وإن حياة المغامرة التي كان يعيشها تستحق أن أشير إليها، وربما سأخصها فيما سيأتي بإشارة تكاد تكون غير مشرفة[2].

---

(١) طائر بحري صغير الجناحين يمعن في الطيران بعيداً عن اليابسة.

(٢) علمنا من حاشية خصصها بيرتون للإشارة إلى لقائه بديديه أن هذا اسم المرافق الذي لم يذكره ديديه أبداً هو Abbé Hamilton = القس هاملتون البريطاني وأشار بيرتون إلى أنهما دفعا ١٠٠٠ قرش (ما يعادل ١٠ جنيهات استرلينية) أجرة السنبوك من السويس إلى جدة. انظر نص **رحلة بيرتون** الموثق أعلاه، ص ١٧٨ – ١٧٩، الحاشية (٤). وانظر مقالنا: قراءة في رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عنوانها: "**إقامة في رحاب الشريف الأكبر – شريف مكة المكرمة**" تأليف: شارل ديديه، **مجلة الدرعية**، العدد ٨، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، ص ٨٥ – ١١٠.

الفصل الثالث

الطـــــور[1]

أبحرنا يوم الحادي والعشرين من يناير(كانون الثاني) في الساعة الثانية، ونُشرت الأشرعة بعد ذلك بقليل، ولكن إبحارنا لم يدم إلا فترة بسيطة، لأننا ألقينا المراسي في الساعة الرابعة عند سفح جبل أبو دراج[2] لقضاء الليلة هناك، مع أن البحر كان هادئاً، والريح مؤاتية، ولم يكن هناك ما يمنع مواصلة الإبحار. ولكن مراكب البحر الأحمر لا تمخر عباب البحر إلاّ في النهار[3]، ناهيك عن أننا كنا على مسافة قريبة من بركة فرعون[4]، وهو اسم يطلقه العرب / ٣٤ / على مكان هلاكه، ويظنون أنه، منذ ذلك، مسكون بجان أشرار: لذلك لا يخاطر البحارة بقطع تلك اللجة الضحلة ليلاً، إنهم يفعلون ذلك بصعوبة في وضح النهار، ولا يفعلونه إلا بعد أن يصالحوا الأرواح الشريرة بأن يقوموا بممارسات خرافية.

---

(١) وسميت بالطور نسبة إلى طور سيناء الذي هو أشهر جبالها ... وكانت تسمى قديماً "ريثو" وبقيت معروفة بهذا الاسم إلى القرن الخامس الميلادي. انظر: **تاريخ سيناء ...**، موثق سابقاً، ص ١٣٣. وتحدث عنها بيرتون في **رحلته**، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٦٥ – ١٦٧.

(٢) كتبها ديدييه: Mont Abou d Anadj، ولعل الصواب ما أثبتناه في الأصل، انظر: **رحلة بيرتون**، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٣٢. وكتبت في **الترجمة الإنجليزية لرحلة ديدييه**، موثق سابقاً، ص ١٨، Abu Anaj ولعل ما ذكرناه هو الصواب.

(٣) انظر: **رحلات في شبه جزيرة العرب**، بوركهارت، ترجمة د. عبد العزيز الهلابي و د.عبد الرحمن عبد الله الشيخ، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٣هـ / ١٩٩٢ م، ص ٣٩٠ – ٣٩١. وسنشير إليها بـ "**رحلات بوركهارت ...**". وانظر: **رحلة بيرتون**، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٦٠.

(٤) انظر: **رحلة بيرتون**، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٦٣، ١٦٥.

إننا هنا في قلب الذكريات الموسوية. فهناك غير بعيد على الأرض حمام طبيعي يحمل اسم نبي بني إسرائيل؛ حمام سيدنا موسى[١]، وقد تركنا وراءنا عيناً مشهورة تحمل اسمه أيضاً. عيون موسى[٢]، وتبدو بيضاء اللون على الشاطئ في وسط أشجار النخيل. ومن هذه العيون تتزود مدينة السويس بماء الشرب كما ذكرنا سابقاً. وهو مكان يقصده المسافرون. لقد زارها نابليون بونابرت نفسه إبان إقامته في مصر، دون أن يمضي في التقصي أبعد من ذلك. ويُروى أنه فوجئ خلال عودته بالمدّ، وتعرّض لخطر حقيقي عندما غمر الماء حصانه حتّى بطنه، ولم ينج من هذه العثرة إلاّ بمساعدة البدو الذين سارعوا إلى مساعدته. لنفترض أن إمبراطور المستقبل هلك هنا، ولنتصور التغيير الذي كان سيحدث في مصير العالم! ياله من مجال مفتوح لتخمينات[٣]! وينتصب في مقابل عين موسى تقريباً، على الجانب المواجه جبل

---

(١) ويقع في جبل صغير على خليج السويس على أربعة أميال من مدينة الطور فيه سبعة ينابيع كبريتية ... وبقرب هذا الجبل ميناء "أبو صويرة"، انظر: **تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها**، نعوم بك شقير، دار الجيل، بيروت ١٤١١هـ / ١٩٩١م، ص ٣٤. وسنشير إليه بـ "**تاريخ سيناء ...**".

(٢) عيون موسى: وهناك ميناء على ثمانية أميال من السويس، فيه محجر صحي قديم، انظر: **تاريخ سيناء ...** ص ١٥. وانظر: **رحلة بيرتون**، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٦٦ - ١٦٧.

(٣) جاء في كتاب: **الحملة الفرنسية في مصر، بونابرت والإسلام، هنري لورنس وآخرون**، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة ١٩٩٥، ص ٣٠٨: "وفي السويس، يتحدث بونابرت مع قباطنة سفن البحر الأحمر، وهو يبشر آنذاك باستئناف =

عتاقة[1]، كأنه عملاق من الحجارة شهد منذ أكثر من أربعين قرناً مرور رهط من المصريين على سفوحه، وعلى رأسهم فرعون /٣٥/ يطاردون بني إسرائيل.

كانت الليلة جميلة صافية، ولم يعكر صفو الهدوء إلا أصوات الأمواج التي تكسر على جانب المركب الراسي. وكان القمر يلقي على جبال الشاطئين ضوءًا خافتاً. كنت أرى تلك الجبال يكسوها الضباب، ولكنها بادية للعيان، وخلفيتها السماء المزينة بالنجوم، منها ما ينتمي إلى آسيا، ومنها ما ينتمي إلى إفريقيا، وقد جال بخاطري بانفعال، وأنا أراها، أنني هنا معلق، إن صح القول، بين عالمَيْنْ؛ إفريقيا التي أبتعد عنها، لأعود إليها قريباً، وآسيا الشاعرية التي تطؤها قدماي أول مرة.

يفصل بين العالمَيْنْ خليج ضيق، يبدوان كأن كلاً منهما يحدق بالآخر، كعدوين جاهزين، لأن يلقي أحدهما بنفسه على الآخر. ولكن قوة التوسع وروح الغزو التي

= العلاقات التجارية خاصة مع الحجاز. والحادث المهم الوحيد هو أن القائد وعدداً من رفاقه الذين يضلون طريقهم خلال ليلة ٢٨ ديسمبر، يفلتون بصعوبة من الغرق، حيث يصعد مد البحر بسرعة بالغة في تلك المنطقة. وهو يشير بنفسه إلى أن ذلك كان من شأنه أن يمثل موضوعاً جد رائع لموعظة تدور حول فكرة فرعون جديد ...".

(١) قال بيرتون في رحلته (الترجمة العربية)، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٦١: "... وعند غروب الشمس رسونا – ولا زالت السويس على مرأى منا – تحت جبل عتاقة مستخذين منه ملاذاً يحجب الريح عنا، وعلى الساحل الشرقي كانت توجد قلة من بساتين النخيل متجمعة حول (عيون موسى) أما في الغرب فيقع بين – حيدين برجيين – مصب وادي (مسيل) الطوارق أو وادي موسى أو وادي البادية الذي خرج منه بنو إسرائيل إلى البحر البردي Sedge The Sea of وفقاً لما يقوله الأب سيكارد Sicard .

تنتج عنها ينتميان إلى آسيا، وقد دفعاها إلى مد سلطتها خارج حدودها في عصور التاريخ المختلفة، وجعلاها في الماضي تؤدي دوراً رائعاً.

أما إفريقيا فهي على العكس عنصر المقاومة والثبات: مع بعض الاستثناءات المعدودة، القرطاجيون على سبيل المثال الذين امتدت سلطتهم بعيداً، وحدثتهم أنفسهم في لحظة بالاستيلاء على ثروة روما، علماً بأنهم من أصل فينيقي؛ أي آسيوي، ولم تواجه إفريقيا / ٣٦ / الغزاة الخارجيين إلا بمقاومة سلبية، تحولت بعد ذلك إلى مقاومة يخشاها الأعداء، ولا يمكن في الغالب قهرها بسبب الظروف الطبيعية للأرض والطقس. كانت هاتان القارتان الغامضتان تقبعان هنا أمامي، وكأنهما أكبر مشكلتين تَعْتَرِضان دراسات الباحثين، وتأملات المفكرين. إحدى المشكلتين، أعني آسيا، كاد العلماء من زمن يصلون إلى حل نصف أسرارها، ويمكن أن نتوقع حَلّ مشكلتها كلياً في المستقبل القريب جداً. في حين أننا لا نكاد نلمح التخوم الأولية للمشكلة الثانية، إفريقيا التي استعصت حتى اليوم على الجهود المتعاضدة للعلم والحرب والتجارة. وإن أكثر الرحلات الاستكشافية تخطيطاً، التي نُفذت بشجاعة فائقة لم تُشْتَهر إلاّ بالمصائب التي آلت إليها ! فكل عام يشهد هلاك واحد من أولئك الباحثين الشجعان، أما أولئك الذين يعودون؛ فإنهم يعودون بخفي حنين، وإن القضية، التي يذهبون من أجلها تظل بعد عودتهم بِكْراً كما كانت عليه عند انطلاقهم. وليس علينا إلاّ أن نلقي نظرة على أحدث الخرائط وأكملها لهذه

المنطقة من العالم، ليغلبنا الحزن، ونجد أنفسنا معنيين بالفراغ المريع المنتشر على تلك الخرائط: عدا محيط صغير، مازال يفتقر هو أيضاً إلى الأسماء الصحيحة، أما الباقي فهو بياض واسع نجهد أنفسنا بلا طائل لملئه، وربما لن نستطيع أبداً ملأه. إن تلك المساحات الواسعة من الأراضي المجهولة تُشْعِرُ رؤيتها بالخوف / ٣٧ / وتحبط، بقدر ما ترعب. هل يُعقل أن الجنس البشري بعد ستة آلاف سنة من الوجود، لا يمتلك إلاّ معلومات قليلة ومضطربة عن الكون الضيق الذي يسكنه؟ كان القمر مايزال مضيئاً عندما نشرنا أشرعتنا عند طلوع الشمس، وعبَرْنا بركة فرعون المخيفة، وأبحرنا حتى المساء في ظروف مؤاتية، وكنا لا نزال نرى الشاطئ الإفريقي، وخصوصاً جبل غريب الضخم، وإن كان الشاطئ الأفريقي قد بدأ يضيق شيئاً فشيئاً بالنسبة إلى الشاطئ الأسيوي. وإن أقرب الجبال من هذا الشاطئ هما جبلا[1] جقم (؟) Djkem ودعد (؟) Da' ad ، وكلاهما أجرد. لقد انقضى اليوم دون أي حادث. ورسا مركبنا عند الغسق في خليج صغير، آمنٍ كل الأمان، يتشكل من انحناء بسيط من جبال عنيزة[2] (؟) Nayazat، الذي ينتمي شأنه شأن الجبلين السابقين إلى السلسة الجرانيتية لسيناء. ومرت الليلة الثانية كما مرت الأولى. وفي اليوم التالي، كنا عند

---

(١) كتب اسم الجبلين في الترجمة الإنجليزية لرحلة ديدييه، موثق سابقاً، ص ١٩، Jakam and Da'ad = جقم ودعد.

(٢) كتبت في الترجمة الإنجليزية لرحلة ديدييه، موثق سابقاً، ص ٢٠ كما هي في الأصل الفرنسي.

طلوع الفجر قد أبحرنا، تساعدنا في ذلك ريح منعشة ومؤاتية، ولم نلبث أن تجاوزنا رأس صويرة، وعند الظهيرة كنا في الطور[١] Tor وليس Thor كما تكتب على الخرائط. هأناذا في آسيا، ولكن هذه الأم القديمة للجنس البشري، بدت لي للوهلة الأولى بملامح مغرية. اشتهرت الطور في غابر الأزمان بلؤلئها وفيروزها[٢]، ولكنها منذ زمن طويل نسيت صيد / ٣٨ / اللؤلؤ، وفقدت مناجم الفيروز، وأجهل ما ستكون عليه في الأيام القادمة. ولكنني أعلم اليوم أنها بلدة صغيرة كريهة، تسكنها جالية يونانية غير مضياف وجشعة، تجعل المرء يحن إلى العرب، بل إلى الأتراك، وشيخ البلد يوناني من سكان المدينة يسمى كوستاندي Costandi، كنت أحمل له رسالة من كوستا، ولكنه لم يكلف نفسه عناء تقديم القهوة أو الشيشة، وهما علامتان أساسيتان من علامات اللياقة الشرقية في مجال التمدن. تقدم القهوة لكل الناس دون تمييز، وتقدم الشيشة إلى من هم على منزلة باعتبارها علامة من علامات الاحترام، وإلى الأقران باعتبارها من علامات الشهامة. ويقيم في الطور أحد العرفاء البسطاء (إنباشي)[٣] مع حامية مؤلفة من عشرة جنود إقامة سيئة، وقد كان أكثر كرماً من اليوناني: إذ

---

(١) انظر حديثاً مفصلاً عن مدينة الطور وتاريخها في كتاب: **تاريخ سيناء ...**، موثق سابقاً، ص ١٣٢ — ١٣٨.

(٢) انظر: **تاريخ سيناء ...**، موثق سابقاً، ص ٧٩.

(٣) إنباشي: رتبة عسكرية من رتب الجيش المصري العثماني في مصر، استحدثت في عهد ولاتها من أسرة محمد علي باشا، يقابلها اليوم وفق المصطلحات العسكرية رتبة عريف ... وعلامتها شريط واحد مصنوع من القماش معلق على صدر حامله. انظر: **معجم المصطلحات ...**، موثق سابقاً، ص ٤٧.

على الرغم من أنه كان فقيراً حتى إنه لا يستطيع تقديم القهوة كما تقتضي عادات الضيافة، إلاّ أنه أجبرني على استخدام شيشته الخاصة لأنه لا يملك أخرى، وقد فرش لي على المقعد الحجري الذي كان يتخذه مقعداً، أجمل سجادة يملكها . إن في الطور مسجداً يقع في موقع جذاب على شاطئ البحر، وفيها أيضاً كنيسة إغريقية وسخة ومظلمة، بيد أنني وجدت فيها عدداً من الكتب واللوحات الغريبة، واستقبلني فيها راهب عجوز يضع نظارتين. أما من الناحية الروحية فإن المدينة، إنْ كان هناك مدينة، تابعة لرئيس الأساقفة الإغريقي لجبل سيناء، وسياسياً لباشا مصر الذي تمتد سلطته حتى هذا المكان. ونشاهد فيها أيضاً بقايا سور كان يحيط بالمكان، وبقايا حصن صغير / ٣٩ / أنشأه السلطان سليم الأول(١)، الذي حَصّن كل المواقع المتقدمة في إمبراطوريته. لقد بُنِيَ الحائط والحصن، وكذلك بيوت المدينة من الحجارة المزينة بالأصداف التي تكثر على شواطئ البحر الأحمر. إن أفضل ما في الطور ماؤها: وإن المراكب التي تمر في هذه المنطقة لا تعدم التزود بالماء وتخزينه؛ مما يمنح ميناء الطور(٢)

---

(١) انظر: تاريخ سيناء ...، موثق سابقاً، ص ١٣٨، وسليم الأول (١٤٧٠ – ١٥٢٠ م) سلطان عثماني من (١٥١٢ – ١٥٢٠) فتح فارس، وسورية، ومصر، ويعد أول الخلفاء العثمانيين (عام ١٥١٧ م).

(٢) جاء في كتاب: تاريخ سيناء ...، موثق سابقاً، ص ١٣٣: "... ولهذه المدينة ميناء حسنٌ له جرف مرجاني يمتد عشرات من الأمتار تحت الماء حتى أنه يمكن للسفن البخارية الاقتراب من البر بسببه. وهو ضيق جداً لا يسع إلا السفن الصغيرة ...".

بعض الحيوية والحركة. يحيط بالمدينة سهل رملي، لا نجد فيه من النبات إلاّ طاقات متفرقة من نبات قصير ومُعَمّر يكثر في كل الصحاري، وله ثمر صغير أحمر له طعم لذيذ. وتغمر مياه المد القسم الأدنى من السهل، ويترك المد بعد انحساره في ذلك القسم ملحاً، ويمتّد ذلك السهل من جهة الشرق حتّى يتصل بسلسلة طويلة من الجبال لها هيئة سوداء قاتمة، وتشكل قمة سربال الجليلة نقطة الذروة فيها، وتَبْعدُ بعض الأميال عن المدينة صعوداً نحو الشمال غيضة أشجار تكاد تكوّن غابة من النخيل، أشجارها شديدة الكثافة، يلتصق بعضها ببعض فلا نستطيع المرور عبرها إلا بصعوبة بالغة. وتعود ملكية هذا البستان في معظمها إلى دير جبل سيناء، ولكنها ملكية تكاد تكون شكلية لأن المالك لا يستطيع أبداً أن يجني ثمارها؛ لأن بدو الجوار يسارعون إلى جنيها / ٤٠ / ويستولون في كل سنة على بواكر المحصول، بل على المحصول كله، وقد فكر الرهبان في وضع أحدهم للحراسة، ولكن الناطور المتنسك أغلق على نفسه في حصن مازلنا نرى بقاياه، ولا يمكن الوصول إليه إلاّ بارتقاء السلم، وكان ينتابه ذعر شديد من السارقين حتى إنه لم يكن يغادر مكان سكنه، ولا يسمح لأحد بالدخول إليه باستثناء خادم مكلف بأن يحمل إليه في كل أسبوع الماء والطعام. وكان البدو في أثناء ذلك يجنون غصباً التمور التي ينبغي أن يحرسوها ويأكلوها. إنهم يعيشون على الأرض التي يملكها الدير، وكأنهم في بلد من بلاد الفتوح.

إن هـذه الواحـة[1] الجميلة محمية من الشـمال بجبل حمّام الذي تتباين صخوره الكلسـية مع الخضـرة الندية التي تكسو طوال العام العينين الغزيرتين اللتّين تتفجران من أسـفل الجبل: إحداهما شـديدة البرودة، صـافية كل الصفاء، ولها طعم لذيذ؛ أما الأخرى فهي على العكس حارة، يكثر فيها الحديد، ومُشرَبة تماماً بالكبريت. وقد بني على هـذه الأخيرة بناء[2] محكم الإغلاق، جيد المواقع لتوفير الراحة لمن يريدون السباحة فيها، ولم يفتني الاستحمام فيها؛ وقد كان حماماً رائعاً بقيت أياماً طوالاً بعده أشعر بالنظافة من أثره. يُسَمّى هـذا الحمّام المعدني في البلد: حمّام فرعون. أمّا العين المجاورة / ٤١ / فهي عين مشهورة، لها مكانة عالية[3]، تعرف باسم: عين موسى. ونلاحظ هنا أيضاً الذكريات التوراتية. وينتصب وراء جبل حمّام جبل آخر اسمه جبل الناقوس؛ وهي تسـمية غريبة في بلد لا يعرف النواقيس، وهي ممنوعة فيه. وتزعم الحكاية الخرافية: أنه كان في القديم دير مسيحي في هـذه البقعة، وأن الأرض

---

(١) واحة ليست في المعاجم العربية و لم أجد إلا الواحات واحدها واح على غير قياس وقال ياقوت الحموي في **معجم البلدان**، ط. دار صادر، بيروت، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ م، ج ٥، ص ٣٤١ عـن الواح: لا أعرف معناها وما أظنها إلا قبطية. ويتحدث الجغرافيون عن منطقة الواحات في مصر.

(٢) ذكـر **بيرتون في رحلته**، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٦٦ أنه مبنى صغير من طابق واحد ... بناه عباس باشا ليستخدمه كاستراحة، وكان مطلياً باللون الأبيض الساطع، ومزيناً بستائر من الكاليكو Calico ذوات ألوان متدرجة رائعة.

(٣) قـارن بما يذكره **بيرتون في رحلته**، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٦٦ – ١٦٥؛ إذ سمى العين الحارة شتاء والباردة صيفاً ولها طعم مالح ومر: عيون موسى، وسمى العين العذبة الغزيـرة: بير موسى.

ابتلعته في أعماقها، وأننا منذ ذلك الوقت نسمع أصوات النواقيس كل يوم عند العصر؛ أي في الساعة الثالثة بعد الظهر. وإنْ كان صحيحاً وجود مثل هذه الأصوات المعجزة التي لم أستطع التحقق من وجودها؛ فإن سبب حدوث ذلك قد يكون سيلاً في داخل الأرض، أو بركاناً يتفجر تحت الأرض: وإن وجود العينين المتفجرتين اللتين تحدثنا عنهما قبل قليل، إحداهما قرب الأخرى، مع أن طبيعة كل منهما، ودرجة حرارته مختلفة عن الأخرى اختلافاً كلياً، يدل بما لا يترك مجالاً للشك على الوجود المتزامن، والفعل المتقطع أو المستمر، للماء والنار في أعماق الأرض الغامضة[1]. ولما عدنا من هذه الرحلة، وجدنا ريّس مركبنا؛ والريس اسم يطلقه العرب على قباطنة المراكب، جالساً مع بعض تجارته على باب منزل متداع يقع خارج المدينة، يحميه من الشمس إفريز من سعف النخل، تحمله قضبان من الحديد طويلة مغروزة في الرمل: وتلك هي صورة المقهى في الطور، ونحتسي فيه مقابل عدد قليل من البارات القهوة قبل كل شيء، ثم الشيشة المعَمّرة، والماء البارد حسب الطلب. /٤٢/ يقدم كل ذلك صاحب المقهى بنفسه، عن طيب خاطر، ولكن إياك أن تطلب منه أي شيء آخر. كان تجارتنا هناك يجلسون القرفصاء، والشيشة في أفواههم، وكؤوس القهوة في أيديهم؛

---

(١) انظر: **تاريخ سيناء ...**، موثق سابقاً، ص ٣٥؛ وفيه تعليل لصوت النواقيس: "... وقد كثرت الأقوال في تعليل ذلك؛ وأشهرها أن الرمال بانهيالها تمر على صخور مجوّفة في باطن القليب فتحدث ذلك الصوت". وهذه الظاهرة معروفة في كثير من الصحاري في الجزيرة العربية، وقد تكلم عليها عبد الله فيلبي في كتابه: **الربع الخالي بشيء من التفصيل**.

وكم أصبحت أثيراً لديهم، عندما ضاعفت لهم كمية القهوة والدخان أربع مرات، بل عشر مرات على حسابي، والعرب يقدرون ذلك كثيراً. لقد أصبح أولئك البحارة، بعد أن شربوا ذلك القدر الكبير من القهوة، ودخنوا كمية كبيرة من التنباك على حسابي، يعرفون أنني مستعد لأن أقدم لهم دائماً مثل ذلك. ويستهلك العربي كمية كبيرة من القهوة والدخان. ذكرت فيما مضى أن أحد بنود عقد استئجار السفينة الذي وقعناه في السويس بحضور كوستا، يقضي بأن ينتظرنا المركب في الطور إلى حين عودتنا من الرحلة إلى جبل سيناء، وحُددت أيام الانتظار بخمسة. ولكي يردّ الريس على كرمي بأحسن منه قال لي راضياً: إنه لا ينبغي عليَّ إرهاق نفسي، وإن باستطاعتي القيام بالرحلة على مهل، وإنه سينتظرني الوقت الذي يناسبني. وقد كنت قد تعلمت من التجربة، وعلى حساب مصالحي في بعض الأحيان، أن العربي لا يعرف الاستعجال أبداً؛ وقد أُعجبت بصبر هذا الريس المتطوع؛ ولو كنت في مكانه، محكوماً عليّ، شأنه، الإقامة لأسابيع طويلة في هذا المكان النائي، لم أكن بالتأكيد لأنظر للأمر بهذا القدر من التعقل: لأنه ليس أمام المرء في مثل هذا الجحُر، إلاّ الرحيل / ٤٣ / وقد غادرته في اليوم التالي. تركنا القسم الأعظم من أمتعتنا في المركب، يحرسه أحد الخدم، ولكي نتخفف في أثناء السفر، لم نحمل معنا إلا ما لا يمكن الاستغناء عنه؛ فتقلصت قافلتنا نتيجة ذلك إلى ستة جمال، منهما اثنان من الهجن، أو يُزْعم أنهما كذلك. لقد علموني في طفولتي، ومازالوا على الأرجح يعلمون الأطفال حتى اليوم، أن للهجان سنامين في حين أن الجمل ليس له إلا سنام واحد؛ وقد رأيتها مرسومة كذلك

في عدد كبير من كتب التاريخ الطبيعي، وهذا خطأ: ليس للنوعين إلاّ سنام واحد، ولا وجود في أي مكان، كما أعلم، إن لم يكن في التبت، لحيوان من هذا النوع، له سنامان. إن مقام الهجن بين الجمال كمقام فرس الركوب بين الخيل التي تجر العربات، ولا يتميز منها إلاّ بدقة أعضائه، وبكرم نسبه. نمتطي الأول، أما الثاني فيستخدم لحمل الأمتعة. إن الجمل بطيء الحركة ثقيلها، وصعب المراس، ويهتز جسمه في أثناء سيره اهتزازات مزعجة جداً، تسبب في غالب الأحيان دواراً كدوار البحر لأولئك الذين لم يعتادوا ركوبه؛ أما الهجان فإنه، على العكس مما سبق، ذو خطوة واثقة ومريحة، وسيره لطيف، وإذا أُحْسن تدريبه فإن راكبه يستطيع في أثناء سيره تناول فنجان من القهوة دون أن تسكب منه نقطة واحدة، وهو سريع / ٤٤ /، يستطيع قطع ما يربو على أربع مراحل في اليوم، دون أكلٍ أو شرب. ويمضي الخيال العربي إلى أبعد من ذلك، فيزعم أن الهجان الأصيل يقطع أربعاً وعشرين مرحلة في اليوم الواحد. كانت المرة الأولى التي أمتطي فيها هجاناً، لذلك بدوت منفعلاً بعض الانفعال، خصوصاً أن الهجان الذي كان مخصصاً لركوبي كان طويل الساقين، وكان رَحْله يشبه كل الشبه أرحل البدو الذين قابلتهم في صحراء السويس، وكان له جرابان طويلان يتدليان على الجانبين. كان الرحل نفسه عالياً علواً كبيراً، وكان، كالمعتاد، موضوعاً في أعلى السنام مما يجعله أكثر علواً أيضاً. كنت على بُعْد عشرة أقدام من الأرض. ناهيك عن أن الرحل العربي عريض، ولا يمكن الركوب عليه برجلين متدليتين، ولا نستطيع الاستواء عليه إلاّ جلوساً، والقدمان ممدودتان إلى الأمام على عنق

الحيوان، وليس لتوجيه الحيوان الوجهة التي تريدها، إلا مجرد زمام. ولمّا أنهيت رحلة الصعود، ورأيتني معلقاً في هذا العلو، ولجة عميقة على يميني، وأخرى على يساري، تساءلت إن كنت لن أصاب بالدوار؟ وشعرت بأنني غير مستقر على قاعدتي، وأنني سأقع منذ الخطوة الأولى. لم تكد تلك الآلة المخيفة تبدأ السير حتى فقدت / ٤٥ / توازني تماماً، وإن كنت لم أقع فلأنني تمسكت بقربوسَيْ الرحل اللذين يؤديان للمبتدئين بركوب الهجن خدمة جلى، وأحدهما مثبت في مقدمة الرحل، والثاني في مؤخرته، ويبلغ طولهما قدماً واحداً. لم تدم فترة تدريبي زمناً طويلاً، وسرعان ما اعتدت على رُكوبي الجديد، حتى أصبح بإمكاني إناخته عندما أريد النزول، وإنهاضه بعد الصعود دون أن أكون، كما في البداية، بحاجة إلى مساعدة أحد. وانتهى بي الأمر إلى اعتياد ركوب ذلك الرحل، المقلق في البداية، والذي صرت أجلس عليه براحة كما لو أنني أجلس على كرسي وثير بفضل السجادة التي تغطيه. وأعجبت كل الإعجاب على الخصوص بالخرجين[1] اللذين يتدليان على الجانبين، واللذين يسمحان بأن تجد بالقرب منك كل الأشياء الضرورية للسفر. باختصار، إنني لم أجد بين وسائل الانتقال المختلفة التي جربتها على الأرض، وفي البحر، أفضل وأسهل من الهُجُن، وليس بين تلك الوسائل ما هو أكثر ميزات وأقل مساوئ منها؛ جربتها مدة تقارب ستة أشهر متتالية، دون أي حادث، ودون تعب، ودون مزعجات. / ٤٦ /

(١) خرج وجمعه خروج: وهو وعاء من شعر أو جلد ذو عدلين يحمل على ظهر الدابة، توضع به الأمتعة. انظر: **رحلة بيرتون**، موثق سابقاً، ج ١، ص ٤٢، وتعليق المترجم.

الفصل الرابع

جبل سيناء

لئن كنت حزيناً لأنني وجدت طريقاً عريضة بين القاهرة والسويس، لقد كنت أكثر حزناً عندما وجدت طريقاً أخرى بين الطور وجبل سيناء . يمكن أن نسوغ وجود الأولى بأنها ضرورية، ولكن هذه الثانية، ما الحاجة إليها ؟ ليس هناك أي ضرورة لها، وليس هناك ما يسوغ وجودها . ولكي أوضح سبب وجودها ينبغي أن أعود مرة أخرى إلى عباس باشا .

رأينا فيما سبق أن عباس باشا الذي وجد أن العباسية قريبة جداً من القاهرة، أمر ببناء قصر دار البيضاء في قلب الصحراء، ولكنه بعد ذلك وجد أن الدار البيضاء ليست بعيدة عن كل ما يود الهروب منه؛ فزيّن له خاله أن يأمر ببناء قصر جديد على واحدة من أكثر قمم سلسلة جبال سيناء جدباً، وأكثرها كآبة، وأكثرها صعوبة وصول. هنا على الأقل لن يرى قبعات، ولن يطارده القناصل في ذلك المكان العالي.

ومنذ أن تمّ اختيار موقع البناء، وقبل أن يُبدأ بتأسيسه، أو إرساء مخطط هذا القصر المعلق بين الأرض والسماء، كأنه وكر طير من الكواسر، أمر عباس مباشرة بشق طريق لكي يذهب / ٤٧ / إليه بالسيارة؛ لأنه أصيب بسبب فجوره بعاهة منعته من ركوب الخيل والهُجُن. وما إن صدر الأمر حتى بدأ العمل بالمشروع بإشراف مهندسيْن فرنسيين يديران لإتمامه جيشاً من العمال المهرة. كان ثلث الطريق قد تمّ إنجازه، عندما مات عباس، وأظن أن الأعمال قد توقفت بعد موته، ولم يعد

إنشـاء هذا القصر الخيالي في جبل سيناء وارداً . وزعم الناس أن هذا المشروع المتهور كان يخفـي وراءه نوايا سياسية خفيـة؛ فقد كان عباس باشا منذ بعض الوقت قد بدأ يستميل البدو القاطنين على الحدود السورية، ويُقرّبهم منه، ويستقبلهم بترحاب، ولما ذهب لزيارتهم بنفسـه، وعدهـم بإعطائهم أحد أبنائه لينشأ بينهم، ويتخلق بأخلاقهم وعـاداتهم، وهـذه عـادة تمـارس في الجزيرة العربية إذ يترك أبناء الأشراف أسرهم بعد عدة أيام من ولادتهم، وينتقلون من حضن أمهاتهم إلى خيام رجال القبائل، لكي يتدربوا على تقوية أجسـادهم، ويعتادوا تحمل التعب، ولكي تلهج الركبان بأسمائهم. تلك كانت، كما يقال: النية الخفيـة، والهدف السري لباشـا مصر. كان يأمل، وهـو يرى الباب العالي متورطاً في حرب مدمرة مع روسيا، الاستفادة من الإنهاك الذي أصابه ليستولي من جديد، بمسـاعدة البـدو، على ما كان يسيطر عليه جده محمد علي / ٤٨ / من مواقع في سورية أجبرته أوروبا على التخلي عنها .

وكان في هـذه الأثناء، وبانـتظار الفرصـة المناسـبة، يرسـل لقـادة جيشـه عـلى مضض، قليلاً من المال مما يحتاجونه في الحرب. وعندما سمع نبأ كارثة سـينوب[1] Sinope البحرية التي تم فيها إغراق الأسطول البحري المصري كله تقريباً، بدأ يكيل الشـتائم المقذعة، ليس للقيصر، وإنما للسلطان التركي؛ وأود في هذا المجال أن أسوق حادثة توضح طبيعة الرجل .

(١) سينوب Sinope (بالتركية Sinob) مدينة وميناء آسيوي في تركية (الأناضول) حطم فيها الـروس في عـام (١٨٥٣) الأسطول التركي الذي كان يضم بين قطعاته الأسطول المصري.

نتذكر أن أحد قادة السفن المصرية قام في ذلك اليوم المشؤوم بتفجير نفسه وسفينته بدل أن يستسلم للعدو؛ وقد أبدى كل الناس إعجابهم بهذه المأثرة الجريئة، باستثناء عباس: لأنه عاجز عن إدراك معنى الشجاعة، والإخلاص، لم ير في ذلك إلاّ أنه خسر سفينة حربية، وصرخ بغضب: عاهر Pesvink؛ وهي شتيمة مقذعة بالتركية، كان لا ينِي يرددها، شأنه شأن الغالبية العظمى من الأتراك، وهي بالإيطالية Ruffiano، لقد كانت تلك الشتيمة هي كل التأبين الذي استحقه منه ذلك البحار الشجاع، ولو استطاع العودة من لجة المحيط لدفنه عباس دون شك في التراب لكي يعاقبه على بطولته.

تبلغ المسافة من الطور إلى دير جبل سيناء خمسة وعشرين فرسخاً؛ وهذا يعني أن الجمل يحتاج إلى خمس وعشرين ساعة لقطعها. وإن الطريق التي كنت إن صح القول: أدشنها، باعتباري أحد أول / ٤٩ / المسافرين عليه، إن لم أكن أولهم، يتجه من الشمال منحدراً نحو الشرق؛ منطلقاً من البحر، ثم يبتعد عنه ليقترب من جبل سربال(١)، ولو كان بالإمكان، بدل أن يدور حول ذلك السور الطويل من الجرانيت، أن يخترقه، لأصبح أكثر قصراً. ولكن الأمر غير ممكن. ولا يتميز الطريق عن الأرض التي

---

(١) أشهر جبال سيناء بعد جبل موسى، يقع إلى الشمال من مدينة الطور والغرب من جبل موسى على نحو ثلاثين ميلاً من كل منهما. انظر: **تاريخ سيناء ...**، موثق سابقاً، ص ٣٣. وفيه ص (٤٥٤) أنه منحدر انحداراً عظيماً، ورأسه يبعد عن سفحه بعداً سحيقاً، ليس في سفحه سهل كبير أو صغير، وليس هناك إلاّ وادي فيران، وقعره وادي عليات الآتي من جبل سربال، وكلا الواديين ضيق.

تحيط به إلاّ بصلابته؛ مما يسمح للجمال بالسير عليه بسرعة أكبر من سرعة سيرها على الرمل الذي تغوص فيه أخفافها، على الرغم من أنها عريضة، وليس على الطريق محطات أو عربات نقل، كما نجد على طريق السويس، ولا يسلكها أحد، ولم نقابل عليها أحداً طوال يوم كامل، أخطأت، لقد قابلنا أحداً، وهاكم من هو.

جماعة من البدو، كانوا متوقفين على قارعة الطريق مع جمالهم، ويبدو أنهم كانوا ينتظرون مرورنا، وقد بدا ذلك واضحاً؛ إذ ما كدنا نصل إليهم حتى دار نقاش حاد بينهم وبين جَمَّالنا، ولم أستطع معرفة الموضوع الذي دار النقاش حوله بالتحديد، توقعت فقط بسبب كلمتي جمل وتلري Talari اللتين تكررتا أكثر من مئة مرة، أن الحديث يدور حول الجمال، وأن القضية لها علاقة بالنقود.

ينقسم بدو الطور (الطوَرة) إلى عدد من القبائل، منها: الصوالحة والمزينيين، والعليقات[1]، وتسيطر كل قبيلة على مساحة محددة من الصحراء، وتقتسم بينها حق تأجير الجمال / ٥٠ / للتجار والمسافرين، وينتج عن هذه الترتيبات خلافات مستمرة، وغالباً ما تكون معقدة كل التعقيد؛ وقد كنا على الأرجح نشهد خلافاً من هذا النوع، دون أن نتدخل فيه بالطبع من قريب أو بعيد.

ومهما يكن من أمر، وبعد كلام كثير، أنزلوا حمولة اثنين من جمالنا، واستبدلوا بهما اثنين آخرين، ويبدو أن هذه العملية أرضت كل الأطراف. أما نحن فإننا استفدنا من هذا التوقف الطويل، فطلبنا من الخادم المكلف تحضير القهوة أن يحضرها؛ لأن لكل

---

(١) قارن بما في **رحلة بيرتون**، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٢٤ — ١٢٥.

خادم في الشرق وظائفه المحددة، ثم قدمناها إلى ذلك الجمع، وافترقنا ونحن على وفاق تام.

لقد دار ذلك المشهد السلوكي على تخوم إحدى واحات النخيل التي كانت أقل جمالاً وأقل نباتاً من واحة حمّام التي تجاورها، والتي تعد بلا شك امتداداً لها . وقد كان هناك في مكان غير بعيد بئر عامة (يستطيع كل الناس ورودها)، وكان يحميها من غزو الرمال مثابة[1] مبنية. أقول: بئر عامة؛ لأن الآبار في الصحراء تمتلكها عادة القبيلة التي توجد تلك الآبار في أرضها، وتطلب تلك القبيلة مكوساً من الأجانب الذين يأتونها، ومن مسافات بعيدة كل البعد في بعض الأحيان، لإرواء قطعانهم وأسرهم. ولم نجد بعد أن تجاوزنا هذه الواحة أي نباتات أخرى إلا بعض الأشجار أو الجنيْبَات[2] الجافة / ٥١ / التي لا ظلّ لها، ولا يكاد يكون لها أوراق.

لقد كان الطقس حتى هنا جميلاً، ثم أصبح فجأة ينذر بالخطر؛ فقد أصبح لون السماء، داكناً ومصفراً، يوحي بالشؤم، وملأت السماء في وقت قصير السحب

---

(١) Margelle = مثاب (مثابة) البئر؛ وهو حجر منقور يثبت حول فوهة البئر "عن المنهل".

(٢) Arbustes Rabougris = الجنَيْبات الجافة مفردها جَنْبة: وهي الأشجار التي لا ظل لها لصغرها، وتظل صغيرة حتى لو شاخت، وقد ترجمها مترجما رحلات بوركهارت: جُنْبيات وذكرا في الحاشية، ص ٣٧٣ - ٣٧٤ ما نصه: "ورد في معجم الشهابي للعلوم الزراعية ما ننقله باختصار: نبات معمر خشبي يتميز عن الشجر بقلة ارتفاعه وإن شاخ، ويبدأ نمو فروعه من قاعدته، ولا يجوز تسميتها شجيرة لأن الشجيرة تكبر فتصير شجرة، وفي لسان العرب أن الجَنَبْة هي ما فوق البَقْل، ودون الشجر".

السوداء، وحَلّ حولنا ظلام مُغم، وهاج البحر يزأر من بعيد، وقصف الرعد وراء الجبال قصفاً يُصم الآذان، وكان صوته يقترب منا عند كل قصفة، وبدأت قطرات المطر الكبيرة تسقط علينا . وكان كل شيء يرهص بحدوث عاصفة هوجاء . ولم يَبْدُ على الجمال والجمّالة أي قلق، ولم يخطئهم حسهم؛ إذ هدأ البحر فجأة، كما كانت الحال عند بدء العاصفة، وابتعد الرعد، ثم توقف، وتفرقت السحب بسرعة، وعاد إلى السماء صفاؤها المعتاد . لقد كان على يسارنا طوال يوم المسير سهل رملي معزول يمتد حتى البحر الذي لا نكاد نراه إلا لماماً، وكانت على يميننا سلسلة جبال سربال الجرداء . لقد وصلنا في المساء إلى آخر الطريق بعد ثماني أو تسع ساعات من المسير. لقد كانت خيام الجيش المكلف إنشاء الطريق منصوبة في مدخل وادي حبران العريض على صف واحد، ومتقاربة إحداها من الأخرى، حتى إنها تولد شعوراً بالروعة وسط هذا القفر / ٥٢ / الصحراوي. وتتباين بلونها الأبيض مع خلفية الغروب التي كان الظلام قد بدأ يغشاها .

كنا قد مررنا بالمعسكر وهو خالٍ، لأن وقت مرورنا صادف خلال ساعات العمل. وقد كان الجنود يعودون إليه، وأدوات العمل على أكتافهم، وكأنهم مجرد عمال بسطاء، بعد يوم عمل صعب. إن هذا التجمع الكبير من الرجال في بلد يخلو من كل شيء، استنفد موارده، لما طالت إقامته حتى انتشر الجوع بين سكانها، ولم يعد لدى البدو ما يأكلونه، ولا ما يطعمون به جمالهم، وقد حاولنا عبثاً البحث في الطور عن خروف نحتاجه خلال السفر، ولم نجد بغيتنا بأي ثمن كان. ثم شاءت المصادفة أن

نجد واحداً، كان صاحبه يذهب إلى المعسكر ليبيعه، وقد طلب منا مقابله ثمناً مرتفعاً، كان الحيوان المسكين هزيلاً مما جعل طباخنا غاسبارو مازانتي يرفض بعناد إتمام الشراء .

لقد كانت حاجات الجنود الضرورية كلها تُستَقْدم من القاهرة، ولنتخيّلْ في ظل هذه الأحوال الثمن الذي تدفعه مصر لإرضاء النزوات الشاذة لفرعونها الجديد .

أمّا المهندسان الفرنسيان المكلفان إنشاء ذلك المشروع المكُلف وغير المفيد، واللذان سبق لي الحديث عنهما، وهما : M M. Mouchelet موشليه، و Vivas فيفاس، فقد كانا يقيمان للاستطلاع قرب مسيل مائي يتجاوز طول الوادي باتساعه، ويبعد مسافة ميل أو ميلين عن المعسكر باتجاه الأمام، في القسم المقفر من الوادي /٥٣/. حلّ الليل ولم نهتد إليهما إلاّ بصعوبة وسط الظلمات والصخور. نجحنا أخيراً في لقائهما، ونصبنا خيمتنا إلى جانب خيمتهم، وأقول: خيمتنا؛ لأن خيمتي احترقت، كما ذكرت، في السويس، ولم أستطع الحصول على أخرى، وقد وجدت نفسي مجبراً مؤقتاً على مشاركة رفيقي في السفر خيمتَه. كنت أحمل للمهندسَيْن رسائل من أصدقائهم في القاهرة، وقد استقبلاني استقبالاً حاراً، وقاما بواجب الضيافة أحسن قيام، ناهيك عن أنهما زوّداني بمعلومات كثيرة ثمينة عن البلد .

تشرق الشمس متأخرة في هذه الأنحاء، وقد فوجئت عندما أشرقت بعظمة المشهد الذي جاء نور الشمس ليظهره أمام عيني، ولم أكن في اليوم السابق عند الوصول ليلاً قد لمحت إلا ظلاله وسط الظلام. ليس وادي حبران إلاّ ممراً ضيقاً محفوراً عمودياً

في جبل سربال من جانب، ومن الجانب الآخر في سلسلة جبلية من الطبيعة نفسها، وتنتمي إلى النظام الجيولوجي نفسه، وتمتد في الاتجاه نفسه. وتشكل هاتان السلسلتان كما يبدو سلسلة واحدة، ويبدو أن كلتيهما المتماسكة تتحدى أبداً قوى الطبيعة المدمرة. كيف ومتى انفصلتا، وأي قوة عظمى لا يصمد شيء أمامها أحدثت ذلك الانهيار، وحفرت في الجرانيت ذلك الشق العميق؟ هل الماء؟ أم النار؟ / ٥٤ / إن كلتا الفرضيتين متساويتان في الصحة.

ومع أن الطبيعة تحتفظ بسر ثوراتها، وأنه ليس هناك أيّ ذكريات مكتوبة للتثبت منها وتسجيلها؛ لأنه لم يتح لأنظار أيٍّ من البشر أن تتأملها، على الرغم من كل ذلك، فإن آثارها المادية تظل موجودة وثابتة في مظاهر لا يمكن محوها من سطح الكون؛ لتشكل للعلم صُوى عبر القرون.

يدل وجود كتل الجرانيت التي سقطت من الأعلى إلى الوادي على حدوث اضطراب ضخم، وهي ملقاة هناك في قعر ذلك الخندق العميق؛ بعضها مختلط ببعض، وكأنها جثث توحي بعالم سبق وجود الإنسان على الأرض. وإنه لمن العبث أن يبحث المرء هنا عن الظل والخضرة: إذ لا نجد، باستثناء نخلة هزيلة منفردة على صخرة ناتئة، أي أشجار أخرى، ليس هناك قطعة عشب صغيرة، والصخور كلها عارية، وينتشر في كل مكان الكآبة والموت.

هذا المضيق المخيف، والرائع هو البهو المناسب للوصول إلى جبل سيناء. كانت الطريق الكبرى تنتهي في هذا المكان، ولكن العمل بها كان يسير بنشاط

استثنائي، ولكنه كان بطيئاً جداً، مقارنة بصبر عباس باشا الذي يكاد ينفد. ولم يكن المهندسون الذين كان يستعجلهم يستطيعون التغلب على عقبات المكان إلا بصعوبة كبيرة، وباستخدام المتفجرات والآلات.

لقد كان ينبغي في كل خطوة، تفجير قطع ضخمة من الجرانيت التي كانت تقع في مجرى المسيل محدثة ضجة كبيرة، وتسد مجرى الماء الذي كان ينتشر في كل مكان ويغمر المُنخَفض. / ٥٥ / ولما كان كل ما يفعله العرب مترافقاً بالإيقاع، فإن صدى أغاني العمال كانت تردده الجبال، وكان غالباً ما يقطع ذلك الترداد صوت انفجار الألغام، وتهاوي الصخور. ولم يكن بالسهل علينا أن نخرج سالمين من هذا الركام من الماء والحجارة والرجال. ولم نستطع الخلاص من ذلك إلا سيراً على الأقدام، لأن الهجن التي خلقت للرمال، وللأراضي السهلة، كانت أكثر اضطراباً منا في هذا العراك المتلاحم.

وقد لفت المرافقون نظري عَرَضاً إلى فسقية[١] طبيعية، ماؤها هادئ وصاف كأنما هو في مغطس، ولست أدري لماذا يسميها الناس، حمّام النصراني. ولما تجاوزنا هذه المسافة الصعبة، بعد تعب، وتعرض للخطر، ولكن دون حوادث، وصلنا إلى منطقة من الوادي أقل وعورة وأكثر اتساعاً، منها ينبع مسيل الماء، لقد كان انتقالاً مفاجئاً من جهنم من الصخور إلى جنة من الخضرة. ينبجس الماء من الأرض متدفقاً

(١) Vasque = فَسْـقية، كلمة من أصل عربي يقصد بها حوض من رخام في وسطه نافورة ماء.

وسط العشب الكثيف، تتحلق حوله مجموعة من أشجار النخيل الجميلة التي يتكاثر عددها حتى تشكل في بعض المواقع أجمة لا تنفذ أشعة الشمس من خلالها. إن التباين يجعل هذه الواحة غير المنتظرة ثروة لا تقدر بثمن.

وكلما تقدم بنا المسير أصبحت المنطقة أكثر رحابة من الجانبين، ونعبر دون أن نشعر بذلك من نقب حبران إلى الوادي(١) الذي يحمل الاسم نفسه. تطلق العرب اسم الوادي / ٥٦ / على المكان الفسيح المزروع عادة بالأشجار، وهو بالألمانية Thal، ويتوافق مع Huerta الإسبانية.

ليس في وادي حبران من مزروعات أخرى، عدا أشجار نخيل التمر التي تنشر ظلالها في مدخل الوادي، ثم تتناقص شيئاً فشيئاً، وينتهي بها الأمر إلى أن تختفي تماماً. أرض الوادي قاسية، تكثر فيها الحجارة، وتفتقر الجبال الجانبية إلى أي نوع من الحياة، ولكن طرافة تكويناتها تعوض عن قحطها. أما جبل سربال، الذي أدرنا له ظهورنا بعد أن درنا حوله، فإنه أكثر علواً من الجبال الأخرى، وتنتشر كتلة منحدراته الجرداء على فراسخ عديدة من المنطقة. وهناك مسيل ماء ضئيل؛ يلفت النظر إليه ما في هذا الكون من قحط، ويحمل اسماً مخيفاً هو عين النمر، وإن كان هذا الاسم مخيفاً فإنه لا يتفق مع الواقع المحلي باعتبار أنه لم يعد هناك وجود للنمر في هذه

---

(١) وادي حبران: ينشأ من نقب حبران شرقي جبل سربال، ويسير متعرجاً جنوباً نحو ١٥ ميلاً في سهل القاع على علو نحو ١٦ ميلاً من مدينة الطور. وهو في طريق هذه المدينة من الدير والعقبة. انظر: **تاريخ سيناء ...**، موثق سابقاً، ص ٥٩.

الأنحاء. وليس هناك إلاّ بعض الفهود. وينغلق الوادي من هذه الناحية بنقب أو منحدر حبران الذي يسمى أيضاً العجاني[1] De L adjani؛ وهي طلعة مخيفة تكون حياة الراكب فيها مرهونة بكبوة من ركوبه، بسبب وعورة الطريق، وكثرة الحجارة فيها، وقربها من الهاوية. لذلك صعدنا هذه الطلعة الطويلة التي لا تنتهي على القدمين: واستمرت حفلة التعذيب ساعة حسبناها قرناً. ويرى الناظر من القمة عدداً كبيراً من الأودية يتيه المرء فيها، يتداخل بعضها في بعضها الآخر، والتي لا يمكن إلاّ لفطرة البدوي وحدها أن تكون دليلاً للتوجه فيها: لأنها جميعاً محاطة ومحددة / ٥٧ / بهضاب أو جبال تتشابه جمالياً بأنها جميعاً مجردة ومحرومة من أي زرع.

وعلى الرغم من قحطها، فإن هذا المنظر يأسر الألباب، ولم أستطع أن أحول نظري عنه، ولا أن أفكر بأمر آخر، وأنا أتخيل موسى وقومه، وقد نصبوا خيامهم في هذه الأماكن الموحشة.

كان ينبغي علينا بعد أن صعدنا، أن ننحدر على الأقدام، ساعة أخرى من التعب؛ لأن المكان في هذه الناحية هو أسوأ من الصعود، إن كان هنالك ما هو أسوأ. وعلى الرغم من أننا لم نكن نركب الهجن، وهي تتحرك بالتالي بحرية، فإنها كانت تتعثر في كل خطوة، أما الجمال التي تحمل أمتعتنا فقد كان الجمالون مجبرين على أن يسندوا الحمولة من الجانبين لمنعها من الوقوع في المهاوي. وربما كان الحصان، والبغل على وجه الخصوص أكثر مناسبة من الجمل لمثل هذه الطرقات؛ ولكن قبائل الطورة

---

(١) كذا في الأصل ولعلها: العجاوة.

لا تملك خيلاً ولا بغالاً. وصلنا أخيراً، بعد تعثر وجري، نهاية ذلك المنحدر الشديد، ودخلنا في واد آخر، إنه وادي صلاف[1]. كانت الجمال هنا، والحمد لله، على الأرض المناسبة لها؛ أي على طريق رملية مستوية، ولم يكن هناك من تغيير إلا هذا: فجبال هذا الوادي الجديد لها أوصاف الجبال السابقة نفسها، فهي تشبهها في خلوها من أي نبات، وفي الكآبة التي تخيم عليها.

وعلى العكس مما سبق فإن الرمل هنا تزينه / ٥٨ / أزهار جميلة بيضاء وصفراء وبنفسجية تخفف من لمعانه، وتمنح النظر راحة وهدوءًا. ونجد في هذه الأودية الطرفاء؛ وهي نبات ينتج المنّ؛ ذلك الرحيق السماوي[2] الذي رزقه الله لبني إسرائيل عندما تاهوا في سيناء. لقد كانت تنتشر حولنا قطع ضخمة من نبات الرَّتَم؛ وهو نبات يتميز بأنه يشتعل وهو أخضر، مما يمنحه قيمة كبيرة في هذه الصحراء التي لا غابات فيها: وقد كان في تلك الليلة ذا فائدة عظيمة لنا، لأن الهواء كان شديد البرودة، ومع أن معسكرنا الصغير كان محمياً بأكمة من الجرانيت، فقد كنا سنقاسي من البرد لولا النار المتأججة والمتوقدة التي استخدمنا ذلك النبات في إشعالها وتلقيمها

---

(١) في تاريخ سيناء ...، موثق سابقاً، ص ٥١، أنه من أشهر فروع وادي الشيخ وأكبرها ... وفي وادي صلاف بالقرب من مصب الدهيسة عند مروره بنقب حبران نواويس للسكان الأصليين.

(٢) Ambroisie Cleste = طعام يُظن أنه أحلى عشر مرات من العسل. والطرفاء تعرف بشجرة المنّ إذ تتسلط عليها دودة كدودة القز تثقب جذوعها وأغصانها فيخرج من الثقوب صمغ حلو المذاق يلتقطه بدو سيناء، ويجعلونه في علب صغيرة من الصفيح ويبيعونه لزوار الدير والسياح، أو يأتون به إلى مصر فيبيعونه فيها باسم المن.

طوال الليل. كانت الليلة الأولى التي أقضيها حقيقة في الصحراء؛ في اليوم السابق كنت في أوروبا، تحت خيمة المهندسين الفرنسيين، أما صحراء السويس التي سبق لي التخييم فيها، فإنني أصر على ألاّ أسميها صحراء؛ بسبب استراحاتها، وعربات السفر التي تجوبها، ومحطات البرق فيها، وغير ذلك من الاختراعات الأوروبية التي غشيتها.

لا شيء من ذلك هنا: ليس هنا طرقات، ولا سقف بيت واحد، ولا بشر؛ في كل مكان، هناك العزلة والهدوء. كان الهواء في الصباح أكثر برودة مما كان عليه في المساء، ومع أن قرص الشمس كان ملتمعاً، فإنه لم يمنح الجو بعض السخونة بعد: لقد انطلقنا متأخرين، ذلك أن جملاً هائجاً هرب بعد أن تمّ تحميله، لقد هرب بكل ما يحمله، وكان يلزم قائده بعض الوقت / ٥٩ / ليمسك به، ولم تتم إعادته إلاّ بعد مقاومة شديدة. مشينا طوال فترة الصباح على أرض رملية مستوية تماماً: كنا نرى الطبيعة التي رأيناها في اليوم السابق، الجبال نفسها، والأفق نفسه. وينتهي عدد من الأودية إلى الوادي الذي نَعْبره، وإن أعرضها وأكثرها صلاحية لمسير القوافل فيه هو وادي فيران[1] الذي يمتّد إلى اليسار، وينحدر حتّى البحر. وبينما كنا نمر أمامه خرج علينا منه بدوي يسير على قدميه، مَرّ بنا وإمارات الفظاظة تبدو عليه، ودون أن يلقي السلام، واختفى وراء صخرة دون أن يكلف نفسه عناء إدارة رأسه لرؤيتنا.

(١) وادي فيران أو فاران، وهو أشهر أودية الجزيرة كلها قديماً وحديثاً وأغزرها ماءً ونخيلاً ويشكل مع وادي الشيخ وادياً واحداً، القسم الأعلى منه وادي الشيخ، والأسفل وادي فيران وله عدة فروع. انظر: تاريخ سيناء ...، موثق سابقاً، ص ٥٢.

لقد كان أول من رأيناه منذ وادي حبران. لقد كان هناك غير بعيد عنا مقبرة، ولما كان البدو دائمي الترحل فإنهم لم يكن لهم أماكن محددة لدفن موتاهم، بل كانوا يدفنونهم في الفلاة منفردين، وإن العلامة الوحيدة لتلك القبور المندثرة، هي مجرد حجر طبيعي ينفرد بحمايتها من شهية الضباع المقززة.

إن هندي السهول يحمل معه عظام أجداده؛ أما عربي الصحراء، فإنه يوكلهم إلى عناية الله ورسوله. وصلنا أخيراً إلى مضيق وادي الدير وسمي بذلك لأنه يقع بجوار دير سيناء. ودير سيناء آخر المعاقل الطبيعية المرتفعة بين البحر الأحمر وجبل سيناء، والتي قُدّر لها أن تعيش أحداثاً عظيمة، وإن هذا المعقل أكثر ارتفاعاً، وأكثر عَرْضاً، وأكثر إثارة للرعب أيضاً من نقب / ٦٠ / حبران، الذي ليس إلا صورة مبسطة عنه. ولم أر أي مكان في أوروبا أكثر فظاعة منه، حتى في أكثر الأماكن توحشاً، وأكثرها وعورة في جبال الألب وجبال كاربات[١] Carpathes: إن المكان صورة عن السديم، ليس السديم الذي سبق انفصال العناصر، ولكنه السديم الذي يتلو فناء الكون. إن مثل هذه المشاهد تستعصي على كل وصف؛ وإن فرشاة سلفاتور روزا[٢] Salvator Rosa هي وحدها القادرة على رسم منظر الرعب هذا. لنتصور

(١) منطقة بين جزيرة كريت وجزيرة رودوس على البحر المتوسط مشهورة بعواصفها ومناطقها الوعرة.

(٢) Rosa (Salvator) رسام ونحات وشاعر وموسيقي، ولد في رونيلا Ronella بالقرب من نابولي Naples عام (١٦١٥ م)، ومات في روما عام (١٦٧٣ م). تمتاز لوحاته بالأبهة المتوحشة، وبالمشاهد العنيفة والقاسية مثل: المعارك واللصوص.

أن جبلاً ضخماً من الجرانيت يتداعى بسبب هزة أرضية مخيفة، أو بسبب اصطدام بجرم سماوي، ويغطي بأنقاضه المهاوي السحيقة حوله، ويحمل على جانبيه المهدّمين الآثار التي لا تُمحى لذلك الاهتزاز المخيف. ونظن أنه منذ الكارثة لم يتغير شيء؛ ولو أنها حدثت في اليوم السابق لما كان المنظر أكثر جمالاً. أما الصخور فإنها متكسرة، ومحطمة، ومن كل الألوان والأشكال، وهي عارية كما كانت في أول يوم بعد خلقها، ومرت القرون دون أن تترك عليها مثقال ذرة من التراب الصالح للزراعة، ولم يستطع أبداً أي شيء حي، أن يمدّ جذوره في إمبراطورية الموت والكآبة والعقم هذه؛ غير أن بعض قطع النبات تُطِلّ برأسها بصعوبة هنا وهناك بين تشققات الصخور. ونلمح / ٦١ / في الأفق البعيد على مدى النظر شجرتين وحيدتين هما: نخلة تمر هزيلة، وشجرة تين أكثر هزالاً. وكان هناك بعض الكهوف المحفورة في قلب الجرانيت، أما الكتل السفلية التي تصدعت، وتكسرت في أثناء سقوطها، فإنها مملوءة بخروق عريضة، لا زالت نتوءاتها حادة كما لو أنها في أيام سقوطها الأولى. وقد حفر بعض منها كوى مربعة الزوايا، تظهر وكأن يداً بشرية حفرتها لهدف غير معلوم؛ وربما كانت يد العبرانيين الذين كان عليهم بالضرورة أن يعبروا هذا الممر المخيف يقودهم موسى عليه السلام.

إن الصوت البسيط يتحول في هذا المكان المخيف إلى صدى، وعلى الرغم من أن ذلك لا يحدث إلاّ نادراً، ولكنه حينئذٍ يصبح شيئاً فظيعاً، يتكرر آلاف المرات، حتى لتحسب الطلق الناري صوت مدفع، حينئذٍ يرتجف الجبل من أساسه، ثم يعود

كل شيء إلى الصمت أياماً وشهوراً كاملة. كان الدير[1] على بعد خطوات من هنا، احتاج وصولنا إليه ثلاث ساعات. إن أسواره الجرانيتية العالية، والأعلام الثلاثة التي ترفرف على ذروته: علم موسى، والقديس جورج، والقديسة كاترين، تجعلنا نظن أنه قلعة أكثر منه ديراً. وهو في الحقيقة قلعة أقيمت في حضن الصحراء، وعلى أرض إسلامية، وهي تتعرض لخطر عدوين هما: التعصب والطمع؛ فقد هاجمه / ٦٢/ البدو الذين تغريهم ثرواته عدة مرات، وكان على سكانه أن يتخذوا عدة إجراءات عسكرية لصدهم؛ يملك الدير، ناهيك عن مدفعين، ترسانة مملوءة بالأسلحة من كل نوع: وليس هذا بقليل من أجل رجال سلام. إن الباب الكبير والوحيد لهذا الصرح الضخم مغلق منذ ما يقارب قرنين، ولا يُفتح إلاّ في المناسبات الكبرى في أثناء زيارة الشخصيات الكبرى في الكنيسة اليونانية؛ وهذا لا يكاد يتم إلاّ كل ثلاث أو أربع سنوات. أما في الأوقات الأخرى، فإن الباب مغلق بإحكام، ولا يمكن حينئذ الدخول إلى ساحة الدير، إلاّ عَبْر كوة نقبت في الحائط على علو أربعين متراً من الأرض، يُرفع من يريد الدخول إليها بواسطة الحبال، بعد أن يتحدث مع الرهبان، ويعلن اسمه ومركزه.

---

(١) دير طور سيناء للروم الأرثوذكس، وقد بني على اسم القديسة كاترينا لذلك يدعى أيضاً ديـــر القديسة كاترينا (كاترين)، وله راية بيضاء ترفع على قبة كنيسته الكبرى في أيام المواســـم والأعياد، وهو واقع في سفح قمة من قمم طور سيناء على أحد فروع وادي الشـــيخ ويعلو نحو ٥٠١٢ قدماً عن سطح البحر. انظر وصفاً مفصلاً للدير في كتاب: **تاريـــخ سينـــاء ...**، موثق سابقاً، ص ٢٠٥ – ٢٣٠.

ولما وصلنا إلى أسفل السور، وترجلنا عن الهجن، قُرع الناقوس معلناً وصولنا، وأطل راهب البوابة برأسه من الكوة، وألقى إلينا حبلاً لنربط فيه رسالة تعريف زودنا بها كوستا لكبير رهبان الدير. وطال انتظارنا الجواب الذي وصل بعد وقت طويل. ودخلنا الدير ليس عبر البرج الذي أعفونا من الصعود إليه وإنما عَبْر باب سري تم فتحه مؤخراً في الجانب الآخر من البناء خلافاً للأوامر والحذر، ولا يستغرق سدّ هذا الباب في حالة التّعرض للهجوم إلا بضع دقائق. ولما تجاوزت الباب السري الذي كان منخفضاً حتى إنني لم أتمكن من الدخول إلاّ بعد انحناء شديد / ٦٣ / مررت بعدد من الأفنية، غير متساوية، وغير منتظمة، ثم عَبْر نفقٍ مغلق بسياج من الحديد، ثم فناء آخر أيضاً، حتى وصلت أخيراً عَبْر درج خشبي إلى رواق الدير المخصص للأجانب، والذي كان قد سبقني إليه سائحان من العالم الجديد.

أما المساكن المخصصة للمسافرين، فقد كانت تطل على ممر يمتّد النظر منه ليشمل الصرح كله: ويُخيل إلينا أننا نرى قرية كبيرة تحيط بها الجدران. ولا ينبغي أن نبحث عن نظام معماري، أو مخطط لهذه القرية: إنها متاهة من الأبنية المكدسة المتّداخل بعضها فوق بعض، حسب طبيعة الأرض وراحة السكان، إنها الفوضى بعينها. وإن أول ما يلفت النظر وجود مسجد تعلو منارته وسط المكان، وإن هذا الأمر الذي يصعب على المسيحي تقبله فرضه السلطان سليم على الرهبان لكي يقبل بوجود الدير، ومقابل بعض الميزات الدنيوية التي خَصّ بها جماعة الرهبان التي تعيش في الدير، وإن الفرمان الذي يضمن لهم تلك الميزات، موجود لديهم في أرشيف الدير، لكنهم لم يطلعوني عليه، وسواء كان موجوداً أم لا، فإن أحداً لم يره حسب علمي.

وَيُذْكر أن النبي محمداً ﷺ أعطى رهبان الدير عهد أمان، وليس ذلك الأمر تاريخياً بمستحيل. أسس هذا الدير الإمبراطور يوستينيانوس Justinien وزوجته تاضورة[1] Thodora في عام ٥٢٧ ميلادية / ٦٤ /وهذا يعني أن بناءه كان قبل التاريخ الهجري الإسلامي بقرن من الزمن: وليس هناك ما يمنع أن يكون النبيﷺ قد جاء لزيارة الدير؛ وتؤكد ذلك كتب الأخبار العربية، وتضيف أن عروجه إلى السماء تمّ من على قمة جبل سيناء[2].

---

(١) كتبنا الاسمين كما هما منقوشان على الحجر فوق باب الدير، حسبما ذكر نعوم شقير في كتاب: **تاريخ سيناء...**، موثق سابقاً، ص ٢٠٨، والنقش بتمامه: "أنشأ دير طور سيناء وكنيسة جبل المناجاة الفقير لله الراجي عفو مولاه الملك المهذب الرومي المذهب يوستينيانوس تذكاراً له ولزوجته تاضورة على مرور الزمان حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. وتم بناؤه بعد ثلاثين سنة من ملكه، ونصب له رئيساً اسمه ضولاس. جرى ذلك سنة ٦٠٢١ لآدم الموافق لتاريخ السيد المسيح ٥٢٧". وعلق نعوم بك شقير بقوله: إن النقش يعود إلى القرن الثاني عشر أو الثالث عشر وفيهما غلطتان تاريخيتان: الأولى أن أول رئيس سمي للدير هو الأب لونجينيوس وليس ضولاس، والثانية أن الملك يوستينيانوس لا يمكن أن يكون قد أتم بناء الدير سنة ٥٢٧ لأن هذه السنة هي بدء ملكه، وكان إذ ذاك مشغولاً بالحروب كما هو ثابت في التاريخ. وإذا صح أنه أتمه بعد ٣٠ سنة من ملكه كما في هذا الأثر فيكون قد تم سنة ٥٥٧. ورجح شقير أن يكون قد تم بناء الدير في نحو سنة ٥٤٥ معقلاً لرهبان سيناء. **تاريخ سيناء ...**، ص ٢٠٩. ويوستنيانوس الأول؛ جوستنيان الأول (٤٨٣ — ٥٦٥ م): إمبراطور بيزنطي (٥٢٧ — ٥٦٥ م) جمع الشرائع الرومانية ودونها.

(٢) يذكر نعوم شقير في: **تاريخ سيناء ...**، موثق سابقاً، ص ٢٢٠: "والعهدة النبوية: وهي في تقاليد الرهبان كتاب العهد الذي كتبه لهم النبي محمد ﷺ في السنة الثامنة =

وإذا كان وجود المسجد[1] في هذا المكان يدهش ويلفت النظر، فإن الكنيسة لا تظهر من النظرة الأولى، وليس لها ما يميزها من السقوف والشرفات التي تغرق الكنيسة في وسطها: ولكنها تعوّض عن بساطة شكلها الخارجي بروعتها الداخلية. إنها وعاء فائق الجمال نصف بيزنطي، ونصف روماني، يقوم على أعمدة من الجرانيت التي طليت للأسف بالكلس، وقد تمّ في جذوع تلك الأعمدة حفر صلبان يونانية، مّما يفسد النسق ويتلف بهاءه. إن جمال العمود أن يكون عارياً ومستوياً تماماً، ومع أن تضليع الأعمدة اختراع قديم، فإنني أرى أنه تشويه للبساطة البدائية للفن، وعلامة من علامات انحطاطه؛ إلاّ أنه لا ينبغي أن تبحث في الكنائس اليونانية لا عن البساطة ولا عن الفن. وإن هذه الكنيسة ينقصها الشيئان المذكوران. إن البريق الخداع، وفساد الذوق يصدمك في كل خطوة تخطوها فيها.

كان السقف أزرق ذهبياً، يمثّل قبة السماء المملوءة بالنجوم، وتتدلى منه ثريات مفرطة في الحداثة، ولا تتناسب، على الرغم من أبهتها، مع بساطة المعبد المسيحي. وينطبق الوصف نفسه على المذبح الرئيسي الذي تزدحم عليه الأصداف / ٦٥ /

- للهجرة. قالوا وقد كان الأصل محفوظاً في الدير إلى فتح السلطان سليم مصر سنة ١٥١٧م فأخذ الأصل وأعطاهم نسخة منه مع ترجمتها التركية. وفي المكتبة الآن عدة نسخ منها بعضها على رق غزال، وبعضها على ورق متين، وبعضها في دفتر خاص ..." وانظر حديثاً مفصلاً عن العهدة النبوية في ص ٤٩٥.

(١) انظر حديثاً مفصلاً عن المسجد وبنائه في كتاب: **تاريخ سيناء ...**، موثق سابقاً، ص ٢١٤ — ٢١٧، وص ٥١٠ — ٥١٢.

والحراشف التزينية والصلبان المزينة بالأحجار الكريمة، أو المزعومة كذلك، والتي يعرضونها بفخر لتثير الإعجاب أكثر مما تدفع المؤمنين للالتزام الورع. والواقع أن تلك التحف هي هدايا من أحد النبلاء الأثرياء الروس الذين ينتمون إلى الكنيسة المنشقة (عن الكنيسة الرومانية). ولما ادعى الإمبراطور نقولا[1] أنه حامي أبناء دينه الذين يعيشون في أراضي الإمبراطورية العثمانية، فإنه لم ينسَ هؤلاء الرهبان، بل إنهم تلقوا منه هدايا سخية، تدل على كرمه واهتمامه. وإن كل تلك التحف، كثيرة كانت أم قليلة، هي مزية جيدة، وليس بينها ما هو قديم، كما يبدو عليها ذلك. واستثني الباب الرئيسي للدخول الذي تبدو عليه علامات القدم، وهو مرصع بزخارف على المعدن صنعت بمهارة عجيبة، وإخال أنني قرأت عليه تاريخاً يعود إلى القرن السابع الميلادي.

لن أستطيع هنا، ولا أريد أن أذكر كل شيء، ولكنني أشير على سبيل الذكرى إلى عدد من اللوحات البيزنطية التي لا تكتسب إلا أهمية عادية، وإلى لوحات ذات أهمية بسيطة أيضاً، تمثل صورة بعض الوجهاء المجهولين، أو صور بعض قديسي التقويم الإغريقي (اليوناني)، وصورة كبيرة لمشهد تجلي السيد المسيح عليه السلام، وأخيراً هناك رصيعتان كبيرتان لمؤسسي الدير الإمبراطور يوستينيانوس وزوجته الإمبراطورة تاضورة. ولا يمكنني أن أمضي دون الإشارة إلى الموزاييك الذي يكسو أطراف قبة

(١) نقولا Nicolas ويكتب Nicholas الأول (١٧٩٦ — ١٨٥٥) قيصر روسيا من عام (١٨٢٥ — ١٨٥٥) عرف برجعيته الشديدة، وسحق ثورة الديسمبريين (١٨٢٥ م).

صدر الكنيسة التي نرى فيها موسى راكعاً على ركبتيه أمام العليقة المشتعلة، وفي الأسفل نراه ممثلاً وهو يتلقى ألواح الوصايا العشر[١]. ومن الملاحظ أن نبي بني إسرائيل (موسى عليه السلام) لا يبدو في اللوحات الشرقية / ٦٦ / بالهيئة القاسية والرهبانية التي تمثله بهــا في أوروبــا، والتي أرســى دعائمها ميكيل أنجلو[٢] Michel Ange في رائعته[٣] الموجودة في كنيسة القديس بيير (في روما — الفاتيكان) Saint-Pierre Aux liens، ولكنهم يمثلونه بصورة شاب بلا لحية، يرتدي جلباباً أزرق وعباءة بيضاء، وهناك مصلى يحمل اسمه يقع على يسار المذبح الرئيسي، في الساحة التي توجد فيها العليقة المشتعلة، على الأقل حسب ما يقوله الرهبان اليونانيون. ولا يُسمح لأحد بأن يطأ هذه الأرض المقدسة إلاّ بعد أن يخلع نعليه ويضعهما على الباب كما هو الحال على باب المسجد. لنتأمل بإعجاب قوّة المحاكاة والعدوى بالمجاورة[٤]. إن الممارسات الإسلامية وجدت طريقها هنا لتصل إلى كهنة المسيح عليه السلام. كان هذا الدير الكبير النائي في الشرق يُسمّى في الماضي، وربما تم تأسيسه بهذا الاسم، دير التجلّي،

---

(١) انظر: تاريخ سينــاء ...، موثق سابقاً، ص ٢١٠ — ٢١١.

(٢) Michel-Ange , Michelangelo = ميكيــل آنجــلو (١٤٧٥ — ١٥٦٤ م) نحات ورسام ومهندس معمار إيطــالي، يُعَدّ أحد أعظم الفنانين في جميع العصور.

(٣) نحــت ميكيــل أنجــلو تمثالاً لموسى عليه السلام، موجوداً في كنيسة القديس بيير في الفاتيكــان، وتبدو على التمثال معالم العنف والقسوة والشدة.

(٤) ليس الأمر كما يقول ديديه وإنما خلع النعل التزاماً بخطاب الله تعالى لموسى عليه السلام في قوله في سورة طه، الآيات من ٩ — ١٢: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى(٩)إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى(١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى(١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

وهو اليوم يسمى باسم القديسة كاترين Sainte Catherine التي تحميه، ويحتوي على رفاتها؛ كان اسمها في حياتها دوروتي Dorothe، تنصرت في القرن الرابع الميلادي، أما اسم كاترين الذي سُمّيت به بعد موتها فإنه مشتق من الكلمة السريانية Cethar التي تعني التاج، وقد مُنحت هذا الاسم لأنها جمعت كما يقول القديس جيروم[1] Saint JérÔme تاجاً ثلاثياً من العذرية والشهادة والعلم؛ لأنها كانت عالمة قبل أن تكون قديسة، كانت تحاول هداية الفلاسفة الذين كانوا يحاولون بدورهم أن يثنوها عن معتقدها، وظلت زمناً طويلاً رئيسة المدارس الفلسفية، كما كانت أيضاً رئيسة مدارس الفتيات. / ٦٧ / لقد وضع رفاتها في ضريح فخم، تشتعل حوله أضواء الشموع ليل نهار، ويأتي إليه في كل سنة عدد كبير من الحجاج.

ولكي أنتهي من الحديث عن كنيسة القديسة كاترين، ولكي أكون صادقاً في نقل الحقيقة، ينبغي القول: إنها موضع عناية كبيرة، ولا يمكن إبداء أي ملحوظة على نظافتها، ولكن نواقيسها صغيرة جداً، ولا تليق بمعبد له شهرة كبيرة، ويتمتع بإجلال عظيم. وهي تمتلك عوضاً عن ذلك مجموعة من الأجراس (مُصَلْصلة Carillon) التي ليست كما أعتقد إلا صفيحة من الحديد يُضرب عليها بمطرقة، ومصلصلة أخرى من الخشب تشبه الأولى في بدائيتها، والتي يقرعها قارع الأجراس طوال النهار، كما يُستخدم في إيطاليا الناقوس الخشبي Crécelle في يوم الجمعة العظيمة.

---

(١) أحد أكبر آباء الكنيسة اللاتينية ولد في عام ٣٣١م وتوفي في بيت لحم عام ٤٢٠م اشتهر بمؤلفاته التفسيرية، راجع **الترجمة الإغريقية للعهد القديم**، ووضع ترجمة لاتينية له عن النسخة العبرية.

أمّا مكتبة الدير، فهي فقيرة بالكتب المهمة، وتعالج كل الكتب الموجودة فيها موضوعات دينية، ولكنها في مقابل ذلك غنية بالمخطوطات العربية واليونانية، والسلافية أيضاً . ولا شك أنه بالإمكان استخراج معلومات مفيدة منها . ولكن الرهبان حريصون عليها دون أن يقرؤوها . ولم يعودوا ينسخونها ، إنهم يكتفون بإظهارها للزوار لإشباع فضولهم؛ ومن تلك المخطوطات نسخة من مزامير داود مكتوبة بخط صغير، كتبتها القديسة كاسياني Sainte Cassine، ونسخة من الإنجيل مكتوبة بماء الذهب أهداها إلى مكتبة الدير الإمبراطور ثيودوسيوس Thodose تقرباً وتعبيراً عن الإخلاص[1] .

إن الرهبان اليونانيين لا يضعون أقدامهم في مكتبتهم أبداً ، ولكنهم يذهبون راغبين إلى حديقتهم الواقعة خارج أسوار الدير / ٦٨ / وقد لاحظت في الحديقة عند وصولنا بعض أشجار الزيتون، وسروة رائعة، وشجرات لوز مزهرة، وتنتج الحديقة فضلاً عما ذكرناه تيناً وعنباً وإجاصاً (كمثرى) مشهورة بجودتها في القاهرة. ويمتلك الدير حديقة أخرى، بل عدة حدائق كما أظن في بعض الأودية المجاورة. وإن البئر داخل الدير هي البئر التي قابل عليها موسى عليه السلام، قبل أن يبعث، وفي أثناء هربه من مصر بسبب قتله رجلاً، ابنتي النبي شعيب المبعوث إلى مدين، وكانتا قد أتيتا البئر لسقاية مواشي والدهن، ولما وصلتا أراد بعض الرعاة إبعادهما عن البئر، ولكن موسى عليه السلام ساعدهما ، واستخرج الماء لهما من البئر، وعندما علم

---

(١) انظر حديثاً مفصلاً عن مكتبة الدير ومحتوياتها في كتاب: تاريخ سيناء ...، موثق سابقاً، ص ٢١٨ — ٢٢٠.

والدهما بالأمر زوّجه إحداهما صفورة[١] Sphora، وأصبح موسى راعياً لمواشي والد زوجته[٢].

(١) Sphora = صفورة ابنة شعيب عليه السلام؛ وهي التي جاءت موسى عليه السلام تمشي على استحياء كما وصفها القرآن الكريم، سورة القصص، الآية ٢٥.

(٢) **سفر الخروج**، الفصل II، ١٦ والتي تليها (المؤلف).

هذه رواية العهد القديم، أما القول الحق، فهو ما جاء به القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة القصص، الآيات من ١٥ إلى ٢٨: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ(١٥)قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(١٦)قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ(١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ(١٨)فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ(٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ(٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ(٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ(٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ(٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ(٢٨)﴾.

إن هذه القلعة الدينية الضخمة محاطة بعدد من القمم، ومحصورة بينها، وإن لكل واحدة من تلك القمم اسماً خاصاً: في الشمال جبل اليهود وجبل حوريب، وفي الجنوب جبل القديس ابيستيموس Épistème، ونحو الشرق جبل موسى[1]، الذي تروي الأخبار أن مُخَلِّص بني إسرائيل (موسى) رعى أغنام شعيب عند سفوحه، مع أننا لا نجد أي عشب في سفوحه. ويتسع الوادي من الغرب، وتتباعد الجبال تباعداً ملموساً لتخلي المكان لسهل واسع كل الاتساع، وهو المكان الواسع الوحيد في تلك الأنحاء الذي يتسع / ٦٩ / لعدد كبير من الناس: وربما أقام العبريون معسكرهم في هذا المكان، ويُشار في هذا المكان حقاً إلى حجر هارون (مقام النبي هارون) الذي يُزعم أنه استخدم قاعدة للعجل الذهبي. إن المشهد الطبيعي في هذه الأنحاء ذو قسوة فظيعة وجلال لا نظير له. وإن قمم الجبال ومنحدراتها عارية تماماً، شأنها شأن القمم والمنحدرات التي رأيناها حتى الآن، ولكن الشمس تلقي عليها في كل ساعات النهار، وفي المساء على وجه الخصوص، وفي الصباح بشكل أجمل، أطيافاً ضوئية متنوعة كل التنوع، ورائعة كل الروعة، حتى إنها لتعوض تعويضاً تاماً قحط المكان الذي لا نودّ رؤيته على أي هيئة أخرى. إن في هذه اللوحة السحرية تدرجاً في الألوان لا يمكن محاكاته، ولا يمكن وصفه.

أما جبل موسى الذي ظل مظلماً ومغلفاً بالضباب زمناً طويلاً بعد طلوع الشمس التي تشرق من ورائه، فإنه يشكل خلفية اللوحة، فبينما كانت أسافله لا زالت تغوص في الظل، كانت أعاليه مضاءة بالشمس.

---

(١) في تاريخ سيناء ...، موثق سابقاً، ص ٢٢٣ أنها أربع قمم وهي: جبال موسى، والصفصافة، والمناجاة، وكاترينا.

أما جبلا حوريب والقديس ابيستيموس فإنهما يصطبغان في ذلك الوقت باللون الأحمر والمعدني، وتعكس تعرجات الصخور فيها ظلالاً سوداء ظاهرة بوضوح كبير حتى إننا نخال أن الألق لا يزال يشع منها: حتى لنظن أن سيلاً من الحمم البركانية، يخرج من الفوهة يتهيأ لإحراق الدير والمنطقة كلها.

تبدأ طلعة جبل سيناء أمام باب الدير: فيمر الطريق في شعب ضيق بين جبل حوريب وجبل اليهود، ويُستعمل في صعوده / ٧٠ / من أجل راحة الحجاج الذين ينبغي أن يصعدوه زحفاً، نوعاً من الدرجات التي تُسَهِّل عملية الصعود لو أنها لقيت عناية أفضل. وإن أول ما يلقانا في الصعود نبع الإسكافي[1] الذي يُذكّر اسمه بحكاية أسطورية محلية. ثم نجد بعد ذلك كنيسة صغيرة[2] مهداة إلى العذراء (مريم) التي أتت إلى هذا المكان حسب حكاية أخرى.

---

(١) انظر، **تاريخ سيناء ...**، موثق سابقاً، ص ٢٢٤.

(٢) هي كنيسة الأقلوم كما جاء في كتاب **تاريخ سيناء**، موثق سابقاً، ص ٢٢٤. يقول: "وفي تقاليد الرهبان الروائية: أنه في إحدى السنين اشتد الجوع في الجزيرة وانقطع الزاد عن الرهبان فاتفقوا على ترك الدير والالتجاء إلى مدينة الطور فراراً من الجوع فصعدوا إلى قمة جبل موسى لأداء الزيارة قبل الرحيل، وتأخر الأقلوم في الدير فأقفل الأبواب وسلّم المفاتيح إلى شيخ أولاد سعيد بحضور مشايخ الجزيرة كلهم وسار في طريق قمة جبل موسى لاحقاً بإخوانه. فلما وصل هذا المكان تجلت له مريم العذراء وابنها الطفل على يدها وقالت له: "اذهب وتمم زيارتك لقمة الجبل وعد بإخوانك إلى الدير فإن الفرج قد جاءكم" قالت ذلك وغابت عن نظره. فعاد بإخوانه إلى الدير فوجدوا إبلاً كثيرة محملة حبوباً فسألوا أصحاب الإبل عمن أتى بهذه الحبوب فقالوا أتى بها شيخ جليل علاه الشيب وفتاة في منتهى الجمال وقد رافقانا إلى هذا المكان ثم اختفيا عن الأبصار. قال الرهبان: إن الشيخ والفتاة هما موسى النبي والقديسة كاترينا وقد شادوا هذه الكنيسة على اسم مريم العذراء تذكاراً لتلك الحادثة العجيبة!

ونصعد بعض الدرجات أيضاً فنصل إلى سهل مغلق من كل الجهات، تحيط به قمم هائلة، منها قمة القديسة كاترين التي ترتفع إلى ما لا يقل عن ٨٥٠٠ قدم عن سطح البحر الأحمر. ولا تقل قمتا حوريب وسيناء عن هذه ارتفاعاً؛ وإن هذا الارتفاع هو الحد الذي تظل بعده الثلوج موجودة أبداً، على المرتفعات في المناطق الشمالية. ومن أي جهة نَظَرْنا، وإلى أبعد ما يستطيع النظر الوصول، لا نرى إلا كتلاً من الجرانيت الأمغر، والوعر، والأجرد؛ كما لو أنها احتفظت تماماً بشكلها يوم أن خرجت من أمعاء الكون؛ لم تنمُ أية نبتة في هذه الأنحاء، ولا يمكن لأي منها أن تنمو في المستقبل، مع ذلك فإن هناك شجرة، ولكنها وحيدة تنتصب في وسط المكان القاحل، إنها شجرة سرو ضخمة ضخامةً غيرَ معتادة، تشبه قمتها هرماً ضريحياً يقاوم منذ قرون كل العواصف. ونجد عند جذور الشجرة بئراً ماؤها عذب وصاف، ولا يشرب منها أحد، لأنه لا أحد يسكن، ولا أحد يعبر هذه الأرض الموحشة وحشة مخيفة عدا بعض المسافرين. / ٧١ / لقد قضيت استراحة طويلة بجوار تلك البئر المهجورة، في ظل شجرة السرو العملاقة، متوغلاً ومتحدياً، إن صح القول، تلك الطبيعة القاسية، العظيمة، والموحشة، والمنعزلة كل العزلة، والمفعمة بالأمجاد، والعامرة بكم هائل من الذكريات، والتي تبدو للبصيرة والبصر أنها أرض أمجاد خالدة. إن مَنْ يرى تلك الطبيعة المؤثرة يشعر أن أحداثاً عظيمة وهائلة جرت بين أحضانها، وأنها خُلقت وتكوّنت لتكون مسرحاً لأسرار جليلة، ولمعجزات فائقة، ونشعر أن الله اختارها ليوحي فيها إلى أنبيائه. كم هناك من أحداث، وكم من القرون

التي لم نلقِ عليها ولو نظرة واحدة ! ذلك هو بادئ ذي بدء جبل سيناء الذي يخطف الأبصار، والذي أُوحي إلى موسى على قمته الرسالة السماوية وسط البرق والرعد، تلك الرسالة التي مازالت حية بعد أن مَرّت عليها قرون عديدة؛ وإلى الأسفل قليلاً نجد المغارة التي قضى فيها موسى عليه السلام أربعين يوماً وليلة في الصحراء بين يدي الله وبحمايته الحانية بعد أن أوحى إليه، وفي الأمام هناك حوريب حيث تلقى موسى رسالته السماوية، وهو جاثٍ على ركبتيه أمام العليقة المشتعلة، وكنت أرى على بعد خطوات مغارة أخرى رأى فيها إيليا Èlie أحد أعظم أنبياء بني إسرائيل، رؤياه التي تعد إحدى أكثر الرؤى التي تتحدث عنها الكتب المقدسة رعباً . لنستمع إلى المؤرخ الجليل الذي يحكي تلك الرؤيا، ولن نعرف كيف نعبر عن الإحساسات / ٧٢ / المؤثرة التي تسيطر على النفس في أثناء ذلك، دون أن نستشهد بعبارات المؤرخ نفسه؛ لأننا هنا نكتشف ونشعر أن تلك العبارات موحاة، إنْ لم تكن قد كتبت في هذا المكان، وأن كلاً منها يحمل سمة هذا المكان الرائع. "مشى إيليا أربعين يوماً، وأربعين ليلة، حتى وصل إلى جبل حوريب، الجبل الذي تجلت عليه الذات الإلهية، وهناك دخل مغارة في الجبل، حيث بات الليلة فيها، ثم أوحى إليه الباقي، وقال له: "أُخرج وقف على الجبل أمام الرب. وإذا بالرب عابر، وريح عظيمة وشديدة قد شقّت الجبال، وكسرت الصخور أمام الرب، ولم يكن الربّ في الريح. وبعد الريح زلزلة، ولم يكن الربّ في الزلزلة. وبعد الزلزلة نار، ولم يكن الربّ في النار. وبعد النار صوت منخفض خفيف. فلمّا سمع إيليا لفّ وجهه بردائه، وخرج، ووقف في باب المغارة. وإذا

بصوت إليه يقول: مالك ههنا يا إيليا". [1] ألا نتخيل ونحن نقرأ هذا الكلام الرائع أننا نشهد ثورات جيولوجية هزت بعنف هذه الأرضين المختارة منذ الأزل؟

ذلك الزلزال الرهيب الذي يحرك الجبال، وتلك العاصفة الهوجاء التي تجعل الجبال تميد وتتداعى، تلك النار المتأججة التي تحرقها وتجعلها عقيمة / ٧٣ / أي شيء هذا إن لم يكن تعبيراً عن عوامل في باطن الأرض أو خارجها، لذلك الاضطراب العظيم للمادة كما يتصوره العلم ويشرحه في أيامنا هذه؟

إذاً، ليست رؤيا إيليا إلاّ حَدْساً، بل كأنما هي رؤية ثانية للاضطراب الفيزيائي الذي تحمل كل صخرة هنا آثاره التي لا يمكن إنكارها. وإن تلك النسمة الرقيقة والناعمة التي تلت اضطراب العناصر، والتي شعر معها النبي بتجلي الذات الإلهية؛ إنها حقاً الذات الإلهية؛ أي العلم المطلق الذي ما إن استقر الكون بأمره حتى بسط عليه هيمنته، وخلق ظواهره، وقدّر قواه، وسبر غور أسراره، وتعالى عن الحياة المادية، فقدر العلل والأسباب، وحاز مع الحكمة القدرة على الخلق الذي اختص وحده بفهم أسراره. إن البحث في مثل هذه الأمور يكتسب هنا أهمية لا يكتسبها في أي مكان آخر؛ لأننا لا نجد في الكون مكاناً مثله احتفظ بمعالمه نفسها، ناهيك عن روعة التاريخ والتقاليد، مما يوقظ المشاعر ويأسر الروح.

---

(١) سفر الملوك الأوّل، الإصحاح ١٩، عدد ٨ وما بعدها (المؤلف). وجاء في كتاب: تاريخ سيناء ...، موثق سابقاً، ص ٢٩ "... والجبل الذي جاءه إيليا النبي بعد سفر شاق من "بئر سبع" دام أربعين نهاراً وأربعين ليلة فبات في مغارة وكلمه الرب بعد زلزلة عظيمة "بصوت منخفض خفيف".

إن لشبه جزيرة سيناء شكلاً مثلثاً، يربطها أحد أضلاعه بالقارة، في حين أن الزاوية المقابلة تتوغل في البحر على شكل نتوء صخري، أما الضلعان الآخران فإنهما محاطان بخليجَيْن؛ خليج السويس في الشمال، وخليج العقبة في الجنوب، وباستثناء بعض المصاطب الكلسية في المناطق المنخفضة / ٧٤ / فإن أرضها ظلت على تكوينها الأول، تعج بالقمم والنتوءات الصخرية التي تتبع كلها تنظيماً واحداً، وتنطلق من مركز مشترك. تتلوى في المنخفضات وديان ضيقة، ورملية، ليس فيها زرع إلاّ ما في بعض واحات نخيل التمر قرب عيون الماء والآبار.

أما مرتفعات سيناء فتجثم وسط البرزخ، وتشرف على شبه الجزيرة كلها. ولنا أن نتخيل المنظر الرائع الذي تمتع به من أعلى مشهد كهذا المشهد. يقع النظر من كلا الجانبين على خليجين، ويتابع تعرجاتهما كما لو أنه يشاهدها على الخريطة، وتقع جزيرة تيران[١] في قاعدة خليج العقبة[٢]. ويبدو من الغرب، فضلاً عن الأودية والمرتفعات التي تمتد عند أقدامنا، البحر الأحمر الذي يظهر من هنا وكأنه نهر، وليس بحراً واسعاً لا نتمكن لاتساعه من رؤية الساحل الإفريقي الذي يبدو للعيان بجباله

(١) هذه الجزيرة هي الآن تابعة للمملكة العربية السعودية، وتكتب في الخرائط: ثيران والصحيح أنها: تيران.

(٢) يحد سيناء الجنوبية من الشرق، وطوله من رأس محمد إلى قلعة العقبة نحو مئة ميل، وعرضه من سبعة أميال إلى أربعة عشر ميلاً. وفيه ثلاث جزر إحداها تيران التي تقع عند قاعدته تجاه رأس محمد، وبينهما مضيق حرج لمرور المراكب. **تاريخ سيناء ....**، موثق سابقاً، ص ١٦.

الضخمة التي توجد وراءها صحراء أخرى ذات أهمية كبرى لدى النساك المسيحيين الأوائل؛ إنها مكان معزول كانوا يذهبون إليه ليبحثوا في العزلة والتأمل والوحدة، عن شعور أولي بالسلام الأبدي.

أما من ناحية الشرق أخيراً، باتجاه سورية فإن النظر يتيه في أعماق صحراء بلا حدود، إنها الصحراء نفسها التي تاه فيها بنو إسرائيل خلال أربعين سنة قبل أن يدخلوا بلد كنعان. / ٧٥ /

وقد لاحظت عَرَضاً أننا نصادف العدد (٤٠) عدة مرات على طريقنا، إنه يتكرر بكثرة في العهد القديم والعهد الجديد: فاليهود تاهوا أربعين سنة في الصحراء، موسى عليه السلام اعتزل أربعين يوماً قبل أن يبلغ رسالته، إيليا سار أربعين يوماً وأربعين ليلة قبل أن يستقر في كهف حوريب، صام المسيح عليه السلام في عزلته أربعين يوماً، وظل أربعين ساعة في قبره قبل أن يبعث من جديد.

ويبدو أن لهذا العدد عند اليهود شيئاً من القداسة، بل شيئاً من السحر، وإن له فضيلة خفية، ضاع معناها؛ مع أنه لا يدخل في تركيبه لا (٣) ولا (٧) وهما رقمان مقدسان (عند الساميين).

يوجد في قمة جبل سيناء مصلى مسيحي يحمل اسم النبي موسى عليه السلام؛ وإن المسلمين الذي يجلون هذا النبي كما يجله المسيحيون أقاموا له في هذه القمة مسجداً يحمل اسمه، ناهيك عن أنهم أطلقوا اسمه على الجبل؛ جبل موسى.

ويروى أن النبي محمداً ﷺ زار هذا الجبل، ومنه عُرج به إلى السماء . ومازال الناس يشيرون إلى أثر قدم ناقته على إحدى الصخور[1] هناك. تقوم في قلب أحد الأودية المجاورة واحة صغيرة خصبة تعرف باسم بستان الأربعين شهيداً[2]؛ لأن أربعين مسيحياً، الرقم أربعون أيضاً، استشهدوا فيها أيام اضطهاد المسيحيين. / ٧٦ / وفي مكان ليس ببعيد توجد صخرة موسى[3] التي يُذكِر اسمها أتباعَ الديانات السماوية الثلاث، اليهودية والمسيحية، والإسلام، بالوثنية التي كانوا عليها (قبل نعمة التوحيد)،

---

(١) جـاء في **تاريخ سيناء ...**، موثق سابقاً، ص ٢٢٥: "... ويوجد هناك (في قمة جبل موسى) كنيسة صغيرة وجامع صغير ... وقبل وصولك إلى قمة الجبل بنحو ٥ دقائق تجـد على الطريق أثراً في صخره كأثر قدم الجمل يدل البدو عليه أنه الأثر الذي تركه جمل النبي محمد ﷺ لما زار الجبل ...".

(٢) جـاء في **تـاريخ سيناء ...**، موثق سابقاً، ص ٢٢٧: ("فاللجـاة العليـا" في رأس الـوادي. وهناك بستان عظيم من شجر الزيتون وبعض أشجار الفاكهة. وخمس عيون مـاء. منـزل قديم للرهبان وكنيسة "الأربعين شهيداً" وهم الشهداء الأربعون الذين قتلوا لأجل إيمانهـم بالمسيح في سبسطيـة بكبدوكيـة في ٩ آذار سنة ٣٢٠ م.)

(٣) سماهـا نعوم شقير في **تاريخ سيناء ...**، موثق سابقاً، ص ٢٢٧ "صخرة موسى" بين الـلجاة السـفلى والـلجاة العليا. وهي صخرة جرانيتية علوها نحو ١٢ قدماً وطولها وعرضـها نصـف ذلك. يدل عليها الرهبان أنها الصخرة التي أخرج منها موسى عليه السلام الماء لبني إسرائيـل. قال تعالى: البقرة، الآية ٦٠: ﴿وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُـلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ(٦٠)﴾. وقد سماها ديديه Belphégor وهو اسم أحد الآلهة عند اليونان مركب من Bél أو Bel = بعل، السيد وهو شكل يوناني لاسم أحد الآلهة عند المؤابيين، كان يعبد على جبل Phégore وكان اليونان يقدمـون له طقوساً إباحية، واستمرت عبادته حتى العصر الروماني. وهي عنوان قصة لميكيافيللي.

باعتبار أن تلك الديانات نزلت في أمكنة متقاربة، ويمكن القول: إن لها مهداً مشتركاً واحداً. إن صعود جبل سيناء صعب ومرهق؛ لأن المكان مازال كما كان في بدايته منحوتاً على شكل درج، وسيظل كذلك حتى النهاية. ولكن ذلك الدرج الذي يفترض أن يسهل عملية الصعود، أصبح نصف مهدم؛ مما يجعل الصعود مرهقاً، والنزول محفوفاً بالمخاطر. وفي طريق العودة إلى سهل إيليا عدنا إلى الدير عَبْر طريق أخرى، وأدهشني أن الطريق من هذه الناحية جيدة، وهي في بعض الأحيان محفورة في الصخر القاسي، وتكاد تكون صالحة لمسير السيارات. إن هذه الطريق التي هي صورة مصغرة عن ممر سيمبلون[1] Simplon تم إنجازها منذ وقت قريب من أجل عباس باشا ذلك الأمير الأفريقي الذي قام مؤخراً بزيارة سيناء، وبانتظار إنشاء القصر المعلق الذي سبق لي الحديث عنه، والذي دُلِلتُ على المكان الذي سيقام فيه على قمة يصعب الوصول إليها[2]. لقد رافقني في رحلتي عدد من رهبان الدير، وأراد الأخ بيير أن يرافقني؛ كان شخصاً غريباً كل الغرابة، يلبس جلباباً أزرق، وقلنسوة أسطوانية، ويقاسم الرهبان حياة التقشف، مع أنه ليس برجل دين. كان يوناني

(١) أحـد ممار جبال الألب الرئيسية المستخدمة منذ العهد القديم وربما منذ ما قبل التاريخ بفضل ارتفاعه البسيط (٢٠٠٠ م)، وهو شرق الحدود بين سويسرا وإيطاليا.

(٢) جـاء في كتاب: **تاريخ سيناء ...**، موثق سابقاً، ص ٥٤٥: "... وبعد وفاة إبراهيم باشا تولى مصر عباس باشا أكبر أولاد الأسرة العلوية. وقد زار سيناء، واهتم بها اهتماماً كبيـراً، وظهر أنه نوى أن يجعلها مصيفاً له، فبنى فيها الحمام فوق النبع الكبريتي قرب مدينة الطور. ومهّد طريقاً من دير طور سيناء إلى قمة جبل موسى. وشرع في بناء قصر جميـل عـلى جبل "طلعة" غربي جبل موسى. وشرع في مد طريق للعربات من مدينة الطور إلى القصر، ولكن عاجلته المنية قبل أن يتمها ...".

الولادة، درس في / ٧٧ / الجامعات الأجنبية، وكان يتحدث بسهولة عجيبة عدداً من اللغات إحداها الفرنسية. ويبدو عليه أنه يمتلك ثقافة متنوعة، وكان يُعنى على وجه الخصوص بالفلك والموسيقى، حتى أسند إليه مسؤولو الدير أن يعلم الرهبان المستجدين في الدير الموسيقى على الأقل. ولكنني فوجئت، بعد أن تحدثت معه، بما لاحظته من اضطراب في معارفه، ومن تشوش في أفكاره، وقد زالت دهشتي عندما أُخبرت أنه مجنون، وأن أسرته التي عرفت بعض أفرادها في القاهرة، تعد وجوده في الدير كما لو أنه في مصحة، لقد كان جنونه خفيفاً جداً، وإنني أعرف عدداً من الناس الذين يقال: إنهم عاقلون والذين كانت بالتأكيد صحبتهم أشد علي من صحبته. وليس من شك أن هذا المجنون المسالم والجدّ يمكن أن يصبح في يوم من الأيام بطل حكاية أسطورية، بذورها موجودة في الروايات المتناقضة التي يتداولها الناس بشأنه.

يسمى جبل سيناء في المنطقة جبل الشريعة، وإن اسم القديس ابيستيموس Saint Epistème الذي يلامس الجبل المسمى باسمه الدير من الجهة المقابلة، يعني باليونانية: المعرفة Savoir مما جعلني أقول للرهبان: إنه لمّا كان ديرهم يقع بين العلم والشريعة، فإنه من غير المستغرب أن يكونوا قديسين وعلماء. لقد كنت أصانعهم بالطبع بما قلت؛ لأنهم لا نصيب لهم من هذا أو ذاك؛ إن لدي عموماً القليل من الأشياء الجيدة لأقولها عنهم، ولن أتمكن على الخصوص، وأنا صادق، من إطراء تخليهم عن مكاسب الدنيا المؤقتة: / ٧٨ / لقد بدا لي أن الجشع هو السمة المميزة في طبعهم؛ وقد تجاوزوا بها معنا حدود المعتقد والخجل.

كان عليَّ أن أرسل في الأمسية التي وصلنا فيها رسالة إلى المهندسَيْن الفرنسيين المقيمين في وادي حبران، وقد طلبوا منا لحمل الرسالة مبلغ ٤٠ قرشاً؛ وهو مبلغ ضخم في هذا البلد. وكان يمكن لأول أعرابي نراه أن يحمل الرسالة مقابل مبلغ أقل بعشر مرات مما طلبوا؛ لقد ساومنا واتفقنا على دفع نصف المبلغ، ولسنا بحاجة إلى القول: إن الدير يحتفظ بالمبلغ كله، أما المراسل المسكين فإنه لا يحصل على بارة واحدة مقابل تعبه. إن الرهبان اليونانيين الذين يحسبون حساب كل شيء، بادروا من قبلُ، ولكي لا نضع في حسابنا الحصول على أية منافع ولو كانت صغيرة، إلى التلميح بخصوص الرسالة التي حملناها إليهم من كوستا إلى أنها كانت كافية لتفتح أبواب الدير لنا، ولكنه كان من الأفضل أن نطلب رسالة من سلطتهم العليا في القاهرة، وإن ما ينبغي معرفته أن هذه الرسالة تشترى بريال فضي واحد، بينما لا يستفيدون شيئاً من رسالة كوستا. لقد أوصونا في اليوم التالي وألحوا في وصاتهم أن نعطيهم حتى مخصصات الخدم الذين رافقونا في رحلتنا إلى جبل سيناء بحجة أن الخدم سيفقدون تلك الأموال بين الصخور؛ لقد كانوا بكل بساطة يودون الاحتفاظ بها لأنفسهم؛ ولم يكن ذلك إلاّ بداية واعدة، وفَتْ فيما بعد بما وعدت. / ٧٩ / لقد أجبرونا بادئ ذي بدء، وأكاد أقول بالقوة، على شراء عجينة من التمر من صنعهم، وسبحات هزيلة صنعوها من سبحاتهم القديمة، وثمار المنّ معبأة في علب من الصفيح، وخواتم فضية عليها الأحرف الأولى من اسم القديسة كاترين، وغير ذلك من طرائف موجوداتهم، بثمن باهظ. أما بخصوص الطعام فإن الأمور كانت تجري على الشكل

التالي: يأخذ الدير على عاتقه تقديم الخبز لكل زائر وذلك موجود في شروط تأسيسه. يوزع ذلك الخبز اليومي في الصباح على البدو والبدويات؛ لأنني رأيت هنا عدداً منهن، وكان بينهن واحدة شابة وجميلة، لها عينان ساحرتان، وأسنان لامعة، ولم تكن محجبة؛ وإن نساء البادية كُنّ في هذه الناحية أكثر حرية، وأقل تشدداً من بقية المسلمات.

إذاً يحق للمسافرين الحصول على خبز الدير، شأنهم شأن كل الناس، ولا يحق لهم غير ذلك أبداً: أما كل الباقي فهذا شأن المسافر، إنهم يسمحون باستخدام المطبخ، ولكنه خال وبدون نار. وإذا أراد الزوار استخدامه فعليهم أن يحضروا كل شيء معهم، بدءًا من القدور والفحم وانتهاء بالأطعمة والتوابل المخصصة لأبسط ضرورات الحياة. ونستطيع التفاهم بسهولة مع الراهب الذي يشرف على المطبخ فنحصل منه مقابل مبلغ معقول على الأشياء التي لا غنى عنها في شؤون الحياة المادية؛ وهو يبيعك مقابل أي / ٨٠ / مبلغ، مهما كان قليلاً، عرقاً يدعي أنه مصنوع من عنب قبرص.

أما نحن فلم نكن بحاجة إلاّ إلى أشياء قليلة جداً، لقد حملنا معنا كل الضروريات، وما يزيد عن حاجتنا. لقد كان رفيق رحلتي مثال البريطاني في هذه الناحية، كان حريصاً على راحته، ويحب ملذات الحياة، وكان يرى أنه يخطئ في حق نفسه إن لم يتناول يومياً في قلب الصحراء وجبة عشاء كاملة، ولو كان عليه أن ينتظرها حتى منتصف الليل، كان ذلك عنده مسألة كبرياء وإحساس بالذات: لقد

كان في ذلك امتحان لكرامته باعتباره رحالة. ولما كان قد عرف أن عيد ميلاده يصادف وهو في سيناء، ولما كان حريصاً على الاحتفال بالمناسبة كما ينبغي أن يفعل ذلك ابن بريطانيا الحقيقي، فإنه حمل معه من القاهرة لهذه المناسبة ديكاً رومياً محشواً بالكمأة، بل وحمل معه أيضاً الشمبانيا التي فاجأني بها، وشرفني أن أشاركه في شربها.

كانت وجبة الطعام سهلة التحضير مع وجود مثل هذا الصحن الأساسي، وكان ما حملناه من الأطعمة للرحلة يكفينا ويزيد. إذاً، كنا نأكل على حسابنا الخاص، وكانت موارد الدير غير ذات أهمية بالنسبة إلينا.

ليس هناك حتى هنا ما يستحق النقد، وإنه لمن العدل أن يدفع المسافرون ثمن ما يأكلونه، ولا يمكن أن نطلب من الدير أن يُفلس من أجل أن ينفق على مأكلهم: لذلك قمنا بإجراء المطلوب عن طيبة خاطر، وبلا مساومة. ولكنْ، وفي لحظة حرجة، أعني / ٨١ / لحظة الرحيل، حدث مشهد ينسجم تماماً لو وضعناه في مسرحية البخيل لموليير[1] Molière، ولم يكن أرباغون ليفعل أفضل من ذلك. قدموا لنا في البداية قائمة حساب بالمصروفات المتفق عليها؛ أجرة حمل الرسالة للمهندسَيْن الفرنسيين، ثمن الطرائف التي اشتريناها، أجرة الرحلة إلى الجبل، أجرة خدمات متنوعة ... إلخ. لم يكن هناك أي اعتراض على ذلك. ثم قدموا لنا بعد ذلك بلطف قائمة حساب

---

(١) موليير (١٦٢٢ – ١٦٧٣ م): كاتب مسرحي وممثل فرنسي. يُعَدّ أحد أعظم الكوميديين في جميع العصور. والبخيل واحدة من أشهر مسرحياته، وأرباغون الشخصية الرئيسية فيها.

إضـافية صـغيرة لم نكن نـنـتظرها؛ وتحـتوي عـلى تفصـيلات هـي غايـة في الطـرافة: عشـرون قرشـاً للراهب البواب لأنه فـتح لنا الأبواب، عشـرون قرشـاً للراهب الخوري الذي أخذنا لزيارة الكنيسـة، عشـرون قرشـاً للخدم الذين لم يخدمونا لأن معنا خدمنا الخاصين، عشـرون قرشـاً للخدم الذين رافقونا إلى الجبل، عشرون قرشاً للراهب آمر الصرف لأننا أزعجناه، عشـرون قرشـاً للضجة التي أحدثناها، وهـذا البند الأخير يذكرني بطريقة البيع الإسبانية، إذ ندفع كل شـيء، ثم ندفع بعد ذلك للتعويض عما أحدثناه من ضجـة.

باختـصار، لقـد تحصـل لدينا عـند جمع العشـرينات من القـروش مبلغ صـحيح تماماً . أما الزيادة، وأعني الهبة التي اعتاد الزوار أن يتركوها للدير عند مغادرتهم، فقد كانوا يعتمدون في ذلك على مدى كرمنا . لقد كنا على وعي بالعرف، وكنا ننوي أن نلتزم به حتى إن هبتنا كانت جاهـزة من قبل؛ ولكننا لما اعتبرنا أن الرهبان اليونانيين استولوا عليها مسبقاً بأنفسهم فقد رأينا من العدل أن نُنقِصَ منها / ٨٢ / بمقدار المبلغ الذي استولوا عليه في قائمـة الحسـاب، وحددناه بمئة وعشرين قرشـاً . وقد كان ذلك أيضاً مبالغة في الكرم: لأن الأمريكيَّيْن اللذين سبقانا لم يدفعوا أكثر من ذلك مع أنهم مكثوا في الدير زمناً أطول من الزمن الذي قضيناه، ولم يتعرضوا إلاّ لقليل من الاستغلال الذي تعرضنا له.

هـنا انفجرت العاصفة، مئة وعشرون قرشاً، يا إله العدل، فيك رجاؤنا، إذاً من نظنهم نحن؟ مـئة وعشـرون قرشـاً لأناس مثلهم، لأناس مثلنا ! مئة وعشرون قرشاً ! إن في ذلك عـاراً علينا وإهانة لهم ! إننا نتسربل بالعار عندما نقدم مثل هذه الهبة،

وإنه لعار أكبر أن يقبلوها . ومن الجدير بالملاحظة أن المبلغ كان وهم يحتجون قد أصبح في جيوبهم، ولم يخرجوه منها . لقد كان أكثر أفراد العصابة إثارة راهب يدعى جوزيف، وكان وجهه مميزاً لأنه لم يكن له أنف أبداً، وكان يتحدث الإيطالية بإتقان تام؛ كان يقول: أي طريقة في التعامل هذه ! وكان يردد ذلك عشر مرات في الدقيقة، وهو يرتجف كأن به مساً، وقد كان يمكن له بطيبة خاطر أن يتفوه بكلام جارح لو كانت لديه الجرأة لفعل ذلك. أما الأخ بير المسكين فقد كان يقوم عبثاً بدور المصلح، وكان كبير الرهبان، وهو رجل محترم له لحية بيضاء، يشرف على هذا النقاش البشع، مظهراً أن في ذلك إهانة شخصية له نفسه. واستمرت العاصفة وقتاً طويلاً، ولكنها كانت جعجعة بلا طحن: لم نزد على المبلغ ولا بارة واحدة. كان ضميرنا مرتاحاً لأننا / ٨٣ / قمنا بالواجب على أكمل وجه، بل وسّعْنا في ذلك عليهم: لقد صرفنا في الدير بعد كل حساب مبلغ خمس مئة قرش، وكان ذلك بالتأكيد ثمناً مرتفعاً لضيافة دامت أربعين ساعة، ويا لتلك الضيافة !

كان السقوط ذريعاً من قمة جبل سيناء إلى مثل هذه التفاهات، وأعتذر للقارئ عن ذلك. ولكن إذا كانت الحياة رحلة كما نردد دائماً، فإن باستطاعتنا أن نعكس الآية فنقول إن الرحلة كالحياة مملوءة بالمشاعر المختلفة، وبالحوادث من كل الأنواع، وفيها من الحوادث البسيطة والعارضة أكثر مما فيها من الأحداث الكبرى. ناهيك عن أن هذه النزاعات الصغيرة، مهما كانت سوقية، فإن ذلك يجعلها تحمل في جوانبها درساً يتمثل فيما ظهر من جشع الرهبان اليونانيين. لقد وجدتهم في كل مكان

متشابهين، وخصوصاً في القدس حيث كان جشعهم أكثر إزعاجاً؛ لأنه جشع لا مسوغ له، وهو بالتالي لا يغتفر.

إذا حاولت الدخول إلى كنيسة القيامة[1] Saint Sépulcre فإنك تجد راهباً يونانياً مرابطاً عند الباب يمد لك يده، وإذا حاولت الصعود إلى جبل الجلجلة، وأنت ترتجف متأثراً بتلك المشاعر التي يحركها هذا المكان في نفوس أقل الناس إيماناً فإنك تجد هناك راهباً يونانياً آخر يصب ماء الورد على أصابعك ويطلب منك أيضاً أجرة عمله الخير، وإنهم في الحقيقة يقنعون بالقليل؛ فبعض القروش تخلصك منهم. ويبدو أن الرهبان الإغريق لم يكونوا في عهد سوفوكليس[2] Sophocle أقل جشعاً، لأن هذا

---

(١) المكان الذي يزعم النصارى أن المسيح عليه السلام صُلب فيه، ثم حفر له قبر وضعت جثته فيه وهو في القدس وعليه كنيسة تعرف بـ القديس سيبولكر Saint Sépulcre يحج إليها المسيحيون وفيها مكان لعبادات الأرثوذكس، وآخر للكاثوليك، وكان قنصل فرنسا في القدس مكلفاً بالسهر على حقوق اللاتينيين أمام تطرف اليونان. وانظر: **معجم البلدان** لياقوت الحموي، ج ٤، ص ٣٩٦ – ٣٩٧، رسم (قمامة).

(٢) سوفوكليس Sophocles (٤٩٤ – ٤٠٦ ق. م) ثاني الشعراء التراجيديين الإغريق، نشأ في طبقة متوسطة ذات اتجاهات سياسية معتدلة بحيث لم تكن مفرطة في شعبيتها كما لم تكن مغالية في أرستقراطيتها، وكان وسطاً في عقيدته الدينية، لا هو من المتزمتين ولا هو من المستهترين – تتسم نزعته الفلسفية بالتشاؤم والضيق بالحياة والرثاء للإنسان وما يلقى من آلام. وكان لهذه النزعة أثرها على مسرحياته فبدت كلها يغلب عليها الطابع المعتم. أفاد من جهود سلفه أيسخيلوس. كتب ٢٣ مسرحية لم يبق منها إلا سبع. كان أرسطو يعد مسرحية "أوديب ملكاً" لسوفوكليس مأساة نموذجية ... فليس ثمة بيت شعر فيها دون دلالة ومغزى، وليس ثمة فرصة لإيقاظ العاطفة إلا حفلت بها. انظر: **نظام العبودية القديم والنموذج المثالي للإنسان**، جوزيف فوجت، تقديم وترجمة وتعليق د. منيرة كروان، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، رقم (١٢٢)، ١٩٩٩ م، ص ٣٢.

الشاعر يقول للعرّاف العجوز / ٨٤ / تيرزياس[١] Tirsias على لسان كريون[٢]Cron:

"إن الجنس الكهنوتي كله يحب المال" . لقد ألقيت لسكان ذلك النزل غير المضياف وأنا أستعد لمغادرته كلمة وداع كانت هي مقولة مواطنهم المشهور سوفوكليس، وقد قلتها بلغتهم حتى تكون مفهومة لديهم أكثر[٣] .

لقد فاتني الحديث عن محنة من نوع آخر عانينا منها، وأجد من المفيد أن أرويها . لما كانت سيناء التي تسمى رسمياً جبل الطور واقعة في منطقة نفوذ عباس باشا فقد كانت له فيها حامية صغيرة كانت تعسكر حينئذٍ بالقرب من الدير، وكان قائد الحامية برتبة بنباشي (مقدم)[٤]، وقد قمنا بزيارة مجاملة لهذا الضابط عند

---

(١) عـــرّاف ضرير في الأساطير اليونانية، ضربته "هيرا" زوجة "زيوس" بالعمى ووهب له "زيـــوس" القدرة على التنبؤ، كما وهب له طول العمر. يذكره هوميروس وأسخيلوس ... وسوفوكليس في أعمالهم. ويظهر عند ت. س. إليوت في "الأرض اليباب". **معجم ديانات ...**، موثق سابقاً، ج ٣، ص ٣٢٥ — ٣٢٦.

(٢) Cron كـــريون، خال ولديْ أوديب الذي أصبح ملكاً لطيبة Thbes بعد موتهما وهمـــا Eteacles = ايتكـــليس و Polynice= بوليـــنيس، ثم حكم على أنتيجونا Antigone ابنة أوديب بالمـــوت. وهو أحد شخصيات مسرحيات سوفوكليس وخصوصاً في "أوديب ملكاً" و "أوديب في كولون" و "أنتيجونا".

(٣) أثبت ديدييه قول سوفوكليس باليونانية.

(٤) يستخدم ديدييه هنا لقب Bin- Bachi التركي ليسخر من هذا الضابط المصري الذي لم يحسن استقبالهم. ودليلنا ما تتضمنه السطور التالية التي يتحدث فيها عن الانطباع السيء الـــذي تتركه لدى المصري خصوصاً والعربي عموماً عندما تحدثه بالتركية لأنها حسب قول ديدييه لغة الغزاة. وبنباشي أو بيكباشي: لفظ تركي بمعنى رأس الألف، واستعملت بيكباشي في العصر العثماني المتأخر، وتعادل وفق المصطلحات العسكرية المعاصرة رتبة (مقـــدم)، انظر: **معجم المصطلحات والألقاب التاريخية**، تأليف مصطفى عبد الكريم الخطيـــب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٦هـــ — ١٩٩٦ م، ص ٨٣ — ٨٤. انظر **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، د. سهيل صابان، ط. مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢١هـــ / ٢٠٠٠ م، ص ٦٦.

وصولنا، فلم يحسن استقبالنا: لقد التقيناه عند مدخل المعسكر، في الهواء الطلق، ونحن وقوف، بلا قهوة ولا شيشة، بل إنه لم يدخلنا إلى خيمته. كنّا ممتعضين لأنه أساء استقبالنا، وأعلمناه بذلك عن طريق خادم تركي كنا نستخدمه، وطلبنا منه قصداً أن ينقل إليه الرسالة بالتركية؛ وهو أمر يُغضب المصريين والعرب لأن التركية لغة الغزاة. لقد انزعج من توبيخنا له / ٨٥ /، وأراد بدوره أن يثأر منا لذلك، فطلب أن نُسأل عن جوازات سفرنا؛ نعم أيها القارئ، جوازات سفر في سيناء ! إن مصر الغنية بأسباب الحضارة الأوروبية لم تنس من بينها هذا السبب (جوازات السفر). كان ذلك البنباشي يظن أنه سيجد في أوراقنا نقصاً، إلاّ أنه نال ما يستحق؛ لقد كان رفيقي نظامياً، وكنت أنا أكثر نظامية منه، لأن مبدئي في السفر هو الحصول على عدد كبير من التأشيرات، وعدم الاقتصاد في ذلك، لكي أتجنب الانزعاج والتأخير؛ لذلك كان معي جواز سفر خاص بالذهاب إلى سيناء حصلت عليه من القنصل الفرنسي في القاهرة، ومؤشر من السلطات المصرية، وقد طلبت زيادة في الحيطة أن يُسَجّل عليه السلاح الذي أحمله. ولما لم يجد وسيلة لإزعاجنا، لم يكن لديه ما يستطيع فعله إلاّ أن يعيد لنا أوراقنا: وهذا ما فعله، ولكن ليس دون أن يُمتع نفسه بوضع تأشيرته الخاصة عليها، وقد علمت من ذلك أن هذه الشخصية المشهورة تُسَمّى Hassim Ibrahim هاشم إبراهيم. ولما شعر بأنه قد هزم في هذا الجانب أراد أن يثأر بطريقة أخرى، لقد تخيل أن باستطاعته مصادرة الجمال التي حملتنا من مدينة الطور، والتي كان من المفترض أن ترجعنا إليها. وإليكم الدافع أو الحجة للقيام بهذا الإجراء العشوائي؛ إن الأعمال الجارية في الطريق، وحاجة معسكر العاملين فيه،

جعلت الحكومة المصرية تحجز كل جمال المنطقة: صحيح أنهم كانوا يدفعون لأصحابها / ٨٦ / أجرة جيدة؛ ولكن ثقل الأحمال، والمعاملة السيئة التي تلقاها تلك الجمال من الجنود، جعل عدداً كبيراً من هذه الحيوانات التي تغذى تغذية سيئة، وتكاد تكون من قبل منهكة بسبب الضائقة العامة، جعلها، تموت من التعب، وجعل طرق الصحراء مليئة ببقايا جثثها. لذلك لا يلتزم البدو، إلاّ بعد تردد، بأوامر الباشا، ويراوغون للتخلص منها كلما استطاعوا فعل ذلك، دون أن يعرضوا أنفسهم للخطر؛ لأن بدو سيناء مُفْسَدون تماماً ومهجنون تماماً: لقد أصبحوا فقراء، لا يملكون إلا ماشية قليلة، وليس لهم من مورد في الأوقات العادية إلاّ أن يذهبوا إلى القاهرة لبيع ملح المناجم والفحم. وتتحاشى السلطات استخدام العنف الشديد في معاملتهم، وذلك لسببين، أولهما: أن سياسة عباس باشا حينئذ كانت تقوم على استثناء البدو كلهم من هذه الإجراءات، مخافة أن يؤدي التشديد عليهم إلى إثارتهم. وثانيهما: أنهم إذا هربوا إلى قلب الصحراء فليس هناك من سيذهب للبحث عنهم، وكلما كثر البدو كثرت الجمال. تلك كانت حالة البلد، واعتماداً على أوامر المصادرة التي أصدرتها حكومته نظّم البنباشي أمر مصادرة جمالنا زاعماً أنها تابعة للمعسكر، وأنه اعتماداً على ذلك لا يحق لبدو الطور أن يؤجرها. وقد أجبناه عن ذلك بالقول: إن كوننا غير مصريين، وغير بدو / ٨٧ / يجعل أوامر الباشا لا تخصنا أبداً، وإن جمالنا لنا حتّى الطور لأننا استأجرناها، ودفعنا أجرتها؛ وإننا نمنعه من أن يمسها، ونلقي على عاتقه مسؤولية تعويض الأضرار التي تلحق بنا، ولن نتوانى عن طلبها من الحكومة المصرية عن طريق قنصليتنا عن كل ساعة تأخير يسببها لنا، ناهيك عن

إزاحته عن منصبه التي ستتلو ذلك دون أدنى شك. وبعد هذا الاعتراض الحاسم، كتبنا في المساء نفسه رسالة إلى صديقينا المهندسيْن في معسكر وادي حبران ليمدوا لنا يد المساعدة عند الحاجة. ولم تصل الأمور إلى هذا الحد لأن البنباشي خاف، وعدل عن مزاعمه، وأفرج عن جمالنا وجاءنا زائراً، ولكننا رددنا له الصاع صاعين باستقباله كما كان قد استقبلنا. كنا على طاولة الطعام عندما جاءنا، وبدلاً من أن ندعوه إلى مشاركتنا طعامنا، كما كنا سنفعل ذلك في ظروف مختلفة تماماً، وكما جرت العادة دوماً في الشرق، تركناه واقفاً، ولم نَدَعْه يدخل علينا بل تركناه على قدميه أمام الباب، ولم نوجه إليه أي كلمة، ولم نعره أي اهتمام كما لو أنه ليس بموجود. كان هذا الدرس القاسي ضرورياً: وينبغي على الدوام معاملة الأتراك كذلك في مثل هذه الحالة، وإلا / ٨٨ / فإنهم سيحتقرونك ويزعجونك. لقد أبدينا في مقابل ذلك احتراماً كبيراً لطبيب عسكري شاب كان يرافقه، ولم يكن لدينا ما نأخذه عليه، كان مصرياً، ويتحدث الفرنسية والإنجليزية بطلاقة. وقد لمحنا في أثناء رحيلنا من بعيد أن البنباشي، قد خطرت له فكرة عبقرية؛ إذ نصب في وسط المعسكر منصة عالية من الخشب فوقها كرسي، وكان يجلس عليه، وكأنه مشعوذ على سريره، ظاناً بلا شك أن مكانته المعنوية ترتفع بسبب مباشر من ارتفاعه المادي. مررنا على مرمى منه دون أن نلتفت إليه، ولست أشك بعد كل ما حدث، أنه لم يحتفظ بذكرى حسنة عن إقامتنا في سيناء.

إن أخشى ما أخشاه في السفر هو أن أسلك الطريق نفسها مرتين، وقد كلفني تلافي ذلك القيام بانعطافات لا يستهان بها؛ ولكن الضرورة هنا دفعتني إلى ذلك. لقد

كان علينا أن نسلك في العودة الطريق نفسها التي سلكناها في المجيء، وأن نضع أقدامنا على آثار خطواتنا التي مازالت واضحة. تجاوزنا مرة أخرى السهل الكبير الذي نزل فيه العبرانيون بقيادة هارون[1] الأخ الشقيق لموسى، وعبدوا العجل فجأة. ثم هبطنا بعد ذلك عبر نقب الدير الذي يبدو لي الآن، لو كان ذلك ممكناً، أكثر تهدماً وأكثر رعباً أيضاً من المرة الأولى. لقد التقينا أحد المسافرين الأوروبيين وهو يصعد القمة / ٨٩ / ولما كان هو أيضاً يقوم بزيارة الدير فقد نصحنا له بأخوة، وبلا إلحاح أن يكون حريصاً كل الحرص على أمواله، ولم نقابل أحداً آخر حتى نهاية الرحلة إلى سيناء.

---

(١) يزعم العهد القديم أن بني إسرائيل عبدوا العجل الذهبي الذي صنعه لهم هارون في غياب موسى في جبل المناجاة (سفر الخروج ٣٢: ١ – ٢). انظر: **تاريخ سيناء ...**، موثق سابقاً، ص ٤٥٦؛ وانظر: **معجم ديانات ...**، موثق سابقاً، ج ٢، ص ٤٦ – ٤٧. وقد حدثنا القرآن الكريم في غير موضع عن اتخاذ بني إسرائيل العجل إلهاً معبوداً في سورة البقرة، الآيات ٥١ – ٦١، والآيتان ٩٢ – ٩٣ حيث يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ(٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣)﴾. وقد صنع العجل من حلي بني إسرائيل وكان صورة مجسدة لعجل لا روح فيها، إنما هي جسد فقط، كانت الريح تدخل فيه، فيسمع له صوت كخوار البقر، انظر سورة الأعراف، الآيات من ١٤٨–١٥٠، وسورة طه، الآيات من ٧٧–٩٨، وفيها دلالة على أن السامري هو الذي أخرج لهم العجل، وأن هارون نهاهم عن عبادته ولكنهم لم يستجيبوا له، وعاتبه موسى عليه السلام عتاباً شديداً فأجاب، طه ٩٤ ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي(٩٤)﴾.

نصبنا خيامنا على حدود وادي صلاف، الذي يقع تماماً عند أقدام نقب حبران. كان ذلك التوقف رائعاً، ولا زالت ذكراه ماثلة حية تختلج في ذاكرتي. كان الزمان والمكان يزخران بالجمال والسحر: كانت الوديان والكتل السفلية من الجبال قد بدأ يغشاها الغسق، ولكن القمم العالية كانت ما تزال تقدح بعض شرر الغروب. إنه النزاع الأخير بين الضوء المتلاشي وبين الظلمة التي تولد، وكانت عظمة المكان وجماله، وهدوء الطبيعة، والهواء العليل، والمساء الحزين، والعزلة، والصمت، والحرية، كل ذلك، كان يمس شغاف القلب، ويجعله تملأ بالأحاسيس التي لا يمكن التعبير عنها، وفي هذا اليوم أشعر حقاً لأول مرة أنني أقمت في الصحراء.

ثم شددنا الرحال عند مطلع الشمس إلى ذلك النقب البغيض، نقب حبران الذي لا يقل عبوره من هذه الجهة صعوبة عنه من الجهة المقابلة، والذي أجهدنا في المرة السابقة كل الإجهاد، وقد أجهدنا في العودة أكثر أيضاً، لأننا هبطنا منه هبوطاً يكاد يكون عمودياً، عبر طريق أكثر قصراً، ولكنها أكثر سوءًا من الأخرى، تكثر فيها الصخور المحدبة، والحجارة المتدحرجة، لقد كان النقب سريع الانحدار حتى إن الجمال لا تستطيع نزوله، فقامت بالتفاف طويل حوله استغرق وقتاً، وجدنا أنفسنا معه مضطرين / ٩٠ / لانتظار وصولها وقتاً طويلاً في أسفل المنحدر.

ولما دخلنا وادي حبران تبدى لي من جديد جبل سربال الذي كان عارياً وقاحلاً، ولكنه كان جليلاً كما تركته في الذهاب. ولقد أدهشني عندما اقتربت منه عارض مزدوج من التناغم بين الضوء والأرض، كانت قد فاتتني ملاحظته في المرة

الأولى، لأن الشمس كان لها حينئذ وضعية مختلفة: إنه منحدر ضخم، ناتئ جداً، ويُحْدث في الجبل قطعاً عرضياً جانبياً، وكانت طريقة الإضاءة في تلك اللحظة تعكس عليه ظلاً واضحاً كل الوضوح، وأسود فاحماً حتى لتظنه ثوب حداد ضخماً، ملتفاً بشكل متصالب على أحد العمالقة. لقد انضم إلينا خلال الطريق متطوع جديد: إنه قعود صغير وحر، ضائع بدون شك، ومازال غير مستأنس أيضاً، انضم إلى قافلتنا بدافع حب الجماعة، وأضحكنا طوال فترة الصباح بقفزاته الجميلة، وباستقلاليته؛ فمع أنه كان يتبعنا عن قريب، لم يترك أحداً يمسك به، أو أن يقترب منه. وقد لقي جنود حملة استطلاع وجدناهم معسكرين حول نبع نقب حبران صعوبة كبيرة في الإمساك به، ولم ينجحوا في ذلك إلا باستخدام أنشوطة؛ لقد كان دفاعه عن نفسه بطولياً، وقد استطاع أن يجندل غير واحد من مهاجميه خلال الصراع. لقد كنت شاهداً على المعركة، وأتيحت لي الفرصة خلالها لمراقبة قوة ذلك الحيوان ورشاقته الفطريتين، وكيف يتحول إلى حيوان وديع كل الوداعة، ويصبح في غاية من اللطف، عندما يكون / ٩١ / مستأنساً؛ ويصبح حينئذ أكثر بطئاً، وأكثر تأنياً.

كان العمل في الطريق قد تقدم خلال الأيام الخمسة التي استغرقتها رحلتنا، ومع ذلك فإن المهندسَيْن لم يكونا بعدُ قد غادرا مكان إقامتهما في جانب المسيل المائي ليكونا على الدوام كعادتهما مشرفين على الأعمال. كانا ينتظراننا في خيمتهم، وقد هيّآ غداءً فاخراً، كان الطبق الرئيسي فيه فخذ جدي بري، وقد كنا نحن أيضاً قد

أتينا بجدي كامل اصطاده أحد البدو في جبل سيناء، واشتريناه منه عند مغادرة الدير.

لعلكم تظنون، وقد كنت أظن ذلك، أنه لا وجود لذلك الحيوان البالغ الروعة إلاّ في فلك البروج، وفي المنحنى الخيالي للمدار الجنوبي، إنه موجود حقاً ليس في صحراء سيناء فقط، وإنما في السودان، حيث رأيته بعض المرات، أقل حجماً من اليحمور، وأقل منه علواً، يشبه الأيل شبهاً كبيراً إلا أن قرنه ليس له ضخامة قرن الأيل الكثير العقد والفروع، والذي لا يتناسب أبداً مع حجم رأسه وبقية أعضاء جسده.

كان الغداء بهيجاً، وقد تعرفت خلاله على سميرَيْن جديدين هما: علي أفندي، وسليمان أغا من ضباط المعسكر، وهما مسلمان ملتزمان، ويتحدثان الفرنسية، ولا يشربان النبيذ، مع أنهما يجلسان على طاولة أوروبية، وهما يخشيان دوماً من أن يطعمها أحد في غفلة منهما لحم الخنزير أو دجاجاً غير مذبوح على الطريقة الإسلامية. / ٩٢ /

على الرغم من أننا كنا في شهر يناير (كانون الثاني) فإن الجو كان خلال الرحلة مشرقاً؛ وهو شيء غير معتاد في هذا الفصل، إلاّ في مثل هذا المناخ المناسب؛ ولكن اليوم التالي، آخر أيام الرحلة، كان مزعجاً: كانت السماء مكفهرة، وكان هواء البحر البارد والعاصف يجعلني أتجمد على ظهر الهجان الذي كان يسير بسرعة دون أن استحثه على المسير، ووصلنا إلى الطور في ساعة مبكرة.

لقد وجدت ريس مركبنا جالساً في المقهى نفسه الذي تركته فيه عند المغادرة، فهب واقفاً أمامي بلطف، ورحب بي بشهامة عربي من العرب الأوائل. وبينما هو يوجه إلي التهاني وعبارات المجاملة كان جَمّالتنا يهربون بسرعة مع جمالهم التي ما كادت الأحمال تنزل عنها، خوفاً من أن يتم حجزها في الطور كما حدث في سيناء، وعلى حين غرة كانوا في أعماق الصحراء.

ولما لم يعد لي ما أفعله في الطور ذهبت للنوم في المركب الذي انتظرنا بصبر في الميناء ثلاثة أيام أكثر مما كان مشترطاً في العقد. وفي اليوم الثاني، ومنذ الفجر نشرنا الأشرعة في الطريق إلى جدة.

الفصل الخامس

/ ٩٣ / البحـر الأحمـر[1]

يسمى المركب الذي صعدت ظهره في البحر الأحمر، السنبوك[2]. طوله ٦٠ قدماً، وعرضه ١٥ قدماً، ولم يكن مُجَسّراً إلاّ في الخلف حيث يرتفع ضرب من الكوثل، أعدوا تحته خلوة أطلقوا عليها اسم مقصورة ولا فخر ! وهي واسعة تكفي لاحتواء مرتبتين ولا شيء غيرهما؛ كنا ننام هناك، أمّا في النهار فكنا نعيش في الهواء الطلق على الكوثل. وإن للسنبوك الذي يسير بالتجديف شراعين يكادان يكونان

---

(١) يمثل البحر الأحمر الذي تسميه العرب "بحر القلزم" جزءاً من الأخدود الإفريقي العظيم الذي يمتد من جنوب خط الاستواء حتى شمال فلسطين. وهو أكثر أجزاء الأخدود وضوحاً، ويمتد بصفة عامة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، بين خطي عرض ٣٥ْ شمالاً، ٣٠، ١٢ْ شمالاً لمسافة طول ١٩٣٢ كم ويبلغ اتساع البحر عند شبه جزيرة سيناء ١٧٥ كم، في حين يبلغ اتساعه ٣٥٠ كم فيما بين مصوع وجازان، ثم يضيق إلى ما بين ٣٠ – ٤٠ كم عند النهاية الجنوبية لمضيق باب المندب، ويصل عمقه في بعض المواضع ٤٨٤ م، بينما يصل في القناة الوسطى إلى ٣٠٣٩ متراً، وتحيط بسواحله الشعاب المرجانية. انظر تفصيلات أوسع في كتاب **الموانئ السعودية على البحر الأحمر، دراسة في الجغرافيا الاقتصادية**، د. محمد أحمد الرويثي، ط ١، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م، ص ٤٧ – ٥٧. وذكر البلادي في **معجم معالم الحجاز**، ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨ م، ج ١، ص ١٧٩ أنه سمي البحر الأحمر لوجود الشعب ذات اللون المرجاني بداخله، والتي كثيراً ما تتحطم السفن بسببها.

(٢) السنبوك (والجمع سنابيك) بفتح السين، وأصلها غير عربي، لكن العرب يعرفون هذا النوع من السفن بهذا الاسم. انظر: **تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت والخليج العربي**، تأليف سيف مرزوق الشملان، ج ١، ص ٢٧١. ويلاحظ أن بعض المؤلفين يكتبها بالميم وهو خطأ. انظر: **رحلة بيرتون**، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٥٤.

لاتينيين؛ أحدهما في مقدمة السنبوك، ويمتد بكامله خارج السنبوك عندما ينفخه الهواء، ويشكل ما يشبه بالوناً نصف مدور. أما جؤجؤ السفينة، فقد كان يشبه ما رأيته مرسوماً على لوحات جدارية أو ميداليات قديمة، وأراهن واثقاً، أنه ومنذ قرون، لم يتغير أي شيء فيه، وأن المراكب والأشرعة والمجاديف هي بالتأكيد نفسها منذ العصور الموغلة في القِدَم، وأن البحارة يرسون في المرافئ نفسها، ويمارسون العادات نفسها، ولديهم الأحكام المسبقة نفسها، ونذر الشؤم نفسها التي كانت في عهد سكان الكهوف.

كان السنبوك مصنوعاً من خشب هندي قاسٍ جداً يُسَمّى: الساج. وقد رأيت في ميناء مرسيليا، / ٩٤ / سفينة قديمة تابعة لشركة الهند، مصنوعة من الخشب نفسه في بومباي في عام ١٧٠٧ م، وقد أصبح هيكلها قاسياً حتى إنه يثلم المسامير التي نود غرزها فيه ويلويها. يبحر بِطُريق البحر هذا، منذ مئة وخمسين عاماً، ويُعَدّ فأل خير لأنه لم يغرق أبداً، وأغنى كل من ملكه[١].

وقد كان لسنبوكنا أيضاً سمعة حسنة جداً، لقد كان يُعَدُّ عن استحقاق سنبوكاً سريعاً، وكان الشيخ عبد الغفار، مالكه، وهو تاجر ثري من تجار جدة، مسروراً مما ينجز به من أعمال، وقد كنت مسروراً أنا نفسي لأنني وجدته يقوم بالرحلة.

---

(١) قارن بما في كتاب: **التراث الشعبي ...**، موثق سابقاً، ص ٦٦.

كان على متنه، ناهيك عن الريس، فريق مكون من عشرة بحارة، وعبد أسود صغير، رشيق ونبيه، كان في الوقت نفسه يعمل نوتياً وخادماً للجميع. وكانوا يعاملونه معاملة إنسانية لائقة، ولم أره خلال خمسة عشر يوماً قضيتها على ظهر السنبوك يُعاقب إلاّ مرة واحدة، وبلطف شديد. وأجدني مدفوعاً إلى الاعتراف، لكي أظل صادقاً، أن السنبوك كان يعج بالجراذين، وبتشكيلة كبيرة من الهوام؛ ولكنني أضيف مسرعاً أن تلك الهوام كانت كما يبدو قد اعتادت العرب، وظلت وفية لهم، ولم ينلنا منها إلا إزعاج بسيط.

تلك هي السفن المستخدمة في البحر الأحمر، إنها آلات خفيفة لملاحة صعبة. يُعَدّ هذا البحر واحداً من أخطر البحار / ٩٥ / التي نعرفها: تقطعه وتعبره في كل الاتجاهات تيارات مائية، وتملؤه الصخور البحرية والشعاب المرجانية، وهو، ناهيك عن ذلك، معرض لعواصف هوائية عاتية، يجعلها تَقَارب الشاطئين والجبال كثيرة الحدوث، والتغير؛ لذلك كثيراً ما تغرق السفن فيه، على الرغم من حذر البحارة الشديد ووجلهم. لقد علمتني تجربتي، كما سنرى، أن هذا البحر غير مفترى عليه، وإن كنت لم أهلك فيه، فقد أوشكت على ذلك، وإنني أدين بخروجي سالماً لحماية السماء وصلابة السنبوك.

أبحرنا من الطور فجراً، وكان الهواء طوال اليوم مؤاتياً، وها نحن قريباً نتجاوز رأس محمد، الذي يعد الحد الأقصى لشبه جزيرة سيناء. وفي المساء، وعلى الرغم من أن الهواء كان مايزال مؤاتياً، فإنه أصبح عنيفاً، يثير القلق، وهاج البحر، وأصبحت الأمواج تتقاذفنا بعنف شديد، ونحن في زورقنا السريع العطب.

قلت: إن المراكب في البحر الأحمر، لا تسير ليلاً أبداً. وقد كان ينبغي هنا بالتأكيد الالتزام بهذا العرف، والبحث عن ملجأ يقينا هذا الجو العاصف، ولكن الأمر هذه المرة كان مستحيلاً؛ لقد وصلنا خليج العقبة الذي كان ينبغي تجاوزه كاملاً لكي نجد ملجأً أو مرفأً، إذاً، كان ينبغي الإبحار طوال الليل على الرغم من عتو الأمواج المتزايد أبداً، ومن عنف الهواء. / ٩٦ /

كان المركب يسير بلا بوصلة، لأنني لا أستطيع إعطاء هذا الاسم للبوصلة البدائية المصنوعة من الخشب، والتي لا يكاد أحد ينظر إليها في النهار، وليست مضاءة في الليل أبداً، كنا نسير وسط الظلمات نحو المغامرة بلا أَمَم، وحسبما تقودنا العاصفة، ولما يئس البحارة من السيطرة على المركب، وهم لم يحاولوا ذلك، فإنهم تركوا قيادة السنبوك، واستسلموا للكسل والرعب، سلموا أمرهم لله وحده في توجيه المركب وحمايته؛ بعضهم صمت، وبعضهم الآخر كان يستغيث بكل أولياء الإسلام. وكان أحد خدمنا، التركي الذي تحدثت عنه سابقاً، يزيد من حالة الرعب العام، كان في أقصى حالات الخوف، يثير الضحك في بعض حالاته، حتى إنني كنت سأضحك من ذلك ملء شدقي لو كان الضحك مقبولاً في مثل هذه اللحظات. كان السنبوك يَصِرُّ عند كل عاصفة عابرة كما لو أنه سيُخرق، وكان يميل على جانبيه كل الميل، حتى ليخيل أنه من المستحيل أن يستوي مرة أخرى، وكنت أنتظر أن أراه بين لحظة وأخرى وقد انقلب أعلاه سافله. كان الموج يغطي كل شيء، ويكتسح كل شيء، حتى الكوثل على الرغم من ارتفاعه. ولما لم يكن باستطاعتنا، رفيق سفري وأنا، مواجهة ذلك إلاّ في المقصورة، فقد كنا هناك مستلقِيَيْن جنباً إلى جنب، كُلٌّ على

فراشه ننتظر مستسلمين انجلاء المحنة على أي وجه؛ ناهيك عن أنه كان علينا أن نحافظ على توازننا / ٩٧ / لأن مَيْل المركب كان شديداً، ويجعل فرشتينا تنقلب إحداهما فوق الأخرى كأنهما ورقتا كتاب، ويسطحنا بينهما كأننا نبتتان في كتاب الأعشاب، ثم يقذفنا بعنف على جانبي المركب متعرضين لخطر أنْ تُهرس رؤوسنا، زد على ذلك أن الماء كان يتسرب من كل مكان، وكأنما كنا نسبح في مياه البحر حقاً. ولحسن الحظ أننا لم نصب بدوار البحر مما كان سيزيد الطين بلة.

استمر ذلك الكَرْب طوال الليل، كانت ليلة طويلة من ليالي الشتاء، ولم يضع النهار حداً لذلك الكرب، بل كان استمراراً لليل وأكثر سوءً منه: واستمرت العاصفة حتى المساء؛ حينئذ فقط ارتحنا بعض الارتياح، وسُمح لي بمغادرة فراشي وسجني. ولما كان القول: عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم صحيحاً كل الصحة فإن العاصفة دفعتنا في وجهتنا التي نريد، وكان لها على الأقل ميزة، تكمن في أنها جعلتنا نقطع في وقت قليل مسافة كبيرة من الطريق. وألقينا المراسي عند غياب الشمس، في جزيرة مقفرة ورملية اسمها نعمان، تقع على مقربة من الشاطئ الذي تقع عليه ضبا؛ وهي قرية كبيرة من العربية الصخرية مشهورة بطيب مياه آبارها.

إن خليج العقبة الذي قاسينا ما قاسينا في تجاوزه، وترك في نفسي ذكريات مؤلمة، هو مثل خليج السويس جَونٌ صغير على البحر الأحمر الذي ينفتح /٩٨ / في هذا المكان ليوسع مكاناً لشبه جزيرة سيناء. لقد اكتسب خليج العقبة اسمه من قلعة[1] قديمة مهدمة اليوم، تكاد تشغل كل مؤخرته، وتحدد أقصى الأراضي المصرية.

---

(١) انظر وصفاً لهذه القلعة في كتاب: **تاريخ سيناء ...**، موثق سابقاً، ص ١٩٤– ١٩٥.

وادعى مؤخراً أحد البريطانيين، وهو الكابتن ألان W. Allan، أن هذا الخليج كان في أحد الأيام الغابرة متصلاً بالبحر الأبيض المتوسط عبر البحر الميت وبحيرة طبريا، واستند في ذلك على التوضعات الأرضية الممتدة من القواعد الشمالية في لبنان حتى البحر الأحمر، والتي ليست إلاّ وادياً عميقاً، واستند أيضاً على اختلاف بالغ في المستوى مع البحر الأبيض المتوسط، حتى إنه يتجاوزه في بعض الأماكن ٤٠٠٠ متر. وهو يرى، والحالة هذه، أنه إذا تم حفر قناة في محيط جبل الكرمل فإن البحر سيندفع في هذه اللجة ليتصل بالبحر الأحمر كما كان الأمر في غابر الأزمان.

إن أكبر بحيرتين في فلسطين ستلتقيان بسهولة مع البحر الأحمر كما يفترض آلان بوساطة قناة ثانية تحفر من البحر الميت إلى خليج العقبة. وتصبح الصحراء السورية بذلك محيطاً، ويصبح البحران بحراً واحداً. وإن كان هذا المشروع العملاق ممكن التنفيذ، فإنه سيغني عن شق القناة الحالية في مضيق السويس، ويجعل الوصول إلى الهند أكثر سهولة.

لقد عوضنا اليومُ التالي عن المحن الصعبة التي مررنا بها في اليوم السابق: فالهواء الذي كان على الدوام مؤاتياً جداً، أصبح أكثر تناسباً مع طاقة / ٩٩ / الإنسان، أما البحر الذي كان مايزال في الصباح هائجاً، فإنه هدأ تدريجياً. واستعاد طاقم البحارة شجاعته؛ ولمّا لم يكن لديهم ما يفعلونه، فقد أخذوا في الغناء، حتى الخادم التركي نفسه، كان بعد أن زال عنه الرعب، يغني كالآخرين، ويزعم أنه لم يعرفَ الخوف لحظة

واحدة. نزلنا إلى البر مساءً في الوجه التي تلفظ وش[1] Ousch. استقبلنا عند نزولنا بعض الجنود الأتراك الذين كانوا حامية في هذا المكان البعيد. وكان أحدهم، ويا للمفاجأة السعيدة، يتحدث الفرنسية، وكان يقول: إنه من إستانبول، وربما كان أحد الجنود الفارين من جيشنا، وسواء أكان فاراً أم لا، فإنه أبدى اهتماماً كبيراً بنا، وكان لطيفاً كل اللطف، وقدم لنا خدمات صغيرة متنوعة. قضيت الأمسية معه جالسين أمام القهوة، وحولنا بالطبع بعض السكان الأصليين الذين يمكن بالتأكيد تفهم فضولهم الذي لم يكن على أية حال مزعجاً.

إن رؤية أوروبي في هذه الأنحاء شيء نادر، ولما وصلت أنباء وصولنا إلى بدو الجوار؛ وهم أعراب من قبيلة بلي فإنهم حملوا إلينا أغذية من كل الأنواع، البيض، والخراف، والحليب، والسمك، والخبز أيضاً، حتى إنه أصبح من السهل علينا أن ندعم مخزوننا من الطعام اللازم للرحلة ونجدده.

كان الجو لطيفاً، وكان البحر الذي استعاد هدوءه يأتي لتتكسر أمواجه على الساحل الرملي، وكانت أسراب من النوارس تحلق فوق سطح البحر. تحتوي قرية الوجه على قصر يحمل الاسم نفسه، يقع على بعد فرسخين أو ثلاثة فراسخ إلى الداخل / ١٠٠ / على طريق قافلة الحج المصرية الكبرى من القاهرة إلى مكة المكرمة، وإذا صدقت الروايات، فإن هناك إلى جهة الشمال البعيد، على بعد خمسة

---

(١) انظر: رحلات في شبه الجزيرة العربية، بوكهارت، موثق سابقاً ص ٣٩١. قال: إنها محطة توقف للحجيج اسمها الوجه (وتنطق أيضاً الوش El ousch). وتسميتها الوش تأثر باللهجة المصرية.

أو ستة أيام من المسير، وعلى بعد ١٤ يوماً من العقبة، على طريق قافلة أخرى؛ هي قافلة دمشق، آثار في غاية الروعة؛ إنها مدائن صالح[1]؛ حيث مازلنا نرى هناك منازل يبلغ عددها بين ٨٠ إلى ٩٠ منزلاً، منحوتة ومحفورة في الصخور، وهي كلها تقريباً مؤلفة من صالة كبيرة، ومن عدد من المقاصير الصغيرة، ومن مكان للصلاة، ويوجد على أبواب أغلبها نقوش تمثل نسوراً، ولكن الحجاج حطموا كل ما وصلت إليه أيديهم منها، وظل عدد قليل منها لم تمتد إليه يد التحطيم. وإن على الصخور المستخدمة في بناء جدران هذه البيوت الغريبة نقوشاً لم يستطع أحد فك رموزها أبداً، أو الوصول إليها بسبب علوها: إننا نجهل اللغة التي كتبت بها تلك النقوش[2]. ويوجد في هذا المكان آبار كثيرة ولكن ماءها مر، وهواؤها فاسد، ويظن الناس أنه مشحون بالسموم. ويَعدّ المسلمون هذا المكان من الجزيرة العربية مكاناً مشؤوما منذ الأحداث التي رافقت قصة ناقة النبي صالح عليه السلام[3].

---

(١) تحدث عنها بالتفصيل هاري سنت جون فيلبي في كتابه: **أرض الأنبياء، مدائن صالح**، تعريب عمر الديراوي، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، ١٩٦٢م؛ وانظر: **مدائن صالح**، محمد عبد الحميد مرداد، المكتبة الصغيرة، ٢٩، د. ن.، ط. ٢، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٧م؛ وانظر: شمال الحجاز، أ. موسل، نقله إلى العربية د. عبد المحسن الحسيني، الإسكندرية، ١٩٥٢ م، ص ٦٩ – ٩٦.

(٢) بل إنها كتبت بالخط النبطي المعروف. وهناك دراسات كثيرة تمت عليها، ولعل الاطلاع على كتب الدكتور سليمان الذييب المتعلقة بنقوش شمال غرب المملكة تغني في هذا المجال.

(٣) في الأصل: منذ هياج الجمل المعروف الذي روضه النبي صالح:
depuis la révolte d'un chameau traditionnel dompté par le prophete Salih. وأثبتنا في الأصل ما هو ثابت في نص القرآن الكريم عن قصة النبي صالح عليه السلام. لأن ما أثبته المؤلف اختصار مخل للقصة المعروفة.

وإن قافلة الحج الشامية التي تجد نفسها مضطرة لعبور هذا المكان الملعون في الذهاب والإياب تفقد في كل مرة عدداً من حجاجها، وخصوصاً أولئك الذين في قلوبهم مرض. / ١٠١ /

إذاً، أي مدينة هي تلك المدينة المجهولة، المدفونة في حضن الصحراء ؟ من أسسها ؟ ومن سكنها ؟ ومن هَدّمها ؟ إن وجودها مشكل، ومصيرها لغز عويص. يخيم الصمت على ماضيها كما يخيم على آثارها . وإن كل ما قلته هنا هو ترداد لما أُخبرت به، لأن شيئاً لم يكتب أبداً، حسب علمي، بخصوصها . وإنني إذ أقدم للقارئ ما انتهى إلى معرفتي من معلومات عنها فإنني أدعوه إلى أن يأخذها مع الاحتفاظ بحق المراجعة، كما فعلت ذلك أنا نفسي[1] .

حصلت على هذه المعلومات من باشا المدينتين المقدستين الذي أكد لي أنه رأى الأمور بعينه؛ وأُقر أن ذلك ليس ضمانة صدق، أو دقة. وليس هناك في الشرق ما هو أصعب من الحصول من أي كان، وحول أي موضوع كان، على معلومات، وإن كانت إيجابية. وينبغي أن يسيطر الحس النقدي على أكثر الأقوال تأكيداً لمراقبتها . وتكمن الصعوبة في أبسط الأشياء؛ فأنا على سبيل المثال أتحدى إن كان بالإمكان أن يُعرف على وجه الدقة مقدار المسافة التي تفصل بين المكانين، وكلما طرحت على الريس سؤالاً من هذا النوع فإنه يصرخ في الإجابة قائلاً: "إن الله مع الصابرين" . لم ننزل

(١) قَصّ علينا القرآن الكريم خبر قوم صالح في عدد من السور، ونذكر هنا ما جاء في سورة الشمس حيث قال تعالى: ﴿... كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا(١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا(١٤)وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا(١٥)﴾.

إلى اليابسة أبداً في الأيام الثلاثة التالية وهي ٣، و ٤، و ٥ فبراير (شباط)، وكنا على مسافة بعيدة عن الشاطئ حتى إننا لم نكن نراه في بعض / ١٠٢ / الأحيان.

كنا في الليل نتوقف في وسط البحر، وكان الجو في الأيام الثلاثة المذكورة رائعاً: لم يكن في السماء أي سحاب، وكان البحر خفيف الموج، ولم يكن هناك هواء إلا ما يكفي لنشر أشرعتنا. وبعد أن كنّا قد تعرضنا لهزات عنيفة أصبحنا الآن نتحرك بلطف وكأننا في المهد.

كنت مستلقياً في مؤخرة المركب على سجادة غطينا بها الكوثل، وكان هناك سجادة أخرى نصبت فوق رأسي تحميني من الشمس التي كانت شديدة الحرارة في هذا الفصل. كنت أقضي الوقت، وأنا أحلم، وأتأمل، وأستنشق النسيم البحري، وأنتشي بهذه السماء، وبهذا البحر الرائع، ومرت ساعات العبور الطويلة بسرعة ودون ملل. كان الساحل الأفريقي قد غاب عن الأنظار منذ فترة طويلة، ولكن ساحل الجزيرة العربية أصبح ظاهراً للعيان منذ اليوم الأول، كان محاطاً بسلسلة من الجبال الحمراء التي كانت نتوءاتها الطويلة وقممها المسنونة تلفت النظر بتنوع أشكالها، وكانت منذ طلوع الشمس حتى غيابها تتلون بكل الألوان، وبكل ظلال الطيف الشمسي. وإن أكثر الجبال ظهوراً من تلك السلسلة هي: جبل رعل[١](رعال)،

---

(١) جاء في **معجم معالم الحجاز**، عاتق بن غيث البلادي، دار مكة المكرمة، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ج ٤، ص ٧٥ "رعل أو رعال: مكان ذكره فيلبي وقال: يقع جنوب شرقي أم القرايا، وإنه مقر شيخ قبيلة بلي المعروف بابن رِفَادة، وترتفع رعال (٣٠٠٠) قدم وتشرف على وادي الحمض"؛ وانظر: **أرض الأنبياء، مدائن صالح**، لفيلبي، تعريب عمر الديراوي، المكتبة الأهلية، بيروت، ١٩٦٢، ص ٣٣٣. وكتبت في الترجمة الإنجليزية **لرحلة ديدييه**، موثق سابقاً، ص ٥٠ Ghal وهو خطأ.

و سفخة[1] (؟) Safkha، وجبل كركما[2]، وهي أسماء أخذتها من فم الريس وكتبتها كما كان يلفظها.

وإذا انحدر النظر من الجبال إلى البحر فإننا نؤخذ بتنوع الألوان الذي ينتج، حسب ظني، عن اختلاف الأعماق: فهو هنا لون / ١٠٣ / أخضر مائل إلى السواد، وهناك لون أبيض معكر؛ وفي مكان آخر يتلون بفروق اللون الأزرق كلها من الأزرق الصافي إلى الأزرق النيلي الغامق جداً؛ وهو في كثير من الأمكنة يكتسي اللون الأحمر القاني. وإن هذا اللون يكتسبه البحر دون شك من الرصيف المرجاني الضخم الذي ينتشر فيه وفي كل الجهات، وإنه من المحتمل على الأقل أن هذا البحر اكتسب اسمه من هذا الظرف الطبيعي. إن أبسط قواعد الاشتقاق هي أكثرها قبولاً، وخصوصاً تلك التي تقوم على وقائع مادية وملموسة. لقد سمعت مَنْ ينسب صفة الأحمر إلى قبيلة عربية تعيش على سواحله وتحمل هذه الصفة نفسها. ولكن ذلك قول فيه بعض العشوائية؛ لأن تلك القبيلة لم تعد موجودة، وربما لم تكن موجودة في يوم من الأيام: ولكن إذا افترضنا أنها وجدت في يوم من الأيام فإن ما ينبغي معرفته إنْ كانت هي التي أعطت البحر اسمها، ولماذا لا يكون البحر هو الذي أعطاها اسمه.

---

(١) كذا كتبت في الترجمة الإنجليزية **لرحلة ديدييه**، موثق سابقاً، ص ٥٠ و لم أجدها.

(٢) رأس كـركما: ميناء صغير جنوب الوجه عند مصب وادي المياه، على رأس مشهور يحمل الاسم نفسه، وأهل هذا الميناء يشتغلون بصيد السمك، وبيع بعض الحاجيات إلى البادية، وهم من بلي. وقد كتبها ديدييه Korkoum. وقال فيلبي في: **أرض الأنبياء مدائن صالح**، موثق سابقاً، ص ٣٣٥: "... وتفضي هذه الطريق (من الوجه إلى العلا) إلى الدلتا الفعلية لوادي (حمضة) (كذا والصواب: الحمض) الذي يمتد مسافة بعيدة إلى الغرب حيث يقع المرتفع المعروف باسم (رأس كركمة) وهو مرتفع يتوجه رأس أصفر اللون. ومن هذا اللون اكتسب المرتفع اسمه. و (الكركم) باللغة العربية نبات يعطي لوناً أصفر". وفي الترجمة الإنجليزية **لرحلة ديدييه**، موثق سابقاً، ص ٥٠ Karkamah.

وما دام الحديث عن الاشتقاق يجر بعضه بعضاً فإنني أقدم اشتقاقاً، ولا أدّعي أنه الصحيح، ولكنه الاشتقاق الذي أراه صواباً. تسمي العرب جهنم الدار الحمراء، وإن لهذه الصفة لديهم على الدوام دلالة شؤم؛ فهل من المستحيل إذاً أن يكونوا قد أطلقوا على هذا البحر المهلك بسبب أخطاره المحدقة، وأحداثه الفظيعة اسماً يقترن بالرعب الذي يلقيه في نفوسهم؟

توقفنا في الليلة الأولى بين دكتين من / ١٠٤ / الصخر تظهران على وجه الماء، وهما ملجأ ممتاز للاحتماء من المد البحري؛ لأن الموج يأتي ليتحول إلى زبد في كلا الجانبين، في حين أن الوسط يبقى هادئاً تماماً. يُسَمّى هذا المكان "أبو حرير"[1]: ليس بالأمر السهل أن نكتب بالأحرف الفرنسية الأصوات الحلقية العربية، وخصوصاً عندما لا نكون قد رأيناها قط مكتوبة. رسونا في الليلة التالية لنحتمي بجزيرتين تفصلهما قناة ضيقة تُسمى الأولى لبانة والأخرى جبل حَسّان[2]، وتسكن الجزيرتين في

(١) في الأصل Bou Kharid ثم يصحح المؤلف فيقول والأصح Abouharir. وانظر: الترجمة الإنجليزية **لرحلة ديدييه**، موثق سابقاً، ص ٥٠.

(٢) لبانة جزيرة في البحر الأحمر مقابل مدينة أم لج تقع على مسافة كيلومترين غرب جزيرة الحساني وعلى الطرف الغربي للشط الصخري، ويبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ٧٦ م، تمتلئ المياه حولها بالشعاب المرجانية والصخور الغاطسة. انظر: **جزر البحر الأحمر (الملف العلمي)** مجموعة من المؤلفين، موثق سابقاً، ص ٧٠٩. وقد كتبها ديدييه Libna، والصواب Libana. أما حسان: بفتح الحاء والسين المشددة المفتوحة فألف ونون. فقال البلادي في **معجم معالم الحجاز** هو: جبل في البحر غربي أم لُجّ تغيب عليه الشمس، فيه أشجار وليس به سكان إلاّ من ينجعه من بعض الناس إذا =

أيام الرعي قبيلة جهينة العربية التي تعيش على الساحل، وتحمل قطعان ماشيتها على الفلك. وقد كانت حين لجأنا إليها مقفرة، ولكننا نرى فيها أكواخاً بناها الرعاة، ثم تركوها حتى موسم الرعي القادم. إن لهؤلاء البدو، شأنهم شأن بدو الساحل كلهم، سمعة سيئة لدى البحارة، لأنهم يعدونهم لصوصاً من ذوي الجرأة، يسطون في أغلب الأوقات على المراكب، أو إنهم يأخذون منها جعالة على الأقل: لذلك يحرص البحارة على تجنب الاقتراب منهم، ويظلون بمراكبهم على مسافة آمنة من المناطق المشبوهة.

وينبغي أن أشير هنا إلى أن الريس قدّم لبحارته ولنا القهوة إكراماً لأحد أولياء الله المسلمين المدفون في جزيرة مجاورة، واسمه الشيخ حسن المرابط[1](بكسر الميم)

= أعشب، وقد قرأت لمن كتبه حَسَّاني بياء النسبة، وهو خطأ، وهذا الجبل يكوِّن جزيرة تتبعها أخريات صغار. انظر: **معجم جبال الجزيرة**، عبد الله بن خميس، الرياض، ط ١، ١٤١٠ – ١٩٩٠، ج ٢ ص٢١٠؛ وانظر **معجم معالم الحجاز**، البلادي، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ م، ج ٣، ص ٦؛ وانظر جزر البحر الأحمر (الملف العلمي)، مجموعة من المؤلفين، الجمعية العلمية الملكية الأردنية، ١٩٨٩، ص ٧٠٩ حيث سميت جزيرة الحساني، وقيل إنها جزيرة ذات سطح جبلي، ويبلغ أعلى منسوب بها ١٤٦م عن سطح البحر ... ويوجد إلى الجنوب منها ممر ملاحي ضيق يؤدي إلى ميناء أم لج. وقال فيلبي في: **أرض الأنبياء مدائن صالح**، موثق سابقاً، ص ٣٤٠، "... وقد جرى الحديث (في أم لج) في يوم من الأيام حول الاستفادة من مخزون (سماد الطيور) في الجزر القريبة من الشاطئ، تلك الجزر التي تعتبر أكبرها جزيرة (حساني)، وتبعد مسافة ليست كبيرة عن الشاطئ، ولا يسكنها إلا أسراب كبيرة من الطيور البحرية". وانظر: **رحلة بيرتون**، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٧٨، ١٨٠.

(١) انظر: **رحلة بيرتون**، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٧٨.

ويلفظه البحارة / ١٠٥ /مرابط (بضم الميم)، وهو اسم تحول في الجزائر إلى مَرَبوط (مارابو Marabout)، والمرابط هو الذي نذر نفسه للدفاع عن الدين. وإن الولي المذكور هو سيّد هذه الأنحاء التي يلقى فيها تبجيلاً عظيماً. لا تمر سفينة بجوار ضريحه دون أن تطلب عونه، ودون أن ترسل إلى ضريحه الذي تحرسه أسرة عربية، أعطية من الطحين أو القمح[١].

إن البحارة المحليين مفرطون في التطّير، فناهيك عن تبجيلهم الأولياء وإخلاصهم لهم، فهم يعتقدون أن قاع البحر مسكون بالجن، وأن منهم الأخيار، ومنهم الأشرار، وقد سبق لنا أن تأكدنا من ذلك عند بركة فرعون؛ إنهم ينسبون للجن الأخيار الإبحار الموفق، ويتهمون الأشرار بأنهم يهيجون الأمواج، ويعصفون الرياح، ويجذبون السفن إلى وسط المهالك. لذلك لا يفوت البحارة أبداً أن يخطبوا ودهم بأن يرموا لهم في البحر ما تحتويه وجباتهم، بعض حبات من التمر، وقبضة من الطحين، وفي بعض الأحيان رغيف خبز كامل لكي يكون للأرواح الشريرة نصيبها أيضاً[٢].

لم نكن نرى اليابسة في يومي ٤ و ٥ فبراير (شباط)، ولكنها عادت إلى الظهور، ورأيت عند الظهور الشمس، في الأفق مدرجات جبلية رائعة يتلو بعضها بعضاً، وهي

---

(١) انظر: **رحلات بوركهارت ...**، موثق سابقاً، ص ٣٩١، وقارن بما في كتاب: **التراث الشعبي ...**، موثق سابقاً، ص ٦٨.

(٢) انظر: **رحلات بوركهارت ...**، موثق سابقاً، ص ٣٩٠ – ٣٩١.

مقسـمة بمهارة عجيبة، وإن أقرب سلسلة تسمى نبط[1]، وأبعدها / ١٠٦ / أبو غرير Abou Gharir. وتعلو قمة جبل المُهر المخروطية على كل القمم الأخرى. وتمتد تلك الجبال نحو الجنوب؛ وخلف هذه الجبال تقبع المدينة المنورة، ووراءها باتجاه الشمال الشرقي صحراء نجد الشاسعة التي يفصلها عن بغداد جبل شمر، ويوجد في تلك الصحراء أكثر جياد الجزيرة العربية قيمة. وبعد أن تجاوزنا من مسافة بعيدة جداً رأس بريدي Baridi، توقفنا للمرة الثالثة في عرض البحر، بعيداً عن التيارات البحرية العميقة المحملة بالصخور، يساعدنا في ذلك استمرار الطقس الرائع. وأجد نفسي عاجزاً عن وصف ذلك الجمال، الذي يستعصي على الوصف لتلك الأمسيات التي قضيناها في عرض البحر؛ روعة غروب الشمس التي كانت تتكرر في كل يوم، ولكنها كانت تختلف على الدوام. أما في هذا اليوم، فقد كان المشهد أكثر تألقاً أيضاً من اليوم السابق، لو كان بالإمكان ذلك، كانت ألوان السماء والبحر أكثر توهجاً، والطبيعة كلها أكثر روعة وأكثر هدوءاً. لم يكن في البحر موجة واحدة، ولم يكن في السماء أية سحابة. وكانت قمة جبل رضوى التي كنا نراها من موقعنا الذي رسونا فيه، مضاءة

---

(١) كتبها ديدييه Nabt وهو مكان معروف. أما جبل المُهْر فقد كتبها ديدييه Mahar، وجاء في: **معجم معالم الحجاز**، للبلادي، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ج ٨، ص ٣٠١ — ٣٠٢: أن المُهْـر جبل بطرف حرّة عويرض من الشمال، أسود طويل لبني عطية، تدعه سكة حديد الحجاز إلى المدينة يمينها، يصب ماؤه في سهل المعظم. ولم أجد: أبو غرير فتركته كما كتبه المؤلف. وانظر: الترجمة الإنجليزية **لرحلة ديدييه**، موثق سابقاً، ص ٥١.

وكأنها منارة ضخمة، وكانت ماتزال تلتمع، مع أن الشمس اختفت خلف البحر. ومع أن نجم سهيل كان يتبعها عن قرب، ويسبح في فلكها المتوهج فإنه كان يلتمع على حافة الأفق لمعاناً فريداً. وكانت النجوم الطالعة شاحبة حوله، ولا تبدأ بالالتماع إلاّ عندما تبدو هي نفسها تسبح في المدى الرحيب. / ١٠٧ /

قريباً سيظهر القمر، وسيتلو السنا الذي انطفأ منذ قليل ظلام غير كثيف، أو بعبارة أدق، ضوء خفيف تراه في ليلة من الليالي الرائعة في آسيا، التي هي أكثر ألقاً من أيام طقسنا السديمي (يقصد في أوروبا). كان السنبوك، وهو مستقر في مرساه، يلفه الصمت والظلام، وكان الجميع على متن السنبوك يغطون في نوم عميق، إلاّ أنا؛ إذ لا يستطيع النوم أن يسلبني ميزة التمتع بهذه الأمسية الجميلة.

كان ذلك مظهراً من مظاهر التهاون واللامبالاة لدى الملاحين العرب، الذين لم يكن أي منهم يقوم بنوبة الحراسة! لقد تركوا المركب طوال الليل في حراسة الله. كانت الأمسية الهادئة والليلة الجميلة تتنبآن أن البحر سيكون هادئاً في اليوم التالي، وقد حصل ذلك بالفعل إبان فترة الصباح كلها.

أمّا البحارة الذين لم يكن لديهم منذ غادرنا السويس ما يفعلونه تقريباً، فقد بدؤوا بالتجديف الذي كان يترافق لشحذ الهمم بغناء رتيب وحزين، لم أحفظ منه إلا الكلمة الأولى، يا سيدي، لأنها كانت تتردد كثيراً، وعلى الدوام بالتنغيم نفسه. يقوم البحارة، شأنهم شأن العرب كلهم، بكل أعمالهم على وقع الغناء، فهم، سواء كانوا ينشرون الأشرعة أم يطوونها، وسواء كانوا يلقون المرساة أم يرفعونها، يغنون معاً لزيادة

السرعة وللعمل بتوافق، وإن لكل مناورة نصها الغنائي الخاص، ولكن ذلك لم يكن ليمنع من تنفيذ المناورة بكثير من الاضطراب والبطء[1]. لكن الهدوء لم يستمر على كل الأحوال طويلاً؛ إذ هَبّ بعد عدة ساعات هواء الشمال، الذي يهب لمدة تسعة أشهر في السنة على البحر الأحمر، والذي يسهم في سرعة الإبحار، مما جعلنا نصل عند الظهيرة إلى ينبع[2].

إن ينبع ميناء المدينة المنورة، تبعد عنها مسيرة خمسة أيام إلى الشرق: وميناؤها واسع، وآمن جداً، لأنه محمي بجزيرة العباسي[3]، ويغشاه الناس كثيراً. إن السفن التي تذهب من السويس إلى جدة ومن جدة، إلى السويس تلقي مراسيها كلها فيه، وهناك رحلات تكاد تكون يومية مع القصير؛ وهي مدينة بحرية صغيرة تقع في الأراضي المصرية، وتصل البحر الأحمر بالنيل عن طريق قنا[4].

---

(١) قارن بما في كتاب: **التراث الشعبي ...**، موثق سابقاً، ص ٦٨ — ٦٩.

(٢) انظر: **بلاد ينبع، لمحات تاريخية جغرافية وانطباعات خاصة**، حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ١٩٦٦ م. وانظر كتاب **التراث الشعبي في أدب الرحلات**، د. أحمد عبد الرحيم نصر، الدوحة، ١٩٩٥، ص ٦٤ — ٦٥.

(٣) العباسي كتبها ديديه Al-Abbari ولعله خطأ مطبعي إذ الصواب العباسي، انظر كتاب **بلاد ينبع** للشيخ حمد الجاسر، موثق سابقاً، ص ١١٦. وقد كتبت في الترجمة الإنجليزية **لرحلة ديدييه**، موثق سابقاً، ص ٥٢ Al-Abhari وهو خطأ أيضاً.

(٤) هذا طريق تجارة داخلية يمتد من القصير إلى الغرب عبر قنا ويمثل خط الاتصال بين الصعيد والبحر الأحمر به طرق للقوافل تستغرق أربعة أيام من قنا إلى القصير. انظر كتاب: **مصر في كتابات ...**، موثق سابقاً، ص ٢١٥، ٣٦٤.

ينبع مدينة ذات أهمية ضئيلة، سيئة العمارة، تكاد تكون مقفرة، ومشبعة بتلك الرائحة المقززة الخاصة بالمدن العربية، والتي وجدتها نفسها في المغرب وفي طرابلس الغرب وفي مصر وسورية. وينبع محاطة بسور مهدم في كثير من المواضع، يوشك أن يسقط في كل أجزائه، ومحصن بأبراج هي في حالة تشبه حالة السور سوءًا. ويقسم خور الخليج المدينة إلى قسمين غير متساوين، ويشكل أصغر القسمين ما يشبه الربض (الضاحية) تسمى القعد ويسكنها البحارة[1]. وإن سوق ينبع كثير السلع، ويباع فيها التمر ذو النوعية الجيدة؛ وإن تمور المدينة مشتهرة بأنها أفضل تمور العالم. والتمر هو الغذاء المفضل لدى البدو، وهم يطعمونه / ١٠٩ / أحصنتهم أيضاً. لقد باركه النبي[2] ﷺ، ويتكرر ذكره في آلاف المواضع في كتب الشرق المقدسة أو غيرها. ويؤدي دوراً رئيسياً في الروايات الشفوية في الصحراء.

لقد قمت بجولة طويلة عبر شوارعها، ولكنني لم أستفد من ذلك شيئاً ذا بال. رأيت عدداً من البيوت الخربة التي لا يكلف الناس أنفسهم، كما هي العادة في البلاد الإسلامية، عناء إصلاحها أو إزالة أنقاضها التي تضفي على تلك المدن المهدمة هيئة كئيبة.

---

(١) أمـا القسم الكبير فيسمّى: ينبع. انظر: **رحلات بوركهارت ...**، موثق سابقاً، ص ٣٨٣.

(٢) ما ورد عن النبي ﷺ في هذا الشأن هو حديث عائشة رضي الله عنها من قولها: إن النبي ﷺ قال: "لا يجوع أهل بيت عندهم التمر"، وحديث آخر: قال رسول الله ﷺ: "يا عائشة ! بيت لا تمرَ فيه، جياع أهله، يا عائشة ! بيت لا تمر فيه، جياع أهله — أو جاع أهله —" قالها مرتين أو ثلاثاً، انظر: **صحيح مسلم**، ج ٣، كتاب الأشربة، حديث رقم ١٥٢، وحديث رقم ١٥٣.

كان فوق بعض الأبواب نقوش محفورة في الحائط، ومخصصة لدفع شر العين الشريرة[1]، وهذا معتقد عالمي نجده في الشرق والغرب معاً. وبينما كنت مشغولاً بالنظر إلى أحد تلك النقوش الخرافية محاولاً تفسيره، أطلت إحدى العجائز برأسها، وبدا أنها تظن أنني لم آت إلى هنا إلاّ بقصد إصابة منزلها بالعين؛ لذلك نظرت إليّ نظرة ملؤها الحقد والخوف والرعب، حتى إنني كنت سأصْعق لو كانت النية تكفي لذلك. في الشرق لا تحدق في الأشياء أياً كان نوعها، بيتاً أم حيواناً، أم شخصاً، أو حتى شجرة، دون أن يصبح من يحدق مشكوكاً فيه، ويُتّهم بأنه عائن.

كان حمالة القاهرة ينزعجون عندما كنت أتوقف أمام البيوت التي كانت أبوابها أو شرفاتها تلفت نظري، وقد جرّ علي فضولي الكثير من لعناتهم. / ١١٠ / أما في ينبع فقد رأيت مشهداً معاكساً لذلك المشهد الصامت مع العجوز، كان هناك فريق من الأولاد، وكانوا عراة، وأكبرهم لا يتجاوز الرابعة من عمره، وكانوا يقيمون حفلة صاخبة لم يقطعها وجودي بينهم. كان أحد الأولاد يقرع بضربات مزدوجة على دربوكة أكبر منه، وكان الآخرون يرقصون وقد تحلقوا وسط الغبار. ولو أنني كنت بارعاً في الرسم براعة ديكام[2] Decamp، لكان باستطاعتي أن أرسم هنا لوحة تكون نظيرة لوحته المسماة: لحظة الانصراف من المدرسة العربية La Sortie d'école arabe.

---

(١) قارن بما في كتاب: التراث الشعبي ....، موثق سابقاً، ص ٦٥.

(٢) الكسندر – غابرييل ديكام Alexandre-Gabriel Decamp رسام فرنسي ولد في باريس عام ١٨٠٣ م، ومات في فونتين بلو (قرب باريس) عام ١٨٦٠ م، قام برحلة إلى الشرق تركت آثارها في إنتاجه الفني، وجعلته يتأثر بأضواء الشرق وألوانه وقسماته المميزة حتى أصبح يعد بين الرومانسيين، وتناول موضوعات شرقية مثل المدرسة والسوق والجبال، ويدين للشرق بأجمل لوحاته ومنها: لحظة الخروج من المدرسة.

إن الدربوكة المستخدمة في مثل هذه الحفلات هي عبارة عن صحيفة مجوفة، بيضوية الشكل أكثر منها دائرية، مصنوعة من الطين الخشن الذي مدوا فوقه رقعة من الجلد. وإن هذه الآلة البدائية هي المرافق الذي لا يمكن الاستغناء عنه، ووجودها أساسي في كل الحفلات العربية: نسمع صوتها في كل مكان، لقد سبق لي أن سمعتها في أثناء اليوم على متن مركب محلي عائد من القصير، وقد خرج أقارب القادمين الجدد وأصدقاؤهم للاحتفال بعودتهم احتفالاً عامراً يستمر طوال النهار(١).

لقد ابتليت ينبع بأعداد هائلة من الذباب، يغزو كل شيء، أماكن البيع، والبيوت والمساجد، ويصل إلى المراكب التي ترسو في الميناء، ويكثر في السوق على وجه الخصوص، حتى إن السوق يكتسي باللون الأسود، يهجم على الطعام والشراب والأشخاص. إنه كارثة يمكن مقارنتها بكوارث مصر السبع(٢). ويكثر الذباب في

(١) قارن بما في كتاب: **التراث الشعبي ...**، موثق سابقاً، ص ٦٩.

(٢) جاء في **الكتاب المقدس** (العهد القديم، سفر الخروج، الإصحاح ٧، ١٢) أن فرعون رفض السماح لبني إسرائيل بمغادرة "أرض العبودية" للذهاب نحو الأرض الموعودة. وأخذ موسى عليه السلام على عاتقه بأمر ربه أن يخالف رغبة فرعون، وأن يحاول ثنيه عن ذلك ودعا ربه فسلط على فرعون وشعبه كوارث هي حسب العهد القديم عشر: تغير ماء النيل إلى دماء وأصبح غير قابل للشرب خلال عدة أيام، الثانية والثالثة والرابعة تعرض مصر لغزو الضفادع والبعوض والذباب ثلاث مرات. وخامساً حل بالمواشي مرض جعلها تموت بأعداد كبيرة، وحل بالناس سادساً مرض غامض جعلهم يصابون بالقرحة، وهبت سابعاً عاصفة شديدة أتلفت قسماً كبيراً من المواسم. وأتلفت سحابات الجراد ما بقي منها ثامناً، وخيم ظلام دامس على مصر تاسعاً، وأصبح المواليد الجدد يموتون جميعاً عاشراً، ويظن الباحثون أن ذلك حدث في عهد منفتاح الأول Mnephtah Ier خليفة رعمسيس الثاني حوالي سنة ١٢٣٠ ق. م. وقد تحدث **القرآن الكريم** بالقول الحق في ذلك، إذ قال تعالى: سورة الأعراف، الآيات من ١٣٠ — ١٣٤ =

البلاد التي تنتج التمر؛ لأن كل ما هو حلو المذاق يجذبه، ولكن / ١١١ / أشجار النخيل بعيدة عن المدينة، ولا يمكن القول: إنها سبب مثل هذا الغزو؛ وينبغي البحث عن سبب آخر: وإنْ سألت السكان الأصليين فإنهم يجيبونك جادين، وهم يعتقدون ذلك، أن ملك الذباب وملكته يسكنان في ينبع، وأن الذباب يأتي من كل أنحاء العالم ليؤدي لهما فروض الطاعة[١]. ليس في المدينة إلاّ بئر واحدة، ماؤها أجاج، والناس مجبرون للحصول على مياه الشرب على حفظ ماء المطر وسيول الشتاء في خزانات تم بناؤها لهذه الغاية، وعندما ينقصهم الماء، فإن عليهم الذهاب بعيداً جداً للبحث عنه في آبار عسيليّة مما يجعل ثمنه مرتفعاً جداً. وليس في داخل المدينة إلاّ شجرة أو شجرتان من النخيل منفردتان أمام المسجد، وليس هناك أكثر من ذلك خارجها.

= ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ(١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ(١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ(١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمْ الرِّجْزُ قَالُوا يَامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ(١٣٤)﴾.

(١) يقول **بوكهارت في رحلاته ...**، موثق سابقاً، ص ٣٨٨: "وتعد ينبع أرخص مدن الحجاز من حيث أسعار المؤن. ولأن ينبع فيها ماء طيب وتتبوأ موقعاً يبدو أكثر ملاءمة من الناحية الصحية، من موقع جدة، لذا فقد كان المقام بها محتملاً لولا أسراب الذباب الهائلة التي تتخذ لها من هذا الساحل مأوى، فلا أحد يخرج من بيته دون أن يحمل مروحة من الخوص في يده ليذب عن نفسه هذه الحشرات. ومن المحال أن يتناول إنسان طعامه دون أن يبتلع بعضاً من هذه الحشرات التي تندفع إلى فمه لحظة فتحه. وتُشَاهَدُ سحب منها تحوم فوق المدينة، وهي تتخذ من السفن التي ترسو خارج الميناء مأوى لها، وتظل على السفينة طوال الرحلة".

وقد خرجت من باب المدينة المنورة للقيام بجولة في الريف فلم أر شجرة واحدة، ولم أكتشف إلاّ الصحراء العقيمة التي تمتّد قاحلة وعارية من البحر إلى الجبال. ولا نجد بعض المزروعات والمساحات الخضراء إلاّ على بعد ست أو سبع ساعات من المسير، وذلك في ينبع النخل؛ وهي تقع في واد كبير مزروع بنخيل التمر والقمح، ويملك فيها السكان الأغنياء حدائق ومنازل ريفية، يذهبون إليها على الحمير لأنه ليس فيها إلا عدد قليل من الخيول، ويقضون فيها شهراً في السنة إبان موسم التمر. إن في ذلك الوادي الواقع في أسفل الجبال عدداً / ١١٢ / من القرى يقارب اثنتي عشرة قرية، بيوتها مبنية من الحجارة، وهي، إن صح التعبير، أحسن بناء من بيوت المدينة نفسها، ولكن ليس بدرجة كبيرة، ويسكن في إحدى تلك القرى كبير مشايخ قبيلة جهينة الكبيرة، التي ينتمي إليها سكان ينبع[١]. لقد ظلت قبيلة جهينة متمسكة بالبداوة، مع

---

(١) قال بوكهارت في رحلاته ....، موثق سابقاً، ص ٣٨٤ – ٣٨٥: "... وأهل ينبع أقل تحضـراً من أهل مكة المكرمة وجدة، وفي طباعهم خشونة، ويسلكون بعض الأحيان سلوكاً فظاً، إلا أنهم من ناحية أخرى أكثر انضباطاً وأقل ممارسة للرذائل. وهم يحظون بشكل عام في الحجاز، بسمعة طيبة. ورغم أن ينبع لا تضم أفراداً ذوي ثروات كبيرة، إلا أن كل فرد فيها يبدو مطمئن البال وثرياً أكثر من أهل مكة المكرمة. ومعظم الأسر المحترمة في ينبع تمتلك منازل ريفية في وادٍ مثمر يقال له ينبع النخل، أو قرى ينبع (قرايا ينـبع) أو ينبع البـر، وهي تبتعد عن ينبع بحوالي ست ساعات أو سبع، عند سفوح الجبال صوب الشمال الشرقي. إن ينبع النخل مشابهة لأودية الجديدة والصفراء، حيث يـنمو النخيل وتزرع الحقـول، وتمتد ينبع النخل مسيرة سبع ساعات طولاً، وتشتمل على اثنتي عشرة قرية صغيرة متناثرة على جانب الجبل، وأكبر هذه القرى سويقة؛ وهي مكان عقد السوق، حيث يُقيم كبير مشايخ جهينة، ويعترف بسلطته بدو جهينة وأهل ينبع على حد سواء."

أنها كانت تسكن المدينة، لقد حافظت على زي جيرانها في الصحراء، مع أنها أصبحت مستقرة، ويتكوّن زي الصحراء: من ثوب من الكتان، أو الحرير، حسب الحالة المادية لصاحبه، مشدود إلى الخصر بحزام من الجلد، وفوق الثوب عباءة بيضاء فضفاضة على الجسد قصيرة الأكمام. وأما الرأس فهو مغطى بكَفِّيَّة؛ وهي منديل من القطن المصبوغ باللون الأحمر، أطرافه موشاة بالحرير الأصفر، وتسقط أطرافها المزدانة بالأهداب على الكتفين، ويمسكها على الرأس حبل من صوف الإبل يسمى: عقال، وهو ملفوف عدة لفات حول الرأس.

ويحمل الرجال أسلحة مخفية، وفي أيديهم عوضاً عن الخيزرانة هراوة تكفي ضربة واحدة منها لأن تصرع ثوراً[1]. وما دمنا في صدد الحديث عن اللباس، فإنني أقول: إنني في هذا اليوم، وللمرة الأولى استبدلت بالقبعة الأوروبية التي يمقتها المسلمون طربوشاً تجويفه أحمر اللون، وطرفه أزرق، ولم أخلعه إلاّ عندما عدت إلى القاهرة، وقد وضعت مع الطربوش كفية كانت / ١١٣ / ذات فائدة جُلّى إبان رحلتي إلى السودان، وحصلت بعد ذلك على عباءة لم تكن فائدتها بأقل من فائدة الكفية.

إن سكان ينبع بدو في ملابسهم، وهم بدو في عاداتهم الخاصة أيضاً، باستثناء أنهم يعملون مختارين بالتجارة والملاحة، وهم يذهبون يومياً لهذا الغرض إلى القصير والسويس. إنهم مهربون بارعون، وبطريقة علنية غالباً، وهم في نزاع دائم مع رجال الجمارك الأتراك. لقد انتشر صيتهم في الحجاز كله بحسن الأخلاق، مما يميزهم من

(١) قارن بما في كتاب: **التراث الشعبي ...**، موثق سابقاً، ص ٦٤.

سكان المدن المقدسة، التي انحدرت فيها القيم الأخلاقية وخصوصاً في مكة المكرمة. إنهم يحتقرون أي عمل يدوي، وأي وظيفة خدمية، ولا يرضى أحد منهم أن يكون خادماً، ولكنهم في مقابل ذلك اشتهروا بخشونة طباعهم، وأنهم يسلكون في بعض الأحيان سلوكاً فظاً. إن كل ما أستطيع قوله عبر تجربتي: إنني وجدت حظهم من المدنية قليل، ولكنني لم أتعرض لأي إهانة منهم. وإذا حكمنا عليهم من خلال عاداتهم فيمكن القول: إنهم كثيرو التطير: فقد كانوا عندما بلغ انتشار الطاعون ذروته في ينبع، يطوفون أحياء المدينة، وهم يقودون جملاً، لكي يحمّلوه الوباء كله ويركزونه عليه، ثم يذبحونه في مكان مخصص، وهم يتخيلون أنهم بقتله إنما يقتلون في الوقت نفسه انتشار الوباء[1]. / ١١٤ / وبعد أن جبت المدينة في كل الاتجاهات، ولما كنت لا أود الإبحار ثانية إلاّ عند غروب الشمس فإنني بانتظار حلول موعد الإبحار استقر بي المطاف على باب أحد المقاهي الواقعة في أكثر شوارع المدينة سكاناً، وبالقرب من

(١) جاء في: **رحلات بوركهارت ....**، موثق سابقاً، ص ٣٨٢ – ٣٨٣: "... وسوف أذكر هنا عادة خاصة بالعرب فعندما بلغ انتشار الطاعون ذروته في ينبع، قاد السكان العرب ناقة في موكب عبْر البلدة وقد غطّوها بكل أنواع الزينة والريش والأجراس وما إلى ذلك، وعندما وصلوا إلى المقابر؛ قاموا بذبحها ونثروا لحمها للنسور والكلاب، آملين بذلك أن يَنْقشع الطاعون المنتشر في البلدة (ينبع) متخذاً من بدن الناقة ملجأ، وأنهم بذبح الناقة سوف يتخلصون من المرض في الحال، إلاّ أن كثيرين من العرب الأكثر تعقلاً سخروا من ذلك، لكن هذه العادة حتى الآن – لها بعض الفائدة إذ إنها ترفع الروح المعنوية لدى الطبقات الدنيا"، قارن بما في كتاب: **التراث الشعبي ....**، موثق سابقاً، ص ٦٨.

المسجد، وقد سنحت لي بذلك الفرصة لأرى أمام عيني، خلال عدة ساعات، مرور كل السكان الذكور؛ ولم أر أية امرأة.

في البدء هاهم المؤمنون يذهبون إلى صلاة العصر في المسجد المجاور، ثم يأتي بعد ذلك الغواصون الذين طالما ألحوا عليّ، وبأدب جم، لأزور أماكن غوصهم. وكان يمر أمامي أيضاً جيئة وذهاباً، وبأنفة، عدد من الباشي بوزوق[1] الأرناؤط والأكراد الذين يشكلون حامية تحتفظ بها الدولة العثمانية هنا، والذين كانوا يصطنعون هيئة الشجاعة للتأثير فيّ، وهم مسلحون بغدّاراتهم الطويلة، متلفعون ببرانسهم البيضاء.

ثم جاء دور الحاكم ليمرّ بعدهم، وهو لم يأت إلاّ بدافع الفضول، ولكي يلتمس زيارتي، ولكنه لمّا كان مجرّد أفندي، فإنه لم يكن له ما يؤهله لكي أَمنَّ عليه بهذا

---

(١) جاء في **معجم المصطلحات ...**، موثق سابقاً، ص ٦٥: "باشي بوزوق: لفظ تركي أطلق في العصر العثماني على القوات غير النظامية "الجيش الشعبي أو المليشيات" كانت معروفة في مصر أيام محمد علي باشا ومن جاء بعده، بلغ عدد أفرادها في عصر إسماعيل ٥٠٠٠ مقاتل، وهم من الأتراك والعرب، مهمتهم المحافظة على الأمن في الداخل، والواحات ومرافقة محمل الحج، ناهيك عن جباية الضرائب. كانت أرادي "معسكرات" الباشي بوزوق ترتبط بديوان مستقل عن ديوان الجهادية يعرف بديوان "السرجشمة" وكان هذا الديوان يتولى إدارة جنود الباشي بوزوق من حيث التجهيز والتسليح وتطبيق النظم العسكرية، غير أن هذا الديوان ألغي فيما بعد، وألحق الباشي بوزوق بديوان الجهادية، كان لباس الجندي من هؤلاء مصنوعاً من الزرد، وسلاحه سيف مستقيم كأسياف الصليبيين ويتدرع بطراز معروف من الدروع، وعلى رأس الواحد منهم خوذة لها حامية للأنف على نمط خوذ المماليك". وانظر **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، موثق سابقاً، ص ٥٦.

التمييز: ولما كنت أوروبياً وفرنسياً ومسافراً مميزاً، وطبقاً للعرف، وكما ينبغي أن يكون أي شخص يسافر لمتعته ولتثقيف نفسه، فإنه لم يكن عليَّ أن أخصه بأي مجاملة.

وربما أدهش بعض الناس رؤيتي أتحدث غير مرة عن موضوع آداب العشرة، وأتخذ منه موقفاً متصلباً؛ / ١١٥ / ولكن ذلك ضروري في الشرق، حيث لكل شيء قواعده، وحيث تطبق الرسميات بصرامة شديدة: وإن احترام الأوروبيين مرتبط بمدى التزامهم بهذه الأمور البسيطة، إن أي مخالفة للعادات المتمكنة، تنقلب حتماً ضد المخالف؛ وإن أي تساهل أو أي مبادرة مهما كانت بسيطة تعد خضوعاً وليس تسامحاً، وتعد اعترافاً شخصياً بالدونية، وبتفوق الآخر. ولما وجد الشرقيون، والأتراك خصوصاً، أنهم مضطرون للتنازل للأوروبيين عن كل الأشياء المهمة، فإنهم استعادوا تميزهم بذكاء ملفت في مسائل حق التصدر، وفي العلاقات اليومية، ينبغي في معاملتهم الانطلاق على الدوام من مبدأ أن كل ما يخصهم مهم، وأنه لا شيء مما يخص الآخرين مهم في نظرهم.

إن ديوان الحاكم الذي لم أذهب إليه، يقع في منزل ذي مظهر جميل، إنه أجمل بيت في المدينة، أقيم قرب البحر في مكان متميز، وبينما كنت أمر أمامه لأعود إلى الميناء، عرتني الدهشة، عندما رأيت على مقربة منه تحت سقيفة، ستة مدافع متروكة هناك منذ ما يقارب ثلاثين سنة، تركها محمد علي أو ابنه إبراهيم باشا بعد

حرب الوهابيين، وهي في حالة جيدة، ولم يكن وجودها نشازاً في أي رحبة مدفعية أوروبية. / ١١٦ / وفي اليوم التالي نشر السنبوك قلوعه عندما نادى المؤذن الذي كان من أعلى المنارة يدعو المؤمنين لأداء أولى الصلوات الخمس في اليوم، وتقابل صلاة السحر عند الكاثوليك، وتُسَمّى أذان الفجر. وعندما طلعت الشمس كنا قد قطعنا عدداً من الأميال. لقد كانت أيام ٧ و ٨ و ٩ فبراير (شباط) تشبه أيام ٣ و ٤ و: هواء مؤات، بحر هادئ، إبحار سريع، الحالة التأملية نفسها، غروب متألق، وتوقفات ليلية في عرض البحر. ولما لم يعد على فريق البحارة أن يجدفوا، فإنهم عادوا إلى سيرتهم الأولى في التكاسل، يقضون النهار بالتدخين والنوم، إنها حياة الكسالى المثلى، ولا يعني ذلك أن هذه الأنحاء غير خطرة، حتى في أكثر الأجواء مناسبة، وذلك بسبب الأرصفة الصخرية، والعثرات الموجودة تحت سطح الماء التي لا تزال المنطقة تعج بها.

ولكن الممارسة الطويلة للقباطنة، جعلتهم يتغلبون على هذه الصعوبات بسهولة، وقد كنت معجباً بمهارة قبطاننا، وهو يتجاوز كل تلك العقبات، غير عابئ بوجودها. إن هؤلاء الرجال الذين يفرطون في الفزع خلال المد، تجدهم هنا وقد مُلئوا حزماً يكاد يصل حد التهور؛ إنها أمكنتهم المفضلة، وإن العادة (الروتين) توجههم توجيهاً أدق من أي خارطة.

لقد أصيب الريس عشية وصولنا إلى ينبع بحمى مُقْلِعة لم يستطع التخلص منها، وظلت تقض مضجعه حتى جدة. / ١١٧ / كان عندما تحل به نوبة الحمى يظل

مستلقياً على سجادته مرتعشاً، مرسلاً تأوهات محزنة، وعندما كانت تمضي النوبة، كان يتناول من جديد شيشته وأعماله. وكان هذا التوالي يحدث عدة مرات في اليوم. لقد حاول رفيق رحلتي، الذي كان يحمل معه صيدلية تجانسية[1] Homopatique أن يجرب عليه موهبته الطبية البسيطة، ولكنه لم ينجح في التخفيف عنه، وظلت الحمى تفعل فعلها.

كان اسم الريس خليل سلام، وكان رجلاً محبباً جداً، مفضالاً، ومؤدباً، كما ثبت لنا خلال الفترة الماضية، وكان على الدوام يسعى لإرضائنا، كان كوستا المتبصر قد وضع في العقد شرطاً ينص على أن الرحلة ينبغي، مهما كانت الظروف، أن تكون ممتعة لنا، وأن على القبطان أن يجعلها كذلك لنا. ولم أر أبداً أن أحداً استطاع الوفاء بالتزامه كما حصل هنا، لقد تم تنفيذ العهد بدقة من جميع جوانبه، وهذا شيء نادر الحدوث في أوروبا. لم يكن لدي أدنى ملاحظة يمكن توجيهها، وأقل من ذلك أيضاً المآخذ التي يمكن أن آخذها على خليل سلام إبان كل الفترة التي قضيتها على متن السفينة. وأشك أن يكون هناك في أي ميناء غربي كثير من القباطنة يتمتعون بمثل هذه الدقة ولين الجانب. لم يكن يرتدي في البحر، شأنه شأن بقية البحارة، إلا قميصاً من القطن، ولكنه عند النزول إلى اليابسة، كان يلبس ثياباً جميلة من الحرير، وكان له حينئذٍ حقيقة هيئة الوجهاء. / ١١٨ / كان الساحل لا يزال محاطاً بجبال عالية،

(١) نسبة إلى الطب التجانسي الذي يقوم على مداواة الداء بالداء. (عن المنهل).

وكان أكثرها ظهوراً لنا[1] صُبْح، والنباع[2]، وجبل بني أيوب، وكلما تقدمنا نحو الجنوب تكاد الجبال جميعاً تأخذ شكلاً هرمياً، وأكثر تلك المخروطيات العالية ظهوراً هو مخروط كُلَيَّة، وإذا تقدمنا أكثر نحو الجنوب، فإن الجبال تنخفض انخفاضاً قليلاً، وكلما اقتربنا من جدة يصبح الساحل سهلياً . تنتشر بين تلك الجبال الواقعة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة أشجار البلسم المكي الذي يتمتع بسمعة طيبة في الشرق، بل في الغرب أيضاً ، ويُجْنى من تلك الجبال عسل ذو مذاق لذيذ ، لونه أبيض برّاق. وهنا أيضاً تتكاثر أشجار الأراك[3] التي يتخذ منها العرب مساويك لأسنانهم. وتسكن في المناطق العالية نسور جريئة، حتى إنها تهوي على القوافل، وتختطف ما في صحون طعام الحجاج. وقد أكد ذلك بوركهارت، وكان هو نفسه أحد ضحايا هذا الاختطاف الفظ[4] . أما المناطق المنخفضة فيسكنها أعراب زبيديون من قبيلة حرب

---

(١) كـذا في الأصل Loubeh ولعل صوابها Soubeh = صُبْح (جبل) وهو منطقة قبيلة صُبْح القوية المتفرعة من قبيلة حرب. قال بوركهارت: ... وتوجد هنا بشكل رئيسي أشجار البَلْسم المكي، وسَنَا مكة المكرمة أو السَّنَا العربي الذي تصدره قافلة الحجيج السوري ولا يُجْمع إلاّ من هذه المنطقة. انظر: **رحلات بوركهارت ...**، موثق سابقاً، ص ٢٨٢. وانظر: ص ٢٨٥ أيضاً ففيها حديث مفصل عن البلسم المكي.

(٢) في الأصل: Napa.

(٣) في الأصل: Un arbuste dont les Arabes font leurs brosses dents والترجمة الحرفية هي: وشجرة الأراك جنبة (وهي كل شجرة علوها متران إلى سبعة أمتار تظل صغيرة وإن شاخت) يتخذ منها العرب مساويك لأسنانهم.

(٤) قال **بوركهارت في رحلاته ...**، موثق سابقاً، ص ٣٧٢: "... ويوجد في الجبال المجاورة أعداد هائلة من النسور (الرخم) إذ كانت المئات منها تحوم حولنا، وبعضها كان ينقضّ – بالفعل – ويخطف اللحم من صحوننا. " انظر **تعليق المترجمين** رقم (٣) في الصفحة نفسها.

الكبيرة، وينظر إليهم الأعراب الآخرون نظرة ازدراء لأنهم حضريون ويعملون في الصيد . لقد قابلنا في عرض البحر واحداً من أولئك الصيادين المهرة، كان رجلاً رائعاً، ممشوق القوام، عارياً تماماً حتى لتحسبه إله الموج مصنوعاً من البرونز / ١١٩ / الفلورنسي. كان منتصباً بإباء على مركبه، وجاء يعرض علينا السمك الذي اصطاده، ولكننا لم نستطع الشراء منه، لأنه كان يرفض نقودنا، ويطلب ثمناً لبضاعته قمحاً أو تبغاً: ولم يكن لدينا على ظهر السفينة لا هذا ولا ذاك.

هناك عدد من المدن والقرى على ذلك الساحل، من بينها الجار التي لم نستطع تبين ملامحها عند مرورنا، إلا بمساعدة المنظار . وفي منطقة أعلى، وإلى الداخل قليلاً هناك مستورة؛ وهي إحدى محطات قافلة الحج المصرية، وإلى أقصى الجنوب هناك رابغ التي يلفظها بحارتنا Rabr والتي قضينا ليلة ٨ في موازاتها، ولكن في عرض البحر بعيداً عنها، أما الليلة السابقة فقد قضيناها على خط الاستواء وقد واجهنا في يوم ٩ كثيراً من الصخور المفتتة والشعاب المرجانية، ولكل واحد منها اسم خاص: وأخطرها يُسمّى، إن لم يخني سمعي، أم الحبلين[١] . وكانت جزيرة غواط[٢] Ghaouat غير بعيدة عنا . ثم يأتي بعد ذلك رأس حُطَيْبة. وبعد وقت قليل من تجاوزنا ذلك الرأس، قابلنا سنبوكاً على متنه جماعة من الدراويش العائدين من مكة المكرمة، وكانوا يرفعون علماً أخضر، وهذا هو اللون المحبب لدى المسلمين، والذي كان لون

---

(١) كتبها ديدييه Om el Hableijn وترجمها إلى الفرنسية mer des deux Cordes = أم الحبلين.

(٢) كتبت في الترجمة الإنجليزية لرحلة ديدييه، موثق سابقاً، ص ٥٨ Ghawat = غواط.

شعار محاكم التفتيش في إسبانيا. وعلى الرغم من خصوصيته الدينية، وعلى الرغم من كوننا من غير المسلمين، فإنهم حَيَّوْنا بصوت عالٍ عندما مروا بقربنا، وكانت صيحاتهم تختلط بالموسيقى والأغاني التي كان يتردد صداها على سطح الماء / ١٢٠ / واستمر يتردد طوال الوقت الذي كنا فيه نسمعهم.

لم نلتق بكثير من المسافرين خلال الرحلة، ومع أننا أبحرنا في بعض الأحيان مع سفن أخرى تمضي في الوجهة نفسها، فإن سنبوكنا كان سريعاً كل السرعة مما جعلنا نسبقهم دائماً. كان هذا اليوم الأخير رائعاً: أبحرنا في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وقطعنا ما يقارب ٧٠ ميلاً حتى الساعة الثامنة مساءً؛ وهي الساعة التي دخلنا فيها ميناء جدة. لم يحدث من قبل أن تم العبور بهذه السرعة؛ لأننا إذا استثنينا فترات التوقف الإرادية، ورحلة سيناء، فإن الرحلة من السويس إلى جدة لم تستغرق إلاّ أحد عشر يوماً، مما يعني أننا كنا نبحر بسرعة ممتازة، خصوصاً إذا أخذنا في الحسبان أننا كنا نتوقف الليل كله. لا أود مغادرة البحر الأحمر، دون الإشارة إلى أنه غني جداً بالأصداف التي تحتوي على أحجار كريمة، وأننا نجد فيه، وخصوصاً في مياه جدة، كثيراً من السمك الطيار الذي يسميه العرب: جراد البحر.

خالف الريس أنظمة الشرطة المحلية، عندما دخل ميناء جدة في الليل، وهو لم يلجأ إلى هذه المخالفة إلاّ لكي ننزل إلى اليابسة مبكرين. وقد عوقب على ذلك بالسجن، وربما كان سيظل هناك عدداً من الأيام، لولا أنني تدخلت لدى السلطات لإطلاق سراحه بعد توقيفه ببضع ساعات، وقد كنت أشعر / ١٢١ / بالسعادة،

لأنني استطعت بهذه الخدمة البسيطة أن أرد إليه بعض سالف خدماته خلال الرحلة. وقد وزعنا بخشيشاً مجزياً على أفراد الطاقم كلهم، وعلى الريس أيضاً، مسددين بذلك ما لهم من دين في ذمتنا. قضينا تلك الليلة على متن السفينة أيضاً، وكان علينا في اليوم التالي أن ننتظر ساعة المد والجزر المناسبة لكي نغادر السنبوك. إن ميناء جدة مملوء بالأرصفة الرملية، ومياهه ضحلة حتى إنه ينبغي على السفن أن ترسو على بعد ٢ إلى ٣ أميال عن الشاطئ، وقد كانت هناك في قنوات الملاحة سفينة ذات ثلاث صوارٍ جانحة، تقبع هناك شاهداً يثير القلق، ويدل على الأخطار التي يتعرض لها من يخاطرون بدخول الميناء. جاء مركب مسطح ليحملنا من السنبوك إلى اليابسة، وكان هذا المركب نفسه مجبراً على القيام بالتفافات كبيرة حتى لا يغوص في الرمال، ومع ذلك فإنه اصطدم غير مرة بقاع البحر. ولكننا، على الرغم من ذلك، وصلنا أصحاء سالمين، ولكن في الساعة التاسعة، إلى رصيف الجمارك الواقع غيرَ بعيد عن حُصْنٍ، هو في حالة سيئة، ولكنه يثير الإعجاب، ويحتل موقعاً متقدماً في البحر.

الفصل السادس

جُـدّة [1]

أخبروني في القاهرة أن جدة ليست إلاّ حياً صغيراً، وقد تكرر ذلك على مسامعي حتى إنني / ١٢٢ / لم أكن أنتظر رؤيتها على ما هي عليه. كم كانت دهشتي كبيرة عندما وجدتها على العكس مدينة جميلة، مكينة البناء، جيدة التأسيس، تعج بالسكان، نابضة بالحياة، ومزدحمة، وجديرة على كل المستويات أن تحمل الاسم الذي تعرف به، ميناء مكة المكرمة، وليست بأقل جدارة لحمل اسمها الذي يعني بالعربية الغنية[2]. ناهيك عن مياه مينائها الضحلة وأرصفتها الرملية فهي محمية من ناحية البحر بحصن وبسرية مدفعية بينها مدفع ضخم من عيار خمس مئة مليمتر يزرع الرعب في قلوب البدو. والمدينة محاطة من الجهة الأخرى بسور سميك، مرتفع بما يكفي، مصان صيانة جيدة، مسبوق بحفرة عميقة، وعليه أبراج في حالة جيدة. إن هذا المعقل لا يصمد ساعة أمام قصف المدفعية الأوروبية، ولكنه على

---

(١) انظـر ما أورده بوركهارت في **رحلاته ....**، موثق سابقاً، ص ٢٠ – ٥٧ ويبدو أن ديديه ينقل عنه بتصرف في كثير من المواضع. وانظر في الحديث عن جدة قديماً وحديثاً وعن الخلاف في ضبط اسمها ومعناه كتاب: **موسوعة جدة**، تأليف عبد القدوس الأنصاري، القاهرة، ١٩٨٢ م. وانظر: ما ترجمه د. أحمد عبد الرحيم نصر في كتابه: **التراث الشعبي في أدب الرحلات**، موثق سابقاً، ص ٦٤ – ٦٩، من رحلة **ديدييه** عن زي رجال جدة ونسائها وعن وصف بيوتها ورواشينها.

(٢) انظـر: **رحـلات بوركهارت ....**، موثق سابقاً، ص ٢٧، وفيه: "اسمها العربي يعني (غنية) ينطبق عليها تماماً." وجاء في **لسان العرب** "جدد" أن الجد بفتح الجيم – الحظ والسعادة والغنى.

الدوام كان كافياً إبان الحروب التي تدور في البلد، وخصوصاً إبان حرب الوهابيين، لحماية المدينة ولفرض هيبتها لذلك اشتهرت بأنها مدينة مستعصية على الاحتلال، وبأنها أكثر الأمكنة تحصيناً في الحجاز. يوجد في هذا السور ثلاثة أبواب، باب اليمن من الجنوب، وباب المدينة المنورة في الشمال، وأخيراً باب مكة المكرمة في الشرق، وهو أجملها، ويقوم على حراسته برجان منخفضان منحوتان بمهارة فائقة في الذروة. تبتعد جدة عن مكة المكرمة مدة ١٥ أو ١٦ ساعة، ويبلغ عدد سكانها من ١٥ إلى ٢٠ ألف نسمة. وتنقسم إلى قسمين كبيرين، حي اليمن، وحي الشام، وهما مسميان بذلك بسبب وضعهما الجغرافي: فحي الشام يقع في الشمال على الطريق إلى سورية؛ وحي اليمن في الجنوب / ١٢٣ / على الطريق إلى اليمن أحد أقاليم الجزيرة العربية الذي يعطي اسمه الحي المذكور. هناك أقسام أخرى صغيرة تسكنها جماعات من السكان متمايزة، يقع بينها غالباً من حي إلى آخر شجارات عنيفة، شوارعها عريضة، نظيفة نظافة مقبولة، تبدأ عادة بساحات واسعة جيدة التهوية تشكل رئتي المدينة. أما بيوتها فهي متينة البنيان، وتتألف من عدة طوابق، وأبوابها على شكل أقواس، وهي مبنية من الحجر، ولها مظهر جميل، ونوافذ واسعة تطل على الخارج، وهذا شيء نادر في البلاد الإسلامية لأن الحياة المنزلية تتم على الدوام داخل البيت الذي يُبنى بطريقة لا تدع شيئاً يتسلل إلى الداخل؛ لا ضوء النهار، ولا الهواء، ولا الضوضاء، ولا الأنظار الفضولية. ليس لتلك النوافذ زجاج، بل إن كل فتحاتها مغطاة بشبك من الخشب المفرّض بمهارة عجيبة، ليسمح بالرؤية من الداخل دون أن يتمكن مَنْ في

الخارج من رؤية من في الداخل. إن تلك النوافذ المتقنة الصنع، البارزة والمقوسة، كأنها مشربيات القاهرة أو شرفاتها، مطلية بألوان زاهية تتباين مع اللون الأبيض للجدران. وإن كثيراً من السطوح محاطة بحواجز مفرغة محفور فيها بأناقة زخارف تمثل نفليات(١). وبعضها بما في ذلك المنزل الذي كان يسكنه في حياته آخر أشراف مكة المستقلين، أقيم عليها مظلات خشبية منجورة كالنوافذ، تصعد إليها النساء لاستنشاق الهواء الطلق فيها دون أن يراهن أحد. ويقضي أهل جدة وقتاً طويلاً على السطوح لأن / ١٢٤ / نسيم البحر يخفف من وطأة الحر الذي لا يكاد يحتمل في الصيف. يمتد السوق على طول المدينة، ويسير موازياً للبحر، ويتصل به بوساطة شارعَيْن جانبيين. يضم سوق جدة كل أنواع البضائع، أكثرها أجنبي، وكذلك مواد غذائية محلية أو مستوردة: ونجد أن دمشق وبغداد وفارس ومصر والهند خصوصاً موجودة في هذا السوق عَبْر منتجاتها الطبيعية أو المصنعة. وتسود فيه في كل الأوقات حركة غير عادية، وليس بالسهل أن يشق المرء طريقه بين أكداس البضائع، والجمال والحمّالين، ناهيك عن الكلاب الضالة، والمسالمة التي تبحث عن رزقها في هذه الضوضاء. أما العمال الذين يقومون بالأعمال الشاقة في السوق والميناء فهم يكادون جميعاً يكونون من النوبيين أو من سكان الجبال، و يسمون الحضارمة إنهم عموماً رجال في غاية الوسامة، مفتولو العضلات، ذوو بأس، ويكادون يكونون عراة، ولون بشرتهم الناعمة واللامعة أسمر شديد الدكنة. ونرى أيضاً بعض

---

(١) النفلية في فن العمارة هي: زخرف على شكل وريقات النَفَل الثلاث. (عن المنهل).

السود الأقحاح القادمين من البلاد القريبة من خط الاستواء، ولكنهم عبيد، في حين أن الآخرين أحرار، ويحصلون على أجور غالية لقاء خدماتهم. وإن هذا السوق الذي يقع في الوسط بين إفريقيا وآسيا، مهم لتنوع نماذج البشر الذين نلقاهم فيه؛ فأنت تلقى فيه السود الذين لم يُؤتوا من الجمال شيئاً، وتلقى فيه النماذج الجميلة / ١٢٥ / من الأجناس القوقازية المتميزة، وليس تنوع اللغات والعادات بأقل إثارة: عرب المدن والصحراء، تجار مسقط والبصرة، أتراك، سوريون، يونانيون، مصريون، بربر، وهنود بأعداد كبيرة، وماليزيون وبانيانيون[1]، وكل من أولئك يلبس زيه الوطني، وكلٌ يتكلم بلهجته الخاصة، يتسابقون، يتقابلون، يتدافعون بأكتافهم، أو إنهم يستقرون في المقاهي لمعالجة قضاياهم. إن بعض سكان جدة يقطعون أحجاراً يزعمون أنها ثمينة، مع أنها ذات قيمة ضئيلة، منها من بين أخريات تلك التي يسمونها: حجر مكة، وتسمى في الحجاز "العقيق" والتي ليست، كما أعتقد، إلاّ ما يسمى العقيق الأحمر؛ ويصنعون منها خواتم مطلية بطبقة من الفضة، ليست متقنة الصنع، ويصنعون منها أيضاً سبحات تلقى رواجاً كبيراً لدى الحجاج. ويصنعون أيضاً سبحات من "اليسر" المتوافر بكثرة في البحر الأحمر، والذي تُستخرج أجود أنواعه قساوة ولمعاناً من جنوب جدة.

---

(١) Banians، **جاء في رحلات بوركهارت ...**، موثق سابقاً، ص ٢٦: "... وفي فترة الرياح الموسمية يقوم بعض البانْيَانيين Banians بزيارة جدة على متن السفن الهندية، لكنهم دائماً يعودون عليها ولا يستقر أحد منهم هنا." جاء في الحاشية: "البانيان: تعني في غرب الهند التجار أو الوكلاء الذين يشتغلون بالتجارة في البحر الأحمر أو الخليج العربي، انظر: Wilson: **A glossary Judicial and Revemue Terms P. 94**

تشتهر جدة بأنها مدينة مقدسة شأنها شأن مكة المكرمة والمدينة المنورة[1]، وكل الذكور المولودين في أحضان جدة، يحملون على وجوههم وشماً يسمى "المشالي"[2]؛ وهي عبارة عن جروح عميقة تُحْدث في وجوه الأطفال عندما يبلغون أربعين يوماً، وهي ثلاثة على كل وجنة، واثنان على كل صدغ، لتظل هذه المشالي مدى الحياة موجودة على وجوههم، ولتكون لهم علامة توقير / ١٢٦ / لدى المؤمنين. إن هذه الندَب المقدسة في العادات الإسلامية تجعل أولئك الذين يحملونها يحوزون بحملها قمة الشرف[3].

---

(١) هذا غير صحيح فجدة ليست مدينة مقدسة.

(٢) رسمها ديدييه M eschal، ورسمها بوركهارت، Meshale، وكتبها مترجما رحلة بوركهارت "المشعلة"، وكتبها د. نصر "عادة المشالي". انظر **رحلات بوركهارت ...**، موثق سابقاً، ص ١٧٠ وكتاب **الدكتور أحمد عبد الرحيم نصر**، موثق سابقاً، ص ٦٧.

(٣) انظر هذه الفقرة مترجمة في كتاب **التراث الشعبي في أدب الرحلات**، موثق سابقاً، ص ٦٧ وقد ترجم من رحلات ديدييه فقرات لها علاقة بالتراث الشعبي في الحجاز، ولكنه ترجم عن النص الإنجليزي الذي هو ترجمة لرحلة ديدييه، وسنشير إلى الفقرات المترجمة في أماكنها من الرحلة، قارن ترجمته بالأصل هنا. وانظر: **النص الإنجليزي لرحلات بوركهارت**، ط. مصورة عن طبعة لندن ١٨٩٢ م، السلسلة التي يصدرها فؤاد سزكين، ١٩٩٥ م، ص ١٨٣. وجاء في **رحلة بيرتون** ما نصه نقلاً عن كتاب: **التراث الشعبي في أدب الرحلات**، موثق سابقاً، ص ٤٨ "تأخذ معظم الأسر في مكة الأطفال الذكور عندما يبلغون الأربعين يوماً إلى الكعبة للدعاء لهم. ثم يحملونهم إلى البيت حيث يقوم المزين بعمل ثلاثة فصود رأسيه على الجزء الملحم لكل خد بدءاً من الزاوية الخارجية للعينين إلى ركني الفم تقريباً. هذه "المشالي"، كما تسمى، قد لا تكون عادة قديمة. فالمكيون يقولون إنها لم تكن معروفة لدى أسلافهم. وعندي أنها ترجع إلى زمن قديم جداً وأنها وثنية الأصل، وهي ماتزال سائدة رغم نهي علماء الدين عنها. وتسمى هذه العملية "التشريط" ويفصد أيضاً جسم الطفل كله بجروح صغيرة حتى يغطي الدم الجسم كله. وقد أخبر بعض المكيين علي بيك أن الغرض من التشريط طبي. وقال آخرون إنها دلالة على أن من يحملها خادم لبيت الله. وأرجعها علي بيك إلى الرغبة في التجميل تماماً كرغبة المرأة التي تشم نفسها. وقد أخبرني المكييون أن هذه العادة نشأت عن ضرورة حماية الأطفال من وقوعهم أسرى في يد الفرس. =

أتى زمن لم يكن فيه وجود غير المسلمين في جدة مسموحاً، كما هو الحال عليه اليوم في المدينتين المقدستين، لم يكونوا يجرؤون على الظهور بملابسهم الأوروبية، وإن ماتوا فيها فإن رفاتهم كان يحمل إلى جزيرة صغيرة في مرسى جدة لكي لا يدنس الأراضي المقدسة[1].

= فهي دلالة على أن الأطفال من المدينة المقدسة. غير أن انتشارها الواسع يدل على قدم أصـلها ... وقـد نهـى محمد ﷺ أتباعه صراحة عن وسم الجسم بالفصد. وعلامات الـتجميل هذه شائعة وسط شعوب مناطق غرب البحر الأحمر. ويزين النوبة في مصر العـليا وجوههـم بفصود مثل المكيين تماماً. وقد رأيت خدوداً مفصدة كما في المدينة المقدسـة وسط القالا بالحبشة." وعلق د. أحمد نصر في ص ٥٩ من الكتاب المذكور أعـلاه قـائلاً: "أدرك الأديب السعودي أحمد إبراهيم الغزاوي في مكة المكرمة عادة تشـريط الخدود (المشالي) وشاهدها وقال إنها كانت مما يعد للرجل والمرأة زينة وجمالاً وإنهـا كـانت عامـة بين البيض والسود على السواء وقد أرجعها إلى ما قبل القرنين السـادس والسابع الهجري. واستدل على ذلك ببيتين من الشعر لبهاء الدين محمد بن إبراهيم النحاس النحوي المولود في ٦١٧هـ والمتوفى في ٨٩٨هـ يمدح مليحاً شرطوه قائلا:

قلت لما شـرطوه وجرى ... دمه القاني على الخد النقي

ليس بدعاً ما أتوا في فعلهم ... هو بدر مشـرق بالشفق

انظـر: أحمد بن إبراهيم الغزاوي، **شذرات الذهب**، جدة، دار المنهل، ١٩٨٧ م، ص ٢٣٧ — ٢٣٨؛ وانظـر: **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، سنوك هورخرونيه، موثق سابقاً، ج ٢، ص ٤١٩.

(١) انظر: **رحلات بوركهارت ...**، موثق سابقاً، ص ١٩١ — ١٩٢. ونقل المترجمان في الحاشية (٢) ص (١٩١) ما جاء في كتاب محمد علي المغربي: **ملامح الحياة الاجتماعية في الحجـاز**، ص ١٧١ "وكانت في مدينة جدة مقبرة للنصارى وماتزال موجودة حتى الآن ... ويبدو أن هذه المقبرة أقيمت في العهد العثماني لدفن الأجانب الذين يموتون في جـدة ... وهـي قائمة حتى الآن كما ذكرنا في جنوب جدة قرب السوق الجنوبية، ولكنها غير مستعملة إطلاقاً". ويقول المترجمان: ولا نعرف إذا كانت المقبرة التي ذكرها المؤلف هي نفس المقبرة التي يصفها المغربي. وقد تحدث بوركهارت في غير موضع من رحلاته عن أوضاع المسيحيين في جدة انظر: ص ٢٦، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢.

لقد تغيرت الأمور اليوم: فالمسيحيون يتمتعون اليوم في جدة بكامل حريتهم، وبأمن يوازي ما يجدونه في مصر وإستانبول. لقد تجولت في أنحاء المدينة كلها، في كل أوقات النهار والليل، وحدي في غالب الأحيان، ولم يتعرض لي أحد بشتم قط، ووجدت من الناس كلهم لطفاً وفضلاً[1]. ولم يزعجني إلاّ المتسولون الذين ينتشرون في كل أحياء المدينة، ويكادون جميعاً يكونون من الهنود، قدموا من أوطانهم للحج، وتقطعت بهم سبل العودة لنقص في المال، ولما لم يكن لهم أي موارد، فإنهم ظلوا هنا عالة على الناس. هناك كثير من الحجاج المصريين والنوبيين، وخصوصاً من سود السودان، وهم كالهنود في الفقر، ولكنهم يعملون بشجاعة لكسب المبالغ البسيطة الضرورية لعودتهم إلى مسقط رأسهم، أما الهنود الذين هم أكثر بلادة وكسلاً فهم يحبون / ١٢٧ / العيش على الهبات، ويفضلون المنفى الأبدي على العمل، مهما كان بسيطاً. إلا أن بعضهم، وهم قلة قليلة، يمتهنون مهناً حضرية مختلفة: فقد استخدمت خلال إقامتي خياطاً كشميرياً ذا مهارة وصبر نادرين. لقد أحست الحكومة البريطانية بالتأثر لهذه الهجرات السنوية، ولكن سياستها لم تكن تسمح لها بمضايقة مواطنيها المسلمين في ممارسة عبادتهم، واكتفت باعتبار القباطنة التجار مسؤولين عن إعادة الحجاج الذين يحملونهم إلى جدة. ونتج عن ذلك أن هؤلاء لم يعودوا يقبلون على أي سفينة إن لم يبرهنوا على أنهم قادرون على تأمين نفقات ذهابهم وعودتهم.

---

(١) انظر تحليلات بوركهارت بهذا الخصوص في رحلاته، ص ١٩٠.

إن العمل الوحيد الذي يقوم به سكان جدة، على الرغم من أنهم قوم مكرمون، هو التجارة، التي توفر المال نقداً، والتي يغتنون منها على العموم. إن أغلب سكان جدة من أصول أجنبية، وهم نشيطون، وخبراء، وإن حيويتهم البدنية، وتوقد أذهانهم يتعارض مع الخمول الواضح والغبي لدى كثرة من الشرقيين، وخصوصاً الأتراك. إن لون بشرتهم أسمر شديد الدكنة، يفرطون في اقتناء أدوات الزينة، شأنهم شأن أهل مكة، ويمكن قول الكثير عن ذلك. إن ملابس أهل المدينتين متشابهة تماماً، سواء ملابس النساء أم الرجال: فملابس هؤلاء الرجال الداخلية مصنوعة من الحرير المضلع، ذي الألوان الجذابة، وهي مشدودة على الخصر / ١٢٨ / بحزام كشميري؛ ويلبسون فوقها عند الخروج ثوباً طويلاً مفتوحاً من الصوف الناعم، يسمى البِنْش أو الجبة حسب الفصل، وهي مصنوعة عادة في بغداد. أما رؤوسهم فيغطونها بطاقية بيضاء مزركشة، يلتف حولها عمامة من الموسلين. والعامة لا يلبسون إلا ثوباً طويلاً من الكتان الخشن.

أما النساء فإنني لا أستطيع أن أقول عنهن شيئاً، لأنني لم أر أياً منهن: وكل ما أعرفه أن بشرتهن أقل سمرة من بشرات الرجال، وأنهن يقصصن شعورهن كالرجال باختلاف بسيط هو أنهن يزيّن شعورهن بسلسال من الذهب(١). وإن أولئك اللواتي

---

(١) استخدم المؤلف هنا كلمة Sequins، وجاء في **معجم روبير الصغير** أن للكلمة أصلاً عربياً هو السكة Sikki، وهي في لغة فينيسيا Zecchino، وتعني قطعة نقدية. وهو عملة ذهبية قديمة في فينيسيا، شاعت في إيطاليا والمشرق. وقد وردت في **رحلات بوركهارت**، الترجمة العربية، ص ١٥ وعربها المترجمان بـ "السِّكّوينات" وقالا في الحاشية (٢) إن السكوين نقد ذهبي إيطالي وتركي قديم. وانظر ص ٣٢٠ من **رحلات بوركهارت** إذ سُمّي السكوين البندقي Venetian Zecchin.

نقابلهن من عامة الشعب في الشارع منقبات، ويختفين تماماً في ثوب قبيح من القطن الأزرق. أما الأخريات فيرتدين سراويل زرقاء فضفاضة، مزركشة بالفضة، ويلبسن أثواباً مزركشة، مصنوعة من حرير الهند. عندما يخرجن، وهذا نادر الحدوث، فإنهن يغطين وجوههن بخمار أبيض أو أزرق فاتح يسمى: البرقع. ويلتحفن ثوباً فضفاضاً مصنوعاً من نسيج حريري صقيل (تفتة Taffetas) أسود، وهو يشبه الحبرة habra عند المصريين، وهن مولعات بالجوهرات، شأنهن شأن كل النساء في الشرق والغرب، وهن يلبسن خواتم كثيرة، وعقوداً وأساور، كلها من الذهب، ويضعن في أقدامهن خلاخل من فضة. تلك هي الثياب التي يلبسنها في الحفلات. أمّا في بيوتهن فقد أُخْبرت أنهن يتخفَّفْنَ من الثياب / ١٢٩ / حتى يمكننا القول دون أن نتجنى عليهن: إنهن شبه عاريات، وخصوصاً الجواري. وليس بالنادر أن نلمح في الأحياء التي تقل فيها الحركة عَبْر نوافذ لم يحكم إغلاقها، سهواً أو عمداً، النصف الأعلى للمرأة مكشوفاً تماماً.

لم أتحدث حتى هنا إلاّ عن فضائل جدة، وإليكم الآن مساوئها: فالماء العذب نادر فيها، وهواؤها سيئ في فصل الصيف؛ حار ورطب في الوقت نفسه، ترتخي له الأعصاب، ويوهن الجسد، وخصوصاً هواء الجنوب؛ وإن كثيراً من الأجانب، والسكان الأصليين لا يستطيعون اعتياده. فالزحار، والحمى المقلعة، والعفنية تكاد تكون مستوطنة على هذا الشاطئ الذي تنتشر فيه الأوبئة أكثر من أي شاطئ آخر في الجزيرة العربية.

لقد عانيت أنا نفسي خلال بعض الأيام من هذا الجو المؤذي، واستطعت من خلال ما عانيته خلال هذه الفترة البسيطة أن أحكم على ما يكون عليه الحال في أيام القيظ. وعلى الرغم من أننا مانزال في منتصف شهر فبراير (شباط)، فإن ميزان الحرارة كان يصل إلى ٢٣ درجة على ميزان رومير[١]؛ لقد كان هواء الجنوب العنيف يلفظ النار بدل أن يأتي بالنسيم، كان الجو خانقاً، وكنت أشعر أنه يسحقني تحت وطأته، وكنت أجد صعوبة في السير، وكان جسدي كله مشبعاً برطوبة غير محتملة. وأزيد على ذلك بالقول إن الذباب والبعوض كان مزعجاً كل الإزعاج.

ويسكن جدة أيضاً سكان آخرون ذوو أجنحة؛ وهم نوع من البواشق (البان)، نجده في كل المدن العربية، وأنا، منذ رحلتي، ما إن أسمع أصواتها الحادة، /١٣٠/ حتى ترتسم في اللحظة نفسها في مخيلتي منارات، ونخيل وعمائم.

وإذا خرجنا من جدة عبر باب مكة المكرمة فإننا نجد أنفسنا مباشرة في معسكر إفريقي حقيقي: إن أكواخ القش أو النخيل المنتشرة على حدود الصحراء، والتي تبدأ كما هو الحال في ينبع والطور والسويس على أبواب المدينة، تلك الأكواخ، هي مساكن النوبيين الذين يعملون في الميناء والسوق، وتسكنها أيضاً بعض الأسر الفقيرة من جدة، والتي لا تستطيع لفقرها السكن في مكان آخر.

إن النساء الحرائر من الطبقات الفقيرة يَسْكُنَّ أيضاً هذا المصبّ القذر؛ ناهيك عما يقوم بهذا الحي من صناعات بسيطة، فإنه ينعقد فيه سوق للخشب والخضار،

---

(١) ميزان رومير Raumur: ميزان حرارة يشير فيه الصفر إلى درجة التجمد، و ٨٠ إلى درجة الغليان.

وسوق للمواشي. وإن للعجول في هذا البلد حدبة، وهي صغيرة الحجم وغالية جداً: إذ يباع الواحد بستة تلرات؛ وهو لا يساوي في مصوع إلا تلراً واحداً. وليس ببعيد، وبالقرب من باب المدينة المنورة، هناك ثكنة عسكرية أقامها محمد علي أيام حربه مع الوهابيين، وقائد هذه الثكنة إسماعيل بيك، وهو بنباشي[1] تركي، وهو أكثر أدباً من نظيره في سيناء، وقد كان يبدي لي آيات الاحترام، دون أن ينسى تقديم القهوة والشيشة. وغير بعيد عن الثكنة، هناك عدد من الطواحين الهوائية التي بناها محمد علي لاستخدام قواته، ثم أهملت مباشرة بعد رحيله باعتبار أنها بدْعة أوروبية، وهي تستخدم اليوم مقراً للجنود غير النظاميين. ويوجد على مرمى حجر من الثكنة / ١٣١ / مقبرة محاطة بالأسوار، ولها باب محكم الإغلاق، وهي فريدة من نوعها لم أر في الشرق مثلها، حيث تترك المقابر بلا سياج ولا حارس.

إذاً، توقعوا مَنِ المدفون في هذه المقبرة؟ إنها حواء، أم الجنس البشري. وينتشر بخصوصها لدى علماء البلد أسطورة لا تليق بأبوينا الأولَين. فهم يحكون أن آدم الذي مَلّ من زوجته، مع أنهما كانا سعيدين إبان ما يقارب مئة سنة، اتجه حباً في التغيير إلى بناته؛ لأنه لم يكن لديه خيار آخر، لأنه لم يكن هناك على الأرض نساء أخريات، وعندما علمت الزوجة المتروكة بهذه الخيانة، أقسمت أن تنتقم؛ فاتجهت بدورها إلى أبنائها، لأنه لم يكن هناك على وجه الأرض رجال غيرهم، ولكن هؤلاء أجابوها ببعض القسوة أنها عجوز، وأنهم لا يرغبون فيها.

---

(١) انظر: **رحلات بوركهارت ...**، موثق سابقاً، ص ٣٨٧.

إن أمنا جميعاً التي حُكم عليها أن تظل محتشمة، على الرغم منها، لقيت نتائج ما قامت به عندما امتهنت نفسها، فكظمت غيظها. ولكن آدم عاد، بعد خطئه، إلى زوجته الشرعية، وبعد المصالحة قاما معاً برحلة عبر الجزيرة العربية، فماتت حواء في هذا المكان عينه، ودفنها زوجها، وأجرى لها كل التشريفات التي تفرضها فضائلها الكثيرة. أما آدم الذي أصبح أرملاً فقد تابع رحلته، وذهب ليموت بدوره في جزيرة سيلان / ١٣٢ / ودفن هناك، ولا تذكر القصة من دفنه، ولا كيف عَبَر البحر. إن انتهاك المحارم المزدوج، الذي قام به أحد الطرفين حقاً، والآخر كان ينويه، فتح بطريقة لا أخلاقية سجل الحياة الأسرية للإنسانية[1]. إن المسلمين، وهم ممن يدافع بجزم عن الأسرة، لا يرون في القصة شاهداً على حظر تعدد الزوجات، وإنما يرونها دليلاً قاطعاً على أنه ليس من قوانين الكون أن يكون للمرء امرأة واحدة.

لقد حافظت النساء على مستوى والدتهن، وظللن جديرات بتراثها على كل المستويات، ولكن قامتهن أصبحت أكثر قصراً: لأن طول قبرها ليس أقل من ٦٠ متراً[2]؛ ويرتفع فوقه مسجد صغير تعلوه قبة بيضاء[3]. وتبدو بالطبع كل المدافن

(١) لا أدري من أين تلقط ديديه هذه الترهات حول نبي الله وعبده أبي البشر آدم عليه السلام، ولعلها تكون من موبقات العهد القديم عن الرسل والأنبياء.

(٢) كذا في الأصل ولعل الصواب: ٦ أمتار.

(٣) تحدث بيرتون في رحلته عن قبر خارج مدينة جدة يعرف باسم "قبر أمنا حواء" وقدم له رسماً تصويرياً وقال إن المسافة بين الرأس والقدمين هي نحو ست خطوات. انظر: **التراث الشعبي ...**، موثق سابقاً، ص ٥١ — ٥٢. ويورد عبد القدوس الأنصاري غير رأي عن قبر حواء عندما يتحدث عن اسم (جدة)، وهو يذهب إلى القول إنها بضم =

الأخرى كئيبة إزاء هذه: بيد أن مدفن عثمان باشا وأسرته يثير الإعجاب. وليس للقبور أي زينة خارجية إلاّ شاهدتان مستقيمتان منتصبتان، إحداهما عند الرأس والأخرى عند القدمين؛ ولكن كثيراً منها تظلله أشجار النخيل، أو أشجار الصبار[1]،

= الجيم لا كسرها،وهو يدفع قول ابن المجاور الدمشقي الذي يقول إن الاسم هو (جدة) بكسر الجيم، لأن أمنا حواء جدة البشر مدفونة فيها، ويقول إن هذه الرواية أسطورية ولا يعقل أن يكون قبرها معروفاً حتى اليوم. ويورد الأنصاري ما قاله ابن جبير من أن القبة التي على القبر كانت منزلاً لحواء عندما توجهت إلى مكة، وما قاله البتنوني من أن موضع القبر كان هيكلاً عبدته قضاعة في الجاهلية. ويذكر أن عون الرفيق شريف مكة – كما ذكر البتنوني – حاول هدم القبة، لكن قناصل الدول في جدة تفاهموا معه ودياً على عدم هدمها لأن حواء ليست أم المسلمين وحدهم وإنما هي أم الناس جميعاً. ثم ذكر الأنصاري أن القبة هُدمت عندما دخلت الحكومة العربية السعودية جدة. انظر: **موسوعة مدينة جدة**، عبد القدوس الأنصاري، مج ١، ط ٤، القاهرة، ١٩٨٢ م، ص ٤٧ – ٤٩. وكتاب: **التراث الشعبي ...**، موثق سابقاً، ص ٥٩ – ٦٠. ويذكر سنوك هورخرونيه أن الحجاج يزورون قبر أمنا حواء، الذي يبلغ طوله بضع ياردات، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، موثق سابقاً، ج ٢، ص ٣٣٦. وذكر **بوركهارت في رحلاته ...**، موثق سابقاً، ص ٢٥: "... وعلى بعد ميلين شمالي جدة يمكن مشاهدة قبر حواء "أم البشر" وقد أُخبرت أنه مبني من الحجارة بناءً بدائياً، وطوله حوالي أربعة أقدام، وارتفاعه قدمان أو ثلاثة أقدام، وعرضه مثل ذلك، وبهذا فهو يشبه قبر نوح في وادي البقاع في الشام".

(١) لاحظ بيرتون نمو شجيرات الصبار بين الطوب والحجارة، وذكر أن شجر الصبار يزرع في المقبرة كتعويذة ضد الأرواح الشريرة كما تعلق جلود التماسيح المحشوة بالتبن فوق المنازل في مصر. وقد عزا بوركهارت زراعة هذه الشجيرات إلى اسمها الذي يشير إلى "الصبر" الذي ينتظر به المؤمن يوم القيامة. **التراث الشعبي ...**، موثق سابقاً، ص ٤٨.

وجنبيات خضراء تسبغ على مكان الموت هذا، هيئة زاهية. وكان هناك غير بعيد عدد من الشباب الهنود يلعبون بالراحية (ضرب من لعبة التنس) بمهارة فائقة وفرح غير عابئين بمن في جوارهم.

إن الموت لا يخيف المسلمين؛ وهم في هذا مسيحيون، أكثر من المسيحيين أنفسهم، إن الطابع المأساوي الذي نسبغه، نحن المسيحيين، على الموت مخالفين /١٣٣/ بذلك عقيدتنا الأصلية، التي ترى في الموت خلاصاً، هو باب للعبور إلى الخلود الأبدي.

يذهب أقرباء الميتين وأصدقاؤهم في بعض أيام الأسبوع، وخصوصاً الجمعة، الذي هو عند المسلمين بمثابة يوم الأحد لدى المسيحيين، إلى المقابر، ليس للبكاء أو الصلاة عليهم، وإنما للتحدث مع الغائبين وكأنهم موجودون، ولكي يتناولوا حول قبورهم وجبات خفيفة شهية بعيداً عن جو المقابر الكئيب[1]. وإن النساء على الخصوص هن الحريصات على القيام بذلك، لأنه يسمح لهن كل أسبوع باقتناص بعض ساعات الحرية التي يستغللنها أحسن استغلال. إن مقابر إستانبول هي مكان التقاء ومواعيد، وتحرص النساء التركيات من ذوات الغنى والنسب على زيارتها كل يوم جمعة؛ ومع أنهن محجبات، فإنهن يُظهرن من أنوثتهن ما يسلب ألباب المارة. وإذا كان مظهر المقبرة في جدة زاهياً فإن الموضع الذي تقع فيه موحش وقليل الجاذبية: فمن

---

(١) تحدث سنوك هورخرونيه عن زيارة القبور في **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، موثق سابقاً، ج ٢، ص ٣٧٢ — ٣٧٤. وانظر كتاب: **التراث الشعبي ...**، موثق سابقاً، ص ٦٧ — ٦٩، و ٢١٦ - ٢١٧.

جهة هناك البحر الذي ينتهي في هذا المكان ببحيرة شاطئيه تنتهي هي نفسها بسبخة ملحية، ثم تأتي بعد ذلك الرمال، التي تمتد حتى تخوم الأفق. وتلوح على البعد سلسلة من الجبال التي يلفها الضباب، وتختفي ملامحها في عتمة المساء. لقد توافرت لي في هذا اليوم أيضاً فرصة مراقبة قصَر فترة الغسق في / ١٣٤ / هذه المنطقة الاستوائية. كانت الشمس قد غابت منذ قليل، ولم يكن قرصها المتوهج قد غاص بعد في عرض البحر، بينما كان الظلام قد بدأ يلف الجهة المقابلة من السماء: وكان الليل قد نزل تماماً عندما دخلت جدة عَبْر باب المدينة المنورة. كان سكنتا قريباً من هذا الباب، في المنطقة المرتفعة من الحي الشامي. هناك في جدة عدد من الخانات أو الوكالات لسكن المسافرين، يجدون فيها في الوقت نفسه مستودعاً لأمتعتهم أو بضائعهم، ولأنفسهم غرفة خالية من كل شيء، ولكن هذه الأمكنة مخصصة للتجار، ولما لم نكن تجاراً، ولا نريد أن نظهر كذلك، فإننا حصلنا على منزل كان فيما مضى يقيم فيه قنصل فرنسا، وهو اليوم متروك لسكن العصافير. كان مالك المنزل يقيم في مكة المكرمة، وكان وكيله المفوض في جدة لا يريد، أو لا يجرؤ على تأجيرنا المنزل في غياب صاحبه، وكان يقول إنه سيرسل إليه رسالة للحصول على موافقته، ولكننا كنا على عجلة من أمرنا، وبينما كان يتردد، ويطلب وقتاً للتفكير، استقر بنا المقام في المنزل مؤقتاً، ودام هذا المقام المؤقت حتى مغادرتنا جدة؛ أي شهراً كاملاً: ولما كنا لم نحدد أي مبلغ فإننا دفعنا عند مغادرتنا ٥ تلرات، وهو مبلغ مناسب للأجرة إن لم يكن كبيراً، بسبب الحالة التي كان المكان عليها. إذ لم يكن في الحقيقة / ١٣٥ / من السهل إزالة الأنقاض التي كانت تملأ المكان. وقد استطعنا في نهاية الأمر أن نجعل

غرفتين من المنزل مناسبتين للسكن، وكانت أمتعة الرحلة من سجاد ووسائد وفرش كافية تماماً لفرشها. واستولى طباخنا غاسبارو على المطبخ الذي كان يقع على السطح؛ أما بقية الخدم فإنهم أقاموا حيث استطاعوا، وكما استطاعوا، وها نحن في مسكننا نعيش كبرجوازيين حَضَريين.

كانت غرفتي في الطابق الثاني، نُقبت لها نافذة ضخمة، مغلقة، أو من المفترض أنها كذلك، بنظام بالغ التعقيد هو عبارة عن مصاريع للضوء تسمح بدخول الهواء والغبار والشمس والعصافير؛ لأن الغرفة كانت مليئة بأعشاشها. هاكم ما كنت أراه وأسمعه عَبْر تلك النافذة في الأيام والليالي كلها. بادئ ذي بدء، كنت أرى البحر يمتد امتداداً شاسعاً ليلامس السماء في آخر حدود الأفق؛ وكان هناك قليل من الأشرعة التي ترصع هذا الحقل الأزرق، ولكنَّ عُرْي ذلك البحر كان يزيد من جلاله، ويجعل الفكر مستغرقاً في هواجس المطلق التي لا يمكن الحديث عن كنهها.

وإذا عدت إلى الأرض فإنني كنت أرى من علٍ القسم الشمالي من المدينة كله؛ السوق الذي كانت تتناهى إليّ منه أصوات الناس والجمال، وكنت أرى أيضاً السطوح التي كنت ألمح عليها في الليل خيال النساء، وكنت أرى أخيراً عدداً من المساجد التي ترتفع مناراتها. وكان على بعد خطوات مني مسجد صغير، وأنيق، وله / ١٣٦ / رواقان خارجيان، وكان له مؤذن عجوز، يصدح بالأذان خمس مرات في اليوم: الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء؛ وينبغي على المسلم أن يتوضأ لكل صلاة، بغسل وجهه، وما وراء أذنيه، ويديه حتى المرفقين ورجليه وأماكن أخرى. ومما يؤسف له

أن صوت جاري المؤذن كان حاداً ومرتعشاً، وفهمت عند سماعه، لماذا جاء أحد سكان القاهرة القديمة بمؤذن ذي صوت جميل، وكان يخصص له راتباً لكي يظل يؤذن من المنارة نفسها.

وكان بالقرب من المسجد منزل يتصل به، ويسكنه العلماء، وكان يقام فيه كل ليلة، في وقت متأخر، طقوس دينية صاخبة يتخللها أغانٍ وصلوات ومواعظ، وكان ذلك مترافقاً بالموسيقى؛ وأيّ موسيقى ! وكان يرافقها الناي والطبلة. وكانت تقام بالقرب منه، حفلات أخرى، من طبيعة أخرى، مختلفة كل الاختلاف: إنهم أفارقة سودانيون، عائدون من الحج الأخير إلى مكة المكرمة، يقضون المساء كله يغنون ويرقصون، أغاني ورقصاً متوحشَيْنْ، يذهبان بالفكر بعيداً إلى أعماق القارة الأفريقية.

وفي كل صباح، وفي الساعة نفسها، كانت تمرّ أمام نافذتي بدوية جميلة شابة من أسيوط في مصر، تمثل نمطاً أصيلاً بين بنات جلدتها، كانت تمر، وهي تغني / ١٣٧ / بصوت ندي وناعم، أغنية مأساوية حزينة، كانت تكرّر على الدوام الأغنية نفسها، وكانت رتابة الأغنية تجعلها أكثر حزناً وعويلاً. كان قلبي ينفطر لسماعها في أول يوم وفي آخر يوم من إقامتي. أمّا في المساء فقد كان يحين دور أحد الهنود؛ وهو متسول ينام على حصيرة في زاوية من زوايا الشارع، ويغني هو أيضاً على أرض أجنبية أنغام وطنه. كان يستمر في الغناء إلى ساعة متأخرة من الليل، حتى إنه كان في غالب الأحيان يمنعني من النوم، ولكنني كنت أغفر له ذلك لِمَا كان يمنحني إياه من لذة وأنا

أستمع إليه. وبعد هذا كله، كنت على الدوام أسمع الصدى البعيد لصوت الدربوكة في أحياء المدينة المختلفة، وأصوات الجوقات العسكرية، وعيارات البنادق باستمرار، وغالباً طلقة مدفع احتفالاً بنصر، تحقق أم لم يتحقق، للأتراك على الروس، آلاف الأصوات، وبكلمة واحدة، ضجة ضخمة مختلطة، تشبه جلبة البحر البعيدة التي كانت في بعض الأحيان يعلو ضجيجها على كل ذلك. ورأيت في أحد الأيام من نافذتي مركباً يدخل ميناء جدة قادماً من الجنوب، وأعتقد أنني رأيت بمساعدة المنظار أن المركب كان محملاً بحمولة بشرية، وأُخْبِرت أنه حقاً يحمل من مصوَّع دفعة عبيد من الجنسين، وأنه كان بين النساء جارية تكاد تكون بيضاء، مع أنها حبشية. ودفعني فضولي إلى رؤيتها، ولكنها كانت قد بيعت فوراً، وبثمن غالٍ لأحد الأتراك الذي أغراه لونها الفاتح / ١٣٨ / وهو من العاملين في الديوان، أخو الباشا أو أحد أقربائه على الأقل.

إن العبيد البيض نادرون جداً هذه الأيام في أسواق الشرق، ولا يكاد أحد يستطيع الحصول على ذلك إلا في إستانبول التي يوجد فيها وحدها الثروة الكافية للحصول على رقيق أبيض، إنها نزوة تكلف ما بين ٢٠ إلى ٣٠ ألف فرنك؛ إن مثل هذه الجواهر ليست، كما نرى، في قدرة أيٍّ كان. إن خيلاء هؤلاء النسوة لا يمكن احتماله: ولما كنّ يعرفن أن مصيرهن سيؤول إلى حمى أسياد من علية القوم وأقويائهم فإنهن يحتقرن بقية الرجال؛ ويا لسوء حظ الشخص البسيط الذي يتجرأ على شراء

إحداهن، فهو لن يتأخر عن إعلان توبته؛ ويكون عليه عندئذ أن يحمل مسرعاً إلى السوق سلعته العنيدة المختالة.

عندما كنت في مصر، تلقى عباس باشا عدداً من خيول السباق هدية من إمام مسقط، وردّ له عباس باشا الهدية، فأرسل له جاريتين بيضاوين؛ جورجيتَّين أو شركسيتَّين، وهي هبة غريبة، بسبب سن المهدى إليه، ناهيك عن المصير المزعج الذي ينتظرهما. وحدث أن وقعت السفينة التي تنقلهما خلال مرورها بمضيق باب المندب بأيدي سفينة حرب أوروبية فرنسية أو بريطانية، لست أدري أيهما، كانت تقوم بملاحقة تجار العبيد في المحيط الهندي. ولمّا كان المركب المصري يحمل عبيداً فقد عدّوه غنيمة قانونية، وتَمَّ في الوقت نفسه / ١٣٩ / تحرير الجاريتين. وأجهل ما حلّ بهما، ولكنني، بحكم المعرفة التي اكتسبتها بطبائع الشرقيين، متأكد من أن الجاريتين قامتا بلعن محرريهما، بدلاً من مباركة عملهم الإنساني الذي قاموا به؛ لأنهن يفضلن الحياة الهانئة، والمصير الطيب الذي وعدتا به عندما تدخلان في حريم الأمير الحاكم، على الحرية التي لن تدريا ما ستفعلان بها. أما بقية العبيد الذين حُملوا من مصوع، ذكوراً كانوا أم إناثاً، فإنهم كانوا أطفالاً لا تزيد أعمارهم عن أربع إلى سبع سنوات أو ثمان، باستثناء حبشية يبلغ عمرها ١٣ إلى ١٤ عاماً، ولكنها ذات هيئة تكون عليها الأوروبية في الخامسة والعشرين من عمرها، وقد كانت تلك الحبشية، بعد مواطنتها التي يمكن القول: إنها بيضاء، أثمن تلك الجواهر البشرية، لأنه على الرغم من لونها

الضارب إلى السمرة، فإنّ الجلاّب علقوا عليها أملاً كبير للحصول على ربح وفير. كانت الفتاة المسكينة معروضة في متجر مهجور في أكثر شوارع جدة سكاناً، كانت جالسة على مقعد يرتفع عن الأرض ثلاثة أقدام، وكانت متسمرة عليه كأنها تمثال، تنتظر من يشترونها في صمت عميق، لقد ألقي عليها لسترها قطعة من قماش الكاليكو[1] الأبيض يلفها من رأسها إلى قدميها؛ ولم تكن ترتدي أي شيء تحته، كان ذلك كل ما ترتديه، ولم يكن الراغبون فيها، جادين كانوا أم لا، يتورعون عن رفع ذلك الغطاء الرقيق من كل الاتجاهات ليتفحصوا، كما يرغبون، السلعة المعروضة كما يحدث عند شراء حصان أو رأس من الماشية. سبق لي أن رأيت في القاهرة، وفي عدد من المرات / ١٤٠ / عروضاً مشابهة، وتساءلت غالباً عمّا تشعر به هذه المخلوقات، وعن التناوب الذي يعتريهم بين الخوف والأمل كلما جاء قادم جديد يرغب في شرائهن.

كان الجلاّب (تاجر الرقيق) يرغب كل الرغبة في بيعي تلك الجارية؛ مع أنه يعلم أنه لا يمكن للفرنسيين شراء العبيد إلاّ لتحريرهم، وأن كل عبد يشترونه يصبح حراً بمجرد أن تتم عملية الشراء. كان يطلب من أبناء جلدته ١٥٠٠ فرنك ثمناً لها (١٢

(١) Calicot، ورد ذكره في **رحلات بوركهارت**، انظر: الترجمة العربية، موثق سابقاً، ص ١٧١ وكتبه المترجمان Calico، وعرباه الكاليكو. وفي **المنهل**: عرباه كاليكوت (قماش قطني خشن يصنع أصلاً في مدينة كاليكوت على شاطئ مالابار). وفي **معجم روبير الصغير** أن تاءها لا تلفظ؛ وقد كتبناها حسب ذلك.

صرة)، وقد خفض السعر إلى (ثماني صرر) لكي يغريني بشرائها . وقد جال بخاطري للحظة أن أقوم بعمل صالح، ولكنني للأسف اتبعت وصية الدبلوماسي الذي كان ينصح بالاحتراس من المبادرات الأولية لأنها مبادرات خيّرة، وقلت في نفسي، وأنا محق في ذلك، إنني إنْ شرعت بشراء العبيد فإن الأموال المخصصة لرحلتي ستنفد عما قريب. لقد كان رفيق رحلتي من ناحيته يفكر بما كنت أفكر به، ولكن هدفه كان أقل نبلاً مما كنت أفكر فيه: إنه الإحسان النفعي Carità Pelosa ! كما يقول الإيطاليون. وسواء كان خيراً أم شراً فإن مشروعه ومشروعي ظلا في حيز التفكير، وبيعت الشابة الإفريقية، لست أدري لمن. أين هي الآن، وفي يد من وقعت؟

إن الرق بالتأكيد تعسف يبعث على الثورة؛ إنه يحط من الطبيعة البشرية، وينتج عنه آلاف التجاوزات. ولكنّه ينبغي الاعتراف أن مصير أولئك الحبشيات ليس محزناً كما يبدو / ١٤١ / من النظرة الأولى. ولما كُنّ صائرات إلى خدمة حريم المشتري فإنهن يصبحن من أفراد الأسرة، وترتبط شروط عيشهن بمستوى عيش سيداتهن اللواتي يَلْزَمْنَ، هن أنفسهن، البيوت، ويكدن هن أنفسهن يكن جواري شأن جواريهن. وأعترف أن سيدهن قد يقضي منهن وطره، وهذا ما يحدث غالباً، ولكنه بذلك يحظر على نفسه أن يبيعهن مرة أخرى: لأنه من العار على مسلم أن يبيع جارية عاش معها، بل إن الأسياد يتزوجون عادة من الجواري اللواتي أنجبن منهم أولاداً، ويتم ذلك

خصوصاً في مدن الجزيرة العربية[1]. وإن هذا النوع من الزيجات لا يؤدي، ولو قليلاً، إلى جعل لون سحنة العرب غامقة، ولكن التعصب ضد اختلاط الدماء غير موجود في هذه البلاد.

إن الأم مهما كان وضعها، جارية سوداء من الطراز الأخير في السلم الاجتماعي في إفريقيا، لا تؤثر في أصالة الولد؛ إن الأب وحده هو أصل النسب، وليس للأم أي حساب. ونحن نعرف أن السلطان نفسه الذي لا يعترف لأحد بالأصالة، وليس له نظراء، لم يتزوج، وربما ما زال، لا يتزوج إلا الجواري.

لقد شاهدت في مصر، وبين الأوروبيين، زيجات كثيرة من هذا النوع؛ وعدداً من الفرنسيين الذين أعرفهم لم يكن لهم زواج آخر إلا هذا، وهم ليسوا في حال سيئة، عدا أن المشهور عن الحبشيات أنهن مبذرات، مما يدعو إلى القول: إنهن يخربن البيت. لقد عرفت منهن جميلات إذا غضضنا البصر عن لون بشراتهن، فإنهن صالحات في أي مكان، وحتى فيما يخص اللون / ١٤٢ / فإننا نعتاده بسرعة، ولم أعد خلال وقت قصير أعير ذلك التفاتاً.

وتُعَوّض الحبشيات هذا العيب البسيط، إن كان عيباً، بأن لهن بشرة ناعمة، وشعراً طويلاً ناعم الملمس، وبأن لهن قدوداً ممشوقة، وأشكالاً أنيقة، وقسمات

---

(١) انظر: **رحلات بوركهارت ...**، موثق سابقاً، ص ١٧٣ – ١٧٤ والمستقر في الإسلام أن الأمــة بمجرد أن تلد تصبح "أم ولد" ويكون لها من الحقوق والواجبات الشرعية ما للزوجة، وليس هناك داع لأن يكون ذلك بعقد زواج. انظر الحاشية (١) ص (١٧٤) من **رحلات بوركهارت**.

متناسقة، تليق بأكثر التماثيل الإغريقية جمالاً، ولهن أيضاً عيون ساحرة، وأسنان رائعة، ويدان صغيرتان، وقدمان دقيقتان. إنهن بكلمة واحدة خُزْن كل أسباب الجمال التي تكون في المرأة، ولست مندهشاً من رؤيتهن يثرن رغبات تستمر متأججة حتى بعد الزواج(١).

كانت نافذتي مُطَلاًّ أشرف من خلالها على الميناء كله: لا يدخله أو يخرج منه شيء دون أن أراه. لقد وصل عدد من القلعيات أو ثلاثيات الصواري المحملات بالسكر والأرز، ناهيك عن مراكب البلد التي كانت تذهب وتجيء في كل يوم.

لقد كانت مفاجأة سعيدة لي، عندما رأيت في صباح أحد الأيام العلم الفرنسي يرفرف على سفينة حربية وصلت في الليل؛ كانت الحرّاقة البخارية التي تحمل اسم لو كيمان Le Caïman ، الكابتن كورمييه Cormier من قاعدة الهند، وصل إلى جدة في رحلة استطلاع. وتحمل السفينة على متنها، ناهيك عن طاقمها المعتاد، حوالي مئة من المدغشقريين المجندين مؤقتاً من جزيرتهم للخدمة على متن السفينة، مما يكاد يضفي عليها هيئة متوحشة. إننا أبناء بلد واحد جمعتهم المصادفة في جدة، وتمّ التعارف

---

(١) تحدث سنوك هورخرونيه باستفاضة عن الرقيق في كتابه: **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، موثق سابقاً، ج ٢، ص ٣١٩ – ٣٢٩. وانظر **اكتشاف جزيرة العرب، خمسة قرون من المغامرة والعلم**، جاكلين بيرين، نقله إلى العربية: قدري قلعجي، قدم له الشيخ حمد الجاسر، دار الكاتب العربي، بيروت، د. ت، ص ٣٣٢، وسنشير إليه من الآن فصاعداً بـ "**اكتشاف ...**". وانظر:

Courtellemont, Gervais, Mon voyage à la Mecque, Paris, Librairie Hachette et Cie, 1896, PP. 122.

بيننا بعد وقت قليل، وأصبحنا أصدقاء من الساعة الأولى. / ١٤٣ / تناولت طعام الغداء على متن السفينة غير مرة؛ وفعل مثل ذلك قائد السفينة وطبيبها في منزلي، وأقيمت في القنصلية الفرنسية حفلة عشاء رسمية كان الواجب يفرض حضورها بسبب مرض القنصل.

هذه المآدب المتفرقة، التي ليست بذات دلالة في أوروبا، تكتسب بعض الأهمية على بعد ١٢٠٠ فرسخ عن باريس: لأن المسافات تجمّل أكثر الأشياء ابتذالاً. Elonginquo reverentia. لقد ترسخت الصداقة بيننا عندما قدم لي ضباط السفينة هدية لا تقدر بثمن في هذا المكان، لقد تركوا لي عند مغادرتهم ١٢ زجاجة من نبيذ بوردو Bordeaux. كانت الحراقة لوكيمان Le Caïman قد ألقت مراسيها بعيداً جداً عن المدينة، وتم ذلك بناء على اقتراح السلطات المحلية، وأظن في الحقيقة أن الباشا كان يخشى أن يكون الهدف من مجيء الحرّاقة هو الإغارة على المدينة، وأن ضحالة الماء في الميناء ليست إلاّ حجة. ولكن ذلك لم يمنعه من زيارة الحرّاقة في موكب ضخم؛ وهي زيارة لم تكن في الواقع إلاّ رداً على المجاملة بمثلها؛ لأن قائد السفينة بادر، كما ينبغي عليه، إلى زيارة الباشا أولاً. وأطلق الجانبان مدافع التحية بانتظام كما هي العادة في مثل هذه المناسبات، وقد غالى الجانبان في ذلك، ولم يختصرا. وظلت الحرّاقة أسبوعاً، وفي يوم مغادرتها رافقتها مسافة ستة أميال. وخلال عودتي إلى اليابسة مع البحار المحلي الذي رافق الحرّاقة حتى خرجت من قنوات الملاحة، عانيت كثيراً من الحر الذي كان خانقاً، ومن انعكاس الشمس على

البحر الذي كان في ذلك اليوم هادئاً وشاحباً كأنه بقعة زيت. كان قائد السفينة المحبب يود بإلحاح / ١٤٤ / أن يأخذني إلى جزيرة بوربون[١] Bourbon. وكان الأمر مغرياً جداً بالنسبة إلى رحالة، ولو أنني استجبت لذلك الإغراء لما كنت مضيت بعيداً، لأن سوء حظ الحراقة لوكيمان جعلها تغرق على سواحل زيلع[٢] Zyla.

إن لقوتين أوروبيتين هما فرنسا وبريطانيا وحدهما قنصلين في جدة. القنصل الفرنسي هو روشيه ديريكور[٣] Rochet D'Hricourt، كان حينئذٍ على حافة الموت، وقد مات منذ ذلك الحين، وستتاح لي في الصفحات القادمة فرصة الحديث عنه. أما القنصل أو نائب القنصل البريطاني فهو كول M. Cole، وهو في الوقت نفسه، شأنه

---

(١) جزيرة بوربون أو جزيرة الرينيون، جزيرة فرنسية في المحيط الهندي، تقع شرق مدغشقر بحوالي ٧٠٠ كم.

(٢) قبالة ساحل إفريقيا الشرقي على البحر الأحمر.

(٣) Rouchet D'Hricourt = روشيه ديريكور جاء في: **اكتشاف ...**، موثق سابقاً، ص ٣٣٨: "... وقام فرنسي آخر يدعى روشيه دي هيريكور (ديريكور) برحلة على نفقته الخاصة لارتياد مملكة خوا في القسم الجنوبي من بلاد الحبشة. ولدى عودته، قدرت الجمعية العلمية الفرنسية أنه بإمكانه القيام بعمل مثمر، فيما إذا امتلك أدوات علمية، فقدمت إليه أجهزة دقيقة، وعلمته استعمالها، وأرسلته في رحلة ثانية سنة ١٨٤٢م فعاد منها بعدد وافر من المعلومات في مختلف نواحي المعرفة تتعلق ببلاد الحبشة بنوع خاص. ومع هذا، لا تخلو رحلته، ومروره بالقصير، وجدة، والحديدة، والمخا من المعلومات الشائقة، إذ كان قد طرأ تبدل عظيم في شؤون البحر الأحمر ما بين سنتي ١٨٣٩ – ١٨٤٢م وذلك بتأثير الظروف السياسية الدولية". وانظر ص ٣٤٠ – ٣٤١ من كتاب: **اكتشاف ...**، موثق سابقاً. وسيتحدث ديديه بالتفصيل عن روشيه ديريكور في الفصل الثالث عشر المعنون بـ "مغادرة جدة" ص ٣٠٦ – ٣٠٩ من الأصل الفرنسي، وذكر أنه توفي في ٩ مارس (آذار) ١٨٥٤ م.

شأن زميله في السويس، وكيل تجاري لشركة الهند الشرقية. وإن وظيفته ليست وظيفة بلا عمل بسبب العدد الكبير من الهنود الذين هم مواطنون بريطانيون ويقيمون في جدة. ولا نستطيع أن نقول: الشيء نفسه عن زميله الفرنسي الذي ليس له في الحجاز كله مواطن واحد. ولعله من المفيد أن نعلم أن الباب العالي العثماني يمتنع عن قبول اعتماد القناصل بحجة أن جدة مدينة مقدسة. كان سكننا ملاصقاً لسكن السيد كول، وكنت أقضي في منزله وقتاً يساوي الوقت الذي كنت أقضيه في سكني. لقد حملت إليه رسالة من صديق مشترك هو السيد بيرتون، وقد أسدى لي طوال مدة إقامتي في جدة خدمات جليلة.

لم نأت إلى جدة لأجل رؤية جدة نفسها، ولكن بنيَّة الذهاب إلى الطائف؛ وهي مدينة صغيرة تبعد مسيرة خمسة أيام إلى الداخل؛ وهي مشهورة في الجزيرة العربية بغزارة / ١٤٥ / مياهها، وجودة ثمارها، وخضرة بساتينها. وهي دار إقامة الشريف الأكبر؛ أمير مكة المكرمة الذي بنى فيها قصراً، ولمّا كنا مسيحيين فإننا لا نستطيع القيام بهذه الرحلة بدون أن يأذن هو بذلك. وقد طلب السيد كول الإذن عبر مصطفى أفندي وكيل الأمير الشريف في جدة. ولم يتأخر الجواب، وفيه أن الشريف سيستقبلنا بكل سعادة، وأنه سيهتم برحلتَيْ الذهاب والإياب: وسيرسل لنا هجنه ورجاله ليحملونا إلى الطائف، ويعودوا بنا إلى جدة. وصل هذا الجواب اللطيف في ١٧ فبراير (شباط). ومهما كانت السرعة والمبادرة التي تعهد بها الشريف أن ينفذ بهما وعده، فقد كان أمامي أسبوع انتظار كامل؛ وكان ينبغي عليّ أن أشغله، ولكن

كيف؟ لم يبق لي ما أراه في جدة. "لقد قال لي أحد السكان الأصليين: كيف — وأجبته بنعم، ولكن هل الممكن أن يدوم الكَيْف ثمانية أيام؟" وقد يسألني أحد ما الكيف؟ وهأنذا أقول لكم:

عندما يُنهي العربي أعماله، مهما كان نوعها، ويكون يومه قد انتهى، يعتزل الناس بين حريمه، ويتخفف من ثيابه، ويأخذ شيشته، ويجلس متربعاً على ديوانه، ويستغرق عليه دون شعور، / ١٤٦ / وهو يدخن في استرخاء بدني وروحي؛ هو نوع من النوم والصحو، دون أن يكون لا هذا ولا ذاك. ولا يجرؤ أحد في العالم أن يعكر عليه صفو هذه اللحظة الطقوسية حتى لو كان زوجته نفسها، أو حتى أقرب الجواري إلى نفسه. إن حالة البين — بين هذه، التي هي وسط بين الوجود واللاوجود، والتي لا يمكن أن تُعرّفها لأوروبي، ولا يمكن له أن يفهمها — ليست إلا تطبيقاً عملياً للمثل الشرقي القائل: خير لك أن تكون جالساً من أن تكون واقفاً، ومستلقياً من أن تكون جالساً، ونائماً من أن تكون مستلقياً، وميتاً من أن تكون حياً. ليس الموت الحقيقي هو المقصود هنا: لأننا في هذه الحالة لا نفكر، ولا نشعر، ولا نحلم، ولا نعيش، ولكننا نتنفس، نعيش كما تعيش النباتات، وهذا يمثل لدى العربي النعيم الأعظم، والشعور المسبق بالنعيم الخالد. ذلك ما يسمونه الكيف.

وقد جعل الأتراك، وخصوصاً الطبقات الميسورة، من هذه العادة الروحية ممارسة مادية، وأفسدوا المتعة التي لا توصف للجسد والروح، عندما جعلوها مترافقة بشرب الكحول: إنهم يشربونه بشراهة حتى الثمالة، وينتج عن ذلك التصرف

الحيواني، عن ذلك الكيف[1] الذي لا يليق به هذا الاسم، أن الإنسان يغط في نوم عميق. ونرى من خلال ما ذكرته أن الإنسان لا يستطيع، مهما كانت قوة الإرادة لديه، أن يستمر في ممارسة هذا النوع من الكيف أسبوعاً كاملاً. ولما كنت قد رأيت كل شيء في جدة، فإنه لم يعد فيها ما يثير فضولي، فتركت الاهتمام بالأشياء، واتجهت نحو الناس، وإليكم بعضاً ممن / ١٤٧ / خالطتهم لقتل الوقت حتى يحين موعد مغادرتي إلى الطائف.

(١) أورد روبن بِدْول في كتابه: **الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية**، الترجمة العربية، موثقة سابقاً، ص ٥٧، في الحديث عن رحلة بيرتون "... وقد استمتع بيرتون بجو الإسكندرية، حيث وجد فيها ما يسميه العرب بالكيف، فالرجل الشرقي يحب الخلود إلى الراحة والاستمتاع بالملذات الحيوانية، وبناء القصور في الهواء، وقد تجده جالساً تحت شجرة تفوح بالعطر مستمتعاً باحتساء القهوة أو تدخين النارجيلة أو شرب الشربيت غير مكترث بما يدور حوله في الأمور التي تعكر صفو الحياة، بينما الحياة الباردة في أوروبا تملي على الرجل الغربي أن يكون مفعماً بالنشاط والحيوية."

الفصل السابع

لوحة نابضة بالحياة

المكان للمكين، لذلك أبدأ بالحاكم. كان الباب العالي العثماني يرسل فيما مضى إلى المدينتين المقدستين، وجدة باشا يحمل ثلاثة ذيول[1] احتراماً لقدسية المدن الثلاث. ومع أن هذا الامتياز الذي أسف عليه هواة الأصالة قد ألغي، فإن ولاية مهد الإسلام، ظلت أولى ولايات الإمبراطورية العثمانية، والموظف الكبير الذي يولى

---

(١) يستخدم الذيل أو الطوخ للدلالة على الرتبة عند العثمانيين، والطوخ علامة على الخانية، وكان عبارة عن عمود يعلق به ذيل ثور، وقد استبدل الترك ذيل الحصان بذيل الثور. والطوخ أو الذيل عند العثمانيين مزراق رأسه كرة مذهبة، وقد علق تحت الكرة خصلة من ذيل حصان مصبوغة باللون الأحمر. وكان لرجالات الدولة العثمانية أطواخ أو ذيول بحسب منازلهم، فللسلطان سبعة أطواخ أو ستة، وللوزير الأعظم خمسة أطواخ (ذيول) أو ثلاثة، وللوزير ثلاثة أطواخ (ذيول)، وللوالي طوخان (ذيلان). ولم يكن يترتب على العزل من المناصب سحب الذيول (الأطواخ) إلا إذا كان العزل بجرم، وكانت الأطواخ السلطانية وأطواخ رجالات الدولة تسبق الجيش عند الغزو. انظر: أحمد السعيد سليمان: **تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل**. القاهرة، دار المعارف، د. ت. ص ١٤٦ – ١٤٨. (**عن حاشية ترجمة رحلات بوركهارت ....**، موثق سابقاً، ص ٥١، الحاشية (٢)). ويشير ديديه بعد بوركهارت إلى أن والي جدة كان يحمل ثلاثة ذيول تعني أنه كان لا يقل عن رتبة وزير، مما يدل على أهمية جدة بالنسبة إلى الدولة العثمانية، انظر: **رحلات بوركهارت ....**، موثق سابقاً، ص ٥١. وذكر في **معجم المصطلحات ....**، موثق سابقاً، ص ٣١٠، أن كلمة "طوخ" كلمة صينية دخلت التركية بمعنى راية من نوع خاص ... ووردت في بعض المراجع بلفظ: توخ، أو طوغ. وذكر د. صابان، في **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، موثق سابقاً، ص ١٤٩: أنها طوغ Tuğ: وهي ذؤابة من وبر الخيول، تعلق على العمامة التي يلبسها أركان الدولة، وهي علامة مميزة لهم حسب مكانتهم.

عليها لا يتقدمه إلا رئيس الوزراء، ويتقاضى سنوياً مليوناً ومئتي قرش، يضاعفها مرتين أو ثلاثاً عادة، إن لم يزدها عشرة أضعاف بالطرق المألوفة في تركية وغيرها . ويبدو من الطبيعي أن يقيم في مكة، ولكنه لا يقوم إلا بزيارات نادرة إلى عاصمة النبي محمد ﷺ، وزياراته للمدينة المنورة أكثر ندرة، ويقيم في جدة طول الوقت؛ بسبب أن هذه المدينة هي مقر الجمارك التركية؛ وهي المورد الرئيسي، ويكاد يكون الوحيد، لموارد الحجاز العامة؛ وإننا لا نستطيع، حسب مبدأ الخوري تيري[1] Terray، أن نأخذ إلا حيثما نجد ما يؤخذ، ومن جمارك جدة غرف الباشا / ١٤٨ / ما شاء الله له أن يغرف[2] . هنا يوجد الكنز في نظر التركي، وهنا يوجد قلبه وشخصه أيضاً .

زرْت الباشا منذ اليوم التالي لوصولي، ولكن ليس قبل أن أرسل من يخبره بذلك، بضع ساعات قبل موعد الزيارة، كما هي العادة بين ذوي الاعتبار . كان الاستقبال في

---

(١) Terray (L'abbé Joseph-Marie) = الخوري تيري: مراقب مالي عام، ولد في بوين Boën في منطقة (اللوار Loire) في فرنسا عام ١٧١٥ م، وتوفي في باريس ١٧٧٨ م. قام بعدد من الأعمال التي قيدت الأعمال التجارية وفرضت عليها ضرائب وقيوداً ضخمة بعد أن استطاع على الرغم من أعماله السيئة أن يصبح مفتشاً مالياً عاماً في عام ١٧٦٩ م.

(٢) يقول **بوركهارت في رحلاته**، موثق سابقاً، ص ٥١ – ٥٢: "ويحكم جدة باشا يحمل ثلاثة ذيول (أو أطواخ) وله الأقدمية على معظم الآخرين بحكم ارتباط جدة بالمدينتين المقدستين، إلاّ أن منصب ولاية جدة يعد تشريفاً قلّ أن يأبه به نبلاء الأتراك، إذ إنهم دائماً يعتبرون جدة مكاناً للنفي أكثر منها مكان ترقية إلى منصب رفيع، وكثيراً ما يُعيّن في ولاية جدة رجل دولة مغضوب عليه. ووالي جدة يُلَقّب نفسه والي جدة وسواكن والحبش وليس والي جدة فحسب، وتأييداً لهذا اللقب فإنه يقيم مكاتب للجمرك في كل من سواكن ومصوع اللتين كانتا قبل حكم محمد علي تابعتين كلية لشريف مكة". انظر **تعليق المترجمين في الحاشية (١) من ص ٥٢ على المقصود بالحبش.**

غاية اللياقة: إذ كان على الباب لجنة عسكرية لاستقبالنا، وكان العبيد والخدم ينتشرون على الدرج وفي المدخل، وكان هناك الشيشة والقهوة والشراب والشاي والحلويات، وكان كل ذلك يُطلب بصوت عال، وتلك هي غاية اللياقة في الشرق، حتّى يستطيع الجميع أن يسمعوا التّشريفات التي تُقدَّم للزائر، ولم يكن ينقص الحفلة شيء. لقد خرج الباشا نفسه للقائي لدى باب المجلس، وقادني إلى غرفة مستقلة تُطلّ على البحر، مليئة بالسجاد والدواوين، والوسائد، وبكلمة واحدة مليئة بكل وسائل الراحة المتوفرة في البلد.

أما قنصل فرنسا الذي كان طريح الفراش، وأقعده المرض الشديد عن مرافقتي، فقد طلب رسمياً من السيد دوكيه M. Dequié المترجم، وموثق العقود في القنصلية أن يمثله، وقد تفضل السيد دوكيه بالقيام بدور المترجم، وقد قام بذلك بذكاء ونفاذ كان اسم الحاكم أحمد عزت باشا[1]، وهو رجل حيوي، جيد الثقافة، وهذا نادر لدى الأتراك، بل إنه شاعر، يستعرض معارفه بكل طيبة خاطر. بدأ الحديث بالطبع

(١) ذكر دحلان في كتابه: **خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام**، ط. ١، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٠٥هـ، ص ٣١٦، أنه كان أميراً للحج الشامي في عام ١٢٦٨هـ، وصديقاً للشريف عبد المطلب، وأعانه ضد والي جدة آقه باشا، وأن الشريف عبد المطلب أرسل للصدر الأعظم رشيد باشا يطلب عزل آقة باشا، وتوجيه ولاية جدة لأحمد عزت باشا الأرزنجاني فأجيب إلى ذلك في سنة ١٢٦٩هـ، وهو الذي بنى البيت الذي بالزاهر بالقرب من شهداء فخ في مدة ولايته هذه، ثم حصلت منافرة بينه وبين الشريف عبد المطلب بعد وصوله إلى جدة بأيام قلائل. وعُزل أحمد عزت باشا سنة ١٢٧٠هـ في شهر رجب. وتولى مكانه كامل باشا. ولد عام ١٢١٣هـ في أرزنجان، وتوفي في ١٤ شوال ١٣١٠هـ. كان كاتباً وشاعراً وأديباً، اهتم في كتاباته بالموضوعات العسكرية. انظر: محمد تويا، **سجل عثماني**، ج ٣، ص ٤٦٥، ١٣١١هـ.

عن الحرب[1] التي كانت حينئذٍ قد بدأت، وقد أمر بإحضار / ١٤٩ / خرائط جغرافية تركية ليتتبع عليها التوضيحات التي كان يطلبها مني.

وجعلته أنا بدوري يتحدث عن الموضوعات التي تهمني أكثر من غيرها، عن البلد الذي يحكمه، وقد استقيت منه المعلومات التي ذكرتها سابقاً عن مدينة النبي صالح المهدمة. لقد زودني بمعلومات أخرى هي في نظري موضع شك: فهو، على سبيل المثال، رفع عدد سكان مكة المكرمة إلى ١٠٠ ألف نسمة، مع أن عدد سكانها لا يبلغ نصف هذا العدد، وقال: إن عدد سكان مكة المكرمة الذين تساعدهم إستانبول يبلغ ٢٠ ألفاً. وعلمت منه أن إحدى أرامل ملك لاهور رونجيت — سينغ[2] Runjet-Singh جاورت بعد موت زوجها في مكة المكرمة، وهي تعيش من

(١) بين روسيا والإمبراطورية العثمانية، وقد جرت هذه الحرب بين (١٨٥٣ — ١٨٥٦ م) في فترة حكم الإمبراطور نقولا Nicolas (١٨٢٥ — ١٨٥٥)، والتي انتصر فيها، وكاد ينجح في إسقاط الإمبراطورية العثمانية لولا تدخل فرنسا وبريطانيا للحفاظ عليها (حرب القرم Crime ١٨٥٤ — ١٨٥٥ م)، فانهزم نقولا في معركة سيباستوبول Sbastopol، واضطر حسب معاهدة باريس (١٨٥٦ م) أن يتخلى عن بعض الأراضي التي احتلها، وعن الوجود الروسي البحري في البحر الأسود. واشتركت مصر في هذه الحرب إلى جوار الدولة العثمانية، وقد أشار بيرتون في رحلته إلى حماسة المصريين ورغبتهم بالجهاد ضد الروس. انظر: **رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز**، موثق سابقاً، ج ٢، ص ١٧.

(٢) ولد عام ١٧٨٠ وتوفي عام ١٨٣٩ م، حاكم هندي (مهراجا) كان يعرف بـ "أسد البنجاب"، حصل على ولاية لاهور منحة من زمان شاه ملك أفغانستان بعد أن استولى عليها وعمره ٢٠ سنة بقوة السلاح.

المساعدة التي تقدمها لها شركة الهند الشرقية، وهي تمارس في عزلتها كل الفضائل التي أمر بها الإسلام.

وأود هنا أن أروي طرفة حدثت في جدة الصيف الماضي، وهي تكشف بوضوح فساد الطبائع لدى السيدات في الشرق؛ ولكن رواية تلك الطرفة تحتاج إلى اتخاذ الحيطة والحذر في الحديث، وليس بالسهل روايتها . وسأحاول أن أفعل ذلك بطريقة لائقة، إلاّ أنها مفهومة، وإن اللبيب من الإشارة يفهم !

لقد فقد الحج كثيراً من ألقه؛ فالفقراء والمساكين يؤدون هذا الواجب الديني بأعداد كبيرة؛ وهم إمّا ممن فترت عواطفهم، وإما من الشباب، وإما من المقترين، أما الأغنياء فإنهم عزفوا عن أداء الحج؛ فلم نعد نرى سلاطين الماضي العظماء يأتون من كل بقاع العالم الإسلامي / ١٥٠ / ليظهِروا بهذه المناسبة الاحتفالية كرمهم، وليكون حجهم مادة لذكريات رائعة يمكن إدراجها في عداد الحكايات الخيالية في ألف ليلة وليلة. مع ذلك فإن الحج الأخير شهد قدوم سيدة جليلة من أعماق بلاد فارس، كانت على ما أظن أرملة، وهي، وإن كانت لم تُظهر من آيات البذخ ما يظهره القادمون من بلاد فارس أو من إستانبول أو من بقية بلدان الشرق الإسلامي، كانت تسافر، وبرفقتها حاشية لا يستهان بها . لقد كان معها خصي أسود مقصور على خدمتها، وكان يقوم لديها بوظيفة أمين الصندوق والقيّم. لقد قدِمَت الحاجة الشهيرة من مصر، وزودها القنصل البريطاني العام برسالة توصية إلى السيد كول، لست أدري بأي قصد، وقد أكد لي السيد كول كل تفاصيل المغامرة الغريبة. عندما وصلت إلى جدة انقض رجال الجمارك على أمتعتها كما لو أنهم ينقضون على فريسة، وبضراوة شرسة

تـميز بها مصلحة الضرائب في كل البلاد، اطلع رجال الجمارك على كل شيء عدا صـندوق امتنع الخصي بإصـرار عـن فـتحه بأمـر صـريح من سـيدته، ودارت بشـأنه محادثات طويلة، وكلما كان الإصـرار على عدم فـتحه عنيداً، ازداد إلحاح الجمارك على ضـرورة ذلك، وزادت شـكوكهم بسـبب مـا يـرونه من مقاومـة. ولما اغـتاظت السيدة صرحت في آخر الأمر للجمارك: أنهم إذا أصـروا على فـتح هذا الصندوق الذي دار حوله نقاش كثير فإنها / ١٥١ / لن تسحبه أبداً، وسـتنكر ملكيتها له. ولم يكن لاعتراضاتها أية فاعلية، وفُتِح الصندوق على الرغم من كل معارضتها الشرسة. ما الذي كان في ذلك الصندوق العجيب؟ إن كان فضولكم يدفعكم إلى معرفة ذلك فيمكنكم أن تسـألوا مؤلف رواية الساتيريكون[١] Satyricon، وباستطاعتكم أن تسألوا أيضـاً جمارك بيربينيان[٢] Perpignan الذين شـهدوا منذ عهد قـريب حصول مغامـرة مشابهة لسيدة جليلة من نساء عصرنا.

---

(١) Sstyricon، Satiricon = السـاتيريكون = الساخر — السخرية، وهي ضرب من الرواية الساخرة تنسب إلى بيترون Ptrone، لم يبق منها إلاّ قطع يختلط فيها النثر والشعر، وهي أكثر الأعمال الرومانية (روما) إباحية. وتجري أحداثها في مرسيليا وفي جنوب إيطاليا، وموضوعها مغامرات أحد الشباب الإباحيين الذي لا يملك شيئاً اسمه أنكولب Encolope. والمؤلـف هو بيترونيوس الحكم (Petronius Arbiter) كاتب وشاعر لاتيني من القرن الميـلادي الأول (٢٠؟ – ٦٦ م). ويقـال: إنه كان من أتباع مبدأ اللذة المرهفين في بـلاط نـيرون Nron. انظـر: **Laffont-Bompiani, Dictionnaire Des vres**, Paris, 1962, PP. 361-362. ويبدو أن ما في الصندوق كان له علاقة بأمور إباحية.

(٢) منطقة فرنسية في جبال البرينيه الشرقية، تبعد ٦٩٠ كم عن باريس و ١١ كم عن البحر المتوسط.

إن أول الشخصيات الرسمية التي عرفتها بعد الباشا، ولكن على سبيل الفضول، كان كرد عثمان أغا[1]، كذا يسمونه في بلاده وفي عمله، ولد في كردستان، وكان سنجقاً[2] أو قائداً للخيالة غير النظاميين الذين يبلغ عددهم بين ألف أو ألف ومئتي رجل، ويعسكرون على بعد عدة فراسخ على طريق مكة المكرمة، وهم مستعدون على الدوام للتمرد، إن لم يتقاضوا مستحقاتهم المالية. لقد حصل من قبل في معسكرهم اضطرابات خطيرة، و يُتوقع أن يحدث تمرد عام إن لم تصل النقود بسرعة من استنابول.

إن خيالة الشرق هؤلاء الذين يُسَمّون باشي بوزوق، وهذا يعني بالتركية: ميليشيا، هم داهية تحل في البلد الذي يرسلهم الباب العالي في حملة إليه: إنهم يأخذون كل شيء من الأسواق دون أن يدفعوا ثمنه، ويعاملون التجار الذين يطالبون بحقوقهم معاملة سيئة، إن حياة / ١٥٢ / الإنسان لا تساوي في نظرهم حياة كلب، وهي أقل بكثير من حياة خيولهم. وإذا قابل أحد هؤلاء اللصوص امرأة غير منقبة، فإنه يشهر مسدسه ويصوبه نحوها، ثم يطلق ببرودة أعصاب النار على رأسها على

---

(١) ذكر دحلان في خلاصة الكلام ...، موثق سابقاً، ص ٣١٣، أنه كبير العساكر الخيالة في أيام الشريف محمد بن عون خلال فترة شرافته الأولى؛ وانظر: **رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز**، موثق سابقاً، ج ٢، ص ٢١٠.

(٢) سنجق يعني باللغة التركية العلم، ويطلق اتساعاً على القائد نفسه (المؤلف). انظر أيضاً: **معجم المصطلحات ...**، موثق سابقاً، ص ٢٥٩. وفيه أنه في بعض المصادر: صنجق، لفظ تركي – فارسي معناه: علم أو راية.

مرأى من كل الناس؛ ثم يقوم بعد فعلته، وبهدوء، بإرجاع سلاحه إلى حزامه، ويتابع طريقه، وهو يبرم شواربه، دون أن يفكر أحد بالوقوف في طريقه، أو بالنظر إليه نظرة احتقار. ولنتخيل مصير الشعب الذي تجعله الحرب تحت رحمة جنود غير منظمين، ليس لهم دين ولا خلق كهؤلاء الجنود الذين هم سِرُّ قائدهم. كان كرد عثمان أغا هو الرئيس اللائق لهذه المليشيا التي أطلق لها العنان، كان طوله ستة أقدام، مفتول العضلات مثل هرقل، وتظن حين تراه أنه عملاق يقسم الجبال إلى شطرين، ولكن هذا العملاق كان يُعد من الجبناء؛ فهو إبان الأحداث القريبة العهد التي كان معسكره مسرحاً لها لم يفعل شيئاً لإعادة فرض النظام، وتلوح الآن في الأفق اضطرابات أكثر خطراً أيضاً، وهو لا يستعد للوقوف في وجه العاصفة، وإنما يستعد للهرب إلى مصر، وقد أرسل إليها منذ زمن عائلته وأمواله. لقد سطا خلال نهب إحدى المدن التي لا أذكر اسمها، ولم يكن حينئذ إلا مجرد جندي، على مجوهرات باعها بـ ٢٠ ألف قرش؛ واشترى بهذا المبلغ جياداً، وكان ذلك بداية ثروته. وكانت مستحقاته حينئذٍ لا تزيد عن ٧٥٠٠ قرش في الشهر، ولكنه كان يملك / ١٥٣ / الموهبة الكافية لرفعها إلى ٢٠ ألف، وبفضل كفاءته المالية التي تعوض عجزه العسكري، كوّن لنفسه، بوسائل مشروعة تقريباً، ومع أنه ما زال شاباً، رأسمال يقدر بمئتي ألف تلري، أي مليون فرنك. إنه متحدث بارع، ويزعم أنه يعرف تمام المعرفة بلده الأصلي. ويقدر أن عدد الفرسان الأتراك المنتشرين في كردستان يبلغ ١٧٠ ألف فارس، وكان يذكر بفخر أنه يعرف مواضع سبعة مناجم ذهب في جبالها، ولم تكن حماسته بأقل في الحديث عن

نبع يتمتع بخصوصية تكمن في أنه يساعد على هضم الطعام فوراً؛ لأن الأتراك حريصون كل الحرص على صحتهم. ويدّعي أيضاً أن معرفته بالجزيرة العربية لا تقل عن معرفته ببلاده، ومع ذلك فإنني لم أستفد منه شيئاً ذا بال. استهل حديثه بمقالة فيها الكثير من الهذر والاضطراب عن طرقات الصحراء العربية وأقسامها، ولم يفهم مترجمي، ولم أفهم أنا من ذلك شيئاً أبداً.

وإليكم بعض المعلومات التي أخذتها عنه، أظنها أكثر دقة، مع أنه من المرجح أن هناك شكاً في صحتها وأصالتها. يوجد في مكان يبعد مسيرة ثمانية أو عشرة أيام عن جدة، باتجاه الشرق مكان، يُسمى الدفينة، فيه حجر عريض قديم مغطىً بأشكال محفورة، وهو مجهول الأصل. وعلى مسيرة عدة أيام في الاتجاه نفسه، ترتفع جبال دائرية ومنعزلة تماماً، اسمها جبال مرّان، وتنبع من سفوحها ٧٥ عيناً. / ١٥٤ / وتحدث عثمان أيضاً عن نبع آخر ماؤها يتحجر بمجرد احتكاكه بالهواء. أُورد هذه المعلومات بعجرها وبُجرها، وأود من القارئ أن يخضعها لحسه النقدي، أكثر من اعتبارها إشباعاً لفضوله.

إن المعارف عن قلب الجزيرة العربية قليلة، وليس لدينا عن سكّانه أي معلومات واضحة؛ لذلك ينبغي أن يصغي المرء لكل ما يقال، وأن يجمع كل شيء، بشرط أن يستنتج بعد ذلك من هذا المزيج بعض جوانب الحقيقة.

لم يكن عثمان أغا يقيم في المعسكر، كان يسكن في مركز المدينة منزلاً يعج على الدوام بالضباط الأرناؤوط أو الأكراد في لباسهم العسكري الأصلي: وهو عبارة عن

سُتَرة حمراء مطرزة بالحرير، وسروال منتفخ معقود عند الركبة، وحزام عريض فيه خناجر ومسدسات؛ وكان كل ذلك يشكل لوحة حيوية جذابة جداً.

إن الجيش غير النظامي معفىً من ارتداء الزي الذي فرضه السلطان محمود[1] على الجيش التركي. وليس ذلك الزي، باستثناء الطربوش، إلاّ نسخة مقلدة من الزي الغربي؛ وينبغي على كل الموظفين، عسكريين أو مدنيين، الالتزام بارتداء ذلك الزي. ونجد صعوبة في اعتياد رؤية الشيوخ العثمانيين الكلاسيكيين، وخصوصاً الباشا، وهم يرتدون تلك القلنسوة الحمراء الشنيعة، وذلك البنطال الضيق، وذلك المعطف الضيق؛ وكل ذلك يمثل الآن الزي الرسمي.

إنهم متنكرون بزي الأوروبيين، كما كنا في طفولتنا نتنكر بزي التركي، وقد خسروا بهذا التحول بنسبة ٩٠٪. لقد كان الزي القديم باتساعه وهيبته /١٥٥/ يظهر تميزهم؛ وكان فيه نوع من النبل والجمال؛ وهو خالٍ من تلك الزينة المستعارة، ومتناسب مع جوهر شخصهم، إنهم اليوم يبدون على حقيقتهم، في غاية القبح عموماً، بدناء قبل الأوان، وإن سوء مظهرهم لا يقل عن سوء مخبرهم. وإن المثل المأثور: قوي كالتركي، لم يعد صحيحاً.

لقد احتفظ باشا مصر بمصالح ضخمة في الحجاز منذ حرب الوهابيين، وهو يرسل إلى جدة للسهر على تلك المصالح قائماً بالأعمال، كان إبان زيارتي هو أمين

---

(١) محمود الثاني (١٧٨٥ — ١٨٣٩ م): سلطان عثماني تولى السلطنة بين عامي (١٨٠٨م — ١٨٣٩ م) وأهم أعماله أنه قضى على الانكشارية عام ١٨٢٦ م.

بيك، كولونيل سابق في سلاح المدفعية، رجل حاذق، ومؤدب، عارف بكثير من الأمور، ومنها التجارة، أفادني بقدر ما كان لطيفاً معي. عَيَّنه محمد علي، وأبقاه عباس في منصبه، على الرغم منه، لأن مناخ جدة أتلف صحته، وكان يطلب بإلحاح أن يتم استدعاؤه إلى القاهرة. علمت منه أن الباب العالي لا يجني أي فائدة من سيطرته على الجزيرة العربية، بَلْ يبدد فيها كل سنة قسماً كبيراً، ٢٩ أو ٣٠ ألف صرة، من الضريبة التي تدفعها مصر لإستانبول؛ كان أمين بيك على علم تام بهذا الخصوص، باعتبار أن تلك الأموال تصرف بمعرفته. وإذا صدقناه فإنه كان لعباس باشا في مكة أنصار. وأجهل إن كان هذا الأمر صحيحاً؛ ولكن ما علمته / ١٥٦ / من مصدر موثوق به أن عباس باشا يداهن بدو سيناء والحدود السورية، لأنه يرغب أن يكون ابنه الذي كان متزوجاً بإحدى بنات السلطان، أو أنها كانت مخطوبة له، والي المدينتين المقدستين لكي يدعم بذلك نفوذه الخاص على العرب ويوسعه. وقد جاء موته المفاجئ ليفسد سلسلة تلك المؤامرات.

كان أمين بيك معارضاً صلباً لحكومة الأشراف السابقة التي كان يأخذ عليها أنها تطبق نظاماً غبياً في الابتزاز والجور من كل الأنواع، وهو مأخذ غريب عندما يصدر عن خادم لعباس باشا، كان يذكر لي أشياء سيئة جداً عن الشريف الأكبر الحالي، ويتهمه بالبخل والجشع، ويقول إنه لا يوثق به، ومخادع حتى المكر. ولكنني كنت أشك في هذا الحكم لعدد من الأسباب: أولها أن أمين بيك هذا صنيعة محمد علي، الذي قوض حكم الأشراف، ولمّا كان من أصل تركي، فإنه كان بالطبع متشبعاً

بآراء سيده، ويقاسم مواطنيه تحيزهم ضد السكان الأصليين. هناك كره متبادل، ومتمكن وعداوة لا تقبل المصالحة بين الأتراك والعرب وبين العرب والأتراك. وإن المثل القائل: معاملة التركي للموري[1] Maure، هي في هذه الحالة أكثر صحة من أي وقت مضى، وكلمة مور هنا مرادفة لكلمة عربي.

كان العثمانيون باعتبار أنهم الغالبون، يعاملون الشعب المغلوب بغطرسة، وبطغيان / ١٥٧ / لا يمكن احتماله. أمّا العرب فإنهم، من ناحيتهم، جنس مستقل ومعتز بنفسه، ويُكِنُّون لحكامهم الغرباء حقداً لا يترك مكانه إلاّ للاحتقار؛ يغتاظون من جهلهم، ويسخرون من طريقتهم السيئة في التحدث بالعربية، ويأخذون عليهم أيضاً، أنهم لا يحسنون قراءة القرآن في المصحف، وأنهم لا يعرفون أداء الصلوات بشكل صحيح. وإن غدرهم هو الذي يثير العرب على وجه الخصوص؛ فهم لا يشيرون إليهم إلا باسم: الخونة، وهم في هذا السياق يستهزئون بلقب "خان" الذي يحمله كبار رجال الدولة، فيحولونه من اسم إلى فعل يدل على الخيانة، وإليكم القصة التي يروونها في هذا الموضوع. أخلف أحد السلاطين وعده لأحد العرب، فما كان من هذا إلاّ أن نعته بسلطان خان، ففهم العثماني لجهله أن هذه الشتيمة لقب تشريف، فأضافه إلى الألقاب الأخرى التي يحملها من قبل، وأورثه لذريته. وإن كلمة "تركي" إهانة، حتى لو

---

(١) استخدم المؤلف هنا كلمة Maure وهي كلمة من أصل لاتيني Maurus وهي بالإسبانية Moro أطلقت على سكان موريتانيا الحالية والمغرب ويسمون أيضاً بالموريسكيين Mauresques؛ انظر: كتاب د. صلاح فضل، **ملحمة المغازي الموريسكية**، القاهرة، ١٩٨٨م.

خرجت من فم الأطفال؛ وهم يتنابزون بها بينهم، وينادون بها الكلاب، كما هي الحالة في أوروبا حيث يطلقون على كثير من هذه الحيوانات اسم: ترك[1].

ونفهم من ذلك لماذا كان الباشا والشريف الأكبر مختصمين، ويسود بينهم شقاق معلن. إن السلطات الخاصة بكل من صاحبي المنصبين المرموقين غير محددة بوضوح وينتج عن ذلك / ١٥٨ / خصومات أبدية، ناهيك عن الكره المتأصل والسياسي بينهما. وكانا يستغلان عدم الوضوح في توزيع السلطات ليخدع كل منهما الآخر بكل الطرق الممكنة، ويسلكا كل الوسائل السيئة التي يمكن تخيلها، ووصل بهما الأمر إلى أن كلاً منهما كان يأمر بسرقة رسائل الآخر الرسمية، بل وبقتل سعاة البريد.

كانت هذه الخصومة المعلنة، تجعلني في موقف حرج. كان الباشا يعلم عندما وصلت إلى جدة أن هدفي هو الذهاب إلى الطائف، مقر حكم الشريف، ومركز سلطته؛ لذلك وجد الباشا نفسه متردداً بين أن يشجع رحلتي أم لا، وكان يخشى من أن يعرض نفسه للشبهات. ومع ذلك فقد عرض عليَّ، ولكن بلا حماسة، حراساً لمرافقتي.

أما عثمان أغا الذي كانت عداوته للشريف الأكبر أكثر استحكاماً، فإنه من جانبه وضع فرسانه تحت تصرفي. لم تكن مثل هذه الطريقة في السفر تناسبني؛ إذ لم أكن أنوي المثول أمام الشريف الأكبر، بصفتي رحالة يحميه أعداؤه ويفرضونه عليه، ولكن بصفتي رحالة حراً، ومستقلاً تماماً.

---

(١) انظر: رحلات بوركهارت ...، موثق سابقاً، ص ٥٦ — ٥٧.

ولم تكن لدي أي رغبة في رؤية الشعب العربي والطباع العربية عَبْر الأتراك، وخصوصاً عَبْر الباشي بوزوق، لذلك رفضت ما عرض علي بقليل أو كثير من سلامة الطوية، واتخذت القرار الوحيد الحكيم باللجوء مباشرة إلى الشريف.

لقد أحس الباشا بالمهانة من جراء هذا الاختيار، مع أنه أزال حيرته، وأزاح عن كاهله عبء أي مسؤولية. وحرص كل الحرص، وهو / ١٥٩ / التركي الأصيل، ألا يظهر لي شيئاً من ذلك، وخصوصاً أنه كان مشغولاً بأمر أكثر خطورة من ذلك بكثير: لقد كانت تنتشر في جدة شائعة إقالته من منصبه، وعلمت من مصدر موثوق به أن ذلك صحيح.

كان ديوان أمين بيك يقع على مقربة من البحر، يفصله عن ديوان الحاكم ساحة كبيرة حارة ومغبرّة، كانت تعسكر فيها حينئذ شبه فرقة من المتطوعين، وإليكم حكايتها: كان في جدة تاجر هندي ولد في كابول، وكان يتوق منذ بداية الحرب الأخيرة إلى أن يؤدي دوراً فيها، وقد جمع خلال سعيه لتحقيق ذلك كل ثروته، ولما ألقى عنه ثوب التجارة الرث، وتحول بشجاعة من عبادة إله النقود إلى عبادة إله الحرب، بدأ على حسابه الخاص، بتطويع مواطنيه، متسولين كانوا أم غير ذلك، فاستسلم هؤلاء لإغراء العمل، وانضم إلى هؤلاء المتطوعين الأوائل متطوعون آخرون كانوا راغبين في ذلك، وكان اسم هذا المرتزق من النوع الجديد أحمد – بيك، وقد انضوى تحت لوائه ألفا رجل، يعلم الله وحده كيف تم تسليحهم، ولم يكونوا ينتظرون للانطلاق إلا المراكب المخصصة لنقلهم عبر مصر إلى ساحة الحرب. كان هذا

الكابتن المغامر يسكن قريباً من سكني، وكنت أذهب بدافع الفضول لرؤيته، ووجدت أن هيئته هيئة رجل حرب أكثر منها هيئة تاجر ترك التجارة، كان يلبس برنساً أحمر، وكان حزامه مملوءً بترسانة كاملة من الأسلحة، يطقان (سيف تركي محدب) / ١٦٠ / سيف، مسدسات وكل ما يلزم ذلك. وقيادته تتكون من جماعة من الناس المتشردين، يلبس أغلبهم أسمالاً بالية، وكان يتردد من منزله ليلَ نهار صدى الاحتفالات العسكرية التي يصاحبها أصوات طلقات البنادق.

لم يعد في جدة مسيحيون باستثناء الإخوة ساوة Sawa، وهم من الجزر اليونانية، انضووا فردياً تحت حماية القنصل الفرنسي، في حين أن مصالحهم الاجتماعية يحميها القنصل البريطاني، وهي تركيبة عبقرية تسمح لهم بالاستفادة من كلتا الجنسيتين، ومن رعاية أكبر قوتين بحريتين في الغرب. وتقوم شركتهم بالاتجار مع السودان حيث يوجد لها وكلاء منتشرون حتى حدود الحبشة. كنت أرى في بعض الأحيان هؤلاء التجار الذين كان والدهم عجوزاً، وربّ عائلة كبيرة أصله من ليمنوس[1] Lemnos . وكانت نفسه تذهب حسرات على جزيرته التي ولد فيها، والتي كان على وشك العودة إليها . يمتلك هؤلاء السادة مجموعة كبيرة من النراجيل الفارسية المخصصة لاستخدامهم الشخصي ولاستخدام زوّارهم؛ وإن ذلك النوع من النراجيل هو المستخدم في جدة.

---

(١) جزيرة يونانية تقع على مسافة واحدة تقريباً بين مدخل الدردنيل وشبه جزيرة مونت سانتو Monte Santo.

وأذكر لمن يهتمون بذلك أن هناك أنواعاً مختلفة من التراجيل، وأن لكل نوع اسمه الخاص: وإن أكبرها وأجملها الكدرة Kdra، التي ترتكز على ثلاثة قوائم، وهي من الفضة المصمتة المرصعة بطريقة فنية، ومجهزة بشبيق (بأنبوب) طويل لدن يُسَمّى: اللَيّ. ويدخن أصحاب الذوق الرفيع فيها تبغاً شيرازياً. أما النوع الثاني فيسمى: الشيشة، وهو يكاد / ١٦١ / يشبه الكدرة إلا أنه أصغر حجماً. أما النوع الأخير، وهو أكثرها انتشاراً، فهو ليس إلا جوزة هند مجوفة، مملوءة بالماء، شأنها شأن النوعين السابقين، ويقوم مقام اللّيّ فيها قصبة مثبتة فيها. واسمها العامي هو: البوري. ويستخدم الناس عموماً في الأنواع الثلاثة تبغاً قوي النكهة يسمى التنباك يأتي من بغداد والبصرة[١].

---

(١) انظر: **رحلات بوركهارت ....**، موثق سابقاً، ص ٣٤ – ٣٥. يقول: "وفي كل المقاهي يدخن الناس الشيشه Persian Pipe ويوجد منها ثلاثة أصناف مختلفة:

١. الكدرة Kedra وهي أكبرها وتكون فوق مرجل ثلاثي القوائم Tripod وهي مصنوعة ومزينة تزييناً أنيقاً وتوجد فقط في المنازل الخاصة.

٢. الشيشه وتسمّى في الشام أرجيلا وحجمها أصغر من الكدرة لكنها مثلها ترتبط بأنبوبٍ طويلٍ يُسَمّى "اللّيّ" ومن خلاله يَشْفط المدخن أو الحشاش الدخان.

٣. البوري ويتكون من جوزة هند مجَوَّفة غير مصقولة ويوضع فيها الماء، وقصبة سميكة تؤدي وظيفة الأنبوب "اللّيّ". ويكون هذا النوع من الشيشه الرفيق الدائم للطبقات الدنيا وكل ملاحي البحر الأحمر حيث يستعملونها بإسراف.

إن التبغ الذي يستخدم في الكدرة والشيشه يأتي من الخليج العربي وأفضل أنواعه يأتي من شيراز. ويأتي نوع أقل جودة، يسمى "التنباك"، من البصرة وبغداد، ولون ورقته أصفر باهت ومذاقه أقوى بكثير من التبغ العادي، ولذا فهو يغسل قبل الاستعمال =

كان الإخوة ساوة لطفاء، يتصفون بلين العريكة مع أنهم تجار: لقد زودوني مقابل فائدة قدرها خمسة بالمئة بكل النقود التي احتجتها بوساطة كمبيالة مدتها ثلاثة أشهر مسحوبة لدى م. حسون M. Husson في القاهرة، والذي استفاد كل الرحالة من خدماته الحميدة، والذي لقي في العام الماضي نهاية مؤسفة.

يكاد الحضارمة، والهنود على وجه الخصوص، يسيطرون تماماً على التجارة في جدة؛ الحضارمة شعب متزمت، ولكنه حرَفِي من اليمن، ومن أرباض عدن. وليس نادراً أن تجد ثروة أحد الهنود وقد بلغت ثلاثة أو أربعة ملايين فرنك: وإن أكثرهم غنى هذه الأيام رجل اسمه فراج يوسف؛ وهو يملك عشر سفن ذوات حمولة كبيرة.

= حتى يُخَفَّف من قوة مذاقه، أما التنباك الذي يستخدم في البوري فيأتي من اليمن، وهو من نفس فصيلة التبغ السابق إلا أنه أقل جودة. والتجارة في التبغ كبيرة جداً لأن استهلاكه في الحجاز كبير لدرجة يصعب تصديقها، وتشحن كميات كبيرة منه أيضاً إلى مصر. واستخدام الغليون العادي في الحجاز قليل، وأكثر من يستخدمه الجنود الأتراك والبدو. والتبغ يزرع في مصر، وفي سِنَّار ويُنقل منها إلى سواكن. وقليل جداً التبغ الشامي الفاخر المستورد عَبْر البحر الأحمر". وانظر كتاب: **التراث الشعبي ...،** موثق سابقاً، ص ٤٦، حيث يترجم من رحلة بيرتون قوله عن التدخين: "الشيشة في المدينة المنورة جوزة هند كبيرة بساق خشبية طويلة. وكلاهما — الجوزة والساق — مزين بزينة من النحاس الأحمر ولا يميزها عن "شيشة" مكة سوى اختلافات بسيطة. وهي، مثل "شيشة" مكة، توضع على حامل ثلاثي ولكنها غالباً ما تسقط منه وتنثر الجمرات والماء على السجاد. أما الخرطوش المعروف باسم الـ (لَيْ) فهو صناعة رئيسة في اليمن. ولعلية القوم في المدينة "شيشات" تركية وخراطيش إستانبولية ذات شكل رشيق مقارنة بما في مكة".

ويكاد ذلك الهندي يكون أسود اللون، ممشوق القامة، وقد وهب هيئة في غاية الظرافة، تبدو عليها قسمات اللطف والنباهة. وكان له ولد في غاية الملاحة، اسمه عبد القادر، لون بشرته يساوي في السواد لون بشرة والده، وكان يقف أمام والده وقفة احترام، ولا يجرؤ على الجلوس دون إذنه. وكان يلبس كلاهما / ١٦٢ / عباءة من الموسلين الأبيض، وثوباً طويلاً من حرير بلادهم. وقدما لي في شركتهم الكسكري وهو قهوة تصنع من قشور الحبّ، مضافاً إليها نكهة القرفة وكَبْش القرنفل، وإن ذلك عادة يمنية، وهو شراب في غاية السوء. لم أستطع أن أشرب كل ما قدم لي، ولم أستطع أيضاً تدخين تنباك الشيشه التي قدمت لي، لأنه كان ثقيلاً جداً، ويحرق الحلق. وإن مما يجدر ذكره أن الهنود متمسكون جداً بالمراسم الرسمية.

لابد لي، وأنا أضع اللمسات الأخيرة على هذه اللوحة الإنسانية التي طالت، أن أشير للذكرى فقط إلى قبطان المرفأ الذي لم يكن لي معه إلا علاقات سطحية، وإلى رئيس الشرطة، عبد الله أغا الذي لم أرد أن تكون لي معه أية علاقة، على الرغم من المبادرات التي خصني بها؛ وأخيراً عطا بيك، وهو طبيب عسكري شاب من إستنابول، كان يتحدث الفرنسية جيداً، ومسلماً صالحاً وكان يتركني فجأة عندما يسمع صوت المؤذن، حتى لو كنا في سياق حديث، ليتوضأ ويصلي في غرفة مجاورة.

إن الشخصيات المتنوعة التي سلطت الضوء عليها هي جميعاً من الأتراك والهنود واليونانيين، وكلهم غرباء عن البلد، في حين أنني جئت للقاء العرب في الجزيرة العربية. ولم أعرف من العرب معرفة قوية إلّا شخصاً واحداً في جدة، ولكنه عربي

خالص، وممثل لائق لأبناء جنسه، إنه الأنموذج الكامل لأبناء جلدته جميعاً . إنه خالد بيك بن عبد الله بن سعود، آخر زعماء الوهابيين[1] . / ١٦٣ / لقد حمل إلى مصر وهو مايزال في شبابه المبكر بعد موت أبيه، وانهيار عائلته، ونشأ في القاهرة برعاية محمد علي وتحت أنظاره. ثم عاد بعد فترة إلى الجزيرة العربية، وكان إبان رحلتي يقيم في جدة، ويعيش من النفقة التي خصه بها الباب العالي، بعيداً عن الأحداث. محكوماً عليه بالعزلة التامة. ترددت عليه بطيبة خاطر، وكنت أجد في بيته على الدوام

---

(١) كـذا يسميه ديديه: خالد بن عبد الله بن سعود، ويظن الباحثون أنه خالد بن سعود، وأن ديديه أخطأ مع أنه يتحدث عن الرجل حديث الواثق، وقد لقيه وقضى معه سحابة يوم كامل. انظر **ترجمة خالد بن سعود في الموسوعة العربية العالمية**، ج ١٠، ص ٩، وفيها أنه توفي في مكة المكرمة ١٢٧٦هـ / ١٨٥٩ م، وذكر الدكتور أبو علية في كتابه: **تاريخ الدولة السعودية الثانية**، ط ٤، ١٤١١هـ / ١٩٩١ م، ص ٣٣٦، أن خالد بن سعود تولى الحكم من ١٨٣٧م إلى ١٨٤١م / ١٢٥٤ – ١٢٥٧هـ. وتجمع المصادر على أنه كان صنيعة محمد علي، وكانت سلطته سلطة اسمية محدودة في ظل السيادة المصرية، وثارت في وجه خالد حركة مقاومة سعودية قادها الأمير السعودي عبد الله بن ثنيان الذي رجحت كفته وأيده أهل نجد، وذهب خالد إلى الأحساء، ثم إلى الحجاز بعد أن فشل في تجميع قوة تقف في وجه ابن ثنيان. انظر ترجمة خالد أيضاً في: **عنوان المجد في تاريخ نجد**، للشيخ عثمان بن عبد الله ابن بشر النجدي الحنبلي، تح. عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ ط ٤، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م، مج ٢، ص ١٤٠. وفي: **مثير الوجد في أنساب ملوك نجد**، للشيخ راشد بن علي الحنبلي بن جريس، تح. محمد بن عمر بن عبد الرحمن العقيل، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩ م، ص ١٢٧ – ١٢٨، وكتاب جبران شامية، **آل سعود ماضيهم ومستقبلهم**، ص ٧٠ – ٧١.

شيوخاً عرباً يأتون إليه من القبائل المجاورة وخصوصاً الهواري Haouari، إن أسعفتني الذاكرة، وكانوا يرون فيه ابن عبد الله وحفيد سعود أعظم زعماء الجزيرة العربية المعاصرة. لقد أحزنتني قصته وأعجبني شخصه: فهو محبب ومضياف، يجمع بين النبل والظرف، ونلمس من أحاديثه وفي تصرفاته أنه رجل يضم بين جوانحه قلباً كبيراً، وتسيطر عليه مسحة من الحزن الرقيق والنبيل الذي لا يمس أصوله الكريمة، ولا يضيره فيما آل إليه.

وعلى الرغم من أنه نشأ في الغربة، وأكل من بصل مصر، فإنه لم يكن أقل حنكة من أبناء دينه، وربما كان المستقبل يخبئ له مآلاً عظيماً في حالة الاضطراب التي تسود الشرق. كان وضعه يفرض عليه الحذر والتحفظ في كل أقواله وأفعاله. وخفت من أن يتعرض للشبهات إن شوهد بصحبتي غالباً، لأنه، وبسبب الظروف الحالية، / ١٦٤ / كانت السلطات العثمانية ترى أن لرحلتي هدفاً سياسياً كانت بعيدة كل البعد عنه. مع ذلك كنت أرغب في جعله يتكلم باستفاضة عن الوهابية، وعن أسرته وعن نفسه؛ ولم أرد لقاءه في بيتي احتراماً له، ولأنني لم أكن في البيت وحيداً، ولا في بيته؛ إذ من الممكن أن يُترصد بنا، فعرضت عليه أن نجتمع في بيت شخص ثالث، إنه بيت السيد دوكيه، حيث لن يسمعنا أحد، ولن يزعجنا أحد، فوافق على ذلك، ودام اللقاء طوال اليوم. ولما كانت السمات الحقيقية للوهابيين، والدور الذي كان لهم في الجزيرة العربية غير معروف جيداً فإنني سأوجز في بضع صفحات المعلومات التي متحتها من مصدر في غاية الأصالة والشرف، وسأكمل تلك المعلومات

بأخرى لا تقل عن الأولى ثقة وأصالة. وسأبدأ، لكي يندرج ما سيأتي في السياق المناسب، ببعض المعلومات عن الأشراف الذين ليس لدينا في أوروبا فكرة صحيحة عنهم، والذين يرتبط تاريخهم المعاصر ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الوهابيين.

الفصل الثامن

الأشراف والوهابيـون[1]

يعد الأشراف السلالة الوحيدة في العالم الإسلامي التي توارثت النبل كابراً عن كابر؛ فهم يعودون / ١٦٥ / بنسبهم إلى الحسن والحسين، ابني فاطمة، الابنة الوحيدة[2] للنبي محمد ﷺ. وهناك على امتداد العالم الإسلامي، حتى أعماق المغرب، عدد ضخم من الأشراف، يَدّعون النسب نفسه؛ ولكن أشراف الحجاز عموماً، ومكة على الخصوص ينظرون إلى أنفسهم، ويُنظر إليهم، على أنهم الأحفاد الحقيقيون للنبي محمد ﷺ، وأن نسبهم هو الأكثر أصالة، والأكثر توثيقاً. ولما لم يكن في الشرق أحوال مدنية فإن أشجار النسب تقوم مقامها، وتحفظ الأنساب بعناية كبيرة؛ لذلك يوطد الأشراف نسبهم بمستندات مؤكدة. إنهم مقسمون اليوم إلى فروع متعددة، لا يسمح دخول الغرباء فيها، وينتشرون في كثير من أنحاء الجزيرة العربية، وهم يعترفون بأنهم أقارب، ويعاملون بعضهم بحسب ذلك في المناسبات كلها.

---

(١) استخدمنا مصطلح الوهابيين بعد أن كثرت كتب أهل هذه البلاد ممن بدا لهم أن الكلمة تحولت إلى مصطلح يدل على أتباع الإمام محمد بن عبد الوهاب، يرحمه الله، ولم يعد له أي دلالة من الدلالات التي كان يذهب إليها أعداء الدعوة، أما الأشراف فقد استفاض في الحديث عنهم سنوك هورخرونيه في كتابه **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، موثق سابقاً، الجزء الأول.

(٢) ليست فاطمة هي البنت الوحيدة للنبي ﷺ وإنما كان له أخريات، ولكنها الوحيدة التي عاشت بعده، وأنجبت من زوجها علي بن أبي طالب ﷺ.

وإن كثيراً من هؤلاء الأشراف فقراء جداً ويعيشون على النفقة التي يدفعها إليهم الباب العالي، ولكن ذلك لا يمنعهم من الاعتزاز بالدم الأصيل الذي يجري في عروقهم، ويعدون أنفسهم، على الرغم من فقرهم المدقع، أرفع مقاماً من أعظم الباشاوات الأتراك.

يشكل أشراف مكة طبقتين رئيسيَّتين: أولئك الذين يعنون بالآداب والشريعة والعبادة، وبالتجارة، وأولئك الذين وقفوا أنفسهم على السلاح والأمور العامة. يطلق على الأولين اسم: سيد، أما الآخرون فهم الذين يحتكرون لقب الشريف[1]. ويتبع الأبناء عادة وضع آبائهم / ١٦٦ / وأضيف هنا خصوصية غريبة، وهي أن بنات الأشراف الذين يصلون إلى سدة الحكم محكوم عليهن بألّا يتزوجْن[2]. وكان الأشراف في الماضي يحكمون البلد وحدهم مستبعدين الطبقات الأخرى. وشهدت حياتهم السياسية تقلبات كثيرة. وأدوا في مكة الدور نفسه الذي أداه المماليك في مصر: فقد احتكروا كل المناصب المدنية والعسكرية، وكانوا يعدون أنفسهم الأجدر دون غيرهم

---

(١) ويقال إن السادة (جمع سيد) يعودون بنسبهم إلى الحسين بن علي ﷺ، وهم في مكة المكرمة مجموعة خاصة يتزعمها من تختاره، وتصادق الدوائر الحكومية على ذلك. ومنذ عام ١٨٨٥م صار يعينه الشريف أو الوالي أو من هو أقوى منهما. أما الأشراف فهم الذين يعود نسبهم إلى الحسن بن علي ﷺ؛ وهم أسر فصّل في أسماء أفرادها وأنسابهم هورخرونيه في كتابه **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، موثق سابقاً، ج ٢، ص ٦٥١ — ٦٥٣.

(٢) انظر **رحلات بوركهارت ...**، موثق سابقاً، ص ٢١٢.

بالسلطة، ويتصارعون عليها بينهم بالسلاح غالباً، ويجرون معهم إلى خصوماتهم الشعب والبدو المجاورين. وليس الحياد بمسموح. ينبغي، طوعاً أو كرهاً، مناصرة إحدى الأسر المتنافسة، والتعرض لأشد الأخطار، في فتن أهلية تتجدد على الدوام. كان يراق فيها الدم غالباً، وكان المنهزمون يجلون عن البلد حتّى يحدث انقلاب طارئ يغير وجه الأمور، ويعيدهم إلى مسرح السياسة من جديد.

كان ومازال لدى أشراف مكة المكرمة عادة أشرت إليها باختصار فيما سبق، وهي تستحق أن أذكّر بها. كان كل الأطفال الذكور للشريف الحاكم ينتزعون من أمهاتهم، ومن لين العيش بين النساء بعد ثمانية أيام من ولادتهم ويُعهد بهم إلى بعض قبائل الصحراء المشهورة بعلو قدرها، لينشأ بينهم، وحسب عاداتهم؛ ولا يعود هؤلاء الأطفال إلى أسرهم إلا عندما يبلغون العاشرة أو الثانية عشرة، وغالباً بعد ذلك / ١٦٧ / ولا يظهرون بين الناس للمرة الأولى إلاّ على متن الخيول إلى جانب آبائهم، وكأنهم رجال، لا أطفال. وينتج عن تلك التربية الرجولية والبطريركية أن الأشراف كانوا ومازالوا متفوقين أيضاً، قوة وشجاعة وصفاء قلب وعقل على بقية الناس. ويحفظ أولئك الأطفال إبان حياتهم كلها كثيراً من الود والاحترام لأسرهم التي نشؤوا في كنفها، وهم ينادونهم بقولهم: أبي وأمي وأخي، ويخاطبهم هؤلاء بذلك أيضاً. وهم يفضلونهم دائماً على آبائهم الحقيقيين الذين لا يعرفونهم، ولم يروهم أبداً، ولا يعتادون حياة المدينة إلا بصعوبة كبيرة؛ وكانوا يهربون في بعض الأحيان ليعودوا من جديد إلى المضارب التي نشؤوا بينها، ويتزوج كثير منهم من بدويات. إن هذه العادة قديمة في شبه الجزيرة العربية، تعود إلى ما قبل الإسلام، ويروى أن النبيﷺ تربى بهذه الطريقة في

قبيلة بني سعد . وتمتاز هذه الطريقة بأنها تساعد الأشراف منذ نعومة أظافرهم على إتقان لغة البدو وعاداتهم؛ وتُوجد بينهم علاقات تدوم طويلاً بين الأسر، وكانت فيما مضى تؤمن لمختلف الأطراف في مكة المكرمة أنصاراً شجعاناً ومخلصين[1] . لقد استطاعت بعض أسر الأشراف مع الزمن أن تتفوق على الأسر الأخرى بثرواتها، وعددها، ومناصريها من أهل الصحراء . وكان أقواهم إبان فترة طويلة أبناء قتادة[2] / ١٦٨ / الذين تنتمي إليهم أسرة بركات[3] التي ذاع صيتها في طول البلاد وعرضها،

(١) انظر **رحلات بوركهارت ....**، موثق سابقاً، ص ٢٠٩ – ٢١١.

(٢) قتادة بن إدريس، يعود نسبه إلى الحسن الثاني بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. كان يرأس أسرة استمرت طويلاً في تولي مقاليد السلطة، وذكر بوركهارت أن الأسرة كانت تقيم في وادي العلقميّة الذي يكوّن جزءًا من ينبع النخل، وتمكن من الاستيلاء على جميع المناطق التي تقع جنوب ينبع، والواقعة باتجاه مكة المكرمة التي كان يرنو إلى احتلالها، ولم يستطع سنوك هورخرونيه تحديد سنة دخوله مكة المكرمة وأورد ثلاث سنوات ميلادية وهي ١٢٠١ أم ١٢٠٢ أم ١٢٠٣، ثم ذكر الأزرقي في **أخبار مكة المشرفة** ٢ / ٢١٤ أن قتادة بن إدريس ولي مكة في سنة سبع وتسعين وخمس مئة، وقيل إن ولايته لمكة في سنة ثمان وتسعين، وقيل في سنة تسع وتسعين. قال مترجما كتاب **هورخرونيه** إن السنوات الهجرية المذكورة في نص الأزرقي تقابل السنوات الميلادية التي ذكرها المؤلف. وفي **أخبار مكة المشرفة** للأزرقي ٣ / ٨٣ "... وتمكن السيد قتادة من البلاد وذلك في سنة ٥٩٩هـ". واستمر قتادة في الحكم حتى قتل في ظروف غامضة في عام ٦١٧هـ. انظر: **صفحات من تاريخ مكة المكرمة ....**، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٧١ – ١٧٢ وتعليقات المترجمين، وانظر ص ١٧٧ – ١٧٨ أيضاً. وانظر: **رحلات بوركهارت ....**، موثق سابقاً، ص ٢٠٢ – ٢٠٣.

(٣) بركات بن حسن بن عجلان، حكم مكة بين عامي ٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م – ٨٥٩هـ / ١٤٥٥م تخللها فترات من الانقطاع، فاز بإمارة مكة خلالها بعض إخوانه. انظر: **صفحات من تاريخ مكة المكرمة ....**، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٩٩ وتعليقات المترجمين في الحاشية. وانظر: **رحلات بوركهارت ....**، موثق سابقاً، ص ٢٠٢ – ٢٠٣.

لأن أمراء مكة المكرمة كانوا خلال عدد من القرون منها . إن هذا المنصب يظل محصوراً في أسرة واحدة على الرغم من أنه ليس وراثياً؛ ولقد كان للشريف على الدوام، وينبغي أن يكون الأمر كذلك اليوم، خليفة، وهذا الخليفة إن لم يكن ولده فهو على الأقل من أهله المقربين، ويكون الخليفة عادة مَنْ ينتمي إلى الطرف الأقوى، الذي يحدده الرأي العام من بين كل الآخرين. وعندما يتولى الشريف المختار، زمام الأمور كائناً من كان، فإن السلطان يصادق على تعيينه دون إبطاء، ويتلقى من السلطان في كل عام خِلعَة ترسل له من إستانبول مع القفتانجي باشي[1] . وقد آل الأمر إلى أن اقتصرت سلطة الباب العالي على مكة المكرمة وملحقاتها؛ الطائف وينبع وبعض مدن الحجاز الأخرى، على استلام الخلعة السنوية، والدعاء للسلطان في الحرم خلال الصلوات العامة. لقد كان هناك، كما هي الحال اليوم، باشا تركي في جدة، ولكن سلطته كانت اسمية محضة، حتى إن أبا الشريف الأكبر ما قبل الأخير[2] استولى لنفسه على عوائد الجمارك الموجودة في هذه المدينة (جدة) باسم السلطان ولحسابه. وقد حدث الشيء نفسه للقاضي الذي يتم إرساله سنوياً من إستانبول لإقامة العدل، والذي أصبح يتقاضى أجراً بلا عمل لأن القضايا كلها تعرض على الشريف[3] .

---

(١) انظر: **رحلات بوركهارت ....**، موثق سابقاً، ص ٢٠١. وهو المسؤول الأول عن شراء الخلع أو الفرو التي تشترى من خزينة الدولة.

(٢) كذا وربما كان المقصود الشريف غالب الذي تولى شرافة مكة في سنة ١٧٨٥ أو ١٧٨٦م انظر: **رحلات بوركهارت ....**، موثق سابقاً، ص ٥٢، ٥٣، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٥.

(٣) انظر: **رحلات بوركهارت ....**، موثق سابقاً، ص ٢١٤.

إن حكومة الأشراف / ١٦٩ / تتفق في أشكالها البسيطة مع طبائع الصحراء. فلم يكن هناك في أكثر الفترات ازدهاراً أي حفلات عامة لتنصيب الأمير الجديد، ويقتصر الأمر على أن يستقبل الأسر الكبيرة التي تزوره، والتي تكون غالباً قد وقفت ضده، بينما تعزف فرقة موسيقية أمام بابه، كما هي العادة في بلاد إفريقيا، ويدعو له الخطباء في المساجد. يخاطبه أفراد رعاياه منذ لحظة استلامه للشرافة بـ "سعادتكم" وهو لقب احتفظ به الشريف الحاكم حتى اليوم، ويطلقه الناس أيضاً على كل الباشاوات؛ وعندما يخرج الشريف على حصانه، يكون إلى جانبه فارس يحمل مظلة؛ وليس في ثيابه ما يميزه في شيء من بقية زعماء أسر الأشراف، ومجلسه خالٍ من كل علامات الأبهة والفخامة، ولم يكن هناك مراسم أو شكليات تفصله عن الشعب. وكان البدو، ومازالوا، يدخلون إلى قصره كما يدخلون إلى خيمة أي شيخ عادي من شيوخهم، ويخاطبونه في أمورهم بكل حرية، وبعفوية لا تكاد تجدها إلا عند سكان الصحراء. وإن الشريف الأكبر أمير مكة المكرمة ليس في حقيقة الأمر إلا شيخ قبيلة أقوى من الشيوخ الآخرين، وإن سلطته، مع أنها أكثر اتساعاً من سلطتهم، لها الصفة نفسها، وتقوم على الأسس نفسها، وتنبثق عن المبادئ نفسها. والشريف عند نفسه ليس أقل قدراً من السلطان نفسه، ليس باعتباره أميراً، وإنما باعتباره شريفاً؛ أي سليلاً مباشراً للنبي ﷺ، وإن سلطته مع ذلك، ليست سلطة تيوقراطية كما / ١٧٠ / هو شائع في أوروبا؛ إنها سلطة دنيوية خالصة، تنتهي عند باب المسجد، وليس لها أي تأثير في مجال العقيدة والعبادة(١).

---

(١) انظر: **رحلات بوركهارت ....**، موثق سابقاً، ص ٢٠١ – ٢١٧؛ وانظر: **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٩٧ – ١٩٨.

ولا تقوم هذه الحكومة بالطبع على أي دستور؛ لأن له أساساً أكثر صلابة: فهي تصدر عن الشعب، وباعتبار أنها نشأت على هذه الأرض فإنها وطنية، ومتناسبة كل التناسب مع طبائع البلد وآراء أهلها؛ ولهذا استمرت قروناً طويلة. لقد كانت بالتأكيد سبباً في ظهور كثير من الدسائس، وكثير من التجاوزات؛ ولكن أي حكومة يمكن القول: إنها تخلو من كل ذلك؟ كان من النادر أن تترك الأسر المنافسة للأسرة الحاكمة الأمير الجديد يعتلي منصبه دون مناصبته العداء؛ بل إن أقاربه المقربين يتّحدون في بعض الأحيان مع أولئك المنافسين، ويقومون جميعاً، بعد تنصيب الشريف الجديد، بتشكيل معارضة تتناسب مع قوتهم. ولكن المهزومين يكتفون في غالب الأحيان بالعيش منعزلين، يبدون استياءهم من كل شيء على هواهم، دون أن يتعرضوا لأي اضطهاد.

كانت الأطراف كلها تخوض هذه الحروب الأهلية، وهي تحافظ على قدر كبير من الإنسانية والاستقامة، كما هي الحال في كل حروب الصحراء، ولم يكن يتبع النصر أي مظهر من مظاهر الانتقام.

إن طباع العرب رضيّة، ويتجلى كرمهم الفطري في كل شؤونهم العامة والخاصة. ويمكن لنا الافتراض أن الأشراف من ذوي الحظوة، والذين يتقلدون المناصب لم يكونوا على الدوام يحسنون التصرف بمخصصاتهم المالية، وأن الأهواء الشخصية كانت تؤدي دوراً / ١٧١ / في تصريف الأمور، ولكن الأمور بهذا المنظور لم تكن تتم بشكل أكثر سوءًا مما كانت عليه في الأنظمة الملكية الأوروبية في العصر نفسه، ناهيك عن الملكيات الأخرى.

لقد فقد ذوو بركات نفوذهم في القرن الثامن عشر الميلادي، ووجدوا أنفسهم بعد نضال طويل مجبرين على التخلي عن الشرافة لذوي زيد[1] الذين لم يتخلوا عنها حتى اليوم. وقد هاجر بعض من ذوي بركات إلى اليمن، وتفرق الآخرون في أودية مختلفة من الحجاز.

تولى مساعد الشرافة لمدة عشرين عاماً من عام ١٧٥٠م إلى عام ١٧٧٠ م، ومساعد هو جد آخر شريف، وأول أو واحد من أوائل أمراء السلالة الجديدة[2]، وكان عليه أن يناضل على الدوام، لمواجهة الاضطرابات التي يثيرها الأشراف الذين أكسبتهم الاضطرابات السابقة طبعاً متمرداً؛ ولكنه لم ينجح إلاّ فيما ندر بالتغلب عليهم، وآلت الشرافة بعد موته، إلى حسين الذي كان أحد أقربائه، ولكنه كان في كل

---

(١) الشريف زيد بن محسن يعود نسبه إلى محمد أبي نمي حكم بين (١٠٤٠ – ١٠٧٧هـ / ١٦٣١ / ١٦٦٦ م)، ولد في الجنوب بوادي بيشه، وأمضى معظم شبابه هناك، فقد كان أبوه يعيش في منفاه الاختياري هناك. كان ذا جسم قوي يشبه "قتادة"، وكان يرى أن الرقابة الأجنبية عشب ضار، لا بد من استئصاله، وكان يكره الأتراك. انظر: **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، موثق سابقاً، ج ١، ص ٢٢٧ وما بعدها ص ٢٣٥. وقد فقد ذوو زيد السلطة في عام ١٠٨٣هـ / ١٦٧٢م واستعادوها في عام ١١٧٣هـ / ١٧٦٠م وطردوا إلى الأبد ذوي بركات عن المسرح السياسي وأشهر أشراف ذوي زيد هما سرور وغالب ابنا مساعد. انظر المرجع السابق، ج ١، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠.

(٢) يعني ذوي زيد، انظر شجرة النسب الثالثة في كتاب: **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، موثق سابقاً، ج ٢، ص ٦٥٣.

مناسبة أحد أشد مناوئيه. وقد قتل حسين[1] في أثناء حرب ضد أحد أبناء مساعد واسمه سرور الذي خلفه في الشرافة عام ١٧٧٣ م. يمكن مقارنة ما قام به سرور في الحجاز بما قام به لويس الحادي عشر[2] Louis XI أو ريشيليو[3] Richelieu في فرنسا . لقد حطم سرور صلافة الأشراف، وفي بعض الأحيان رؤوسهم، وجعلهم يعيشون كبقية الناس. وكان ممّا جرّأهم على التمرد الدائم والعنف، أنهم كانوا متأكدين من أنهم لن يعاقبوا عليه، لقد كانوا يشعرون بسبب ضعف بعض الأمراء، أنهم فوق القوانين، وأصبح تهورهم بلا حدود. لقد أوجدوا لأنفسهم / ١٧٢ / موارد مادية جديدة، لم تكن مألوفة في مكة المكرمة، وادعوا بغير وجه حق أن لهم حقوقاً مبالغاً فيها، مما شكل عبئاً على السكان؛ ناهيك عن أنهم كانوا يبتزّون منهم أموالاً طائلة، وكذلك من الحجاج الأجانب، ولم يكن لديهم أي رادع يمنعهم من سلب القوافل؛ كما كان النبلاء الأوروبيون يسلبون التجار والمسافرين في القرون الوسطى. كانوا، شأنهم شأن نبلاء أوروبا، يمتلكون في منازلهم التي تحولت إلى قلاع، حاميات

---

(١) حكم حسين بعد موت مساعد (١٧٦٩ أو ١٧٧٠ م) إلى عام (١٧٧٣ أو ١٧٧٤ م) وقتل حسين في أثناء حرب نشبت بينه وبين الشريف سرور بن مساعد.

(٢) لويس الحادي عشر (١٤٢٣ — ١٤٨٣ م)؛ ملك فرنسا من عام (١٤٦١ — ١٤٨٣ م) عمل على تقوية فرنسا وتوحيدها بعد حرب الأعوام المئة.

(٣) Richelieu, Armand Jean-du Plessis = ريشيليو، أرمان جان دو بليسيس (١٥٨٥ — ١٦٤٢ م): كاردينال وسياسي فرنسي كبير وزراء لويس الثالث عشر، والحاكم الفعلي لفرنسا (١٦٢٤ — ١٦٤٢ م).

عسكرية مؤلفة في معظمها من العبيد السود المدججين بالسلاح، يدعمهم البدو المخلصون لأسرتهم. لقد قضى سرور على دابر الفساد المستشري، الذي يخالف العدالة، ويعارض المساواة. ووقف الأشراف في وجهه بالقوة، ولكنهم هُزموا هذه المرة: فقتل أشراف كثيرون في الحرب، بينما تم إعدام آخرين، وجلا الآخرون، وحل النظام والسكينة في المدينة، بعد خروجهم منها. لقد نجح سرور في مشروعه الصعب بفضل حيوية طبعه، ومساعدة سواد الناس من أهل مكة الذين كانوا إبان فترة طويلة مضطهدين بنظام الأشراف الإقطاعي الذي لا يقف عند حد[1].

لقد ظل سرور حتى نهاية حياته، يتمتع بشعبية يستحقها، بفضل ما كان يتمتع به من مزايا انفرد بها: كان في غاية الاعتدال، وكان يعيش ببساطة شأنه شأن أي إنسان عادي. كان من الشجعان المجربين، وكان كريماً يعطي بلا حدود، وكان يعدل بين الناس دون / ١٧٣ / تمييز، وبحكمة صارت مضرب الأمثال. ومع أنه كان قاسياً في أفعاله خلال فترة حكمه، فإنه كان كريماً حتى مع أعدائه الشخصيين: يقال إنه اكتشف مرة مؤامرة لاغتياله في أثناء طوافه الليلي في شوارع مكة المكرمة؛ فاكتفى بنفي المتآمرين. لقد نظّم النواحي المالية، وألغى كل الضرائب العشوائية. وكان يموّل من حسابه الخاص حامية كثيرة العدد مؤلفة من البدو والعبيد الأفارقة أو الأحباش

(١) انظر: **رحلات بوركهارت ...**، موثق سابقاً، ص ٢٠٤ – ٢٠٥. وقد حكم الشريف سرور من (١٧٧٣ – ١٧٨٨م / ١١٨٦ – ١٢٠٢هـ). أما غالب فحكم من (١٧٨٨ – ١٨١٣م / ١٢٠٢ – ١٢٢٨هـ). انظر **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، موثق سابقاً، ج ١، ص ٢٥١.

الذين كانوا يعملون باستمرار في خدمته. وأقصى اليهود عن جدة بعد أن أصبحوا مكروهين بسبب غشهم وخداعهم، ولقد خلف موته حزناً شاملاً؛ إذ شيعته مكة المكرمة كلها إلى مثواه الأخير، ومازال أهلها يُجِلّون ذكراه، وكأنه أحد أولياء الله الصالحين[1].

ظل سرور في الحكم أربع عشرة سنة. ومع أنه خَلّف ولدين؛ كلاهما يصلح لخلافته، كان أحدهما، عبد الله، شجاعاً حتى التهور، فإن أحد أعمامه عبد المعين استولى على السلطة، ولكنه فقدها في غضون بضعة أيام، واستولى عليها غالب؛ وهو أخ آخر لسرور، أصغر من عبد المعين، كان منذ زمن طويل يتمتع بشعبية كبيرة بسبب ما عرف عنه من شجاعة، وقدرة على الإقناع، وأساليب مغرية. كان ضخماً، وكان له على غير عادة العرب شهية متناسبة مع قامته: فقد كان يشرب كل صباح في فطوره دلواً من الحليب؛ / ١٧٤ / ولم يكن يشعر بالرهبة أمام خروف كامل. كان ذا صوت جهوري، وبارعاً في ألعاب القوة الجسدية، حتى إنه كان يقذف الجريدة بمهارة وقوة قلّ نظيرهما. وكان يُعد من ذوي المعرفة، وله معرفة بالطب، ولكن ذلك كله لم يرفع من شأنه لدى البدو. وقد أكد لي الأشخاص الذين عرفوه، أنهم لم يروا أبداً هيئة تنضح بالذكاء والروحية كهيئته. أوتي قدراً متساوياً من الفطنة والفصاحة، وقد كان من الصعوبة بمكان مقاومته، عندما كانت مصلحته تقتضي أن يمارس الإغراء.

لقد كان أقل الأشراف – الأمراء الذين حكموا الحجاز حتى اليوم خصوماً، ولا شبيه له في ذلك، وكان أكثرهم رسوخاً، وحزماً، وجنى هانئاً ثمار الإدارة البارعة

---

(١) انظر رحلات بوركهارت ....، موثق سابقاً، ص ٢٠٥.

والجادة التي اتبعها أخوه سرور؛ لقد كان أكثر حظاً من سابقيه إذ لم يواجه نزاعات حادة مع الأشراف إبان العشرين سنة التي حكم خلالها، واستقل تماماً عن الباب العالي؛ فقد استولى، كما ذكرت سابقاً، على واردات جمارك جدة التي كان ينبغي أن يقتسمها مع السلطان، أمّا واردات جمارك ينبع فكانت حصته وحده، وكان يرسل إلى تلك المدينة لجمع تلك الأموال حاكماً يخلع عليه لقباً طناناً هو: الوزير.

وكان القسم الأعظم من موارده يأتي من هذين المصدرين. وكان، ناهيك عن ذلك، يفرض ضريبة على المؤن المجلوبة من المناطق الداخلية إلى جدة، / ١٧٥ / وعلى المواشي أيضاً. ولم يكن يفرض على سكان المدن التي يسيطر عليها أي ضريبة أخرى، لا على أملاكهم، ولا على أنفسهم، وإن سورية ومصر لم تتمتعا بمثل هذا الامتياز الضرائبي. أما الحجاج الفرس الشيعة فقد كانوا يخضعون لضريبة رأس كانت بالطبع تذهب إلى خزينة الشريف غالب، زد على ذلك الهدايا القيّمة التي تقدم له، ناهيك عن أن الهدايا التي كانت مخصصة للمساجد لم تكن تصل إلى وجهتها إلاّ بعد أن يأخذ منها جزءاً كبيراً، وكانت المبالغ المرسلة من إستانبول لمكة والمسجد الحرام يظل معظمها تحت تصرفه.

كان سرور يعمل في التّجارة، وكان يتّجر كثيراً مع اليمن، أمّا غالب فقد كان له تجارة أكبر أيضاً مع بلاد مختلفة، وخصوصاً مع بومباي، كان يكدّس في مخازنه، باعتباره تاجراً ومالكاً، من البضائع والمؤن ما يكفي لرفع الأسعار، فيحقق أرباحاً ضخمة، دون أن يرى في ذلك ضرباً من الاحتكار، شأنه في ذلك شأن باشا مصر.

كان غالب بخيلاً لا يفكر إلاّ في زيادة ثروته؛ وكانت كل الوسائل تبدو له مواتية لبلوغ ذلك، فقد كان الجانحون، حتى المجرمون يشترون حياتهم بمبالغ كبيرة يدفعونها له نقداً؛ وكان يفرض على أبسط المخالفات غرامات كبيرة، وإذا كانت الدماء لم ترق خلال فترة حكمه، فإننا لا نستطيع قول الشيء نفسه / ١٧٦ / عن الذهب الذي كان يتدفق إلى خزائنه من كل الجهات وبكل الوسائل.

وقد سمعت الناس يقدرون عوائده بـ ٦ أو ٧ مليون فرنك، ولم يكن ينفق منها على بيته إلاّ خمس مئة ألف. لقد كان يموّل جيشاً دائماً يبلغ عدده أربع أو خمس مئة من العبيد الذين يتّم اختيارهم من بين عبيده أنفسهم، ومن البدو الذين يتّم تطويع غالبيتهم في نجد وفي اليمن وفي جبال عسير. وكان يقود هذا الجيش عدد من الأشراف، ويعسكر في مكة المكرمة، وفي جدة، وفي مدن الحجاز الأخرى.

وكان هذا العدد يزداد في أيام الحرب، بقدوم مشايخ الصحراء الذين كان عليهم وعلى قبائلهم أداء الخدمة العسكرية لأمير مكة المكرمة، كما كان يفعل ذلك المقْطَعون[1] Vassaux في القرون الوسطى تجاه أسيادهم الإقطاعيين. لم يكن لهم مرتبات محددة، ولكن الأمير كان يبقيهم في خدمته بتقديم الهدايا، وكان يترك لهم نصيباً من غنائم الحرب. وكان يسلك الطريقة نفسها مع الأشراف الآخرين الذين ينضمون إليه، والذين كان عددهم كبيراً، وقد كان بذلك لا يرهق ميزانيته.

---

(١) Les Vassaux = المقْطعون؛ هم أشخاص كان السيد الإقطاعي يقطعهم أرضاً لقاء تعهّدهم بتقديم الخدمات له. (عن المنهل).

لقد زجّ غالب نفسه في حرب الوهابيين؛ وانضوى تحت لوائه في بعض الأحيان ما يقارب عشرة آلاف رجل؛ وهي قوة ضخمة بالنسبة إلى البلد. كان جنود المشاة مسلحين ببنادق الفتيلة[1] Mosquets، وبالخناجر؛ أما الفرسان فقد كانوا يتقلدون الرماح: ولم يكن هناك أي نظام تتبعه تلك القوات التي يتم تشكيلها بطريقة ارتجالية. وعندما تنتهي الحملة العسكرية يأوي كل واحد / ١٧٧ / إلى خيمته، ويظل هناك حتى حصول حملة جديدة. من المفترض أن للشريف – الأمير سلطة على كل القبائل المنتشرة في صحراء الحجاز؛ ولكنه لا يمارس على تلك القبائل إلا سلطة أدبية، مع أنها تعد خاضعة لسلطته، وليس لذلك أي قانون محدد. ولمّا كان بين القبائل منافسات مستمرة، فإن الشريف – الأمير كان يستخدم هذا الأمر للحفاظ على سلطته، مستفيداً من خلافاتهم، وداعماً بالتناوب، وحسب المصلحة في تلك الفترة، هذه القبيلة أو تلك.

لقد كانت سياسة الأشراف على الدوام تقوم على مداهنة البدو لكسب ودهم؛ إنه الحكم البطريركي بالمعنى الحقيقي للكلمة، كما كان سائداً في المجتمعات البدائية.

لم يخرج غالب عن هذا التقليد، واتخذ من هذه السياسة أساساً لحكمه. لقد نشأ بين البدو، شأنه شأن أبناء الأشراف كلهم، وكان يبدي اهتماماً فائقاً بأسرته التي نشأ عندها، وكان يعاملهم على رؤوس الأشهاد، باحترام فائق. وكان البدو جميعاً،

---

(١) Mosquets = بنادق الفتيلة (وهي بنادق من نوع قديم كانت تطلق بفتيلة ملتهبة) (عن المنهل)، وانظر: **رحلات بوركهارت ....**، موثق سابقاً، ص ٤٠٧.

كائناً من كانوا، يجدون منه استقبالاً لطيفاً؛ وكانوا ينزلون في قصره كما ينزلون في الفندق أو الخان، يسكنون، ويأكلون، ويعيشون على هواهم، وعندما يعزمون على مغادرة منزله، كان يأمر بأن تملأ غراراتهم بالمؤن اللازمة للعودة. / ١٧٨ / كان حكم غالب معتدلاً وشمولياً؛ ولم تكن له قسوة سرور، ولكنه لم يكن يدانيه في إقامة العدل. لقد كان غالب بطبعه معتدلاً، وكان يتجاوز بسهولة عن الأخطاء، ولم يكن يضطهد أحداً، حتى أعداءه المعلنين الذين كانوا يقيمون بسلام في مكة المكرمة دون أن يزعجهم بشيء. ولم يكن يتورع عن ابتزاز أموال أهل مكة، إلا أنه كان يحفظ عليهم أنفتهم التي لم تكن أمراً هيناً؛ وكانت إهاناته تنصب على الجماعة، ونادراً على الأفراد. كانت عامة الشعب تتمتع بحرية تصل في غالب الأحيان حد الفوضى، وحتى إن المشاجرات بالعصي بين الأحياء كانت تستمر عدة أسابيع دون أن تتدخل الشرطة. لقد كان غالب، على الرغم مما يقوم به من ابتزاز، محبوباً من أولئك الذين لم يكن لديهم ما يخسرونه، وقد أسف عليه الناس كثيراً.

لقد تولى السلطة[1] في ١٧٨٦م واحتفظ بها هانئاً ما يقارب خمسة عشر عاماً، وكان يمكن أن يحتفظ بها طوال حياته لو لم تقع أحداث غير متوقعة وضعت حداً لحياته السياسية، وأفسدت عليه آخر أيامه في السلطة. أقصد بذلك ظهور الوهابيين ودخولهم الحجاز.

---

(١) في أغلب المصادر أنه تولى سنة ١٢٠٢هـ / ١٧٨٧ م. انظر **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، موثق سابقاً، ج ١، ص ٢٥١؛ وانظر: أحمد زيني دحلان: **خلاصة الكلام ...**، موثق سابقاً، ص ٢٧٨؛ وفؤاد حمزة، **قلب جزيرة العرب**، ص ٣٢١ – ٣٢٢؛ وابن بشر: عنوان المجد ١ / ٣٣٨ – ٢٨٣؛ وحاشية مترجمي **رحلات بوركهارت ...**، موثق سابقاً، ص ٢٣.

يرجع ظهور الوهابية[1] إلى منتصف القرن / ١٧٩ / الماضي (الثامن عشر)، ومؤسسها هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب[2]؛ وهو عربي من نجد، رجل علم جليل، تجول في أنحاء الإمبراطورية المختلفة[3]، وحَزِن لما رآه من فساد عقيدة المسلمين، ولما لاحظه من مفاسد أُدرجت ضمن العبادة، وخصوصاً لدى الأتراك. وقرر حينئذ أن يقوم بإصلاح ديني عرض مسوغاته في عدد من كتبه. لقد اتخذ من القرآن الكريم وحده أساساً لإصلاحاته بغض النظر عن كل الشروح، وكل البدع التي تشوه في نظره

---

(١) يبدو أن ديدييه يعتمد اعتماداً أساسياً على ما ذكره بوركهارت في كتابه: **ملاحظات عن البدو الوهابيين** Notes On The Bedouins and Wahabys, London, 1831. وقد ترجم قسماً من هذا الكتاب الدكتور عبد الله صالح العثيمين، ونشره بعنوان: **مواد لتاريخ الوهابيين**، ط ٢، الرياض، ١٤١٢هـ / ١٩٩١ م، ويكرر ديدييه بعض الأخطاء التي وقع فيها بوركهارت وأشار إليها الدكتور العثيمين وسنشير إليها بدورنا معتمدين على ما ذكره الدكتور العثيمين في حواشيه، مضيفين إلى ذلك ما يحتاجه توثيق نص ديدييه (وسنشير إلى كتاب بوركهارت الذي ترجم قسماً منه الدكتور العثيمين بـ **مواد ...**).

(٢) قال الدكتور العثيمين في: **مواد لتاريخ الوهابيين**، موثق سابقاً، ص ٩، الحاشية (٢): "الصحيح أن اسمه محمد بن عبد الوهاب. وكان نيبور أول أوروبي تكلم عن الشيخ وسماه خطأً عبد الوهاب. انظر كتابه: Travels Through Arabia And Other Countries in The East, Translated into English by R. Heron, Edinburgh, 1792, Vol. II, P. 131. ولعل بوركهارت نقل اسم الشيخ عن نيبور. وبما أن اسم الشيخ محمد فقد أورد صحيحاً في الترجمة أينما ذكر". وأقول: ثم جاء ديدييه ونقل عن بوركهارت اسم الشيخ خطأً، وهذا ما يرجح أنه ينقل عنه. انظر مقدمتنا لهذه الترجمة.

(٣) في: **مواد ...**، موثق سابقاً، ص ٩ – ١٠ "... زار عدة مدارس في مدن الشرق الرئيسية، كما هي عادة أهل بلده حتى الآن ..." وعلق الدكتور العثيمين في ص (١٠) الحاشية (٢): "أول من أشار إلى سفر الشيخ إلى عدة بلدان مهمة في الشرق؛ خاصة بلاد فارس، هو نيبور. انظر كتابه المذكور سابقاً، ج ٢، ص ١٣٢. والمرجح أن الشيخ لم يسافر إلا إلى الجهات التي ذكرها أقاربه وتلاميذه وهي: الحجاز والأحساء والبصرة".

صفاء الفطرة الأولى، ثم بدأ يدعو إلى العودة بالإسلام إلى مبادئه الأصلية، وإلى الإيمان بالوحدة المطلقة لله عز وجل. وكان انطلاقاً من ذلك يحرّم أن ينظر إلى النبي ﷺ بأي صفة أخرى عدا أنه إنسان، وأنه لا ينبغي تقديسه ولا التوسل إليه مباشرة. وأبطل عبادة الأولياء التي اكتسبت أهمية كبرى في كل الأديان؛ وأعلن أن الزكاة والعدل واجبان ضروريان شأنهما شأن الصلاة، ونهى عن اتباع البدع التي رآها سائدة لدى العثمانيين، وأوصى بالورع والتقشف مستخدماً في الدعوة القوة التي منحه إياها سخطه على الأوضاع، وقد بلغ به التشدد أنه حَرّم على أتباعه التدخين[١].

ويمكن مقارنة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالمصلحين الذين ظهروا في أوروبا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر لقد كان يجمع بين صفات / ١٨٠ / كالفن[٢] Calvin وسافونارولا[٣] Savonarola.

---

(١) ذكر الدكتور العثيمين في: **مواد ...**، موثق سابقاً، ص ٢٥، الحاشية (١) "حرّم أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب تدخين التبغ على أساسين: أحدهما أنه يسكر؛ خاصة إذا دخّن بعد فترة طويلة من الامتناع عن تدخينه، وثانيهما أنه يسبب رائحة خبيثة، والخبائث محرّمة بنص القرآن الكريم". انظر: **مجموعة الرسائل والمسائل النجدية**، القاهرة، ١٣٤٦هـ، ج ١، ص ٦٥٢. وانظر: **الحركة الوهابية في عيون الرحالة الأجانب**، بقلم لي ديفيد كوبر، وجورج رينتز، ترجمة وتعليق أ. د. عبد الله بن ناصر الوليعي، د. ن، الرياض ١٤١٧هـ / ١٩٩٧ م، ص ٥١، ٩٥. "وسنشير إليه بـ **الحركة الوهابية في عيون ...**".

(٢) جون كالفن John Calvin ، لاهوتي فرنسي، مؤسس المذهب الكالفني. نشر راية الإصلاح البروتستانتي في فرنسا ثم في سويسرا عاش بين عامي ١٥٠٩م — ١٥٦٤ م.

(٣) جيرولاموا سافونارولا Girolamo Savonarola (١٤٥٢ — ١٤٩٨ م) راهب ومصلح ديني إيطالي. شن حملة على الفساد الأخلاقي الذي عرفته الكنيسة في عصره.

إن محمد بن عبد الوهاب لم يؤسس، مهما قال عنه أعداؤه، لا مذهباً جديداً، ولا عبادة جديدة، ولكنه دعا إلى أن يقوم ذلك كله على القرآن، كما كان لوثر[1] Luther وهوس[2] Huss يدعوان إلى الاعتماد على الكتاب المقدس. وليس بمستغرب أن دعوته إلى الأصالة لم تعجب الأتراك الذين كانوا يراقبونه، وكانوا لا ينون يتبعون استراتيجية تشويه مذهبه لكي يتمكنوا من الافتراء عليه.

ولما استفتى باشا مصر علماءها رأيهم في الدعوة الوهابية أقروا أنها دعوة سنية، وأضافوا: أنه إذا كان ما عرض عليهم هو حقيقة الوهابية فهم أنفسهم وهابيون[3] ومهما يكن من أمر فإن المصلح العربي، لم يلق إلا نجاحاً بسيطاً في دعوته إبان حياته؛ لأن الشرق أكثر تمرداً من الغرب أيضاً في وجه الإصلاحات. ولما أنجز أسفاره، وعزم على العودة إلى وطنه، استقر مع أسرته في إحدى مدن نجد المسماة الدرعية التي أصبحت عاصمة الإصلاح في الإسلام. وكان أهم شخصيات هذه المدينة حينئذٍ هو محمد بن سعود الذي تزوج ابنة الشيخ واتبع دعوته[4].

---

(١) مارتن لوثر Martin Luther (١٤٨٣م – ١٥٤٦ م) راهب ألماني تزعم حركة الإصلاح البروتستاني في ألمانيا.

(٢) جون هوس John Huss (١٣٧٣؟ – ١٤١٥) مصلح ديني تشيكي اتهم بالهرطقة فأعدم حرقـاً.

(٣) قارن بما يذكره بوركهارت في: **مواد لتاريخ الوهابيين**، موثق سابقاً، ص ٢٣ – ٢٤، وانظر: **الحركة الوهابية في عيون ....**، موثق سابقاً، ص ٩٦ – ٩٧.

(٤) قال الدكتور العثيمين في: **مواد لتاريخ الوهابيين**، موثق سابقاً، ص ١٠ الحاشية (٥): "لم تذكر المصادر المقربة من الشيخ زواج محمد بن سعود بابنة الشيخ محمد. ومن المعروف أن الشيخ قد تزوج عمة الأمير عثمان بن معمر، وأن عبد العزيز بن محمد=

وكان محمد بن سعود الذي اتخذ لقب الأمير، أول أتباع الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وكان مؤسس الإصلاح السياسي، بينما كان والد زوجته مؤسس الإصلاح الديني. وقد خلف محمد بن سعود على الإمارة لمتابعة الرسالة، ابنه عبد العزيز الذي اغتيل في عام ١٨٠٣ م، ثم خلفه سعود بن عبد العزيز[1] وحفيد محمد بن سعود الذي شهدت في عهده الدعوة الوهابية التي اتبعها جده انتشاراً واسعاً.

إن السلطة الدنيوية في الإسلام، مرتبطة بإحكام بالسلطة الروحية، حتى إنه / ١٨١ / لا يمكن الفصل بينهما. فليس القرآن كتاباً دينياً فقط، بل هو أيضاً شرْعة سياسية، ومدنية تنظم علاقات البشر كلهم، وتُستَخدم أساساً للمجتمع، ولآلياته كلها: فالعدالة، والقصاص، والزواج، والإرث تستمد كلها أحكامها من القرآن، ويكاد كل شيء يكون محدداً بالمبادئ الإلهية. ولا نستطيع تعديل أي مادة دون أن نهدم بذلك الصرح كله.

= ابن سعود قد تزوج ابنة الأمير عثمان". وذكر في الحاشية (٤) من الصفحة نفسها أنه "من المعلوم أن دعوة الشيخ محمد لقيت قبولاً لدى بعض النجديين وهو في بلدة حريملاء. وكان أول من أيده من أمراء نجد عثمان بن معمر، أمير العيينة. لكن زعيم بني خالد، حاكم الأحساء الذي كان له نفوذ على عثمان ضغط عليه، فاضطر الشيخ إلى الانتقال من العيينة إلى الدرعية حيث قام معه الأمير محمد بن سعود وأيده. انظر تفاصيل ذلك في كتاب: الشيخ **محمد بن عبد الوهاب: حياته وفكره لعبد الله العثيمين**، دار العلوم بالرياض، ١٣٩٩هـ، ص ٤١ – ٥٠ ".

(١) ولد سعود سنة ١١٦١هـ وتوفي سنة ١٢٢٩هـ / ١٨١٤م وبذلك كان عمره ثمانية وستين عاماً حسب التاريخ الهجري. انظر: **عنوان المجد**، طبعة وزارة المعارف الأولى، ١٣٨٧هـ، ج ١، ص ٣٠ و ١٧٤. عن حاشية **مواد ...**، موثق سابقاً، ص ٣١، حاشية (٢).

لقد كان الوهابيون، وسعود على رأسهم، يأملون، وهم يدعون إلى العودة إلى المفهوم الأصلي للإسلام، وإلى جوهر الشريعة الإسلامية، كانوا يأملون، وقد حققوا ذلك، بأن يقيموا في الجزيرة العربية دولة تترك لكل قبيلة حرية حركتها، وحياتها الفردية، وتتوحد جميعاً تحت سلطة عليا لشريعة مشتركة مصدرها القرآن؛ أي الذات الإلهية نفسها؛ لتنتقل من الفوضى إلى النظام، وينبغي على الفرد أن ينضوي تحت لواء المصلحة العامة. أما الخصومات الخاصة التي كان حلها متروكاً للمصادمات الدموية الناشئة عن قتال يتجدد باستمرار، فقد أصبحت اليوم تعرض على محكمة عليا، ليس لها أي مصلحة في القضايا المتنازع عليها، وكانت كل أوامر الله عز وجل، عبادة الله، والله وحده، والزكاة، وصرامة الطبائع، وبساطة الثياب، كل ذلك، كان يطبق دون أي تهاون.

كان عدد كبير من البدو، يعيشون في جهل مطبق بأبسط المفاهيم الأولية / ١٨٢ / للشريعة الإسلامية، مع أنهم ولدوا قريبين كل القرب من مهد النبي محمد ﷺ، وكانت عبادتهم تكاد تقتصر على التكرار الآلي والدوري للصيغة التي تلخص شريعة الإسلام "لا إله إلا الله محمد رسول الله". وكانوا يجهلون كل شيء غيرها. أمّا أولئك الذين كانوا يعرفون أكثر من ذلك بقليل، فإنهم لم يكونوا يطبقون أي شعائر دينية؛ فإن نصحتهم بالوضوء، أجابوا أنه لم يعد لديهم ماء للقيام بذلك، وإنْ حدثتهم عن وجوب

صيام رمضان، فإنهم يعفون أنفسهم من ذلك قائلين: إنه ليس من الضروري فعل ذلك، لأنهم يصومون طوال السنة. ولم يكونوا أكثر حماسة للصلاة. وإن قلت لهم إن الله عز وجل قد أمر بها يجيبون: "إننا لم نسمع ذلك"؛ وإن أضفت قائلاً: إن أوامر الله عز وجل محفوظة في القرآن الكريم، ردّوا عليك بالقول: إنهم لا يحسنون القراءة. إذاً لقد كان شأن دين أكثر الناس جهلاً، شأن دين أولئك الذين هم أكثر اطلاعاً؛ إذ يقتصر على التأليه الغامض دون عقائد ولا عبادات. بل إن عدداً كبيراً منهم، لم يكن يمتلك ما يكفي من الوعي؛ فكان يقضي حياته في شرك عميم(١).

ومازال في الجزيرة العربية حتى اليوم، بعض من يجاهرون بكفرهم، ولم أعرف السبب الذي يدعو الناس هنا إلى تسميتهم بالماسونيين(٢) Francs-Maons.

تقدم الوهابية للبدو مفاهيم أكثر صحة عن الألوهية، وعن مصير الإنسان على هذه الأرض، وعن واجبات الإنسان تجاه الإنسان. لقد فتحت أذهانهم على أفكار أكثر نبلاً، وقلوبهم على خلق أكثر سمواً؛ وعلمتهم / ١٨٣ / احترام ملكية الآخر، واستأصلت عادة السرقة، فأصبحت الصحراء أكثر أماناً من أكثر المدن حراسة،

---

(١) انظر ما يقوله الدكتور عبد الله العثيمين في كتاب: **الشيخ محمد بن عبد الوهاب: حياته وفكره**، الرياض، دار العلوم، ١٤٠٦هـ.

(٢) لم أجد هذا في مكان آخر. وتحدث **بيرتون في رحلته**، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٨ – ١٩ عن وجود بعض الوثنيين في الجزيرة العربية وذكر ذلك لويس بلي في رحلته ص ٤٦ – ٤٧ وذلك في عام ١٨٦٥ م.

لقد حاربت التعسف في الطلاق، وحَدّت من عادة الثأر، إن لم تستطع القضاء عليها تماماً، وقد كان الثأر هو القانون العام لدى البدو، يتوارثون العداوة بسببه كابراً عن كابر. وأبطلت بعض العادات الغريبة التي تشيع بين بعض القبائل، والتي تخالف الشريعة السماوية، بقدر ما تخالف القوانين الإنسانية [. . .] ولكن كل ذلك توارى تماماً بفضل الدعوة الوهابية.

لقد صنّف سعود لتعليم العرب كتاباً في العقيدة كان يُدرّس في المدارس[1]، وينضح في كل سطر من سطوره بروحانية خالصة، وبسمو في المشاعر يختلف كل الاختلاف عن المادية الفظة التي ينغمس الأتراك فيها. إن ما يميز الوهابية، ويوضح مبادئها الحقيقية كما يبدو ذلك في الكتب الأساسية التي تشرحها، يقوم على عدم الاهتمام بالمظاهر الخارجية، ونبذ الممارسات الخرافية كلها. وقد كان النبي ﷺ نفسه قد أحس بخطر الخرافات على شعب يمتلك مخيلة خصبة، وبارع في / ١٨٤ / بث الحياة في كل شيء؛ لذلك حرّم عليهم تحريماً قاطعاً كل أنواع الصور، خوفاً من أن تكون باباً يمرون منه إلى الشرك. ولم يأت الوهابيون في هذا المجال، وفي كل المجالات

(١) لم يؤلف سعود أي كتاب، وإنما أمر بأن يوزع على أهل مكة بعد دخوله إليها رسالة: الأصول الثلاثة؛ وهي معرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمداً، ﷺ. وهذه الرسالة من تأليف الشيخ محمد المطبوعة مرات عديدة. وقد أورد بوركهارت ترجمة لها جعلها من ملاحق كتابه. انظر: مواد ...، موثق سابقاً، ص ١٧ (الحاشية).

الأخرى بجديد إلاّ أنهم التزموا بأفكار النبيﷺ وتوجيهاته الجلية؛ ولهذا السبب كانوا يهدمون القباب المقامة على أضرحة الأولياء بحماسة فائقة، ويقولون: إن القبة هي من ميزات المعابد؛ وإن تقديس أي إنسان، مهما كان قدره وكراماته، يوقع في المحرمات، والقدسية ميزة انفرد بها الله تعالى وحده.

كان سعود يسكن الدرعية مع عائلته الكبيرة جداً، والمتماسكة، وكان من هناك يحكم القبائل الخاضعة لسلطته. لقد كانت سلطته تشبه بكثير من الاعتبارات سلطة الشريف – الأمير في مكة المكرمة إلاّ أنها كانت سواء في جانبها الدنيوي أم الروحي، أكثر متانة وحزماً ومهابة. كان بهي الطلعة، ذا صوت رخيم مما جعل العرب يقولون إن كلماته كلها تصل إلى القلب. كان متوافقاً مع مذهبه، يطبق كل مبادئه. وكان هو وعائلته وأتباعه يلبسون عباءات بسيطة من الصوف لا يدخل في حياكتها أي خيط حرير، كان مثالاً يحتذى في إيتاء الفضائل، ولم يكن يسمح لأي امرأة من أسرته أن تلبس أي قطعة من حلي، مهما صغرت، وكان أتباعه يفعلون مثل ذلك التزاماً / ١٨٥ / بنص القرآن الكريم(١). وكان في كل مساء يقيم الصلاة في أهل بيته،

(١) هـذه العبارة ليست صحيحة لا شرعاً ولا تاريخياً، إذ لم يمنع القرآن الكريم النساء من لبس الحلي، وإنما منع التبرج بها لغير المحرم، كما أن الإمام سعود وغيره من قادة الدولة السعودية وعلمائها لم يمنعوا نساءهم ولا نساء غيرهم من لبس الحلي، ولم يمتنعوا إلا عن لبس الحرير والذهب للرجال فقط.

كما تفعل كثير من العائلات البروتستانتية في أوروبا. وكانت الخيل أعظم متعة يروّح بها عن نفسه؛ فقد كان يملك ألفي رأس من الخيل الأصيلة النادرة الأنساب في نجد، وكان ثمن بعضها باهظاً؛ شأن تلك الفرس التي دفع ثمنها ما يقارب ١٥ ألف فرنك، وكان لديه أيضاً كثير من الإبل النجيبة التي تتمتع بسرعة عجيبة[١].

وكان من اليسير على كل الناس أن يدخلوا عليه، وكان بيته على الدوام يعج بالشيوخ، والبدو العاديين، الذين يأتون إليه يستشيرونه في أمورهم، فيأكلون كما لو أنهم في بيوتهم، وكان الجميع، حتى أفقرهم حالاً، يحدثونه بجرية لا تتجاوز حدود اللياقة، ويحيونه باسمه، ويأخذون يده، ويطلقون عليه لقب "أبو شوارب[٢]"، لأن له شاربين كبيرين. كان لطيفاً في تصرفاته، ويرغب في أن يظل الناس جالسين عندما يظهر إليهم. وكان متأنياً في النصح، ماهراً وحازماً في تصريف الأمور، وكان يقيم العدل بين الناس بتجرد وموضوعية، لا يعرف الانحياز إليهما سبيلاً. ومع ذلك فإنه نادراً ما كان يصدر حكماً بالإعدام. وكان هناك عقوبة يخشاها المجرمون أكثر من الموت وهي أن يأمر الزعيم الوهابي بحلق لحاهم.

---

(١) انظر: **مواد ...**، موثق سابقاً، ص ٣٧ – ٣٨. وينقل الدكتور العثيمين عن ابن بشر قوله في: **عنوان المجد**، ج ١، ص ٢٣١: "إن سعوداً، ملك من الخيل العتاق ألفاً وأربع مئة فرس".

(٢) انظر: **مواد ...**، موثق سابقاً، ص ٣١؛ يقول: "... وكانت لحيته أطول مما يشاهد بين البدو بصفة عامة، كما كان الشعر الذي حول فمه كثيراً لدرجة أن اسمه لدى أهل الدرعية "أبو الشوارب"".

كان، وهو الصادق الوفي بوعده، يمقت الكذب، ويأمر في بعض الأحيان بجلد الكاذبين؛ ولكنه كان يرغب / ١٨٦ / في أن يبادر الحاضرون إلى تهدئة روعه عندما يأخذه الغضب، وكان يشكر ذلك لمن يقوم به. كان فصيحاً ومتمكناً من التراث الإسلامي، شأنه شأن صفوة العلماء، ويحب الخوض في نقاشات دينية، ويدافع عن رأيه بحماسة، ويسمح لخصومه بالقيام بالشيء نفسه، وكان عندما ينتهي النقاش يختمه بجملة جوهرية "الله أعلم" ويعلم الحاضرون عادة أن هذه الجملة إيذان بإنهاء الحوار [...].

ولم يتردد سعود عن الاعتراف في نهاية حكمه أن سوء الحظ الذي أصاب الوهابيين كان بسبب أخطائه[1]. كان سعود مصدر السلطات كلها؛ إذ جمعها في يده، ولم يكن في زمن السلم يستشير إلا صفوة العلماء الذين ينتمون حصراً إلى أسرة مؤسس المذهب الشيخ محمد بن عبد الوهاب. كان سعود يُعَيِّن المشايخ الكبار، وكان لهم على الآخرين سلطة لم يكونوا أبداً يسرفون في استخدامها؛ لأن سعوداً كان حاذقاً جداً، ويعرف حق المعرفة طبيعة العرب فكان يداريهم، ولا يحاول حكمهم بطريقة استبدادية، لأن أي استبداد يثيرهم، وقد كان تجنيبهم ذلك الثمن الذي يدفعه سعود لضمان سلطته عليهم. كان يرسل إلى القبائل الخاضعة لسلطته قاضياً يدفع هو أجره،

---

(١) نقل بوركهارت في مواد ...، موثق سابقاً، ص ٦٤، عن سعود أنه كان يقول: "لولا أعمالي وأعمال أصدقائي السيئة لوجد ديننا طريقه إلى القاهرة واستنابول منذ زمن طويل".

وكان مكلفاً بإقامة العدل باسم سعود، ويشدد عليه في الوصاة بألا يقبل أي أموال. ولا زالت نـزاهة أولئك القضاة مضرب المثل في الجزيرة العربية. لقد كان / ١٨٧ / القانون الوحيد المتبع هو القرآن الذي يطبق بجذافيره بلا تأويل ولا تعسف.

ويمكن الاعتراض على أحكام القاضي كلها لدى الأمير، وكذلك على كل أعمال الشيوخ؛ مما كان يسهم في جعل هؤلاء وأولئك يستقيمون في أداء واجباتهم، وفي التزام القانون.

كان سعود أيضاً يرسل عمّالاً لجمع الزكاة المخصصة لبيت المال، وتتألف من العشور التي تدفع عيناً، ومن الغرامات، ومن خمس الغنائم، ومن ٢,٥ % من رأسمال التجار الذين ينبغي عليهم، كما كان الحال في روما القديمة، أن يوضحوا مقدارها مقسمين على صحة ما يقولون. أمّا القبائل المتمردة، فقد كانت تعاقب بالنهب، وكانت الأموال تذهب لزيادة الموارد العامة لبيت المال[١].

كانت هذه الضرائب المختلفة تبدو للبدو كثيرة، وهم الذين اعتادوا ألاّ يدفعوا أي ضرائب، ولكنهم مع ذلك كانوا يدفعونها لأنهم يرونها تُستخدم بإخلاص لمصلحة الجميع. لقد كانوا يدفعون فضلاً عن ذلك ضريبة خاصة مخصصة بكاملها لأعمال الخير، حسب ما نظم النبيﷺ مقاديرها، وتسمى تلك الضريبة الزكاة، ولها طبيعة

---

(١) قارن ما قاله بوركهارت في: **مواد ....**، موثق سابقاً، ص ٥٧ – ٦٤. **وتعليقات الدكتور العثيمين.**

دينية، ولا يجرؤ أحد من الوهابيين أن يمتنع عن أدائها أو يشكو منها، وإلاّ يُعد من أشرار المسلمين.

لم يقبل البدو بسهولة أداء واجب الخدمة العسكرية التي فرضت عليهم أعباء ثقيلة، وأجبرتهم على تنقلات كثيرة. لقد كانت الخدمة العسكرية / ١٨٨ / تجنيداً حقيقياً، ما عدا الاقتراع الذي يطبق عندما لا يكون هناك استنفار عام؛ إذ كان بالإمكان تقديم بديل عن المطلوب للخدمة. لقد كان يُترك للجنود قسم كبير من الغنائم التي يكسبونها من الأعداء، والتي كانت تُقسّم حسب قانون يطبق بدقة. وكانت تلك الغنائم في غالب الأحيان كثيرة؛ لأن الحروب لم تكن في واقع الأمر إلاّ غزوات ضخمة تطال أكثر القبائل قطعاناً. كان سعود هو الذي يخطط لتلك الغزوات، ويقودها هو أو أبناؤه بكفاءة نادرة، وكانت في غالب الأحيان غزوات ظافرة [...].

لقد كان هناك عدد كبير من القوات يحارب على ظهور الهجن، وقلة على الخيل، والكثرة الكاثرة مشياً على الأقدام. وكان كل واحد من أولئك يعود بعد الحرب إلى بيته، ولا يبقى على أهبة الاستعداد بصفة قوات نظامية إلاّ حراس شخصيون يتكونون من أشجع الجنود، وأكثرهم حنكة، والذين كان سعود يستبقيهم لديه في الدرعية.

كانت القبائل الحضرية في نجد هي المبادرة في الخضوع للسلطة الدينية السياسية لعبد العزيز ولابنه سعود الذي وصل بغزواته عبر اليمن إلى مسقط، وقاد جيشه الظافر حتى أبواب / ١٨٩ / البصرة وبغداد وحلب، وحتى أبواب دمشق.

ولكنه لم يكن أبداً يفكر في مَدّ نفوذه خارج حدود الجزيرة العربية[١]. أمّا غزواته ناحية الفرات ولبنان (كذا، وربما يقصد سورية) فلم تكن إلاّ غارات سريعة يقوم بها للحصول على الغنائم لزيادة مكاسبه ومكاسب جنوده. وإن تلك البلاد، أعني العراق وسورية، تابعة تبعية مباشرة للأتراك الذين يعدهم هراطقة، وإن في تلك البلاد كل الأسباب التي تدعوه لكراهيتها، وكل ما فيها يجعل غاراته عليها مسوغة. لقد انتهى الأمر بباشا بغداد إلى التأثر بتلك الغارات، وسيّر في عام ١٧٩٧م لمحاربة الوهابيين المخوفين حملة لم تحرز أي نجاح، ولم تزد على أنها دعّمت الازدراء والبغضاء اللذين يكنهما الوهابيون للعثمانيين.

أما باشا دمشق فقد كان بصدد تهيئة حملة لإبادتهم، ولكن تلك الحملة ظلت فكرة، ولم تخرج إلى حيز التنفيذ. وقد كان الوهابيون أقل حظاً في منطقة الخليج العربي[٢] حيث كان لهم ميناء اسمه رأس الخيمة، دمره الأسطول البريطاني في عام ١٨٠٩م لمعاقبة السكان على عدد من أعمال القرصنة التي تعرضت لها في الخليج سفن التجارة البريطانية[٣].

---

(١) يكــــرر هنا ديدييه ما ذكره بوركهارت في: **مواد ...**، موثق سابقاً، ص ٦٨، ويعلق الدكـــتور العثيمين بقوله: "الرسائل التي وجهها سعود إلى والي دمشق توضح أنه كان يرغب في الاستيلاء على بلاد الشام. انظر: **تاريخ البلاد العربية السعودية: عهد سعود الكبير** لمنير العجلاني، د. ن، د. ت، ص ٦٦ — ٦٨.

(٢) في الأصـــل: الخـــليج الفارسي. لكن الشواهد تؤيد تسميته بالعربي. ولذا ترجم، هنا، بالعربي. انظر: **مواد لتاريخ الوهابيين**، موثق سابقاً، ص ٨٣.

(٣) انظـــر: **مـــواد ...**، موثق سابقاً، ص ١٠١ — ١٠٢. وعلق الدكتور العثيمين فقال: "يصف الغربيون دائماً الآخرين بالقرصنة إذا هاجموا سفنهم مهما كانت الدوافع لذلك. ومعـــروف أن القواسم كانوا يهاجمون سفن أعدائهم لا قرصنة وإنما جهاداً ودفاعاً عن المصالح الوطنية".

وكان سعود حينئذ قد أبطل الدعاء للسلطان العثماني على المنابر في الصلوات العامة، مما يعني أنه أعلن التمرد الذي يعادل إعلان الحرب.

كان أكثر جيران سعود شعوراً بالتهديد هو الشريف غالب بلا ريب الذي كان حينئذ يحكم الحجاز، وقد كانت الأراضي التي تخضع لسلطته تتصل بأراضي /١٩٠/ الأمير الجديد. وقد قام هذا الأخير بعدد من التوسعات، وكان يُخشى من توسعات أكثر خطورة في المستقبل.

لقد كان غالب المذعور، لا يكّف عن تشويه صورة الوهابيين لدى الباب العالي، وعن إثارته ضدهم، أملاً في أن يساعده الباب العالي في توجيه ضربات حاسمة لهم. ولّما لم يستطع التغلب على حذره حمل السلاح منذ عام ١٧٩٣ م، ومع أنه اعتمد على موارده الخاصة، فإنه حقق بعض الانتصارات في نجد. واستمرت الخصومة عدة سنوات بين الجارين، وكانت الحظوظ إبان ذلك متساوية بينهما؛ ولكن، وفي النهاية، وعلى الرغم من حنكة غالب العسكرية، كان الانتصار من نصيب الوهابيين: لقد دخلوا الحجاز بقوة كبيرة، واستولوا على الطائف في عام ١٨٠١م وعلى مكة المكرمة في عام ١٨٠٣ م، وكان انضباطهم مضرب المثل في المدينة المقدسة، ولم ترتكب أي مخالفة. ولم يعانِ المكيون إلاّ من وجوب مداومة الحضور إلى المسجد في أوقات الصلاة، ومن حرصهم على إخفاء ملابسهم الحريرية، ومن الامتناع عن التدخين علانية، إلاّ أنهم عوضوا عن ذلك بالتدخين كما يحلو لهم في منازلهم.

وانسحب غالب إلى جدة، وتبعه سعود إلى هناك، ولكن أسوار المدينة منعته من دخولها، وبدأ المفاوضات مع الشريف – الأمير الذي عاد إلى مكة، واستعاد سلطته فيها، ولكنه لم يحصل على ذلك إلاّ بعد أن اتبع المذهب الوهابي[1]. وكان سعود قد استولى على المدينة المنورة، وعامل السكان معاملة أقل احتراماً من تلك التي / ١٩١ / لقيها منه سكان مكة، فوضع في المدينة المنورة حامية وهابية، وجرد ضريح النبي ﷺ من الأشياء الثمينة التي تبرع بها المؤمنون، وقد حاول أيضاً أن يهدم القبة العالية المقامة على الضريح، كما قاموا بهدم كل القباب التي لم تكن تابعة للمساجد[2]. وقد قيل خطأً: إن الوهابيين ألغوا الحج: لأن النبي ﷺ شدد على تطبيق هذه الفريضة، ولا يمكن، والحالة هذه، أن يقوم الوهابيون بإلغائها. ولكن الوهابيين الذين أزعجتهم التجاوزات المتطرفة التي كان يمارسها الحجاج الأتراك، أجبروهم على تصرف أكثر لياقة، وردعوا بقسوة الفوضى التي كانوا يثيرونها[3]. ولم يتعرض الحجاج المغاربة الذين كانوا أكثر تنظيماً لأي مضايقات، وكذلك الهنود وأفارقة السودان. وإنْ كانت قوافل الحج من بغداد ودمشق والقاهرة قد توقفت؛ فإن سبب ذلك هو أن

---

(١) انظر: **مواد ...**، موثق سابقاً، ص ٩٢ – ٩٣.

(٢) دخل سعود المدينة المنورة في عام ١٢١٨هـ / ١٨٠٤ م. انظر: **مواد ...**، موثق سابقاً، ص ٩٣ – ٩٥.

(٣) قارن بما يقوله بوركهارت في: **مواد ...**، موثق سابقاً، ص ٩٥. وانظر **تعليق الدكتور العثيمين في الحاشية** (٢).

الباشـاوات والقـوات العـثمانية الـتي تـرافقها عـادة لم يعـودوا يجـرؤون عـلى المخاطـرة بالسفر عبر المناطق التي يسيطر عليها الوهابيون الذين كان مجرد ذكر اسمهم يثير رعباً كبيراً بين أعدائهم.

كان السلطان العثماني قد عَيَّن في هذه الأثناء محمد علي، الذي سيذيع صيته بعد ذلك في أنحاء العالم، باشا لمصر، وفرض عليه أن يخلص المدينتين المقدستين من أيدي الوهابيين الذين سيطروا عليهما . ولما تولى محمد علي منصبه الجديد عام ١٨٠٤م شُغل / ١٩٢ / بالقضاء على المماليك، ولم يفكر بتنفيذ أوامر السلطان إلاّ في عام ١٨٠٩ م، عندما كلف ابنه الثاني طوسون بيك[1] الذي كان له من العمر ثمانية عشر عاماً ، ولكنه كان ذا شجاعة مجربة، نادرة اليوم لدى العثمانيين، وخصوصاً في أسر الباشاوات، كلفه، قيادة حملة نزلت في ينبع عام ١٨١١ م. وكانت بداياته سيئة: إذ تقدم نحو المدينة المنورة [2] التي كان الوهابيون لا يزالون يسيطرون عليها ، والذين

---

(١) يختصر ديديه الأحداث اختصاراً مخلاً؛ إذ إن محمد علي بدأ في عام ١٨٠٩م يجهز بجد لحملته، فبنى أسطولاً من ثمان وعشرين سفينة مختلفة الأحجام، وذلك في ميناء السويس في أعوام ١٨٠٩، ١٨١٠، وبداية سنة ١٨١١ م. ورمم القلاع على طريق الحج بين القاهرة وينبع، وهي عجرود ونخل والعقبة والمويلح والوجه، ووضع فيها حاميات من المشاة، وأنشأ مخازن للقمح في القصير. وبدأت الحملة في نهاية أغسطس سنة ١٨١١ م. انظر: **مواد ...**، موثق سابقاً، ص ١٠٩ وما بعدها.

(٢) وصل الأسطول المصري إلى قرب ينبع في أكتوبر (تشرين الأول) ١٨١١م وفي يناير (كانون الثاني) ١٨١٢م تقدم طوسون بيك مع جنوده صوب المدينة المنورة . **مواد ...**، موثق سابقاً، ص ١١٣، ١١٥.

هزموه شر هزيمة في مضيق الجديدة[1]. وأجبر على التراجع إلى ينبع، والتحق بجيشه هناك، ونجح في السنة التالية - بفضل المساعدات التي تلقاها من مصر - أن يستولي على المدينة المنورة. ووجدت الحامية الوهابية التي ظلت معتصمة في القلعة نفسها مجبرة على الاستسلام بعد ثلاثة أسابيع من المقاومة، وخرجت بأسلحتها وبأمتعتها بفضل عهد أمان؛ ولكنها ما إن قطعت مئة خطوة خارج القلعة حتى انقض الأتراك عليها وسلبوها وذبحوا أفرادها. ولنتأمل ما يتمتع به العثمانيون من نية حسنة[2]!

وقد عُيّن أحد المارقين الاسكتلنديين[3] من خدم البيك الشاب لبعض الوقت حاكماً للمدينة المنورة، ولكنّه سقط بعد ذلك قتيلاً وسلاحه بيده في مواجهة

---

(١) ممر ضيق يتراوح عرضه بين أربعين وستين ياردة في جبال وعرة شديدة الانحدار تقع على مدخلها قرية الجديدة ... وهي المستوطنة الرئيسية لقبيلة حرب. وطول الممر الضيق ساعة ونصف الساعة. **مواد ...**، موثق سابقاً، ص ١١٦.

(٢) **مواد ...**، موثق سابقاً، ص ١٢٣ - ١٢٥.

(٣) المسمى إبراهيم أغا، وكان رئيساً للماليك الذين مع طوسون، وهو من إدنبره واسمه الأصلي توماس كيث، أُسر خلال الحملة الإنجليزية الأخيرة على مصر، ثم أسلم واشتراه أحمد بونابرت، ولجأ إلى حماية زوجة محمد علي بعد أن قتل صقلياً من خدم أحمد بونابرت، وغضب عليه طوسون مرة وأمر بقتله إلا أنه دافع عن نفسه وهرب إلى حاميته التي أصلحت الأمر، وأصبح بعد أن أثبت جدارته رئيساً للمماليك لدى طوسون، وكان أحد اثنين لم يتخليا عن طوسون في الجديدة، وقاتل ببسالة في الاستيلاء على المدينة المنورة وتربة، وكان قد أصبح صاحب الخزانة، ويحتل المرتبة الثانية في البلاط، وعين حاكماً للمدينة المنورة في إبريل (نيسان) ١٨١٥ ثم قتل بعد ذلك في العام نفسه في القصيم. انظر: **مواد ...**، موثق سابقاً، ص ١١٨ - ١١٩، وص ١٨٩.

الوهابيين. وسقطت أواخر السنة نفسها مكة المكرمة ثم الطائف في أيدي الأتراك الذين كان يقودهم مصطفى بيك، صهر محمد علي، وهو رجل شرس سفك من قبل دماء المصريين، وكان يفخر / ١٩٣ / قائلاً "إن عدد من سيموتون تحت عصي جلاده يفوق عدد الرجال الذين يولدون في أسرته، لو أن كل واحدة من زوجاته ولدت في كل يوم مولوداً ذكراً"(١). وإن ذكريات وحشيتهم وخداعهم لازالت ماثلة في أذهان العرب بعد أربعين سنة. لقد أخطأ الوهابيون إبان تلك الحملة كلها عندما استهانوا كثيراً بأعدائهم، ولم يواجهوهم بالقوة المطلوبة، ونتج عن ذلك أنهم أجبروا على ترك الحجاز، وعلى العودة إلى حدودهم الأولى.

وقد عين الباب العالي طوسون بيك باشا جدة، وقدم والده بشخصه من القاهرة إلى مكة المكرمة في عام ١٨١٤ ليجني ثمار الانتصارات التي لم يحققها بنفسه.

أمّا الشريف غالب فإنه كان يَصّرف شؤونه بكثير من الحذر والبراعة الفائقة؛ حتى إنه استطاع المحافظة على سلطته في هذه الظروف الفظيعة. لقد كان ينقل ولاءه بين الأتراك أو الوهابيين حسب المصلحة الآنية، أو حسب حظوظ العدوين في النصر، لقد كان يراعي الخصمين، متجنباً توريط نفسه بالقيام بأي إجراء ذي دلالة مفرطة، مؤمناً لنفسه في كل الظروف مخرجاً. لقد تمثلت سياسته في التذبذب، وفي التهدئة، أملاً في رؤية أحد العدوين اللذين يخشاهما بالتساوي يضعف أحدهما الآخر، كان يجد خلاصه في الكره الذي يكنه أحدهما للآخر. وعندما ظهر أن النصر سيكون

---

(١) انظر: مواد ...، موثق سابقاً، ص ١٢٤ – ١٢٥.

نهائياً بجانب العثمانيين، ضم قواته إلى قواتهم، وحضر بنفسه معركة الاستيلاء على الطائف. وقد كان أبرز زعماء / ١٩٤ / الوهابيين وأكثرهم توفيقاً في تلك الحرب هو المضايفي[1] صهر الشريف غالب الذي كان يكرهه، ولم يجد حرجاً من أن يَعدَ بمكافأة لمن يقتله أو يأسره. وقد تمّ تسليم المضايفي لغالب غدراً، فبادر مسرعاً في نشوة النصر بإرساله إلى إستانبول حيث تم قطع رأس العربي المقدام. وكان غالب الذي أرضى حقده، يأمل في أن يرضي الأتراك بذلك. لقد كان ذلك جهلاً بطبائعم، ولم يدم وهمه إلاّ قليلاً. لقد ذهب إلى جدة لاستقبال محمد علي عند وصوله إلى الحجاز، وعادا معاً إلى مكة المكرمة، وتعاهدا رسمياً على القرآن في المسجد الحرام ألا يحاول

---

(١) عثمان بن عبد الرحمن المضايفي من قبيلة عدوان المشهورة بالطائف. كان صهراً للشريف غالب تزوج أخته، وكان أكبر أعوانه وقادة جيشه، ثم اختلف معه وانضم إلى الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود وولاه الإمام عبد العزيز على الجيش المكلف بالاستيلاء على الطائف، ونجح عثمان في الاستيلاء عليها سنة ١٢١٧هـ / ١٨٠٣م وأصبح أميراً عليها وعلى المناطق التابعة لها. وعندما نجح الشريف غالب في السنة نفسها باسترداد الطائف هرب عثمان، ثم قبض عليه بعد ذلك بدو عتيبه وسلموه للشريف، ثم أرسله طوسون باشا أسيراً إلى مصر، ومنها إلى إستانبول وقتل هناك. انظر: **عنوان المجد في تاريخ نجد**، تحقيق عبدالرحمن بن عبد اللطيف، الرياض دارة الملك عبد العزيز، ط ٤، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص ١ / ٢٠٩، ٢٦٠، ٣٣٤ — ٣٣٥. عن حاشية مترجمي **رحلات بوركهارت**، موثق سابقاً، ص ٦٨. وانظر كتاب: عثمان بن عبد الرحمن المضايفي **أمير الطائف والحجاز في الدولة السعودية الأولى**، تأليف د. إبراهيم بن محمد الزيد، إصدار لجنة المطبوعات في التنشيط السياحي، محافظة الطائف، ط ١، ١٤١٨ / ١٩٩٧.

أحدهما القيام بأي شيء يعارض مصلحة الآخر، وأن يعيشا متحدين. ولقد كان باشا مصر، على عادة الأتراك المستأصلة فيه، يفكر، وهو يقر بذلك العهد، في أن يخرقه. أما الشريف فقد كان على العكس يحرص على الوفاء بعهده، ولا يمكن حتى لألد أعدائه أن يتهمه بأي ميل لخرق ذلك العهد. ذلك هو الفارق بين العرقَين: العربي يحترم العهود التي يبرمها، أمّا التركي فلا يحترم أي شيء.

كان الشريف يقيم في مكة المكرمة في قصر مُحَصّن تحصيناً منيعاً، تدافع عنه حامية مؤلفة من ٨٠٠ رجل، ومدفعيون، مما يجعل السيطرة عليه مستحيلة. ولمّا لم يكن محمد علي يستطيع، مفاجأته أو القبض عليه في وسط الحاشية الكبيرة التي كانت ترافقه على الدوام عند خروجه، فإنه دبر له / ١٩٥ / كل أنواع المكائد التي لم تجد في البداية أي نجاح. وقد كان ينوي القبض عليه، ولو كان ذلك في المسجد الحرام، لولا أن القاضي أمر باحترام حرمة المكان المقدس. ثم نصب له محمد علي في نهاية الأمر فخاً متقناً، ومدبراً بإحكام فوقع فيه غالب، وتمّ أسره مع مراعاة المظاهر الخادعة، واكتفى بعد ذلك بالقول باحتقار: "لو أنني كنت خائناً لما حدث ذلك أبداً". ثم نفاه السلطان إلى سالونيك، وقد مات فيها متأثراً بالطاعون في صيف عام ١٨١٦ م.

وانتهت بموته حكومة الأشراف. وكل الأشراف – الأمراء الذين جاؤوا بعد غالب، عينهم الباب العالي، واكتفوا بالمرتب الشهري المحدد الذي كان يدفعه الباب العالي. وأصبح شأنهم شأن موظفي الإمبراطورية العثمانية كلهم، فهم لا يتمتعون إلا

باستقلال شكلي، وبسلطة اسمية. وقد كانوا يعاملون على الدوام كما يعامل شيوخ قبائل الحجاز، كانوا يُختارون من قدماء الأسرة الحاكمة؛ ولكنهم لم يكونوا في الحقيقة إلاّ موظفين لدى الحكومة التي تعينهم وتدفع رواتبهم، شأنهم شأن الوزراء والباشاوات. وكان يحيى أول الأشراف الذين عينهم محمد علي، ويحيى أحد أقارب غالب، ولا يتمتع بأية موهبة، وهو مناسب تماماً لما يريده محمد علي.

لقد كان الباشا يريد أن يزيل النفوذ العريق والتقليدي لأحفاد النبي ﷺ من جذوره؛ فنفى ثلاث مئة منهم إلى مصر، ولم يترك للآخرين إلا أعمالاً ثانوية / ١٩٦ / مثل أن يكونوا على سبيل المثال، أدلاء في جيشه. أثار سجن غالب والغدر الذي كان ضحيته استنكار العرب كلهم ضد الأتراك. وقد بدا المكيّون أنفسهم محزونيين لذلك. ولم يكن الوهابيون أبداً ليقوموا بمثل هذه الأعمال الدنيئة، لقد كانوا عاجزين عن ذلك، ولمّا كانت أية مقارنة بينهم وبين الأتراك ستكون لصالحهم بالتأكيد، فإنهم قد نالوا الحظوة الشعبية لأنفسهم.

لقد دفع محمد علي ثمن غدره عدداً من الهزائم التي كادت تودي بحياته؛ أولها كانت الهزيمة الساحقة في تربة حيث انتصر الوهابيون على صفوة قواته التي كان يقودها ولده طوسون، وهزم تلك القوات شر هزيمة عرب البقوم، الذين يعمل بعضهم في الزراعة، وبعضهم الآخر في الرعي، تقودهم أو تلهمهم على الأقل امرأة اسمها: غالية[١].

---

(١) انظر: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، موثق سابقاً، ج ٢، ص ٢١٠.

لقد كانت غالية جان دارك الصحراء، وكانت هي الشيخ الحقيقي للقبيلة، وكان الأتراك بالطبع ينظرون إليها على أنها ساحرة، وأن سحرها يجعل أنصارها لا يهزمون[1]. وأُذلّت القوات العثمانية بهزيمتين لم تكونا أقل عنفاً من الهزيمة الأولى في زهران والقنفذة[2]، وهي إحدى مدن الحجاز الخمس. أمّا محمد علي فكان لا يستطيع الخروج من وراء أسوار مكة المكرمة، وقد كانت الاتصالات مع جدة غالباً مقطوعة. وأصبح جيشه في أسوأ حال: إذ كانت الجمال تنقصهم للنقل، وقد /١٩٧/ هلك من ذلك الجيش ثلاثون ألفاً في تلك الحرب. كانت الأغذية نادرة في كل المواقع، وقد وصلت أسعارها حداً غير معقول. أمّا الجنود الذين كانت رواتبهم غير مجزية، أو أنهم لا يتلقون رواتب أبداً، فإنهم لم يكونوا يحصلون إلاّ بصعوبة كبيرة على حاجاتهم الضرورية الأولية، وقد كانوا يرفعون أصواتهم بالاعتراض، ويفرون بأعداد كبيرة، ولم يعد المجندون يصلون إلى الحجاز أبداً. وكان محمد علي وحده هو الذي لم ييأس، لقد كان متأكداً أن خسارة الحجاز تعني بالنسبة إليه خسارة مصر، وقد بذل لكي يحتفظ

---

(١) انظر: **مواد ...**، موثق سابقاً، ص ١٤١ – ١٤٢.

(٢) انظر: **مواد ...**، موثق سابقاً، ص ١٤٥ – ١٤٦، وقال بوركهارت: "وهي ميناء يبعد عن جدة سبعة أيام جنوباً. وكانت في السابق جزءاً من أراضي الشريف غالب، ولكنها أصبحت خلال السنوات الخمس الأخيرة في يد طامي (بن شعيب)، شيخ عرب عسير أقوى القبائل الجبلية جنوب مكة وأشد المتحمسين من الوهابيين". أما هزيمة الأتراك في زهـــران التي كان على رأس قبائلها بخروش بن علاس فقد تحدث عنها بوركهارت في **مواد ...**، موثق سابقاً، ص ١٦٢ – ١٦٣.

بالحجاز جهوداً جبارة، وأظهر حزماً نادر المثال. ولما أخفق في الحرب لجأ إلى المفاوضات، وبدأها أولاً مع القبائل المجاورة لمكة المكرمة، واستمال عدداً منها بدفع مبالغ مالية كبيرة [. . .] .

لقد أبدى محمد علي للبدو وداً ومحاباة جعلت له بينهم أصدقاء كثراً: كان يستقبلهم بلا تكلف، ويسمح لهم بمخاطبته على طريقتهم فيما اعتادوه من عدم المجاملة، ويغدق عليهم الهدايا، ويدفع بكرم لكل المتطوعين الذين يقدمونهم للخدمة في جيشه، وكان في كل الخصومات يجعل الحق دوماً إلى جانبهم ضد جنوده أنفسهم. وأوغل في هذه السياسة فأصبح يستجدي رضا أهل مكة المكرمة، ومع أنه ماسوني بالمفهوم العربي لهذه الكلمة، أي ملحد ومشرك مجاهر، فإنه كان يتظاهر بالحمية والإخلاص، ويكرّم العلماء، ويجري لهم الجرايات ، ويرمم الأماكن المقدسة ، ويتردد / ١٩٨ / بكثرة إلى المساجد، ويؤدي بدقة الشعائر الطويلة حول الكعبة، كان، بعبارة واحدة، يؤدي كل الواجبات التي يؤديها المسلم المثالي.

وعندما ظهر له أن تلك الوسائل وما شابهها جعلت الأمور تستقيم له بادر بكل قوته، وبمساعدة فرقة من الخيالة الذين جلبهم من الصحراء الليبية، إلى تنظيم حملة جديدة ضد الوهابيين المجتمعين في بِسْل؛ وهي قرية إلى الشرق من الطائف، وأحرز شخصياً نصراً حاسماً في شهر يناير (كانون الثاني) ١٨١٥ م. كان سعود قد توفي العام

الفائت[1] في الدرعية، وانتقلت السلطة العليا الوراثية في أسرته إلى ولده عبد الله بن سعود الذي كان يتفوق على أبيه في القدرة العسكرية التي عُرف بها. ولكنه كان أقل من والده حنكة في سياسة القبائل، وفي صيانة مصالحهم والتوفيق بينها.

لقد حصلت في بداية حكمه اضطرابات داخلية بين صفوف أسرته نفسها، ثم امتدت تدريجياً إلى عدد من القبائل. وبدأ كبار مشائخ تلك القبائل بدون استقلالاً لم يكونوا يجرؤون على مجرد الحلم به إبان حكم الأمير السابق الذي كان أكثر حزماً، وكانت القبائل بالإجماع تخضع لسلطته. وأضعفت تلك المنازعات الداخلية الانضباط الذي تشتد الحاجة إليه إبان الحرب، والذي لم يكن فقدانه بعيداً عن أن يكون السبب الرئيسي في هزيمة بِسْل[2]. لقد كانت كلمات سعود الأخيرة قبل موته لولده عبد الله أنه / ١٩٩ / نصح له قائلاً: "لا تقاتل الأتراك أبداً في أرض مكشوفة"؛ ولأنه لم يتبع هذه النصيحة القيمة، وقعت تلك الطامة الكبرى[3]. لم يكن عبد الله يقود القوات

---

(١) مايو (أيار) ١٨١٤ م، وجاء في **عنوان المجد**، ج ١، ص ٢٣٩ أن وفاة سعود كانت ليلة الاثنين الحادي عشر من جمادى الأولى سنة ١٢٢٩هـ. وكان "موته بعلة وقعت في أسفل بطنه أصابه منها مثل حصر البول". انظر: **مواد ....**، موثق سابقاً، ص ١٥٣.

(٢) انظر حديث بوركهارت عن معركة بِسْل في **مواد ....**، موثق سابقاً، ص ١٦٨ – ١٧٥.

(٣) يقول بوركهارت في: **مواد ....**، موثق سابقاً، ص ١٧٤: "... وربما كان سبب هزيمة الوهابيين نزولهم من الجبال إلى السهل؛ إذ لم تكن لديهم أية وسائل لمقاومة الفرسان الأتراك. وكان سعود قد حذّر ابنه في كلماته الأخيرة التي وجهها إليه من القيام بمثل ذلك العمل. لكن احتقارهم للجنود الأتراك، ورغبتهم في إنهاء الحملة، وربما رغبتهم =

بنفسه في معركة بِسْل، بل كان على رأس جماعة من الاحتياطيين؛ كان عليها حماية منطقة أخرى من حدوده. وكان يقود القوات الموجودة في بِسْل أخوه فيصل[1].

لقد تمتع الأتراك وأسرفوا في استغلال النصر بوحشيتهم المعهودة؛ فقد كان هناك ثلاث مئة من الأسرى الذين وعدوا بصيانة حياتهم، ثم رفعوا على الخوازيق بأمر من محمد علي: خمسون على أبواب مكة المكرمة، ومثلهم على باب جدة، والباقون على طول الطريق الواصل بين المدينتين. وظلت أجساد أبناء الصحراء الشجعان معروضة حتى ملأت الضواري والوحوش بطونها من لحومهم. ويمكن لهذا التصرف الفظيع أن ينبئ بالفظاعات الأخرى. ومن بِسْل سار الباشا على طريق اليمن، حيث كان عدد

= في اعتقال محمد علي شخصياً، من الأمور التي جعلتهم ينسون الأسلوب الحكيم الذي اتبعوه في الحرب من قبل ...". وجاء في: **مواد ...**، موثق سابقاً، ص ٥٣: "... ويقال إن كلمات سعود الأخيرة كانت موجهة إلى ابنه عبد الله ناصحاً إياه بقوله: "لاتقاتل الأتراك في أرض مكشوفة" وهذا مبدأ لو اتبّع بدقة لمكّن شعبه، بدون شك، من استعادة الحجاز".

(١) فيصل بن سعود أخو عبد الله أمير الوهابيين، كان أوسم رجل في الدرعية وألطفهم، ويحبه العرب كثيراً قتل أثناء حصار الدرعية ١٢٣٣هـ. **عنوان المجد**، ج ١، ص ٢٧٢. وكان لسعود أبناء آخرون غير عبد الله وفيصل، وهم ناصر الذي توفي عام ١٢٢٥هـ، وتركي بن سعود الذي توفي قرب نهاية حصار الدرعية. وإبراهيم الذي قتل في أثناء حصار الدرعية، أما فهيد (فهد) وعمر فقد كانا ضمن من نقلهم محمد علي إلى مصر سنة ١٢٣٤هـ، ومن أبناء سعود أيضاً مشاري وسعد وعبد الرحمن وحسن وخالد، انظر: **آل سعود**، ص ١٦ – ١٧، **وعنوان المجد**، ج ١، ص ٢٧٢، ٢٠٣ – ٢٠٥، ٢٧٦. وانظر: **مواد ...**، موثق سابقاً، ص ٣٣ والحواشي.

الوهابيين كثيراً، وكان يأمل أن يحقق غنائم كثيرة، لأن تلك المنطقة تشتهر في الشرق بغناها الفاحش، ولكن القوات عانت معاناة كبيرة في مسيرتها، ولم تكد تصل إلى منتصف الطريق حتى تمردت، ورفضت الذهاب إلى أبعد من ذلك: فدفع ذلك الوضع الباشا إلى الأمر بإرسال تلك القوات إلى مكة المكرمة، ومن هناك إلى مصر ليستبدل بها قوات أخرى جديدة.

وإن هذه الحملة الفاشلة أعطت بفشلها محمد علي / ٢٠٠ / فرصة لإظهار حقده وممارسة قسوته على بعض أحد شيوخ القبائل الذين مكنته الخيانة من القبض عليهم. فأمر حرسه الخاص بقتله أمام عينيه شر قتلة؛ إذ طلب من حراسه الخاصين أن يُجَرِّحوه ببطء بسيوفهم لكي يطول عذابه، فقضى المقدام العربي المسمى بخروش[1] نحبه دون أن تصدر عنه أنة ألم واحدة. أمّا محمد علي الذي كان راضياً عن الانتصار الذي حققه في بِسْل، وارتأى أنه حقق ما يكفي لرفعة مجده، ولمصلحته عندما خلّص المدينتين المقدستين، فإنه عرض شروطاً للصلح على عبد الله بن سعود، وذهب إلى المدينة المنورة لانتظار النتيجة التي ستسفر عنها عروضه السلمية. وكان طوسون باشا قد سبق والده إلى المدينة المنورة، وكان حين وصول أبيه في منطقة القصيم؛ وهي إحدى مناطق النفوذ الوهابي، لإبرام سلام باسمه مع أمير الدرعية، وفي هذه الأثناء كان محمد علي الذي لم يدعم ابنه لا بالمال ولا بالرجال

---

(١) في الأصل Bakroud والصواب Bakrouch انظر: **مواد لتاريخ الوهابيين**، الترجمة العربية، موثقة سابقاً، ص ١٨٣ — ١٨٤.

يبحر ثانية وبسرعة إلى مصر التي كان يرى أنها تمر بفترة حرجة، وهي مهددة بأن يهاجمها أسطول الكابتن باشا. وعندما وصلته معاهدة الصلح التي أبرمها ولده، لم يرفض الموافقة عليها، ولكن غموض لغته أثبتت لأقل الناس بصيرة أن له مطامع مستقبلية في الجزيرة العربية. وتحقق ذلك في عام ١٨١٦م عندما قام بإرسال ابنه البكر إبراهيم باشا مع جيش جديد، هدفه الاستيلاء على الدرعية، وتقويض / ٢٠١ / دعائم الحكومة الوهابية تماماً. وقد أبدى إبراهيم في هذه المناسبة شجاعة وكفاءة لا يمكن إنكارهما، وأظهر حزماً تكلل بالنجاح، واستطاع أخيراً في سبتمبر (أيلول) ١٨١٨م بعد سنتين من الجهد المستمر، والنضال بلا هوادة، الاستيلاء على الدرعية[١] التي هدمها رأساً على عقب، وأجبر السكان على البحث عن ملجأ في مكان آخر. وأخضع نجداً كلها، واستطاع بفضل مساعدة باشا البصرة أن يصل بجيشه الظافر إلى ما وراء جبل شمر باتجاه بغداد.

لقد دافع عبد الله بن سعود عن عاصمته بتصميم كبير، وشجاعة نادرة، ولكنه لم يلق في دفاعه دعم السكان الذين أنهكهم الحصار الطويل، وثبط هممهم، والذين كانوا يفضلون الحظوظ التي سيوفرها لهم الاستسلام، على الويلات التي

(١) حطم إبراهيم باشا الدرعية تماماً سنة ١٨١٨م / ٨ ذي القعدة ١٢٣٣هـ، وفي سنة ١٨٢١ كانت سيطرة المصريين تامة على الحجاز، بينما ظلت نجد أقل أهمية بالنسبة إلى المصريين؛ وهكذا تمكن ابن عم لسعود بن عبد العزيز هو (تركي بن عبد الله بن محمد ابن سعود) أن يقود ثورة اختار الرياض لتكون عاصمة له وظلت كذلك حتى اليوم. انظر: **الحركة الوهابية في عيون ...**، موثق سابقاً، ص ٦٩، الحاشية (١٦).

سيجرها عليهم هجوم إبراهيم باشا، ولكن تفكيرهم بذلك يعني أنهم يجهلون طبائع الأتراك. لم يعد عبد الله يستطيع الاعتماد إلاّ على حرسه الخاص المكوّن من أربع مئة عبد أسود كانوا مستعدين للموت حتى آخر رجل منهم دفاعاً عنه. ولمّا فقد كل الآمال كان باستطاعته الفرار والالتجاء إلى قلب الصحراء بانتظار أيام أفضل؛ ولكنه كان يفضل الاستسلام لأعدائه، والاعتماد على أريحية المنتصر، كما لو أن التركي يتمتع بأي قدر من الأريحية ! وبعد بضعة أيام من الاستعدادات والتردد سلم نفسه بإرادته لإبراهيم باشا الذي كان لا يزال في ريعان الشباب، واستقبل عبد الله بن سعود في خيمته باحترام كبير / ٢٠٢ /: "وقال له مواسياً: إن الرجال العظام يعانون صروف الدهر، وإن باستطاعته الاعتماد على عفو السلطان".

لقد كانت النهاية التي آل إليها هذا المشهد فظيعة. أُرسل عبد الله إلى القاهرة، ومعه حاشية كبيرة، ومن القاهرة إلى إستانبول، وقد عرف عبد الله هناك عفو محمود الذي كان حينئذٍ السلطان. لقد طيف بعبد الله إبان يومين في كل شوارع المدينة، وفي اليوم الثالث تم قطع رأسه في ساحة القديسة - صوفيا، وتركت جثته للدهماء لكي تروي غليل تطرفها، وتبلغ ثأرها من جثمانه الذي يبعث على الحزن.

لقد حدث هذا الحدث الفاحش والمقيت في نهاية عام ١٨١٨ م. أما أسرة عبد الله فقد بقيت في مصر، ونشأ أولاده، كما ذكرت سابقاً، في رعاية محمد علي. ولم ينهض الوهابيون أبداً من كبوتهم التي أدت إلى خراب عاصمتهم، وأسقطت

حكومتهم. ولكن، وإن لم يعد لهم نفوذ سياسي، ولم يعودوا قوة مستقلة، فإن عددهم ظل كثيراً في الجزيرة العربية، وخصوصاً في الجنوب حتى حدود مسقط؛ ويكادون يسيطرون وحدهم على صحراء نعمان الشاسعة الواقعة على مسيرة خمسين يوماً من مكة المكرمة / ٢٠٣ / وقد كانوا يدفعون، أو ينبغي عليهم أن يدفعوا، ضريبة سنوية قدرها عشرة آلاف تلري Talaris. لقد كانوا على الدوام يدينون بالطاعة لزعيم هو أحد أفراد الأسرة السعودية، وآخر من علمت به من زعمائهم هو فيصل[١]، قريب خالد بك، ابن أو حفيد لفيصل[٢] الذي كان يقود الوهابيين في يوم بِسْل المشؤوم. وهاجرت بعض الأسر الوهابية إلى سواحل بلاد البربر، مازالوا حتى اليوم، وخصوصاً في ناحية طرابلس، يشكلون تجمعات محترمة لصرامة طباعها[٣]، التي تذكر بأخلاق المرابطين في أوروبا الشمالية.

ونستطيع بعد ذلك القول: إن الحكومتين الحقيقيتين المستقلتين في الجزيرة العربية، زالتا الواحدة تلو الأخرى، بل الواحدة بيد الأخرى، الوهابيون والأشراف: فالأولى لم

---

(١) فيصل بن تركي الذي امتدت فترة حكمة الأولى من سنة ١٨٣٤م إلى سنة ١٨٣٨م / ١٢٥٠ - ١٢٥٤هـ، والثانية من ١٨٤٣م - ١٨٦٥م / ١٢٥٩هـ - ١٢٨٢هـ.

(٢) فيصل هذا الذي يشير إليه المؤلف هو فيصل بن سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود أخو عبد الله بن سعود آخر أئمة الدولة السعودية الأولى، وهو ابن عم لفيصل بن تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود الذي أشار إليه المؤلف بأنه آخر من عرفه من زعماء آل سعود.

(٣) ليس في المصادر أي إشارة إلى هجرة تلك الأسر النجدية إلى نواحي طرابلس الغرب.

تعد إلاّ دعوة، والثانية لم تعد إلاّ سراباً . ولم يكن صعباً على الباب العالي أن يستغل تنافسهما ، وأن يبسط سلطته على أنقاضهما . فلو أن أميري مكة المكرمة والدرعية تحالفا بصدق وصراحة ضد عدوهما المشترك، واتفقا على تسوية مصالحهما الخاصة بعد ذلك، ولم يكونا متفرقين، كما فعلا، في بداية الحرب، لما استطاع الأتراك أبداً أن يطؤوا أرض الحجاز، بل لو أنهما بادرا بالقيام ببعض الخطوات، لما خرج أحد من الأتراك من الحجاز حياً . لو حصل ذلك لكانت الجزيرة العربية مستقلة اليوم، / ٢٠٤ / ولتخلصت، وإلى الأبد، من الطاعون التركي؛ إن إضاعتهم تلك الفرصة المناسبة يقتضي أن تبدأ من جديد عملية تخليص الجزيرة العربية من الأتراك، بما يتطلبه ذلك من تضحيات جديدة. وإن الخطأ الرئيسي كان ما قام به غالب الذي لم يكن عليه، حرصاً على مصلحته الخاصة، أن يتواطأ مع الأجانب، ولا أن يساعدهم في تنفيذ مخططاتهم. لقد أخل في ذلك الظرف بالحنكة التي كانت أعماله حتى ذلك الوقت تدل على تمتعه بها، ويحق لنا أن نعجب من ذلك، لأنه في الحق لم يكن الإنسان بحاجة إلى كثير من الحكمة النافذة ليتوقع النتائج النهائية لتصرفه الغامض، وغير الحكيم. لقد خسر كل شيء في سعيه لإنقاذ كل شيء، لقد أسقط بسقوطه العقبة الوحيدة[1] التي كانت تستطيع بمساعدته وقف عدو وطنه، والحفاظ على وطنيته.

---

(١) يقصد الدولة السعودية الأولى.

الفصل التاسع

من جدة إلى الطائف

في يوم ٢٢ فبراير (شباط) جاء مصطفى أفندي، وكيل الشريف الأكبر ليقول لنا إن الهجن والرجال الذين أرسلهم الأمير لمرافقتنا إلى الطائف قد وصلوا. لقد تلقى الأمر بمرافقتنا، وبألاّ يتركنا إلاّ عند عودتنا إلى جدة، رجل ذو اعتبار في البلاد، وشريف، وحاكم مدني أو والٍ لمكة المكرمة / ٢٠٥ / لقد كان ذلك أكثر من مجرد اهتمام، إنه شرف استثنائي بسبب أهمية الشخصية. كان اسم ذلك الرجل هو الشريف حامد الذي زارنا بعد بضع ساعات من وصوله، يرافقه خمسة أو ستة من العرب، يرتدون ثياباً جميلة، وهم مدججون بالسلاح. كان يلبس وشاحاً كبيراً أبيض، وجُبّة أرجوانية، ويلتمع في حزامه يطقان مزخرف. كان هو وحراسه حفاة، ولم أره أبداً يلبس حذاء. كان عمره سبعة وعشرين عاماً، ولون بشرته أسمر داكناً، وكان له عينان واسعتان سوداوان تشعان حيوية ورقة. وكان لأسنانه بياض ساطع، وفي صوته رنة الشباب، ونداوة الفتوة، وكان له ابتسامة ظريفة. استقبلناه بما يليق بمقامه، وبمنصب الأمير الذي أرسله؛ ولكنه طوال الزيارة لم ينبس ببنت شفة، وليس ذلك مستغرباً في الشرق حيث لا تتكلم عندما لا يكون لدينا شيء لتقوله.

مع ذلك، استغربت صمته، بل إنه، أكثر من ذلك، أغاظني. هل كان ذلك خجلاً أو عجرفة؟ ولست أدري إلى أي من السببين (الخجل أو العجرفة) أرجع ذلك

الصمت المتمكن. وكان حكمي عليه في إطار الشك قاسياً، وأعترف أن الانطباع الأول كان بعيداً كل البعد عن أن يكون إيجابياً.

زرناه في اليوم التالي في بيت مصطفى أفندي حيث كان يقيم، ووجدنا المنزل يعج بالعرب الذين سارعوا للتسليم على شريفهم. واستقبلنا بأدب جم / ٢٠٦ / ودون أن يصل به الأمر إلى الانفتاح، فإنه كان أقل صمتاً مما كان عليه في اليوم السابق.

جاءت الشيشة والقهوة وتلاها الشراب الذي تمّ تقديمه في كووس كبيرة مذهبة، وقام بعد ذلك بعض خدم المنزل بصَبّ ماء الورد على أيدينا وعلى ثيابنا، وهم يفعلون ذلك لمن يريدون إكرامهم، وفي نهاية الزيارة فقط. وحدد يوم المغادرة بعد صلاة العصر من اليوم نفسه.

لقد سمح القنصل الفرنسي بناء على طلبي للسيد دوكيه، موثق العقود والمترجم في القنصلية بمرافقتي، وقد كنت مسروراً بذلك. وجدت في دوكيه مرافقاً يسارع لأداء الخدمات، مرهفاً، ومترجماً متمكناً من لغة البلد المستخدمة والرسمية. كان عليَّ، لو أنه لم يكن موجوداً، الاعتماد على رفيق رحلتي، وكنت أفضل ألا أفعل ذلك. ولّما كان هذا الأخير يتكلم العربية لأنه كان دائم السفر إلى الشرق منذ عدد من السنوات، وكان يزعم لنفسه خبرة عميقة بالناس والأشياء. تركت له منذ انطلاقنا من القاهرة الإدارة المادية لقافلتنا الصغيرة، ومع أنه كان سيء الإدارة، وأبدى من التكبر أكثر مما هو منتظر، فإنه في هذا اليوم استنفد صبري وصبر الشريف حامد، ناهيك عن السيد كول، قنصل بلاده الذي عيل صبره.

كان علينا أن ننطلق عند العصر / ٢٠٧ /، وعندما حَلّ العصر لم يكن شيءٌ جاهزاً؛ مع أنه لم يكن علينا أن نحمل إلاّ أمتعتنا الضرورية لاستعمالنا الشخصي، ولو فعلنا غير ذلك لعدّ ذلك إهانة للأمير المضيف الذي كان يعاملنا معاملة في غاية النبل، ويود أن يوفر لنا كل ما نحتاجه. باختصار، لم ننطلق إلاّ عند المغرب بعد أن تبدى لي أننا لن ننطلق أبداً. ولو حصل ذلك لكان الأمر خطيراً: لأنه كان من المهم أن ننطلق في يومنا هذا، الذي لم يكن اختياره عشوائياً؛ فقد كان يوم خميس؛ وهو أكثر أيام الأسبوع مناسبة لبدء الأسفار في نظر المسلمين. فالثلاثاء يوم مشؤوم، والعرب لا تحب السبت لأنه يوم اليهود الذين يحتقرونهم كل الاحتقار. أما الأحد والاثنين فمن الشائع أنهما يومان مباركان، والأربعاء تستوي الأمور فيه. وأما يوم الجمعة فهو يومهم المقدس، وهم يسافرون راضين بعد صلاة العصر[1].

كانت القافلة تتكون كما يلي: كاتب هذه السطور، إن كان من المناسب أن يبدأ الإنسان بنفسه، ثم رفيق رحلتي، والسيد دوكيه، وستة من الخدم، بينهم أوروبيان؛ بلجيكي وطباخنا غاسبارو؛ ثم الشريف حامد مع أحد أقربائه، وبعدهما أحمد حمودي رئيس جمّالة الشريف الأكبر، ناهيك عن اثني عشر عبداً أو خادماً من خدم الشريف، يلبسون ثياباً جديدة، وهم جميعاً مسلحون بالرماح / ٢٠٨ / وبالخناجر،

(١) ليس ما ذهب إليه المؤلف في هذا التقسيم بصحيح؛ بل الصحيح الذي لا مراء فيه عند أهل العلم أن السفر مستحب في يومي الاثنين والخميس، مع جواز السفر عند الضرورة في أي يوم حتى يوم الجمعة نفسه.

ولم يكن معهم أسلحة نارية. ورأينا من المناسب ألا نحمل أسلحتنا معنا لكي لا يبدو أن مثقال ذرة من الحذر قد خطر ببالنا: لأن المرافقة التي أرسلها الشريف كانت في نظرنا تكفي لحمايتنا، ولمّا كنا ضيوفه، فإنه لم يكن مسموحاً لنا أن نتوقع حدوث أي حدث سيئ. لقد أرسل ثلاثة عشر جملاً وهجاناً كانت كافية لحمل كل من أشرت إليهم، لأن المرافقين يمشون على الأقدام، ويستطيعون عند الحاجة أن يصعدوا خلف جماعتنا.

إن الهجان الذي خُصّص لركوبي كان الركوب المفضل لدى الشريف الأكبر، وكان يستحق هذا التفضيل لرقة مظهره، وحسن طبعه؛ كان اسمه: سحابة. أمّا هجان رفيقي فكان اسمه: أم القصب، وكان لا يقل في شيء عن ركوبي، وكان يمتاز منه بأنه ثاقب النظر في الظلام؛ لذلك كان الأمير يمتطيه في الليل عادة. كانت أرحلنا رائعة، مزينة بأنواع من الزينة من كل الألوان، طرزتها بالحرير والصوف المزين بالفضة يد صناع، وكانت الأرحل تغطي الحيوان تماماً على الرغم من ضخامته. وكان قربوسا الرحل من الفضة أيضاً، أما الزمام فكان من الجلد المضفور بمهارة. كان لنا، ونحن على ظهور الهجن تَحِفُّ بنا المرافقة، والشريف يقودنا، / ٢٠٩ / هيئة مؤمنين حقيقيين يتجهون إلى الحج. وعندما رآنا أحد الأطفال الذين كانوا على قارعة الطريق الذي كنا نمر به أخطأ و قال لرفاقه: "انظروا، إنهم ذاهبون إلى مكة المكرمة – فأجابه أحد الصبية ممن هم أكثر بصيرة، كيف ذلك؟ إنهم نصارى".

ولمّا كان خروجنا من باب مكة المكرمة فإننا عَبَرْنا معسكر النوبيين، وأرض المعرض المقام خارج الأسوار، ثم يأتي بعد ذلك صفين من الحوانيت والمقاهي المشبوهة المنتشرة على جانبي الطريق لمسافة كيلومتر. لقد رافقنا عدد من معارفنا منهم: السيد كول على حصان، ومصطفى أفندي على بغلته، والإخوة ساوة، وآخرون أيضاً، ظلوا برفقتنا حتى الرغامة المقهى الأول من اثني عشر مقهى منتشرة على الطريق من جدة إلى مكة المكرمة. شربنا في الرغامة قهوة الوداع، وكان الليل قد هبط عندما تفرقنا. كنا في قلب الصحراء، وكانت الرمال تجعل القافلة تتقدم بخطوات بطيئة، حتى إن شيئاً لم يكن يعكر سكون الليل. وقابلنا في الظلمات قافلة طويلة من الجمال كان الصمت يخيم عليها، ولم يكن هناك ما يشير إلى مرورها.

بدأنا بعد بضعة أميال نرتقي أحد الشعاب المحصورة بين جبلين منخفضين، وكانت النجوم تلتمع على قمتيهما كأنها النيران. وكان هناك في أسفل السفح المقابل مقهى البياضة، وهو ثاني مقاهي الطريق. وكنا ننوي الاستمرار في المسير حتى المقهى الثالث، بل أبعد من ذلك، / ٢١٠ / ولكنني أصبت بنوبة من الحمى مفاجئة وعنيفة؛ مما جعل من المستحيل المضي أبعد من ذلك، واضطرت القافلة إلى التوقف في المقهى الثاني لقضاء الليل، ولكن ليس من دون أن يقوم الشريف بنشر حراس من حولنا لتأمين الحماية. لم نحمل معنا خيامنا، وكان لي بدلا عنها حصيرة نُصِبَتْ على أربعة أعمدة، واستلقيت فيها على سجادتي ينتابني القلق من الظرف الطارئ، ويتملكني الخوف من أن يكون للوعكة التي أصابتني عواقب غير محمودة. ويظن العرب أن سبب

مرضي يعود إلى شرب فنجان من القهوة مباشرة بعد تناول قطعة من البطيخ الأحمر، وهذا في رأيهم أمر إن فعلناه فلا نتجاوزه بسلام. ولئن كان ذلك السبب الحقيقي لما أصابني أم لا، لقد شفيت خلال الليل، وفي الصباح لم يعد لمظاهر الحمى أي وجود.

ولّما لم تكن الهجن تحمل إلاّ راكبيها فإنها سرعان ما أصبحت جاهزة للانطلاق، ولّما أشرقت الشمس وجدتنا منطلقين. كان منظر القافلة في غاية الروعة. كان أحمد رئيس الجمّالة على رأس القافلة، وهو يركب هجاناً رائعاً. ثم يأتي بعده الشريف حامد الذي كان يتسلح بالمترك؛ وهو عبارة عن قضيب قصير معقوف يستخدمه العرب لتوجيه الجمل من على الرحل. وكان الأشراف وحدهم الذين يباح لهم في الماضي حمله. كنت إلى جانب الشريف أتجاذب معه أطراف الحديث بوساطة السيد دوكيه الذي كان ينقل إليه تساؤلاتي ويترجم لي أجوبته. وكان أصحابنا يتبعوننا على جمالهم، وكان رجال المرافقة يسيرون على أقدامهم سواء كانوا مستطلعين أم مناوشين، / ٢١١ / مرة في هذا الجانب وأخرى في ذاك.

تابعنا على تلك الحال طريقنا خلال عدد من الساعات، نسير في سهل رائع تحيط به الجبال من كل الجوانب، وليس فيه من الزرع إلاّ العوسج وبعض أجمات الأشواك. كان يعسكر في هذا السهل خيّالة كرد عثمان أغا. رأينا من بعيد الخيام البيضاء، والخيول ترعى بجرية تلك الأشواك.

كانت القافلة تتقدم بهدوء، تحت شمس لطيفة، وفجأة، وبناء على إشارة من الشريف حثت الخطا، واستمر الجري المصحوب برنين الأجراس نصف ساعة قطعنا

خلالها بلدات كثيرة. ولم يكن المشاة أقل سرعة في الجري من الهجن، ولم يتأخروا عنها خطوة واحدة. ولم يخبرنا الشريف أبداً سبب تلك المناورة السريعة، ولكنني أحاول تخمينه: إنه حالة العداء التي تسود بين العرب والأتراك، ولما كان الشريف حامد لا يجهل الحقد الذي يكنه السنجق[1](عثمان أغا) للشريف الأكبر، فقد كان حامد يخشى أن يتعرض هو نفسه أو نحن لبعض الشتائم من الباشي بوزوق. ولكن الحركة التي فرضها الحذر عليه تمَّ تنفيذها فجاءة وكادت تكون قاضية بالنسبة إليّ؛ لأنني لو لم تتوافر لي الفرصة لاعتياد ركوب الهجان إبان رحلة سيناء لكنت انطرحت على الأرض. وصلنا نَخبُ إلى مقهى حَدَّة أكبر المقاهي الأحد عشر كلها، وتقع تقريباً في منتصف الطريق بين جدة ومكة المكرمة. ويتألف مقهى حَدَّة من / ٢١٢ / سقيفة من أغصان الأشجار يحيط بها عدد من السقائف الصغيرة، وكل ذلك يتشرف بوجود مسجد في الجوار. نجد في هذه المقاهي حليباً وأرزاً، بل إننا وجدنا خروفاً قدمناه هدية للرجال الذين يرافقوننا فأتوا عليه بسرعة كبيرة. كان الحر شديداً، فجلسنا في ظل السقائف نستريح بضع ساعات، ولم ننطلق إلا بعد العصر. كنا حتى الآن نسير بخط مستقيم نحو الشرق باتجاه مكة المكرمة التي كنا نسير على طريقها، ثم غادرنا الطريق فجأة، وانحرفنا نحو الجنوب لنتفادى المرور في المدينة المقدسة، لأنه محظور على غير المسلمين ليس دخولها فقط، وإنما رؤيتها ولو من بعيد. إذاً، كان

(١) عن كلمة سنجق انظر: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، موثق سابقاً، ص ١٣٦.

ينبغي الالتفاف بمهارة حتى لا نسترق النظر إليها، ونحن نعلم أن الحظر يشمل المدينة المنورة أيضاً، بل هو في المدينة المنورة أشد صرامة لأن أهلها أكثر تعصباً وشدة. ولازال الناس يتحدثون بسخط عن ذلك الطبيب الإيطالي الذي قضى فيها أيام حرب محمد علي والوهابيين أربعة أشهر كاملة بحماية خاصة من محمد علي. لقد أقيمت حول مكة المكرمة أعلام بين كل مسافة وأخرى لتحديد حدود الأرض المقدسة والمحرمة على غير المسلمين، وحيث لا يجوز أيضاً إراقة دم الإنسان أو الحيوان؛ فالصيد محرم فيها، ولا يمكن أن نذبح ديكاً. إن التعاليم بهذا الخصوص صارمة، ولم / ٢١٣ / يتركونا نلمح تلك الأعلام الخطرة خوفاً من أن تمتد النظرة العابرة إلى أبعد من ذلك. إلاّ أنه لم يكن بالإمكان أن يخفى عنا جبل النور[١]، وهو مخروط ضخم تقبع مكة المكرمة في أسفله، كان أمامنا، وكان جديراً بالاسم الذي يحمله، لأنه كان يلتمع تحت حزم ضوء الغروب. أمّا السهل الواسع والرائع سهل معبرة[٢](؟) Moebarreh فقد كان يحول بيننا وبين جبل النور؛ وكانت تعبر ذلك السهل نسور أكثر حظاً منا،

---

(١) يقع إلى الشمال الشرقي من مكة المكرمة وفيه غار حراء الذي كان النبي ﷺ يتعبد فيه، وفيه أوحي إليه، وكان قبل الإسلام يسمى جبل حراء. انظر: **رحلات بوركهارت ....**، موثق سابقاً، ص ١٦٣ – ١٦٤. وانظر: **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، موثق سابقاً، ج ٢، ص ٥٦٥.

(٢) كتبت في الترجمة الإنجليزية **لرحلة ديدييه**، موثق سابقاً، ص ١١٠ Plain of Mubarrah = سهل المبرح. ولعل الصواب في ذلك أنه سهل المعابدة الذي أصبح اليوم حياً من أحياء مكة المكرمة بعد أن امتد إليه العمران.

كانت تمرّ من فوق رؤوسنا لتذهب إلى مكة المكرمة حيث كانت هناك بدون شك أوكارها، لم نكن إلا على بعد ساعة على الأكثر من مكة المكرمة، ولكن أحداً لم ينطق باسمها ولو مرة واحدة. وعند الغسق دخلنا في سهل آخر هو سهل العكَيْشيَّة[1] وفيه أدركنا الليل. ثم سرنا ساعتين في ظلام دامس، وبصمت مطبق. لم يكن أحد يغني، ولا أحد يتكلم، وكان يبدو أن لا أحد يتنفس؛ ولم نكن نسمع إلا صوت تكسر الأعشاب اليابسة تحت خفاف الهجن. وفجأة توقفت القافلة. لقد ضللنا الطريق.

يمر الطريق العادي بين جدة والطائف عَبْر مكة المكرمة، ولم يكن العرب الذين يرافقوننا بدءاً من الشريف حتى العبيد، قد سلكوا من قبلُ طريقاً غيرها، لأنه لم يكن عليهم أن يرافقوا قبلنا مسيحيين، ولم يكن عليهم بالتالي أن يتجنبوا المرور بمكة المكرمة. ولمّا كانوا يحرصون على إخفائها عن عيوننا، فإنهم ضلوا الطريق الصحيحة، وإن التفافهم على الطريق بدافع التقوى / ٢١٤ / جعلهم يخطئونه، وبذلوا جهوداً لم تنفع

(١) جاء في **معجم معالم الحجاز**، للبلادي، ج ١، ص ١٥٣ – ١٥٤ العكَيْشِيَّة: بلاد أسفل مكة المكرمة، كانت لآل السبحي، بات بها جيش الحسين بن علي أمير مكة المكرمة عند حملته على عسير سنة ١٣٢٩هـ. وهي اليوم مزارع عثرية إلى الجنوب الغربي من مكة المكرمة، يصب سيلها على حد الحرم الجنوبي وتصب فيها شعاب الوتائر – جمع وتير – من الغرب، وهذا هو ما كان يسمى الوتير، أما اسم العكيشية فحادث، وفيها بئر تسمى بئر السبحي ... وأرضها عبارة عن نهي بين الجبال. وكتبها ديدييه Okech.

للاهتداء إليه، وأصبح من المستحيل عليهم أن يسلكوا الوجهة الصحيحة. حينئذٍ تشاور الشريف ورئيس الجمالة بصوت منخفض، انصرف الأخير مباشرة بعد ذلك مسرعاً لاستكشاف الطريق. كنا في تلك اللحظة قريبين كل القرب من مكة المكرمة التي ذهب إليها رئيس الجمالة على الأرجح. وألقينا عصا الترحال بانتظار عودته.

قلت في بداية هذا الفصل إن انطباعي الأول لم يكن إيجابياً عن الشريف حامد، وإنني فسرت صمته تفسيراً خاطئاً؛ ولم أتأخر في العودة عن حكمي المتعجل، وفي مؤاخذة نفسي على ظني الذي لم يكن عادلاً. إن ما ظننته عجرفة كان خجلاً. ولا يمكن تصور الرعاية التي أحاطني بها خلال الرحلة، والعناية المؤثرة التي خصني بها عندما ألمت بي الوعكة القصيرة في الأمسية السابقة، والاهتمام الذي أولانيه في مساء ذلك اليوم الذي ضللنا فيه الطريق. كان يخشى أن يكون ركوب الهجان خلال اثنتي عشرة ساعة قد أرهقني، ولم ينفع التأكيد المتكرر بأنني لست مرهقاً في إقناعه بذلك. وكان لاينِي يُعَبّر لي بأروع الكلمات وأفصحها عن قلقه وأسفه. لقد أخذ زمام هجاني، وجعله يسير إلى جانب هجانه، خوفاً من أن / ٢١٥ / ينحرف عن طريقه في الظلام؛ كان يقوم بكل ذلك على أحسن وجه، وأتم آيات الأدب.

كان بين المرافقين عبد ضخم ووسيم، يُسَمّى: أبو سلاسي Abou-Slacé، وكان موضع ثقة الشريف الأكبر، وكان يبدو أن له نوعاً من السلطة على الآخرين، لم يُعِرْنا منذ الانطلاق أي اهتمام، ولم يكن لطيفاً، وكان يقوم بما يكلفه به سيده من مهمات باستياء ظاهر. وعندما ضللنا الطريق كان يردد شكوى محزنة، ويحتج بسفاهة قائلاً:

إن سيده يبالغ فيما يقوم به من أجلنا، وإننا لسنا في نهاية الأمر إلاّ نصارى، لا نستحق كل هذه التشريفات، وإن في معاملة الكفار مثل تلك المعاملة في مهد الإسلام إغضاباً لله تعالى الذي جزانا بجعلنا نضل الطريق في قلب الظلام.

لقد نبهه الشريف بلطف، وأظهر له أن كلامه غير لائق،و قال له: إننا ضيوف الشريف الأكبر، وهذه الصفة تفرض عليه احترامنا، وإنه يسيء كل الإساءة إلى سيده بتصرفه الذي لا يتناسب أبداً مع نواياه. وأضاف أن حسن الضيافة هو الواجب الأول الذي يقوم به العرب إزاء الأجانب، وأن النبي ﷺ أوصى بذلك حتى تجاه الكفار أنفسهم، وأننا نأتي من بعيد جداً لزيارة بلادهم، وعندما نعود إلى أوطاننا، ماذا سنقول / ٢١٦ / عنهم لمواطنينا إن لم نجد في الجزيرة العربية ما نستحقه من تقدير واحترام؟ ولم يفت السيد دوكيه كلمة واحدة من ذلك الحوار، وأعاده على مسامعي كلمة كلمة في اللحظة نفسها. ولكن "أبو سلاسي" لم يرعو بعدها، إلاّ أنه بدا أكثر تحفظاً في كلامه، ولم يكن ليجرؤ في المستقبل على القيام بمثل تلك التجاوزات.

ظهر أحمد (رئيس الجمّالة) من جديد أخيراً، وحمل معه كما يبدو معلومات محددة، لأن القافلة عادت إلى مسيرتها دون أي تردد، كان عليها أن تعود القهقرى بعض الوقت، ثم تنحرف فجأة نحو الجنوب، وترتقي هضبة وعرة لم أتبين في الظلام ملامحها. وعندما وصلنا إلى القمة لمحنا أضواء على البعد، وسمعنا نباح الكلاب، ومررنا بعد لحظات قليلة قرب قطيع من الأغنام؛ أما رعاته الذين لم أتبين إلا أشباحهم السوداء فقد برزوا أمامنا، وحيوا الشريف باحترام، وقادونا إلى ملكيّة مسورة،

واسعة، مكونة من أفنان متداخلة، واستقبلنا هناك طاهر أفندي، أحد خدم الشريف الأكبر؛ وأستعمل هنا كلمة خادم بالمعنى الذي كانت تحمله في القرن السابع عشر، للإشارة إلى شخص حر يعمل في قصر أحد الأمراء. كان طاهر أفندي قد جاء من مكة المكرمة في اليوم نفسه لاستقبالنا، وقد خلصه وصولنا المتأخر من / ٢١٧ / قلق كبير: كان الوقت قريباً من منتصف الليل، وكان يرتعد خوفاً من أن يكون أصابنا أي مكروه. وبالعظم دهشتي عندما رأيت موظف أمير مكة المكرمة هذا يرتدي بزّة أوروبية.

لقد رافقني مصطفى أفندي للقيام بجولة في البستان المسور المسمى الحسينيه، وهو ملكية زراعية أو رعوية للشريف الأكبر، اطلعت خلال الجولة على مشهد حقيقي من مشاهد الحياة العربية: كانت الملكية مسورة بإحكام من كل الجهات، وكانت المساحة الداخلية غير مسقوفة، وكان الموقد يتأجج في الوسط، وقد وضع عليه قدْرٌ ضخم من النحاس. وكان هناك عدد من الخدم يذرعون البيت جيئة وذهاباً، يقومون على العناية بالطبخ، أما خدمنا فقد استلقوا حول النار متعبين من يوم شاق.

كان البستان فسيحاً يتسع للجميع، وظلت الهجن وحدها في الخارج، وكانت قطع من الخشب الصمغي قد أشعلت بمثابة مشاعل، وتنشر في المكان رائحة قوية طيبة، وانعكاسات حمراء لها مظهر رائع. ولم يتأخر طعام العشاء: كان عبارة عن خروف ضخم مسلوق كاملاً، إنه خروف الضيافة الأصيلة، استخرجوه من قعر ذلك

القدْر، ووضعوه أمامنا في جفنة[1]. ثم قام أحد العبيد السود بشقه إلى قسمين بضربة بطقان، وقامت أصابعنا بعد ذلك مقام شوكات الطعام، ونال الجميع أسياداً وتبعاً نصيبهم من الوليمة. وعندما انتهينا من الطعام قام الخدم بمد السجاد على الأرض الجرداء / ٢١٨ /، واستلقينا عليه دون أن نخلع ثيابنا، ونمنا مختلطين، نلتحف السماء. لم يكن النهوض أقل روعة من النوم، ولكنه لم يكن مبكراً، ومع أن الجميع انتهوا بعد فترة وجيزة من الاغتسال، وكانت الشمس قد بدأت بالسطوع منذ زمن طويل عندما كنا جاهزين للانطلاق. وكان عدد من عبيد المنزل أو بعبارة أدق: البستان، قد حيونا عند الاستيقاظ بالضرب على طبول صغيرة يحملونها معهم على الدوام. وكان ينتصب أمام الحسينية جبل ثَوْر[2] حيث اختبأ النبيﷺ مع صاحبه المخلص أبي بكرﷺ في الغار للإفلات من مشركي مكة المكرمة الذين كانوا يلاحقونهما. وتذكر إحدى الحكايات المحلية أن النبي داود[3] عليه السلام مدفون في هذا الجبل، وهناك عدد من الروايات المعروفة بهذا الخصوص. وإن لضريحه، أو ما يسمى بذلك، مدخلاً

---

(١) Madrier = جفنة وجمعها جفان وجفنات؛ وهي ما كانت العرب تضع الطعام به؛ وقد وصفها ديدييه بقوله: إنها محفورة على شكل صحن.

(٢) يقع إلى الجنوب من مكة المكرمة بحوالي ساعة ونصف الساعة، إلى الشمال من الطريق المؤديـــة إلى قرية الحسينية، وهو جبل شامخ يقال: إنه أعلى من جبل النور. وقد أشار القـــرآن الكريم في سورة التوبة، الآية ٤٠ إلى اختباء النبي ﷺ وأبي بكر في الغار. انظر: **رحلات بوركهارت ....**، موثق سابقاً، ص ١٦٤.

(٣) لم أجد هذا في مكان آخر.

ضيقاً، لا يدخل منه الرجل المتوسط القامة إلاّ بصعوبة: وإن أولئك الذين يستطيعون تجاوز المدخل يصبحون واثقين من خلاصهم، أمّا الآخرون فإنهم لن يدخلوا الجنة أبداً. ويُحْكى في مصر مثل هذه الحكاية بخصوص عمودين في مسجد عمرو بن العاص في القاهرة القديمة؛ إذ يحكي المصريون بخبث أن عباس باشا. عندما حاول تجاوز اختبار المرور بين العمودين عَلِقَ بين دعامات الاتهام، وكانت محاولة إخراجه من بينها من الصعوبة بمكان؛ ويستنتجون من ذلك بالطبع أنه سيعاقب في الآخرة على الجرائم التي ارتكبها في الحياة الدنيا. / ٢١٩ / انضم طاهر أفندي إلى القافلة، وكان يمتطي بغلة كما يليق بأفندي مثله، ورافقنا حتى الطائف. سرنا في البداية في واد عريض جداً، محاط بعدد من الهضاب كثيرة الحجارة، وتغطيه رمال شديدة النعومة، وشديدة البياض، وكانت بضع أجمات من العشب ذات اللون الأخضر الجميل تخفف من التماع الرمال، وكانت بعض الأشجار المنتشرة في المكان تنشر ظلالاً لا تقدر بثمن، لأن الحر كان قد بدأ يشتد.

كان هناك عدد من القنوات المائية تشق الأرض، وتذهب لتصبّ في حوض محفور في الرمال لجمع الماء. وكان هناك بعض قطعان المواشي التي ترعى في الجوار، ثم تأتي إلى الحوض لتروي عطشها: كانت قطعان من الماعز الأسود ذي الشعر الطويل، ومن الأغنام الجميلة البيضاء ذوات الآذان المسترخية، ومن العجول والأبقار من ذوات الحدبات، وهي أصغر من مثيلتها في أوروبا.

وكـان هـناك أطفـال شـبه سـود، عـراة تمامـاً، يَجْـرون عـلى الـرمل بـين المواشـي،ورعاة يقاربونهم في السواد، وهم مثلهم في قلة الثياب التي يرتدونها، يُكملون، والرماح في أيديهم، تلك القصيدة الرعوية العربية. كان لون خيامهم داكناً، وكانت مثل خيام البدو كلهم مبعثرة بأعداد قليلة في سفح الهضاب. قدم لنا أولئك الرعاة المتجولون، القادمون من الشرق، والذين يمرون من هنا، الحليب، فقبلناه وشكرنا لهم ذلك. إن أكبر إهانة يمكن أن توجهها للبدو هي أن تعاملهم معاملة تجار الحليب: إنهم يعطون حليب حيواناتهم، ولا يبيعونه أبداً. / ٢٢٠ / تصبح البلاد بعد بضعة أميال أكثر انفتاحاً، وتتجلى في الأفق البعيد الواسع سلسلة من الجبال.

كان الوقت ظهراً، عندما وصلنا إلى سفح جبل عرفات الذي يقع على بعد ثمانية أو عشرة فراسخ إلى الشرق من مكة المكرمة، وهو المكان الذي تجري فيه كما ذكرت سابقاً المناسك التي تختم الحج. وكان ينتصب في قمة الجبل عمودان يحددان المكان الذي يقف فيه خطيب مكة المكرمة، ممتطياً ناقة بيضاء، مزينة بزينة نفيسة، ليلقي الخطبة التي تعلن نهاية الحج، والتي ينبغي على الحاج سماعها ليحمل هذا اللقب.

إن هذا المكان المقدس في الإسلام، القاحل والصحراوي، يكون في ذلك اليوم مكاناً لمشهد رائع؛ إذ يتزاحم فيه جمع هائل من المؤمنين الذين يجتمعون فيه في زمن واحد، ويوجد هناك معسكر خاص بكل جنسية من المسلمين؛ فالعرب، والأتراك، والسوريون، والفرس، والهنود، والمصريون، والمغاربة، حتى السودانيون، لكل منهم،

معسكره الخاص. وإن الأوروبيين الذين استطاعوا تأمل هذا المشهد العظيم أكدوا جميعاً أنه ليس هناك ما يمكن أن يعطي فكرة عنه. يوجد هذا الجبل المقدس على أرض قبيلة قريش التي اكتسبت بذلك شرفاً كبيراً، وتعد واحدة من أكثر قبائل الجزيرة العربية نبلاً، ومع أنها اليوم قد تقلص عدد أفرادها إلى ثلاث مئة[1] شخص. ياللغرابة! إن المسلمين الذين لا يتركون غير المسلم يرى رأس منارة من منارات مكة المكرمة، ولو لمحاً فقط، يسمحون له بالصعود بحرية إلى جبل عرفات، وباستكشافه على هواه. ولما ذكرت / ٢٢١ / ذلك التناقض للشريف حامد اصطنع أنه لا يفهمني، وكان جوابه الوحيد أنه رفع صوته قائلاً: "الله أكبر، ومحمد رسول الله !" ولكن ذلك لم يكن يكفي للإجابة عن سؤالي.

لقد كان يجري في تلك الأنحاء نبع ماء بارد ونمير؛ وذلك كنز لا يقدر بثمن في تلك الصحراء، كان النبع يجري من أسفل الجبل ويذهب إلى مكة المكرمة عبر قناة مغطاة، مبنية، ومطوية. وينسب الناس شرف هذا العمل إلى السيدة زبيدة إحدى نساء الخليفة هارون الرشيد. وعندما تجاوزنا المدينة المقدسة أدرنا لها ظهورنا.

---

(١) انظر: **رحلات بوركهارت ...**، موثق سابقاً، ص ١٦٨. ويبدو أن ديديه استقى هذه المعلومة من رحلة تاميزييه، انظر: **اكتشاف ...**، موثق سابقاً، ص ٢٥٧ إذ تقول المؤلفة: "... وأخيراً سار الجيش (جيش محمد علي) نحو الطائف في السابع عشر من شهر أيار (مايو) من سنة ١٨٣٤م وراء عدد من الأدلاء القريشيين الذي حيّر جومار فقرهم البادي. وقد قيل له إن هذه العشيرة التي ينتمي إليها النبي محمد بن عبد الله ﷺ، لم يبق منهم إلا ثلاثمائة رجل ...".

وكان في هذا الجانب من المدينة عدد من المقاهي كما في الجانب الآخر، وبعد استراحة قصيرة في مقهى عرفات الذي يقع في أسفل الجبل الذي يحمل اسمه، وحيث وجدنا، وهذا شيء نادر، لبناً. تابعنا طريقنا عبر وادي نعمان؛ وهو واد رملي، شديد الحرارة، تنتشر فيه جُنيْبات شوكية، ونباتات جميلة جداً، لها أوراق سميكة، طولها من ست إلى ثماني أقدام، ولها أزهار بيضاء وبنفسجية، بتلاتها Pétales ناعمة نعومة المخمل. وعندما ينكسر ساقها يخرج منه سائل يشيع في البلد أنه يذهب بالبصر. نسيت الاسم الذي يطلقه العرب على هذه النبتة؛ ويسمونها في السودان حيث تنتشر بكثرة عُشَر[1] Ochar. وكان أحد الضباع الضخمة القابع وراء دغل قد هرب لدى اقترابنا منه، وظل طوال مدة جريه يبدو وكأنه نقطة سوداء على رمال الصحراء الملتمعة. توقفنا ثانية / ٢٢٢ / لاستراحة طويلة في مقهى شداد الواقع في أسفل جبل كرا، الذي كان طوال اليوم في مواجهتنا، والذي كان علينا الآن تجاوزه. كان علينا الترجل عن الهجن التي لا تستخدم ركوباً لدى تجاوز الجبال، وهي في الواقع ليست مهيأة لذلك. لقد كان على هجن قافلتنا أن تقوم بالتفاف طويل كي تصل إلى الطائف. وأرسل لنا الشريف الأكبر بدلاً منها ما يقارب خمسة عشر بغلاً كانت تنتظرنا في المقهى. وبينما كنا نعدها، كان يُطاف علينا من جميع الجهات بشراب في

(١) ذكــره بوركهارت في رحلاته ....، موثق سابقاً، ص ٢٧١، وقال إنه ذكره كثيراً في رحلــته إلى بلاد النوبــة، وقال المترجمان: إنه عريض الورق ومنابته في الحجاز ونجد، واسمه اللاتيني Asclepia وقد ورد في معجم الشهابي أنها فصيلة نباتية من ذوات الفلقتين منها الصقلاب والعشر.

صُحَيْفة من خشب. وكانت أخبار وصولنا اجتذبت بدو الجوار. كانوا جميعاً يرتدون أثواباً زرقاء مشدودة، إلى الخصر بضفيرة من الجلد تلتف اثنتي عشرة أو خمس عشرة مرة حول الجسد، ناهيك عن أنهم يتجندون حمالات سيوف مزينة بصفائح صغيرة من الفضة، موضوعٍ بعضها فوق بعض على شكل حراشف الأسماك. أما الخنجر المعقوف الذي يسمونه هنا جنبيّة فقد كان موضوعاً في أحزمتهم، وكانوا يحملون في أيديهم رمحاً جميلاً، قناته طويلة جداً، ومستقيمة، ومجلوة. أما العصا فقد كان يلتف حولها سلك من النحاس الأصفر المجدول بطريقة فنية. وكان بعضهم يحمل بنادق بفتيلة، كان أخمص كل منها مربعاً، ومرصعاً بالعاج. وكانت الكفيات الزرقاء تغطي رؤوسهم، وقد وضع عليها عقال أسود مصنوع من خليط من الشمع والزبدة والراتنج المعجونة معاً، وتكون حواف ذلك العقال الخارجية مزينة / ٢٢٣ / بعروق اللؤلؤ[١].

كان هؤلاء الرجال طوالاً، ممشوقي القامة، وقسماتهم متناغمة، وبشرتهم سمراء داكنة، وكان بينهم أطفال صغار لا تتجاوز أعمارهم عشرة أو اثني عشر عاماً، يلبسون كالرجال، ويتسلحون بمثل سلاحهم، وكانوا في غاية الكياسة. لقد شد انتباهي السلوك الأبيّ والمؤدب في الوقت نفسه لدى الرجال والأطفال على حد سواء. كانوا يُعْنَوْن بنا دون تجاوز حدود الاحترام، وكان يحدثوننا دون ارتباك، كما نلمس لديهم الاستقلالية، وعزة النفس، وضرباً من النبل الغريزي الذي لم يستطع أي احتكاك بالأجنبي أن يفسده عليهم في عمق صحرائهم.

---

(١) قارن بما في كتاب: **التراث الشعبي ...**، موثق سابقاً، ص ٦٥.

ليس بالإمكان تقديم لوحة أكثر روعة، ولا استعراضاً أكثر تأثيراً ومفاجأة. كانوا أول بدو أشاهدهم في بيئتهم الحقيقية، وحملت لهم منذ تلك اللحظة احتراماً واستلطافاً لم تزدهما التجربة الطويلة إلاّ تمكناً. وكانت إحدى قبائل الجوار[1] باتجاه الجنوب، والتي آسف لنسيان اسمها، تدّعي بحق أنها تتكلم العربية الفصحى في الجزيرة العربية. وبعد أن استبدلت آسفاً كل الأسف بالهجان الرائع الذي كنت أركبه بغلاً، وبالرحل الحريري المزين بالفضة سرجاً من الجلد كانت له كثير من صفات البردعة. ركبت الطريق متأخراً. وكانت تضاريس الأرض قد تغيرت تماماً: إذ حلت محل الرمل أرض صلبة ووعرة، كان يصدر عن حوافر البغال عند وقوعها عليها صوت يشبه صوت احتكاك المعادن. وبعد ميل على / ٢٢٤ / الأكثر قطعناه في أرض سهلية، دخلنا في مضيق واسع في بدايته، ولكنه يضيق بعد قليل منكمشاً، ويرتفع تدريجياً. وتمتد على جانبيه دكك كبيرة من النضيد الرخامي بطبقات أفقية. كان جبل كرا الذي كنا حينئذ نتسلق أولى منحدراته ينتصب أمامنا، وكأنه يتحدانا، كانت جوانبه متصدعة متشققة، وقممه الجرداء، المنحوتة على شكل قباب ورؤوس مسننة. إن الجبال التي لا تزال على حالة خلقها الأولى أكثر توحشاً ووعورة من جبال العصور التالية. إنها هياكل من بداية العالم، كانت، كما نرى، عرضة للهزات، وجعلتها الاختلاجات العميقة متعرجة، وهدمتها الاندفاعات الهائلة.

تلك هي طبيعة جبل كرا، كتلة جرانيتية انبجست في بداية الخلق، مثل جبل سيناء، من أحشاء الكون. تغشاه الشمس كاملاً عند غروبها، وتضفي فجأة على

---

(١) انظر: **رحلات بوركهارت ...**، موثق سابقاً، ص ٦٩.

كل النتوءات درجة إشراق الألوان الذهبية والسوداء مما يمنحها انعكاساً مدهشاً. كانت تلك اللحظة قصيرة، ولكنها مهيبة. كان الغسق قد بدأ يخيم على الأجزاء السفلية من الجبل عندما تلفتت فرأيت بعيداً وورائي جبلاً آخر منفرداً، ضخماً، يغشاه أيضاً حتى قواعده لون زهري فاقع. يسمى ذلك الجبل كبكب، وهو واحد من أعلى جبال الحجاز. أرخى الليل سدوله مبكراً على المنظر / ٢٢٥ / الرائع، وأدركنا في أكثر مناطق المضيق الذي نسلكه وعورة، وأكثرها توحشاً؛ لقد أصبح ضيقاً، ولا يتسع إلا لمرور بغل واحد، ومنحدراً لا يمكن التقدم فيه إلا ببطء شديد. كان فيه عقبات كثيرة، جعلها الظلام أكثر صعوبة أيضاً، بيد أننا أدركنا بلا حوادث مقهى الكر[١]؛ وهو مكان واسع مسور بالأحجار بلا طين، وفي وسطه موقد مشتعل كما في الحسينية، ولكن هذا الموقد ليس عليه أي قدْر، وعليه، فليس هناك عشاء، مع أن الشريف كان قد أمر بأن نجد العشاء هناك جاهزاً؛ ولكن يبدو أن الرسالة لم تُبلغ كما هي، أو أنها لم تبلغ أبداً. لم يُعدوا لنا أي خروف ولو كان صغيراً. وكنت على الدوام أشك في أن العبد "أبو سلاسي" هو الذي فعل ذلك بنا على طريقته. وكان على غاسبارو الذي لم يجد منذ جدة ما يفعله أن يمارس مهاراته هنا. ولكن الحقيقة أن ذلك لم يكن ليهمه كثيراً؛ لأنه كان علينا أن نرضى بالحليب والأرز. ذهبنا، بعد هذا العشاء المتواضع، للنوم كُلٌ على سجادته، تحت قبة السماء التي تزينها النجوم. ولما كنا قد وصلنا إلى الكر ليلاً فإنني لم أستطع تبين ملامح المكان الذي كنا

---

(١) نهاية جبل الكرا وأسفله، انظر: ما رأيت وما سمعت لخير الدين الزركلي، ص ٧٢ – ٧٣.

فيه. ورأيت في الصباح أننا في قعر حفرة ذات فوهة واسعة، جدرانها شديدة الانحدار، وجوانبها مسننة برؤوس تتفاوت في حدتها. / ٢٢٦ / وكانت رؤوس تلك المسننات عندما انطلقنا تضاء الواحد تلو الآخر حسب علوها بضوء الشروق، وكانت بعض حزم الضوء قد بدأت تتسرب على طول النتوءات الصخرية العليا؛ إلاّ أن عتمة الشفق مازالت تغشانا، وكنا بحاجة إلى عدد من الساعات للوصول إلى المناطق التي تضيئها الشمس. كان ينبغي ألاّ نشكو مما قاسيناه من مصاعب، لأن الصعود الشاق الآتي سيجعل ذلك ذكرى جميلة، وقد كان يمكن أن يكون أكثر الصعود أكثرصعوبة لو أننا لم نبادره في جو بارد. وهذا ما كان الشريف حامد خطط له بدقة. ومع أن جبل كرا أقل ضخامة، وأقل هولاً من جبل سيناء فإنه يُذكّر به، بوعورة طرقاته، وبقحطه. لعله، شأنه شأن جبل سيناء، قد تعرض لهزة عميقة؛ لأن التصدعات الواسعة والتهدمات التي تنتشر فيه وتكثر، هي آثار لا تدحض لزلازل عنيفة خربته. لم أر في امتداده كله شجرة واحدة، هناك بعض الجنيبات الشوكية، وبعض من أشجار السرو القزمة التي تظهر على مسافات متباعدة عبر الصخور. كان الطريق في كل الاتجاهات منحدراً ووعراً كل الوعورة في بعض المواضع، وإذا رأيته من الأسفل فإن سلوكه يبدو مستعصياً أبداً. لقد وصلنا على أية حال إلى نهايته بفضل خطوات البغال الواثقة، ونفهم لماذا لا تستطيع الجمال سلوك هذه الطريق. إن مدفعية محمد علي، إبان حرب الوهابيين / ٢٢٧ / استطاعت مع ذلك تسلق هذه المنحدرات الوعرة، ومازالت على الطريق الحالية آثار بعض الأعمال التي نفذت في ذلك الوقت لجعل الطريق سالكة. بل تم في بعض المواقع تعبيده مما جعله اليوم أكثر

صعوبة: لأن الزمن والأمطار أزالت ذلك التعبيد، ولم يتم إصلاحه بعد ذلك أبداً، وقد تحولت مواد التعبيد اليوم إلى أحجار متحركة، وإلى أفخاخ مزروعة عمداً تحت أقدام المطايا. وقد بلغت الصعوبات في بعض الأحيان حداً كان يقتضي الترجل عن البغال، وإنزال كل الأحمال عنها، كانت البغال متشبثة بالأرض، تنزلق إلى الوراء، تكاد تسقط في الهوة، لولا أن البغّالة كانوا يسندونها، وكانوا غالباً مضطرين لحملها. أما عرب المرافقة فكانوا حفاة الأقدام، يقفزون من صخرة إلى صخرة، وكأنهم من ظباء الجبال، وكان يمكن لهم أن يخلفونا وراءهم بمسافة طويلة، لولا أنهم كانوا يتوقفون غالباً لانتظارنا. كانوا، وهم جالسون أو واقفون على رؤوس الصخور، يبعثون الحياة في الطبيعة القاسية التي كانوا سمة من سماتها الأساسية.

وجدنا أنفسنا بعد ساعتين أو ثلاث من الصعود المتعب، وكأنما للتعويض عن ذلك التعب، ومكافأة عليه مستحقة، أمام نبع عذب محمي تحت كتلة ضخمة من الجرانيت ومحاطة بالنعناع، والزقوم[1] Absinthe، والخزامى، ونباتات أخرى ذات رائحة عطرة. / ٢٢٨ / كان الشريف حامد على غير عادته قد سبقنا بما يقارب

(١) عشبة معمرة تستعمل في الطب للهضم والإدرار. وذكر تاميزيه في كتابه: **رحلة في بلاد العرب** – الحملة المصرية على عسير ١٢٤٩هـ / ١٨٣٤ م، القسم المترجم، ص ١١٦ أن العرب تسمي الأفسنتين Absynthe الزقوم، وأضاف تاميزيه "... وجدنا بالقرب من العقيق نوعاً من الزقوم، يشبه الذي نجده في أوروبا، ولونه هنا يميل إلى الأخضر الداكن، ويستخدمه العرب هنا كبهارات عند الطبخ، ويستخرجون منه عصيراً – أيضاً –". ترجم هذا القسم من **رحلة تاميزيه** الدكتور محمد بن عبد الله آل زلفة، ونشره في الرياض ١٤١٤هـ / ١٩٩٣ م.

مـئة خطوة، وأعَـدّ لنا هـناك قـرب النبع وجبة طعام بسيطة، كان ماء النبع البارد والنميرأبازيره المناسبة. وظهر في إعداد الوجبة ما عرفناه من أناقة الشريف في كل أفعاله. كان النظر من هـذا الموضع يقع، إذا نظرنا إلى الخلف، على هوة واسعة من الحجر خرجنا من قعرها الذي تستطيع العين بهلع أن تقدر مدى عمقه: إذ تنتشر في كل مكان شعاف جرداء، وجروف شاسعة، ومنحدرات مذهلة. كان يشيع في تلك الطبيعة المخيفة صمت عميق، لا يقطعه إلاّ أصداء بعيدة لأصوات بعض الرعاة الذين لا نراهم. وفي الأفق البعيد نحو الغـرب، وفيما وراء تلك الشعاف، كان يقبع بجلاله وانفراده جبل كبكب الرائع الذي بدا لي في مساء اليوم السابق، وقد غشاه لون وردي جميـل. أما الآن فيغشاه لون أزرق لامع، أكثر غمقاً من لون السماء، كان ينتصب في الأفق وكأنه جدار من الفولاذ الأسمر.

أمّا جبل كرا فيسكنه نـزلاء أكثر حباً للسلم، أعني القرود التي يُحمل كل ما يمكن القبض عليه منها إلى مكة المكرمة، ويحملها الحجاج معهم من هذا المكان إمّا إلى دمشق وإمّا إلى القاهرة حيث رأيت عدداً منها يصل إبان الحج الأخير، / ٢٢٩ / ولكنني في مقابل ذلك لم أر أياً منها حراً متوحشاً في الطبيعة. ويروي الناس بخصوصها حكاية، يضحك العرب لها كثيراً؛ إذ يروى أن المطر أصاب بضاعة أحد تجار الطرابيش فبلّلها، فنشرها في الشمس لتجفيفها؛ وما إن رأت القرود ذلك حتى هرعت من كل أنحاء الجبل، وكم كانت دهشة التاجر عندما رآها تتواثب حوله، وقد

اعتمر كل واحد منها طربوشاً . وتشيع دعابة مماثلة في الموانئ البحرية الأوروبية بفارق بسيط هو أن الطرابيش تتحول في الحكاية الأوروبية إلى قبعات من القطن[1] .

كان الطريق من النبع إلى ذروة جبل كرا أكثر وعورة وخطراً، وفي النهاية، وبعد ثلاث ساعات أو أربع من هذا المسير الشاق، وصلنا قمة الجبل، وأصبحنا تحت أشعة الشمس التي كان الجبل نفسه يحمينا منها . إن أول ما يلفت النظر هو المجرى المائي الصافي الذي كان ينتظرنا على جانبه مفاجأة أخرى، بل إكرام آخر . كان هناك في استقبالنا أحد أشراف المنطقة ممتطياً هجاناً أبيض، وكان معه في انتظارنا أيضاً شريف آخر اسمه سليم، يمتطي فرساً بيضاء، أرسلهما الشريف الأكبر من الطائف مبالغة في إكرامنا . كان يلتف حولهم ستون / ٢٣٠ / من البدو، من قبيلة هذيل المشهورة بالشجاعة، وكانوا يرتدون ثياباً تشابه تماماً ما كان يرتديه البدو في مقهى شداد، وهم مسلحون أيضاً بالخناجر والرماح والبنادق ذات الفتيلة . كانوا مشهورين بأنهم أمهر الرماة في الصحراء . لقد اصطفوا على طريقنا بكل الاحترام الذي يليق

---

(١) قال العياشي في رحلته ماء الموائد **(الرحلة العياشية)**، ج ٢، ص ١١٦: "... ورأينا القرود به (جبل كرا) تصيح وتثب في أعالي تلك الصخور فتعجبنا من ذلك وأخبرنا أنها توجد في هذا الجبل، وما سمعنا قط أنها بأرض الحجاز، وإنما يقال: إنها تُجلب من الشام والروم إلى مصر والحجاز". عن كتاب: **الطائف، جغرافيته – تاريخه – أنساب قبائله**، تأليف محمد سعيد بن حسن آل كمال، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥ م، جمع وتعليق د. سليمان بن صالح بن سليمان آل كمال، مكتبة المعارف بالطائف، ١٤١٧هـ، ص ١١٤.

بضيوف أميرهم، ولكن بغير نظام، ولا انضباط، وكأن كل منهم كان يفعل ما يحلو له، وبإرادته الشخصية. حدث كل ذلك في صمت مطبق: لم يصدر عن البدو أي صيحة، والشريفان لم ينبسا ببنت شفة؛ واكتفيا بالسلام علينا كما يسلم الشرقيون بوضع اليد اليمنى على الصدر، ثم على الفم، ثم على الجبهة. رددنا السلام بالطريقة نفسها، ثم قادانا بعد ذلك، يرافقنا ستون من البدو، إلى بيت مجاور أُعد لنا.

كان اسم المكان الهدى، وكان قد أسس المنزل أو يسكنه على الأقل أحد المارقين من أهل موسكو لم أستطع الحصول على أي معلومة عنه، وعلمت بعد ذلك بالمصادفة في القاهرة من أحد اليونانيين، وكان يعرفه، أنه من قدامى ضباط الحرس الذين تورطوا في الفتنة العسكرية عام ١٨٢٥ م، عندما تسلم العرش الإمبراطور نقولا Nicolas. ثم أفلح في الهرب ولجأ إلى إستانبول، ولكن السفير الروسي ألح في طلبه، وخوفاً من أن تستجيب الحكومة التركية الضعيفة للمطالب المتكررة / ٢٣١ / لجارها القوي، اعتنق الإسلام لكي يفلت من ثأر القيصر. ولمّا أصبح يتمتع بالحصانة بسبب تخليه عن دينه، فإنه ذهب للإقامة في الحجاز حيث قضى فترة طويلة، ثم قضى أيامه الأخيرة في الأناضول. ومع أن أوروبياً كان يسكن ذلك البيت، فليس فيه ما يذكّر بأوروبا: كان مربعاً، صغيراً جداً، مبنياً بالحجارة فقط، تمتد أمامه مصطبة، ويحيط به عدد من الأفنية التي تطل غرفاته عليها.

كانت الغرف الرئيسية في الطابق الأرضي، وكانت مغطاة بالبسط، وقد أُعدت لنستريح فيها، خلوت بنفسي بضع ساعات للاستظلال، بلْ قل للاستراحة؛ لأنه لا

يمكن للإنسان أن يتحمل الحركة واختلاط الأمور في منزل صغير، حَطّ فيه رحالهم ما يقارب مئة رجل مسلح. لم يستطع الجميع دخول المنزل، بل ظل كثير منهم في الخارج، مستلقين على الأرض، أو يجلسون القرفصاء بمحاذاة الجدران، أما الآخرون فقد كانوا يتزاحمون في فناء المنزل. لقد أكل وشرب هذا الجمع الغفير كله كيفما اتفق. أما نحن فقد قُدِّم لنا في البداية اللبن،وله لدى العرب استخدامات كثيرة، والمعروف أنه صحي جداً في تلك الأجواء.

ثم حملوا إلينا بعد ساعتين جبلاً من الرز يعلوه خروف ضخم مشوي، يحمله عبدان ينوءان بحمله، ثم وضعوه أمامنا. دعونا الشريفين لمشاركتنا الطعام، وهانحن جميعاً جالسون على شكل دائرة، وأقدامنا / ٢٣٢ / متصالبة حول هذه الجفنة الضخمة: كنا سبعة، وكانت شهيتنا مفتوحة، ولمّا شبعنا نحن السبعة كان الطعام لا يزال وفيراً، وذهب ما بقي من المائدة إلى المعنيين. كانت الساعة حوالي الثالثة عندما فكرنا بالانطلاق؛ لأن الوصول إلى الطائف كان يحتاج أربع ساعات على الأقل. لم يرافقنا شريف الجبل ورجاله من البدو، وتمت مراسم الوداع من الجانبين بالمراسم والصمت اللذين سادا عند الوصول.

انضم إلينا الشريف سليم وحده كما فعل ذلك في اليوم السابق طاهر أفندي في الحسينية: كان الشريف سليم على رأس القافلة ممتطياً فرسه البيضاء، وقد اكتشفنا خلال الطريق مدى تقاه وورعه. توقف في المغرب والعشاء، ومد سجادة الصلاة على جانب الطريق، وسجد فوقها متجهاً باتجاه مكة المكرمة، وأدى الصلاتين في

موعدهما المحدد. ولما لم يكن هناك ماء فقد تيمم بالرمل، كما رخص القرآن بذلك للمسلمين كافة.

إن قمة جبل كرا مستوية، وتنتشر عليها بين كل مسافة وأخرى مخاريط جرانيتية، واضحة، ومنتظمة حتى لتظن أن يد الإنسان قد نحتتها. وتبدو من بعيد حقول الشعير والقمح؛ وتكثر في هذه المنطقة الأشجار المثمرة التي تعيش في أجوائنا الأوروبية، وخصوصاً أشجار المشمش / ٢٣٣ / والدراق واللوز، وتعطي غلة وافرة، وليس هناك أشجار نخيل أو برتقال لأن جبل كرا لعلوه غير مناسب لها. أما دوالي العنب فإنها تنتج عنباً من أفضل الأعناب وأحلاها. لقد اختل مقياس الضغط الجوي لدينا خلال الرحلة، ولم يكن باستطاعتي تحديد درجة ارتفاعنا عن سطح البحر؛ ولكنني لا أبالغ، حسب الصعود الطويل والشاق، إذا قلت إننا كنا في هذه النقطة على علو ١٦٠٠ أو ١٧٠٠ متر؛ مما يجعل درجة الحرارة في هذه النقطة تقارب درجة الحرارة المتوسطة في بلادنا: لذلك يأتي إلى هذا المكان سكان مكة المكرمة خلال الصيف بحثاً عن الخضرة والبرودة. لقد وجدت أن للمكان شبهاً يلفت النظر ببعض أقسام جبال الألب الوسطى في فوسيني Faucigny، وبصخرة إيطاليا الكبيرة Grand-Rocher D'Italie في أبروز[١] Abruzze.

كنا لبعض الوقت نسير في منطقة سهلية، ثم تأخذ بالتعرج والاضطراب أكثر فأكثر؛ اختفت الأراضي المزروعة ليحل محلها الرمل، عدا بعض طاقات العشب التي

---

(١) منطقة إيطالية مشهورة بجبالها وسهولها، وتنتمي الجبال فيها إلى سلسلة الأبينان L Apennin، وأعلى قمة فيها هي صخرة إيطاليا الكبرى (٢٢٩١ م).

تطل برأسها بصعوبة، لتكون حينئذٍ مرعى للأغنام الهزيلة، ثم تختفي المزروعات تماماً. وترهص كل الجرانيت الضخمة المتراكبة فوق بعضها بنهاية الأرض السهلية.

بدأنا بالانحدار، ولكن، باستثناء بعض المنحدرات الشديدة بعض الشدة، وبعض الممار التي كان في عبورها شيء من الصعوبة، فإن هذا الجانب لا علاقة له البتة / ٢٣٤ / بالجانب المقابل، وإذا قورن به فإنه سيكون بمثابة انحدار صغير. وقد كان بإمكان الهجن أن تسير عليه بيسر وسهولة. كان هناك منحدر أول، يتبعه شعب رملي مستوٍ كل الاستواء، محصور بين هضبتين منخفضتين، وينتصب في آخره حصن مهدم كان فيما مضى مخصصاً لحماية القوافل. ولم يعد اليوم يستخدم إلا لتزيين المشهد، وسكن الجوارح التي تخفي فيه أوكارها. لقد كان الأفق حتى هنا مغلقاً، ثم انفتح فجأة، كما لو أن ذلك تم بفعل السحر. لقد انبسط أمامنا سهل ضخم دائري، ولكنه كان أكثر انخفاضاً من المنطقة التي كنا فيها وتحيط به من كل الجهات سلسلة جبال غزوان[1] الجرداء؛ وهي جبال متساوية العلو تقريباً، ولكنها تتفاوت في أشكالها، وكانت كلها حينئذٍ يغشاها لون المساء الأرجواني. وكان شيء من البياض يبدو في وسط السهل: إنها الطائف. يؤدي منحدر ثانٍ أقل انحداراً وقصراً من الأول إلى وادي القرن الذي كان مرصعاً بالروضات، وتشقها كلها سواقي المياه التي تدل على أن الشعب الذي يسكن المكان شعب حاذق.

---

(١) ذكر البلادي في **معجم معالم الحجاز**، ج ٥، ص ٢٢٤ أن الصواب: عَرْوان بالعين المهملة والراء المهملة، ويبعد عن الطائف سبعين كيلاً. ولا يُعتدّ بهذا لأنه:غزوان في الكتب الجغرافية العربيّة القديمة؛ انظر: **المقدسي** وغيره.

قابلنا طوال الأمسية كثيراً من العرب المسلحين في الجبل، وقابلنا أكثر منهم أيضاً في الوادي، ولكنهم بلا سلاح، ويعملون بسلام على استخراج الما لري روضاتهم، أو لسقاية قطعانهم. / ٢٣٥ / وكان الجميع يتركون أعمالهم عند اقترابنا منهم، ويقبلون للسلام على الشريفَيْن وعلينا بطريقة غير مباشرة. كانت رؤوس هؤلاء البدو المزارعين الذين هم أكثر سواداً من بدو حدّة حاسرة، وكان كل ما يلبسونه ثوباً قصيراً من الكتان الخشن. وكان كل شيء يوضح أنهم يعيشون حياة ريفية شاقة، وأنهم يتمتعون بلطف فائق، وبطبائع وعادات غاية في البساطة. كانت تبدو في عيونهم وهم يروننا نمر أمامهم علائم الدهشة والفضول في بعض الأحيان، وليس علائم العدوانية أو الضغينة، ولم يكن ثمة أي ظل من التعصب.

لم يكن علينا بدءاً من هذه المنطقة أن ننحدر؛ لأن الطريق كان يتعرج في بعض المواضع، ولكنه كان ليناً جداً، وكانت حوافر البغال تنغمس بكاملها في الرمال، وكانت تسير ببطء شديد مما أخر سيرنا. أدركَنا بعد قليل ليلٌ دامسٌ، ولكنه مرصع بالنجوم؛ وكانت هناك بعض الأعشاب الشوكية التي تنتشر حولنا، وتقف في طريقنا، وتعلق رؤوسها الحادة ببرانسنا وعباءاتنا.

وصلنا أخيراً إلى أسوار الطائف، كانت الساعة السابعة مساءً، وكان الباب مغلقاً، ولكنه انفتح لحظة وصولنا، وكأنما بفعل السحر، لأننا لم نر أحداً يقوم بذلك. دخل الشريف سليم أولاً، وكان مُقدّمنا. كان مركز الحراسة التركي المؤلف مما يقارب اثني عشر جندياً من المشاة في رتل واحد، وقد تقلدوا السلاح لتأدية تحية الشرف

عند مرورنا . / ٢٣٦ / ولمّا دخل الجميع تحركت مفاصل الباب من جديد، وانغلق كما كان قد انفتح. فاتني القول: إن طاهر أفندي سبقنا قبل ميل تقريباً من الوصول إلى الطائف، ليخبر الشريف الأكبر بوصولنا الميمون، ولكي يتأكد بنفسه بلا شك من أن كل شيء يتم كما ينبغي. رأينا كيف تم كل شيء على أحسن حال، وسنرى في الفصل التالي أن كل شيء سيتم لاحقاً بأحسن مما سبق.

الفصل العاشر

الطائف [1]

عَبَرْنا قسماً من المدينة الغارقة في الصمت والظلام، وقادنا الشريف سليم مباشرة إلى المنزل الذي جهزوه لإقامتنا: كانت تشتعل على بابه عدة مشاعل، واصطف لدى الباب أيضاً حرس مكون من عبيد منزل الأمير، وهم يلبسون ويتسلحون كما كان الرجال الذين يرافقوننا يلبسون ويتسلحون، ناهيك عن جندي انكشاري يحمل عصاً في رأسها كرة من الفضة، وكأنه من حرس الكنائس أو الفنادق

(١) ترجم الدكتور محمد بن عبد الله آل زلفة ما كتبه ديديه عن الطائف ونشره في **صحيفة الجزيرة**، العدد ١٠١٦٢، الثلاثاء ٢٣ ربيع الآخر ١٤٢١هـ / ٢٥ يوليو (تموز) ٢٠٠٠ م، ص ١٢، بعنوان: **الطائف في كتب الرحالة الأوروبيين شارلز ديديه نموذجاً**؛ والصواب: شارل ديديه كما يقتضي النطق الفرنسي. والترجمة عن الإنجليزية وقد استفدنا منها، وتعقبه الدكتور سليمان بن صالح آل كمال في مقالة بعنوان: **تعقيب على د. محمد آل زلفة: الرحالة وقعوا في أخطاء يجب التصدي لها، الجزيرة**، العدد ١٠١٨٨، ٢٠ جمادى الأولى ١٤٢١هـ / ٢٠ أغسطس (آب) ٢٠٠٠ م، ص ١٣. وقد تحدث تاميزييه وبوركهارت عن الطائف، وتحدث الأستاذ محمد سعيد بن حسن آل كمال في كتابه: **الطائف، جغرافيته – تاريخه – أنساب قبائله**، جمع وتعليق د. سليمان بن صالح بن سليمان آل كمال، مكتبة المعارف بالطائف، ١٤١٧هـ، ص ١٣ – ٢٧ عن مؤرخي الطائف ومؤلفاتهم. وانظر في مجلة "**المنهل**"م ٧، ع ١٠، ١٣٦٦ هـ، ص ٤٤٥ – ٤٤٦ مقالة للأستاذ الشيخ عبد الوهاب الدهلوي بعنوان: "**تعريف بالكتب المؤلفة عن الحرمين والطائف وجدة**"؛ وانظر كتاب: **تاريخ الطائف قديماً وحديثاً**، مناحي ضاوي حمود القثامي، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، د. ت.

السويسريين. وعندما ترجلنا جاء إبراهيم أغا خازن الشريف الأكبر حتى الشارع لاستقبالنا، / ٢٣٧ / وأدخلنا إلى مجلس مستوٍ يُطلّ على الفناء، الذي كان في واقع الأمر امتداداً له، ولا يتميز منه إلاّ بأنه مغطى، وأكثر ارتفاعاً ببعض درجات. كان الفناء مرصوفاً ببلاط كبير، وفي وسطه بركة من الرخام الأبيض فيها نافورة مياه؛ وكان هناك دالية تعرّش على طول الجدران. كان المجلس مفروشاً بسجادٍ أحمر وأسود جميل؛ وتنتشر فيه أرائك من الحرير الأخضر المطرز بخيوط ذهبية.

وكان هناك أربعة قناديل مضاءة تتدلى من السقف، وشمعدانان ضخمان، يبلغ علو كل منهما ثماني أقدام، يتلألآن في ضوء الشموع، وعبدان أسودان يلبسان ثياباً فاخرة، ويرجّان برصانة مَبْخَرَتَيْن زاخرتين بالعود، ونشرا حولنا عند دخولنا سحابة من البخور؛ وهو تقليد لا يقومان به إلا عند استقبال شخصيات مهمة. لقد هيؤوا لنا كراسي أوروبية. وما كدت أجلس حتى أحضر عَبْدان الإبريق لغسل اليدين، وبينما كان أحدهما يصب الماء الفاتر على يدي من وعاء جميل، كان الآخر جاثياً على ركبتيه أمامي، وهو يحمل إبريقاً عريضاً ذا قعرين، مثبتاً في وسطه كوب صغير لوضع الصابون؛ وكان في القعر الأول ثقوب متعددة يتسرب منها الماء ويختفي في الداخل.

قُدِّمَ لي بعد ذلك فوطة طويلة من الكتّان، مزينة بالأهداب، ومطرزة / ٢٣٨ / بالذهب من الطرفين. تلك الأشياء كلها: الإبريق، والوعاء، والمبخرتان، والشمعدانان، والقناديل، مصنوعة من الفضة المصْمتة، المرصعة بمهارة، وقد جُلبت – شأنها شأن بقية الأشياء – من منزل الشريف. وعندما قَدَّرَ القائمون عن

خدمتنا أننا نلْنا قسطاً كافياً من الراحة انفتح باب في صدر المجلس، وظهرت لنا طاولة أُعدّت على الطريقة الأوروبية؛ مع الصحون، وغطاء المائدة، والسكاكين، وحولها الكراسي؛ أي كل الأشياء المجهولة في الشرق حيث يأكل الناس جلوساً على الأرض، وتقوم أصابع المدعوين مقام كل الأشياء الأخرى. كانت الشوكات من الحديد ولها قبضات من العاج، والملاعق كانت من المحار المرصع بزخارف ذهبية.

كان العشاء يزخر بأنواعٍ الأطعمة المحلية. جاء أولاً الخروف الذي يُعَدّ من عادات الضيافة، كان محشواً بالرز، واللوز والفستق. ثم تلته أوراق العنب المحشوة، والكباب؛ وهو قطع من اللحم مربعة ومشوية على السفود، وعصائر الورد المخثّرة المطبوخة مع صدور الفراريج أو الخراف، أتت بعد ذلك كله تشكيلة منوعة من الحلويات تسمى "الفطير". ناهيك عن الأشياء الأخرى العجيبة؛ كان كل ذلك متبلاً بالأعشاب العطرية المقطعة في الخل، وله صلصة بالكريما المطيبة بالتوابل؛ وهو خليط كان يثير الرعب لدى بدر الدين حسن؛ الحلواني المشهور في "ألف ليلة وليلة". ثم أعلن تقديم البيلاف[1] نهاية العشاء الذي جرت مراسمه بسرعة كبيرة.

كان الساقي / ٢٣٩ / يحمل دورقاً، أو قُلّةً، مملوءةً بالماء البارد يطوف به في كأس من الفضة يشرب الجميع منها. ولست بحاجة للقول: إن النبيذ لم يكن موجوداً؛ ولكن القائمين على خدمتنا كانوا يعرفون عادة المسيحيين، فقالوا لنا بلطف: إنه لا ينبغي أن نخجل من ذلك إذا كنا نحمل معنا، وقد كنا في واقع الأمر قد اتخذنا الاحتياطات لذلك؛ إلا أننا لم نشربه إلا في غرفنا الخاصة احتراماً لمستضيفنا.

(١) البيلاف: طعام شرقي من أرز ولحم وتوابل.

ولمّا انتهى الطعام، عدنا إلى المجلس لشرب القهوة والتدخين، وفي حوالي العاشرة قادونا إلى الحرملك في الطابق الأول حيث أُعدت لنا مبالغة بالاهتمام أَسِرَّة أوروبية. وكانت النساء قد غادرن المنزل في الصباح ليخلين لنا المكان، ومع أنهن غائبات فإن كل شيء في البيت كان يُذكّر بهن. كان هذا البيت من أجمل بيوت المدينة، ويمتلكه تاجر غني من أصل هندي اسمه محمدسيد شمس[1]، وكانت أعماله في مكة المكرمة، إلاّ أنه كان في تلك الفترة يسكن الطائف، ووضع بيته تحت تصرف الشريف من أجلنا، وذهب مع أسرته كلها إلى منزل آخر، وكان في الأسرة ثلاثة أجيال ابنه عبد الله، وحفيده عبد القادر الذي يذكّرني، سنه، وصورته، وثيابه، بفتىً آخر يحمل الاسم نفسه؛ إنه ابن فراج يوسف في جدة، وقد كان هندياً مثله.

إن اسم عبد القادر الذي اكتسب شهرة واسعة في فرنسا هو اسم ولي من أكبر / ٢٤٠ / أولياء المسلمين، وهو شائع جداً في الشرق. كانت الأجيال الثلاثة في استقبالنا عند وصولنا. ولكن ابن محمد شمس وحده هو الذي لبى دعوتنا للعشاء، بينما ذهب الجد بسبب كبر سنه، والحفيد بسبب صغره إلى النوم في ساعة مبكرة.

---

(١) قال الدكتور سليمان بن صالح آل كمال في تعقبه **الدكتور آل زلفة**، موثق سابقاً: "إن هـذا الـبيت موقعه في محلة واسط (أي وسط القرية) بزقاق الخميس، مبني من الحجر ويتألف من عدة طوابق. أما بيت شمس الدين فهم من الأسر المكية الثرية في ذلك العهد، بـرز منهم بعض العلماء، وكانوا يمتلكون مكتبة ضخمة. أورد ذلك عنهم الشيخ أبو الخير عبد الله مرداد رحمه الله في كتابه القيم (**المختصر من نشر النور والزهر**) وينسب إليهم في الطائف مسجد شمس بمحلة السليمانية. وذكر غير ذلك. وانظر: **بوركهارت في رحلاته ...**، موثق سابقاً، ص ١١٩ – ١٢٠

وتناول الشريف حامد طعام العشاء معنا، ولكن الشريف سليماً الذي أنجز مهمته استأذن منا للذهاب إلى منزله للاستراحة. وباستثناء واحد أو اثنين من خدم المنزل، كان الجميع قد قدموا من بيت الشريف الأكبر الذي تخلى لنا عن طباخه الخاص، واستغنى عنه طوال مدة إقامتنا في الطائف: لقد كان فناناً حاذقاً، أصله من إستانبول، وأخذ عنه غاسبارو عدداً من وصفات الطبخ المحلية، وحضرها لنا فيما بقي من الرحلة. وكانت طاولتنا في كل يوم عامرة بأنواع المآكل التي كانت في اليوم الأول.

وجاء في اليوم التالي القائمون على خدمتنا يتلقون رغباتنا فيما نود أن يقدم لنا في الفطور كما لو أننا كنا في بيوتنا، ويقوم على خدمتنا خدمنا الخاص. وكان جوابنا، أننا لا نأكل في الصباح إلاّ قليلاً، فقدموا لنا في صحون صغيرة الحجم وجبة طعام خفيفة من الزبدة الفاخرة، والجبن الطازج القليل الملح، والفواكه، والزيتون، والعسل اللذيذ، وتشكيلة من المربيات من كل الأنواع تم تحضيرها في منزل الشريف الأكبر بعناية نسائه. إن الرقيق في الشرق، وخصوصاً الحبشيات، ماهرات جداً في هذا المجال، وتشرف السيدات / ٢٤١ / عادة على عمليات الإعداد المهمة. وهذه واحدة من أكثر وسائلهن براءة لتمضية الوقت، وهو أمر مهم لهؤلاء السيدات اللواتي لا يقمن بأي عمل. وتنافس الحريم في هذا المجال بعض الأديرة الإيطالية حيث تكشف الراهبات عن مواهب جليلة في هذا النوع من الأعمال، ويتمتعن بشهرة مستحقة.

وإن راهبات دير لامارتورانا La Martorana في بلرم [(١)] Palerme، وأخريات غيرهن، يتركن ذكريات لطيفة في ذاكرة كل المسافرين. وإن للرهبان اختصاصاتهم أيضاً؛ إذ يصنع كثير منهم، كما هي حال رهبان دير غرونوبل الكبير La Grande-Chartreuse de Grenoble، ماء ورد لا نظير له.

يقيم الشريف الأكبر في قصر يبعد نصف ساعة عن المدينة، بناه في عمق الصحراء، وكان لا يكاد يغادره. وأرسل لنا خيولاً لتحملنا إليه. كان اسم حصاني "عسير" باسم المنطقة التي جُلب منها، وكان فحلاً رائعاً أسود اللون، يشتعل حيوية ونشاطاً، وكان وديعاً، شأنه شأن الخيول العربية كلها، ويستطيع الطفل ركوبه. أمّا السرج الذي كان مكسواً بالصوف الأزرق، وموشى بخيوط ذهبية رفيعة، حسب الطريقة التي يستخدمونها في إستانبول، فقد كان ذا ثمن باهظ وروعة تليق بالأمراء حقاً.

كان الجندي الانكشاري يسير في مقدمة الموكب، وهو يحمل عصاه الطويلة ذات المقبض الفضي، وكان يرافقنا عدد كبير من الحراس؛ منهم الفارس والراجل. وكان سائس خيل الشريف يسير أمامي، وهو يرتدي الثياب الخاصة بالمناسبة. إن لسائسي الخيول عند العرب منزلة عالية، وتنحصر وظيفتهم الأساسية في الجري / ٢٤٢ / على أقدامهم أمام حصان السيد أو هجانه، ومهما كانت سرعة الحصان أو الهجان

---

(١) بـــلرم، بالرمو بالإيطالية: مدينة في جزيرة صقلية، وهناك كنيسة تحمل اسم لامارتورانا تعود إلى القرن الثاني عشر الميلادي، ورمّمت في القرن السابع عشر.

فإنه لا يرتضي لنفسه أن يسبقاه. وقد اعتاد السائس الذي أتحدث عنه أن يسير أياماً طويلة أمام هجان الشريف الأكبر.

إن قوة هؤلاء الرجال عجيبة، وإن لهم قدرة على السير خارقة، ورئتين من فولاذ. ويضرب الناس مثلاً في القوة والسرعة بأحد ساسة محمد علي الذي جرى بلا انقطاع أمام هجان الباشا طوال الطريق من القاهرة إلى السويس، ثُمَّ سقط ميتاً عند الوصول. عَبَرْنا السوق (البازار)، حيث كنا بالطبع محل اهتمام فضول العامة. لقد كنا أول الأوروبيين الذين قدموا إلى الطائف علناً باستثناء قنصل فرنسي مريض جاء إلى الطائف للاستشفاء بدعوة من الشريف الأكبر. وكان فيها أيام حرب الوهابيين عدد لا بأس به من الأوروبيين من أطباء أو غيرهم في خدمة باشا مصر[1]. وقد جاء إليها بسبب أعمالهم المتنوعة عدد من الأوروبيين في ذلك العصر، ولكنهم كانوا جميعاً يرتدون زي العثمانيين، ويختلطون بهم. أما أنا فقد كانت هويتي المسيحية شبه ظاهرة لأنني احتفظت بالزي الأوروبي، باستثناء الطربوش، وارتديت فوق الزي الأوروبي لكي أبدو أكثر احتشاماً، عباءة فضفاضة سوداء كنت قد اشتريتها في جدة.

---

(١) محمد علي، ولعل ديدييه يشير هنا إلى تاميزييه الذي كان ضمن جيش محمد علي الذي دخل الطائف في سنة ١٨٣٤ م، وقد وصفها تاميزييه وصفاً مفصلاً يبدو أن ديدييه قد اطلع عليه ونهل منه، انظر عن تاميزييه ورحلته كتاب جاكلين بيرين، **اكتشاف ...**، موثق سابقاً، ص ٢٥٣ – ٢٦٢. ومقدمة الدكتور محمد بن عبد الله آل زلفة لترجمته الجزء الثاني من رحلة تاميزييه المعنونة: **رحلة في بلاد العرب، الحملة المصرية على عسير ١٢٤٩هـ / ١٨٣٤ م**، الرياض، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣ م. و**وصف الطائف في رحلة تاميزييه (النص الفرنسي)**، ج ١، ص ٢٧٠ – ٣٥٣.

خرجنا من المدينة عَبْر باب الريع، وقدم لنا الحرس التركي / ٢٤٣ / التحية العسكرية، كما حصل عند وصولنا . وما كدنا نتجاوز أسوار المدينة حتى وجدنا أنفسنا نسير بين خرائب ضاحية قديمة تهدمت، ولم يُعَد بناؤها أبداً[١]، ثم تبدأ الصحراء بعد ذلك، ويقوم غير بعيد على قارعة الطريق مسجد منفرد ترتفع فوقه مئذنة بيضاء .

إن لمظهر قصر الشريف بعض الأناقة، ولا ترى العين فيه أي تناسق. وهو ليس ضخماً ولا أنيقاً، إنه خليط غير متناسق من الأبنية المتجاورة بدون نظام، والتي أقيمت بلا مخطط، ولكن يحيط بها سور واحد، ومن المؤكد أنه واسع من الداخل إذا احتكمنا إلى العدد الكبير من السكان الذين يضمهم بين جنباته .

ليس للشريف الأكبر إلاّ امرأة واحدة شرعية، كما هي العادة اليوم بين المسلمين، ولكن حرمه يعج بما يقارب ستين جارية من السود أو البيض، وعدد لا يقل عن ذلك من الخدم الذكور، ناهيك عما يقارب مئة من الخصيان أو غيرهم مكلفين أعمالاً مختلفة. أجهل عدد أبنائه، إلا أنني لمحت أحدهم وكان حينئذ يبلغ العاشرة أو الثانية عشرة من العمر، والذي وافته المنية بعد ذلك الحين، وكان يرتدي ثوباً من الحرير الأصفر. يمتلك الشريف الأكبر ثروة ضخمة؛ لأنه استرد ثروة أبيه غالب كلها، ويزعم الناس أن في خزانته مئة مليون فرنك، ناهيك عن أنه يتلقى منحة سنوية من إستانبول

---

(١) ذكر الدكتور آل كمال في مقاله الموثق سابقاً، أن هذه الضاحية هي قرية السلامة التي تقع في قبلة الطائف من قبل باب الريع.

تتجاوز ٤٠٠ ألف فرنك، ويزعمون أيضاً أنه، وهو يعيد بناء قصر والده الذي دمره / ٢٤٤ / محمد علي، وجد بئراً مليئة بالذهب أخفاه فيها جده الشريف مساعد.

ولما وصلنا إلى القصر كان يجتمع هناك أكثر من ثلاث مئة بدوي، يرتدون قمصاناً زرقاء، هي لباسهم الوحيد، وكان أغلبهم قد وضع فوق الثوب على الكتف وشاحاً أرجوانياً، وكانت أحزمتهم من الجلد، وحمائل سيوفهم مزينة بصفائح الفضة، وعماماتهم مزينة بالأصداف، لقد كانوا يشبهون في كل شيء بدو هذيل الذين رأيناهم في جبل كرا، وكانوا، مثل أولئك، يحملون خناجر معقوفة، ورماحاً، وبنادق من ذوات الفتيلة، وكانوا جميعاً حفاة، يميلون إلى النحول. ولكنهم كانوا عموماً ذوي قامات ممشوقة، يتمتعون بالرشاقة وكأنما قُدّوا للسير والتعب. وكان بينهم كثير من السود، الذين لا نكاد نلحظ سواد العرب أمام سوادهم. اصطف هذا الجيش المتعدد الأعراق على جانبي الطريق لتحيتنا، ليس كما يصطف الجيش النظامي، ولكن بنوع من الفوضى التي تسود بين الرجال غير المنظمين. رددنا لهم التحية حسب تقاليد البلد، دون أن نرفع أيدينا حتى الرأس لأن مثل هذا التقدير لا ينبغي إلا للأسياد، أو الأقران الذين نود تشريفهم. إن كل شيء في الجزيرة العربية، كما في الشرق كله، له قوانينه المحددة، وكل شيء يحكمه العرف، وإن بين أبسط أمور / ٢٤٥ / الحياة فوارق دقيقة ينبغي التقاطها للالتزام بها.

نصعد إلى القصر عبر مدخل له درج مؤلف من سبع أو ثماني درجات، استقبلنا عنده كلٌ من إبراهيم أغا الذي كنا قد عرفناه من قبل، وكبير الخدم، وبقية العاملين في

بيت الشريف الأكبر. ووجدنا بينهم صديقنا القديم طاهر أفندي الذي كان لباسه الأوروبي يتباين تبايناً واضحاً مع الأثواب الفضفاضة، والمخصّرة، والبهية التي كان يلبسها الآخرون. كان المدخل يعج بالخدم، وخلعنا أحذيتنا فيه كما تقتضي الكياسة. إن آداب اللياقة في هذه النقطة محكومة بقوانين هي عكس قوانيننا تماماً: إن الرجل الذي يأتي المجالس في الشرق متنعلاً حذاءه، حاسرالرأس، يترك الانطباع الذي يتركه الأوروبي إذا دخل الصالون حافي القدمين والقبعة على رأسه. ولكنني في هذه العادة أرى أن الحق مع الغربيين الذين يكشفون القسم النبيل من جسدهم (الرأس) ويغطون القسم الأدنى (القدمان).

أدخلونا مجلساً صغيرًا، بسيطاً كل البساطة؛ كان سقفه مطلياً، أمّا الجدران الداخلية فقد كانت عارية تماماً، إلاّ من حسام تركي رائع، أهداه السلطان للشريف، مرصع بالأحجار الكريمة، وكان معلقاً على الجدار وكأنه لوحة. لقد كان الزينة الوحيدة في ذلك المجلس. كان السجاد نفيساً، / ٢٤٦ / والأرائك من الحرير الأخضر الموشى بخيوط الذهب، كتلك التي كانت موجودة في المنزل الذي نقيم فيه، والتي أتت بالطبع من المصدر نفسه.

لم يكن الشريف في المجلس عندما دخلناه، وإليكم السبب؟ إن كونه الشريف الأكبر، وأمير مكة المكرمة يحتم عليه ألاّ ينهض لأحد إلاّ للسلطان الأكبر الذي ينهض هو بدوره له. وإذا أراد الشريف إكرام أحد زواره فإنه يحرص على ألاّ يكون موجوداً في المجلس عند دخول الزائر، لكي لا يستقبله جالساً؛ فهو لا يدخل إلاّ بعده، محافظاً بهذه الطريقة على أصول اللياقة، ومحتفظاً أيضاً بما يتميز به.

وقد جرت الأمور معنا بهذه الطريقة؛ لقد خرج بعد لحظات قليلة من الغرفة المجاورة، يرافقه عدد من الأشراف الذين جلسنا وجلسوا مثلنا، والشريف أيضاً، على كراسٍ أوروبية كانت، والحق أقول، غير مناسبة بعض الشيء في مثل هذا المكان. إن بداية الزيارة في الشرق تكون على الدوام صامتة، ندخل، ونجلس، ونُسَلّم، وكل ذلك دون أن ننبس ببنت شفة، وبعد أن نتناول القهوة، وليس أبداً قبلها، يبدأ الحديث بالمجاملات المتبادلة، وهي على الدوام المجاملات نفسها التي لا يمكن إغفالها، وإلاّ نخالف أصول الكياسة. وما إن انتهى هذا القسم الأول من الزيارة حتى انسحب الأشراف، وبقينا وحدنا مع الشريف الأكبر، ونحن ندخن جميعاً غلايين طويلة في نهايتها العنبر، أحضروها لنا بعد القهوة، من غير أن يمنعهم ذلك من توزيع الحلويات التي تلت القهوة، والتي كان يُطاف علينا بها طوال وقت الزيارة. / ٢٤٧ / كان حسين عبد المطلب[1] بن غالب هو الشريف الأكبر، وكان شيخاً جليلاً يبلغ

---

(١) كذا سماه ديدييه والمشهور أنه عبد المطلب بن غالب من ذوي زيد تولى الشرافة ثلاث مرات، الأولى: في أغسطس (آب) ١٨٢٧م / صفر ١٢٤٣هـ وتخلى عنها في العام نفسه، وخلفه محمد بن عون ١٨٢٧ – ١٨٥١م / ١٢٤٣ – ١٢٦٧هـ. وسافر إلى دمشق في عام ١٨٣١م / ١٢٤٦هـ مع قافلة الحج الشامي، ومنها إلى إستانبول. والثانية: في عام ١٨٥١ – ١٨٥٦م / ١٢٦٧ – ١٢٧٣هـ، وقد زاره ديدييه إبّان هذه الفترة، وكان عبد المطلب اتجه إلى الطائف خوفاً من تآمر باشا جدة عليه، ونجد فيما يقوله ديدييه أصداء ذلك الخلاف بين الباشا والشريف. والثالثة: في عام ١٨٨٠ – ١٨٨٢م / ١٢٩٧ – ١٢٩٩هـ، وقد تم في نهاية هذه الفترة أسره في الطائف أولاً، ثم سمح له فيما بعد أن يعيش تحت الحراسة في أحد بيوته الكبيرة في البياضة بمكة المكرمة=

الستين من العمر، طويل القامة، نحيلاً، تلمس النبل في تصرفاته، والتميز في كل جوانب شخصيته. كان لون بشرته غامقاً جداً، يكاد يكون أسود، وعيناه تتوقدان حيوية، وأنفه مستقيماً، وله لحية خفيفة، ومحياه لطيفاً جداً. كان يتوشح وشاحاً كشميرياً، ويلبس ثوباً أزرق فاتحاً، ويزين خصره خنجر رائع مطلي بالذهب، تلتمع عليه الأحجار الكريمة التي يخطف لمعانها الأبصار.

بدأت حديثي بأن شكرت له كرم الضيافة الذي خصني به، وبالإشادة بما قام به الشريف حامد من أعمال ودية تجاهنا؛ فأجابني الشريف على ذلك بلطف بقوله: إنه اختاره لأنه كان يعرف حق المعرفة أننا سنكون مسرورين منه. كان الشريف قد علم منذ زمن بإزاحة عدوه باشا جدة من منصبه؛ وإلاّ فإنه كان على علم بالشائعات التي تسري بهذا الشأن. لم يكن بالإمكان أن أتقرب إليه بطريقة أفضل مما حدث، وقد خدمتني المصادفة كما أتمنى. وعلى الرغم من أن العرب يحسنون السيطرة على أنفسهم، ولا يتركون مشاعرهم تبدو على وجوههم، فإن وجه الشريف تهلل لهذا

= في الطريق إلى منى، وبقي تحت الإقامة الجبرية إلى أن مات في كانون الثاني (يناير) ١٨٨٦م / ربيع الثاني ١٣٠٣هـ. وهكذا فقد تميز عهد الشريف عبد المطلب بفتراته الثلاث بالخلاف الدائم بينه وبين الولاة العثمانيين. انظر: **دراسات من تاريخ عسير الحديث**، د. محمد بن عبد الله آل زلفة، ط ١، الرياض، ١٤١٢هـ، ص ٤٥ — ٦٢؛ وكتاب: **عسير من ١٢٤٩هـ — ١٨٣٣م إلى ١٢٨٩هـ — ١٨٧٢ م، دراسة تاريخية**، علي أحمد عيسى عسيري، مطبوعات نادي أبها الأدبي ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م، ص ٢٧٢. وانظر: **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، موثق سابقاً، ج ١، ص ٢٧٦ — ٢٧٨، ٢٨٤ — ٢٨٧، ٢٩٤ — ٢٩٧.

الخبر بعلائم الفرح، وسواء كان يريد أن يبدو ذلك عليه أم لا فإن علائم السرور بدت على قسمات وجهه كلها.

ثم بدأ الحديث بعد ذلك عن الشؤون اليومية، وعن مطامع روسيا، وعن التحالف بين فرنسا وبريطانيا / ٢٤٨ /، وعن موقف أوروبا عموماً والنمسا على وجه الخصوص. كان يصغي بانتباه شديد إلى كل المعلومات التي كنت أخبره بها، وكان يطرح عليّ أسئلة تُظهر حسن اطلاعه على الأمور، وفهمه العميق للوضع. لقد بدا لي منفتحاً بقدر ما هو مستقل، وإن كان لدي ما آخذه عليه فذلك أنه كان مدنياً أكثر مما ينبغي، ومتأوْرباً أكثر من اللزوم. ولعل سبب ذلك أنه قضى أربعة وعشرين عاماً من حياته في إستانبول قبل أن يسمح له الباب العالي بالعودة إلى الجزيرة العربية، وأن يعيد إليه لقب أبيه غالب، وعلى الأقل، قسماً من ثروة أبيه وسلطته.

لم أنسَ أبداً، وأنا أحدثه، وأستمع إليه، أنني أتعامل مع عربي، وليس مع تركي؛ وأنه لا يستطيع باعتباره عربياً، أن يرجو صادقاً انتصار الجيش العثماني، بل إنه على العكس تماماً كان يأمل اندحار غزاة وطنه، وأنه باختصار كان في دخيلته أميل إلى الروس منه إلى البريطانيين أو الفرنسيين. وحاولت أن ألمح تلميحات بعيدة وغير مباشرة إلى موقفه الخاص، وموقف بلده: ولكنه لم يكن يود التنبه إليها، وظل متمسكاً في هذا الخصوص بتحفظ لم يتخل عنه ولو لحظةً واحدة. وقد أثبتت الوقائع التالية أنني، وعلى الرغم من حذره، وصمته، استطعت التعرف على ميوله الحقيقية.

كان بكل تأكيد قد بلغت أسماعه أخبار انقلاب الثاني[1] من ديسمبر (كانون الأول)، وقد بدا كثير / ٢٤٩ / الفضول ليعرف مني حول هذا الحدث تفاصيل شاملة، لقد أشبعت فضوله بالإجابة عن كل أسئلته، وبإخباره خلال ساعتين كاملتين، وباعتباري شاهد عيان، بالقصة الكاملة تقريباً لتلك الواقعة المعاصرة. ولما انتهت زيارتنا الأولى عدنا إلى الطائف بطريقة القدوم نفسها، ولقينا الاحترام نفسه من البدو الذين كانوا ما زالوا متجمهرين حول القصر، ومن جنود الحرس التركي على باب المدينة. لقد كنت، بخصوص الحرس التركي، مندهشاً من أنهم كانوا يقدمون لنا التحية خلال مدة إقامتنا كلها، وهم تابعون للباشا، وليس للشريف الأكبر الذي كان يتجنب أي احتكاك بهم. إذاً، لم يكن الشريف هو الذي يأمرهم بأداء التحية لنا، وأجهل لمن كنت أدين بذلك التميز الذي لم يكن من حقي، ولا أطمح إليه.

أُقيمَ منزل أسرة شمس الذي نزلنا فيه على نمط منازل مكة المكرمة، إلا أنه أكثر صلابة وأناقة، ويتألف من ثلاثة طوابق. الطابق الأرضي الذي سبق أن تحدثت عن موقعه، وهو يستخدم في الأحوال العادية لاستقبال الزوار، ولا تنزل فيه النساء أبداً. أما الطابقان الآخران فيتألفان من غرف ضيقة، وسيئة الإضاءة، وهي

(١) في عام ١٨٥١ في فرنسا، وحدث الانقلاب إثر خلاف بين رئيس الجمهورية الفرنسية الثانية المنتخب بالاقتراع المباشر عام ١٨٤٨م وهو الأمير لويس بونابرت الذي كان على خلاف مع المجلس الوطني وتمخض الخلاف عن الانقلاب المذكور الذي حمل إلى السلطة دكتاتوراً هو نابليون الثالث الذي حول الجمهورية بعد سنة من وصوله إلى الحكم (٢١ ديسمبر ١٨٥٢) إلى إمبراطورية وراثية. ويقول ديدييه إنه كان شاهد عيان على هذا الانقلاب.

مخصصة حصراً للحريم ولكل ما / ٢٥٠ / يتعلق بهن من عبيد وخدم، الخ. ويعلو البيت سقف محاط بجدار على شكل درابزين، نشرف منه على المدينة كلها؛ وهي ليست ضخمة، ينتشر فيها عدة مئات من البيوت، كثير منها نصف مهدمة، وقد أقيمت دون نظام حول ساحة تأخذ شكل مربع طويل؛ وهناك عدد من الدروب الضيقة المغبرَّة، يطلق عليها اسم شوارع، وتخترق تلك المتاهات غير المنظمة.

كان هناك منزل واحد؛ هو منزل الشريف السابق ابن عون[1] الذي كان حينها يعيش في إستانبول، أقيم حسب مخطط معماري بسيط، وهو، مقارنة بالمنازل التي تحيط به، يستحق اسم القصر. وفي أحد الأطراف القصية للساحة، ينتصب قصر مربع، له أبراج تحصينية في جوانبه الأربعة، وقد أقامه قبل بضع سنوات الشريف غالب لتعزيز أمنه الخاص[2]، أصبح بعد ذلك، وبعد بضع سنوات، سكناً لمحمد علي الذي أزال سطوة غالب[3].

(١) محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد المعين بن عون، تولى الشرافة (١٨٢٧ – ١٨٥١م / ١٢٤٣ – ١٢٦٧هـ) خلفاً لعبد المطلب في شرافته الأولى، وينسب إلى جده الأعلى فيقال محمد بن عون، لأن جده هو مؤسس الأسرة الجديدة لذوي عون، وفي عهده ١٨٣١م / ١٢٤٦هـ أصابت الكوليرا سكان مكة المكرمة لأول مرة، وخرج في عام ١٨٤٦م / ١٢٦٣هـ لقتال الأمير فيصل بن تركي في الرياض (الدولة السعودية الثانية) الذي توفي عام ١٨٦٥م / ١٢٨٢هـ. وقد تخلى محمد بن عون عن الشرافة طوعاً عام ١٨٥١م ليتولاها عبد المطلب بن غالب الذي أجبر على التخلي عنها في عام ١٨٥٦م / ١٢٧٣هـ وتولاها محمد بن عون من جديد حتى عام ١٨٥٨م / ١٢٧٤هـ، وتوفي في مارس (آذار) ١٨٥٨م / شعبان ١٢٧٤هـ. انظر: **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، موثق سابقاً، ج ١، ص ٢٧٨ – ٢٨٨.

(٢) انظر **حديث الدكتور آل كمال عن القلعة وبنائها** في مقاله الموثق سابقاً.

(٣) انظر **رحلات بوركهارت ...**، موثق سابقاً، ص ٨٢.

إن بساتين الطائف التي تجعلها مشهورة في الحجاز كله منتشرة حول المدينة، وتبدو كأنها واحات في وسط الرمل. إن البساتين صغيرة على العموم، وفيها قليل من النباتات، ولا تدين بشهرتها إلا للقحط الشامل الذي يسود الجزيرة العربية. وتسد الأفق من كل الجهات سلسلة من الجبال، مسننة، كثيرة التشققات، تتخذ أشكالاً متنوعة؛ من شكل السهم المدبب للنواقيس المسيحية، إلى شكل القبة المدورة لمساجد المسلمين. وإليكم أسماء أكثرها ظهوراً كما أملاها عليّ مستضيفي /٢٥١/: في الغرب وفي الشمال الغربي من جهة مكة المكرمة والمدينة المنورة، جبل بَرَد، وجبل الهدا، وجبل السكارى؛ وفي الجهة المقابلة مجرّ الشاش[1]، والثمامي، وأخيراً

---

(١) مجـر الشـاش: جبل في قبلة محلة شهار، به كانت دكة الملك سعود رحمه الله. وكتب ديديـه الثمامي El-Tomané، وفي **معجم معالم الحجاز للبلادي**، ج ٣، ص ١٢٩ في حديثه عن خُشَيْـرمة يقول: جبل ضخم ذو خشارم ووهاد يشرف على المسيحيد من الشـمال، يسـمى شقه الشرقي الثمامي؛ أما ريـع (روع) الشهـداء الذي كتبـه ديدييه Rou-el-Chohada، وترجمه إلى الفرنسية Col des Martyrs، فلم أجد إلا أنه مكان في الطائف شرق مسجد ابن عباس سمي بشهداء حصار الطائف عندما غزاها النبي ﷺ ثم امتد الحي إلى الضفة الشرقية من وج حتى أقبل على وادي نخب، **معجم معالم الحجاز**، ج ٥، ص ١١١. وذكـر الدكتور آل كمال في **تعقبه د. آل زلفة** أنهما جبلا الشهداء وعـرفا أيضاً بالبازمين: أحدهما يقع بمحلة الشهداء الشمالية شرق وادي وج، والآخر غـرب الوادي بمحلة الشرقية. وذكر أن جبل السكارى هو جبل أم السكارى غرب الطـائف ويفصـل بين قريتي السلامة والآبار التي تعرف اليوم محلة (قروى) وقد أطلق عليها الأتراك اسم إستانبول الصغيرة.

ربع[1] الشهداء . إن الطبيعة قاسية هنا على الرغم من انتشار البساتين، وإن ميزتها العامة هي القحط؛ إذ لا نجد فيها قطرة ماء واحدة. إذا احتكمنا إلى الصعود الصعب الذي واجهنا في جبل كرا، والذي يتلوه نزول قصير وسهل، فإن الطائف مرتفعة جداً عن سطح البحر[2]. وكان عليّ فيها أن أحترس من البرد، بعد أن عانيت من الحر الشديد في جدة قبل ثلاثة أسابيع.

اشتق اسم الطائف في العربية من "الطواف"، وهناك بخصوص هذا الاشتقاق حكاية محلية فيها بعض الاختلاط، وقد رويت لي في الساحة، وأعترف أنني نسيتها[3]. ويُروى أن النبي محمداً ﷺ لمّا لم يلقَ آذاناً صاغية في مكة المكرمة جاء إلى

---

(١) الرِّيع: الممر المرتفع بين جبلين، وأسهل منه الثنية، وأسهل من ذلك كله الفج، و لم يذكر جغرافيونا القدماء ريعاً وجعلوا كل الريعة ثنايا، رغم أن الريع من الفصحى وقد نص عليه القرآن الكريم الشعراء، "أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ(١٢٨)"، **معجم معالم الحجاز**، ج ٤، ص ١١٥.

(٢) ترتفع الطائف عن سطح البحر ١٥٥٠ متراً.

(٣) قال العجيمي في كتابه: **إهداء اللطائف من أخبار الطائف**، ط ٢، دار ثقيف للنشر والتأليف، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م تحقيق يحيى محمود ساعاتي (بن جنيد)، ص ٣٥ – ٣٦: "... سميت به لأنها طافت على الماء في الطوفان، أو لأن جبريل عليه السلام، طاف بها على البيت، أو لأنها كانت بالشام فنقلها الله تعالى إلى الحجاز بدعوة إبراهيم عليه السلام، أو لأن رجلاً من الصدف أصاب دماً بحضرموت ففر إلى وج وحالف مسعود بن متعب بن مالك بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف، وكان له مال عظيم فقال: هل لكم في أن أبني طوفاً عليكم يكون لك ردءا من العرب؟ فقالوا: نعم. فبناه، وهو الحائط المطاف به". وانظر **المحقق** رقم (١٤) في ص ٣٦. وانظر ما قاله الدكتور آل كمال في **تعقبه د. آل زلفة**.

الطائف يدعو أهلها للإيمان به، ولكنه لم يجد فيها من يصغي إليه أيضا؛ بل قام أهلها بطرده وسخروا منه، وهددوه، ووجد نفسه مضطراً للعودة مسرعاً إلى مسقط رأسه[1]. يسكن الطائف بدو قبيلة ثقيف[2] باستثناء بعض الأسر القليلة الغريبة، هندية أو غيرها[3]. لقد أصبح بدو ثقيف حضريين، بل صناعاً وتجاراً. إنهم يصنعون[4] بأنفسهم غالبية الأشياء الضرورية للحياة العامة، كما يصنعون أسلحتهم،

---

(١) انظر: **إهداء اللطائف من أخبار الطائف**، موثق سابقاً، ص ٤٩، وانظر **سيرة ابن هشام** ١ / ٤٢٠.

(٢) ثقيف: قبيلة كبيرة، ذات ماض شريف، اختلف أهل العلم بالأنساب فيهم على أقوال. انظر: **الطائف، جغرافيته – تاريخه – أنساب قبائله**، موثق سابقاً، ص ٥٢ – ٨٤. وكتاب: **تاريخ الطائف قديماً وحديثاً**، مناحي ضاوي حمود القثامي، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، ط ٢، ١٤٠٧هـ، ص ٤٤ – ٤٥. وانظر: **رحلات بوركهارت ...**، موثق سابقاً، ص ٨٣. وسكنت الطائف قبائل أخرى قبل الإسلام وبعده منها: بنو مهلائيل، وثمود، وإياد، وعَدْوان وإليهم ينتسب عثمان المضايفي وهم أصهار ثقيف، وبنو عامر بن صعصعة، وقريش سكان الطائف المحالفون لثقيف، وعتيبة وهي من أكبر القبائل في الجزيرة العربية وأكثرها انتشاراً وامتداداً. انظر تفصيلات أكثر عن هذه القبائل في كتاب: **الطائف: جغرافيته – تاريخه – أنساب قبائله**، مذكور أعلاه.

(٣) **نقل محمد سعيد بن حسن آل كمال في كتابه** الموثق سابقاً، ص ٣٨، أنه في القرن الثاني عشر ... كثرت هجرة الأفغان والأكراد إلى الطائف ثم هجرة الهنود، وفي سنة ١٠٩٨هـ نفى الشريف أحمد بن زيد بعض التكرور إلى قرية الطائف على ما ذكره العصامي في **سمط النجوم**، ج ٤، ص ٢٢٢. وانظر **كتاب القثامي** الموثق سابقاً، ص .

(٤) انظر عن الصناعة في الطائف، كتاب: **تاريخ الطائف قديماً وحديثاً**، موثق سابقاً، ص ٤٢ – ٤٣، وعن التجارة فيها، ص ٣٩ – ٤١.

وأحزمتهم وحمالات سيوفهم الجلدية، وسجاد غير متقن الصنع / ٢٥٢ / مصنوع من وبر الجمال، والمجوهرات المصْمَتة التي تتزين بها نساؤهم. ولا يحتاج كل ذلك إلى عبقرية صناعية كبيرة، ولا إلى عمليات فنية معقدة. أما المحال التجارية فهي بائسة، ويديرها الرجال كما هو الحال في الشرق كله. ولا أذكر أنني لمحت امرأة واحدة خلال إقامتي في الطائف، مع أن الفرصة سنحت لي لرؤية عدد كبير من الناس عندما صادف وجودي فيها أحد أيام السوق، وقد كان كل شيء هناك تقريباً يُباع بالمزاد، واشتريت بنفسي، أو طلبت أن يُشترَى لي، بهذه الطريقة، على سبيل الذكرى، بعض المنتجات البسيطة كل البساطة من الصناعات المحلية.

رافقني إلى السوق أسودان وسيمان من خدم بيت الشريف، مسلحَيْن بالرماح والخناجر، ولم يكونوا يسمحان لأحد بالاقتراب مني. ولم يكن السكان على أية حال مزعجين. ولست أدري كيف كانوا سيعاملون مسيحياً منفرداً (لا يتمتع بحماية الشريف الأكبر)؛ ولكنهم كانوا يحترمون كوني ضيف أميرهم، ويظهرون لي احتراماً كبيراً، واعتباراً واضحاً.

كان التجار يدعونني إلى الجلوس في حوانيتهم، ويسرعون في الإجابة عن أسئلتي. كان الجميع يحيونني بأدب جم، ولما خرج أحد الشباب في السوق (البازار) عن حدود اللياقة معي، ردّه إلى الصواب أحد العبدين اللذين كانا يرافقانني بطريقة لن يعود معها في المستقبل إلى مثل ذلك. ولمّا امتدت بي النزهة إلى / ٢٥٣ / الريف، لاحظت مسجداً جميلاً جداً يكاد يلتصق بالأسوار، وفيه ضريح عبد الله بن

عباس؛ ابن عم النبيﷺ. إن هذا المسجد[1] الذي يُسَمّى باسمه باب المدينة القريب منه، هو الصرح الديني الوحيد في الطائف الذي يستحق أن يولى بعض الاهتمام، وقد هدمه الوهابيون[2]، كما فعلوا بكل هذا النوع من المعالم المقامة على أضرحة الأولياء إجلالاً لهم، وحتّى تلك التي أقيمت على ضريح النبيﷺ نفسه؛ لأن صرامة عقيدتهم، كما رأينا سابقاً، لا تبيح مثل ذلك؛ فهم ينكرون كل البدع، ويحظرون تقديس الأولياء. فالله وحده أهل للعبادة، وينبغي أن تكون عبادته روحية وليس لها أي جانب مادي. وقد أعيد بناء مسجد عبد الله بن عباس مرة أخرى بعد انسحاب الوهابيين من الطائف؛ ولكنه طُلي بالكلس الأبيض من أعاليه إلى أسافله، فأصبح له مظهر حديث لا يتناسب تاريخياً مع زمن بنائه المتقدم. وغير بعيد عن المسجد هناك مَعْلمٌ من عصر مختلف تماماً، ومن طبيعة مختلفة أيضاً: إنه حجر طبيعي، ولكنه

---

(١) انظر حول وصف مسجد عبد الله بن عباس: **إهداء اللطائف ...**، موثق سابقاً، ص ٧٣ – ٧٨؛ الزركلي، **ما رأيت وما سمعت**، ص ٥٤ – ٥٥؛ **تاريخ الطائف قديماً وحديثاً**، موثق سابقاً، ص ٦٧؛ **ومعجم معالم الحجاز**، ج ٨، ص ١٤٨ – ١٤٩. ويرجح أن بانيه هو الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله وكانت خلافة الناصر من ٥٧٥هـ إلى ٦٢٢هـ، وذلك سنة ٥٩٢هـ. ثم جدد بناؤه عددا من المرات. انظر: **إهداء اللطائف ...**، موثق سابقاً، وتعليقات المحقق.

(٢) قال **بوركهارت في رحلاته ...**، موثق سابقاً، ص ٨٢: "... وكان على قبر ابن عباس قبة حسنة، وكان يزوره كثير من الحجاج، إلا أن السلفيين قد هدموه تماماً". وقال العجيمي في **إهداء اللطائف ...**، موثق سابقاً، ص ٧٣: "... وعليه قبة صغيرة من خشب أيضاً، ليس بينها وبين سقف المسجد إلاّ نحو شبرين ...". واستولى الوهابيون على الطائف في عام ١٨٠٢م / ١٢١٧هـ بقيادة عثمان المضايفي.

مدوّر، أبفعل الزمن أم بيد الإنسان؟ إنه صنم من عصور الوثنية، ويسمونه: اللات. وهناك في منطقة غير بعيدة عن الطائف صنم آخر اسمه: العزى[1]. وقد أشار هيرودوت[2] Hérodote إلى أن سكان هذه البلاد كانوا يعبدون حجارة الصحراء[3]،

---

(١) هو سَمرة كانت لغطفان يعبدونها، وكانوا بنوا عليها بيتاً، وأقاموا لها سدنة، فبعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إليها فهدم البيت وأحرق السمرة. وهو صنم أنثى، وقد عبدته قبائل أخرى مثل: قريش، وباهلة، وخزاعة، ومضر، وكنانة، والمناذرة في العراق. انظر: **معجم معالم الحجاز للبلادي**، ١٤٠١هـ / ١٩٨١ م، ج ٦، ص ٩٠ – ٩٤؛ **ومعجم مصطلحات ....**، موثق سابقاً، ص ٣٢١؛ وقال البلادي في: **أودية مكة المكرمة**، ط. ١، دار مكة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م، ص ٥: "... ويرفد حُراضاً هذا شُعيب يقال له: (سُقام) بضم السين، يقع في فرعته مكان (العزى) الصنم المشهور. وقفت عليه برفقة الشريف محمد بن فوزان سنة ١٣٨٩هـ ". وذكر الدكتور آل كمال في تعقبه الدكتور آل زلفة أن العزى لقريش، وكان موقعه بوادٍ من نخلة الشامية يقال له حراض بإزاء الغمير يمين المصعد إلى نجد من مكة، ويبعد عن الطائف ٨٠ كم تقريباً.

(٢) هيرودوت Hérodote = Herodotus (٤٨٥؟ – ٤٢٥؟ ق. م): مؤرخ يوناني. يعرف بـ "أبي التاريخ".

(٣) كان صنم اللات المركز الديني الثاني بعد مكة المكرمة في العصر الجاهلي. وذكر القثامي في: **تاريخ الطائف قديماً وحديثاً**، ص ٢٦، أنه كان قرب حصن الطائف من الناحية الجنوبية الشرقية، وقد هدمه المغيرة بن شعبة عند فتح الطائف على يد الرسول ﷺ سنة ٩ للهجرة. وذكر القثامي في ص ٢٧ من كتابه المذكور أعلاه أنه يقال: إن صنم اللات كان في السابق مكاناً ليهودي يلت على حجر السويق (أي يصنع السويق للقادمين للحج، والسويق طعام يتخذ من الحنطة أو الشعير بعد قليه بالسمن)، فمسخ حجراً، وكان اللات عبارة عن صخرة مربعة بيضاء بنت عليها قبيلة ثقيف بيتاً صاروا يعبدونه، له ستار وفناء للطواف، وسدنة اللات بنو عتاب بن مالك قوم من ثقيف،=

وقد كانوا مايزالون في جهلهم يَعْمَهون / ٢٥٤ / عندما بُعثَ النبي ﷺ لينقل إليهم المفاهيم الصحيحة عن المعبود. إذاً، يُعد القرآن الكريم نقطة تحول جذرية في تاريخ الشعب الذي دوّنه، وكان أول من اتبع تعاليمه.

أرسل لنا الشريف الأكبر في اليوم التالي الخيول والمرافقين لزيارة المناطق المحيطة بالمدينة. لم يكن عدد أفراد حاشيتنا كبيراً إلاّ عندما كنا نذهب إلى القصر؛ ولكن سائس الشريف الأكبر والعبدين المكلفين بحمايتي كانوا على الدوام ضمن الحاشية.

= وقبلهم آل العاص بن يسار بن مالك، وكان لها حمى مخصص دخله للصنم، ويكسونه كل عام، وله خدم مع السدنة، وفي وسطه حفرة اسمها: غبغب، تحفظ بها الهدايا والنذور، وعندما هدمه المغيرة بن شعبة أخذ أموال الغبغب وسلمها إلى أبي سفيان امتثالاً لأمر الرسول ﷺ. وقد ذكر **هيرودوت في تاريخه** صنم اللات، قال الرحالة الإنجليزي جيمس هاملتون: إنه شاهد صخرة اللات عام ١٨٥٧ م، فوصفها بأنها صخرة من الجرانيت ذات شكل خماسي، وطولها حوالي اثني عشر قدماً. انظر أيضاً: **كتاب الأصنام**، ص ١٦؛ و**المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، لجواد علي، ج ٦، ص ٢٥؛ و**كتاب القثامي** المذكور أعلاه، ص ٢٤ — ٢٥، و ٥٢ — ٥٣، وص ٢٦ — ٢٧ حيث يقول: وقد بني مسجد الطائف الجامع في مكان اللات. ولا أجزم بموقع اللات الجزم المؤكد إنما حسب ما ورد هنا. ويذكر في ص ٥٢ أن **هيرودوت "أبو التاريخ" ذكر في تاريخه** صنمي اللات ومناة وأهمية كل منهما وانظر: **معجم مصطلحات ...**، موثق سابقاً، ص ٣٧٧. وقد ورد في **القرآن الكريم** ذكر للأصنام الثلاثة: اللات والعزى ومناة في قوله تعالى في سورة النجم، الآيتان ١٩ — ٢٠، ٢٣: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى(١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى(٢٠)... إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى(٢٣)﴾.

ناهيك عن أننا اصطحبنا معنا عدداً من خدمنا الخاص، ولم نر الشريف حامد كثيراً مدة إقامتنا في الطائف؛ إذ لمّا وصلناها، وانتهت مهمته، أو عُلّقت على الأقل، ولم يكن عليه أن يعود للسفر مرة أخرى إلاّ عند مغادرتنا إلى جدة، فقد كان لديه أصدقاء يزورهم، وأعمال يُصَرّفها، ولم يكن معنا إبّان الجولة. وقد حل محله الشريف سليم الذي أُرسل لملاقاتنا عند جبل كرا، ثم كُلّف أن يرينا مدينة الطائف. ليس لدي ما أقوله بخصوص هذا الشريف إلاّ القليل؛ إذ لم أقض معه إلاّ فترة بسيطة: لقد بدا متحضراً، ولكنه قليل التواصل، مما جعلني أسف على صداقة الشريف حامد ولطفه ومودته. كان الشريف سليم يركب فرسه البيضاء، وكان وجودها يثير أحصنتنا، ويجعلها صعبة المراس. كنت لحسن الحظ أمتطي حصاني "عسير"، وكان علي الاغتباط لذلك؛ لأن قوة شكيمته أنقذتني من حادث مؤلم؛ كنا على مسافة من المدينة، نسير في منطقة ضيقة / ٢٥٥ / تحيط بها من كل جهة هوة عمقها من ٦ إلى ٧ أقدام، ولاحظت متأخراً أن شجرة ضخمة ذات أشواك تعترض طريقي، كانت على مسافة قريبة جداً مني، ولمّا حاولت تلافيها كنت كالمستجير من الرمضاء بالنار: إذ قمت بحركة خاطئة جعلتني أسقط مع الحصان في قعر الهوة؛ ولحسن الطالع، سقط الحصان على قدميه، ولم أسقط عن صهوته، ولكن كيف السبيل إلى الخروج من الهوة؟ لقد تكفل عسير بذلك وحده، ونهض من الكبوة بجهده، دون مساعدة أحد، ودون أن أحثه بالمهماز على ذلك؛ لقد تسلق الهوة عمودياً بقائمتيه الأماميتين، ثم حرك عرقوبَيْ الخلفيتين حركة قوية، وبقفزة واحدة كنا معاً على الطريق.

كان فرح السائس بلا حدود، ومتناسباً مع الخوف الذي اعتراه: لقد ظنني ميتاً، أو على الأقل مهشماً؛ لأنه، بحكم مهامّه، مسؤول عن أمني، ولو أصابني مكروه لكان أول الملومين؛ ولما كان سيده مهتماً بنا فإنه كان سيدفع غالياً ثمن أي حادث يصيبني، ولو كان بسيطاً. كنّا حتّى الآن نسير على الرمال، وسط سهل مجدب، دون أن نجد ماءً ولا خضرة. لقد وجدناهما أخيراً عندما ولجنا وادي المثناة الذي ترتفع على جانبيه تلال، قممها جرداء، وأسافلها مغطاة بالبساتين المسورة التي تنساب منها جداول الماء بعد أن تسقيها وتخصبها / ٢٥٦ /، وتتجاوز الأشجار التي تظللها حدود الأسوار.

لقد كان هناك مسجد[١] جميل يمنح مدخل هذا الوادي الزاهي تميزاً وجلالاً. ثم ينفتح الوادي على ريف تكسوه أشجار النبق والأكاسيا[٢]، وتحيط به عن قرب جبال جرداء، أمّا الأرض فإنها غير مستوية، تتخللها وهاد عميقة، وتنتشر فيها المنحدرات الوعرة. وتقع في هذه الأرض الجبلية الحجرية قرية بدوية هي الوهط[٣]؛

---

(١) قال الدكتور آل كمال في **تعقبه الدكتور آل زلفة**: ... لعل هذا المسجد هو مسجد عدَّاس الذي لازال في موقعه ببساتين الأشراف آل غالب، وقد وجدت له ذكراً منذ القرن التاسع.

(٢) في الأصل De Nebeks, D acacias وورد في **رحلات بوركهارت ...**، موثق سابقاً، ص ٦٥ ... شجر السنط والسدر (النبق) وأورد المترجمان في الحاشية (٢) Acacias, Nebek، والأكاسيا هي الاسم العلمي لشجر السنط أو السلم وهو أنواع كثيرة منها شجر الصمغ. انظر: **معجم مصطلحات العلوم الزراعية للشهابي**، مادّة: Accacia.

(٣) قال الدكتور آل كمال في **تعقبه الدكتور آل زلفة**: ... الوهط ليست في المثناة بل في قبلتها بجوار سد عكرمة الحالي. وكانت بستاناً أو مالاً لعمرو بن العاص القرشي رضي الله عنه، ولازالت لأبناء قريش وبعض الأشراف، وبها عين الوهط الشهيرة.

ولكنني لم أر فيها ساكناً واحداً. قطعنا نزهتنا هنا، وعدنا على أعقابنا حتى حديقة الباطنة الذي يملكه الشريف الأكبر حيث كان ينتظرنا هناك غداء ريفي.

ليس لهذا المكان ما يميزه إلاّ ماؤه الصافي الذي يجري في قناة من الحجارة، وأشجاره المثمرة المعطاء، وخصوصاً أشجار التّين التي تكتسب هنا أهمية كبيرة، وتنتج ثماراً فاخرة. وليس أشجار السفرجل والرمان بأقل جودة من أشجار التّين، ولكن الزهور نادرة، باستثناء الورد الجوري[1] المشهور في الحجاز كله. وقد كان في البستان سرادق يتكوّن من عدد من الغرف يقصده المالك في أوقات فراغه بحثاً عن الهدوء والبرودة.

ويوجد أمام هذا البستان بستان آخر يشبهه تماماً واسمه: الشريعة. وهو للشريف الأكبر أيضاً، وقد كان قبل عدة شهور مسرحاً لشجار دامٍ، وإليكم السبب. لمّا جاء باشا جدة لزيارة الطائف رافقته حاشية / ٢٥٧ / تتكوّن من مفرزة من الباشي بوزوق الذين يتصرفون بصلفهم المعتاد، وقد وصلت عصبة من أولئك اللصوص، الذين كان أغلبهم من الأرناؤط، إلى بستان الشريف، وكانوا يستولون على كل ما يقع تحت أيديهم، وخصوصاً الفاكهة التي يحبها الأتراك بشراهة[2]، وأرادوا

---

(١) انظر **تحقيقاً مصوراً عن ورد الطائف** لميشيل ر. هيوورد، ترجمه بتصرف محمد عبد القادر الفقي في **مجلة القافلة**، مج ٤٩، ع ٣، ص ١٠، ربيع الأول ١٤٢١هـ / يوليو (تموز) ٢٠٠٠م؛ والحياة، العدد ١٣٦٣٢، السبت ٨ تموز (يوليو) / ٦ ربيع الثاني ١٤٢١ / ٢٠٠٠ م، ص ١٥.

(٢) انظر: **رحلات بوركهارت...**، موثق سابقاً، ص ٣٨.

الدخول عنوة إلى بستان الشريعة. وكانت نساء الشريف الأكبر موجودات في البستان، يحرسهم عدد من الخدم، ولم يكن الأرناؤط ليأخذوا في الحسبان، لا وجود النساء، ولا منزلة المالك، واضطر الخدم الذين فاض بهم الكيل إلى مواجهة القوة بالقوة؛ ودارت إثر ذلك معركة سالت فيها دماء الجانبين؛ ولمّا علم بدو الجوار بالإهانة التي لحقت بأميرهم سارعوا إلى المكان مسلحين، ولولا أن الأرناؤط ولوا الأدبار مسرعين قبل وصول البدو لما نجا أحد منهم.

ولمّا وصل خبر الحادثة إلى أسماع الباشا الرعديد، كما يبدو، حل به الخوف والاضطراب، وهرب من الطائف إلى جدة على وجه السرعة، معتقداً أو مدعياً وجود ثورة عامة وسط البدو. ولم يفلح أي شيء في إقناعه بالعودة إلى الطائف، حتى إلحاح الشريف الأكبر نفسه الذي لم يُجْدِ نفعاً. ولم يكن وقوع هذا الحادث إلاّ ليفاقم العداوة المعلنة من قبلُ بين العدوين[1].

(١) يذكر هورخرونيه في **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، موثق سابقاً، ج ١، ص ٢٨٥ أن الصداقة بين باشا مكة المكرمة والشريف عبد المطلب لم تدم طويلاً ... فعندما أطلقت بعض العيارات النارية التي اخترقت طربوش الباشا في أثناء وجوده في المثناة بالطائف — التي كان يقضي الشريف فيها فترة الصيف — لم يستطع الباشا أن يتصور أن حدوث ذلك كان صدفة، بل إنه أمر وقع بتدبير من الشريف نفسه. ومرة أخرى تمّ تغيير الباشا، والسبب هو شك الشريف أن الباشا كان يريد اعتقاله. لقد تم إخطار الشريف بوساطة أصدقائه بأن هناك حملة قد نظمت لإلقاء القبض عليه من قِبَل الوالي في أثناء تمرين على السلاح، كان من المفروض أن يحضره مع الباشا نفسه. لهذا ابتعد الشريف دون أن يلحظه أحد، وتوجه نحو الطائف حيث جهز نفسه لمقاومة الهجمات =

عدنا إلى المدينة عبر طريق أخرى، ليتاح لنا رؤية أكبر قدر من البلد ./ ٢٥٨ /

إن أول ما أثار فضولي، ونحن في طريق العودة، بستان كبير، وجميل، محاط بسور من الطين. ولكننا للأسف لم نستطع إلاّ السير بحذائه؛ ولكن مجرد رؤيته كانت تبعث في النفس شعوراً بالبرودة؛ فقد كانت أشجاره شديدة الخضرة، والظل كثيفاً، والأعشاب وافرة. ثم تأتي بعد ذلك حقول الشعير التي تكتسب أهمية كبيرة، ولكنها لا تثير الإعجاب. تبدأ بعد ذلك بحور الرمال التي تمتد حتى أبواب المدينة. لقد التقينا في جولتنا عدداً من البدو والجمال.

هناك منطقتان أخريان من أراضي الطائف فيها بساتين تماثل بساتين وادي المثناة وهما: وادي شمال، ووادي السلامة؛ والحق أنه لا هذه البساتين، ولا تلك، تستحق الشهرة التي نالتها؛ وإن التباين وحده (مع البيئة المحيطة) هو الذي يمنح هذه الأمكنة قيمة مبالغاً فيها. وإنه لمن الطبيعي أن يبالغ العرب المعتادون قحط الصحراء ووحشتها، في الحديث عن كل ما يمنحهم السكينة: فقليل من الماء يرونه بحراً، وقليل من العشب يرونه مروجاً، ودوحة من الأشجار يرونها غابة. إذاً، احترسوا من

= المتوقعة من الدوائر التركية. وبناء على تقرير سريع من الوالي الذي غادر إلى جدة، قدم في أكتوبر من عام ١٨٥٥م (١٢٧١هـ) مبعوث غير عادي من قبل الباب العالي لإعادة تعيين الشريف محمد بن عون الأمير السابق المطرود. وانظر ص ٢٨٦ — ٢٨٧ من الجزء نفسه حيث يتحدث هورخرونيه عن رفض عبد المطلب قرار التعيين. ويبدو أن هذه الأحداث جرت بعد رحيل ديديه عن الطائف، ويوضح نص ديديه حقيقة ما جرى في وادي المثناة؛ وانظر: **خلاصة الكلام ...**، موثق سابقاً، ص ٣١٦.

أوصافهم (التي يطلقونها على الأماكن)، وأسقطوا بجرأة النصف الأكبر من مبالغاتهم الإعجابية[1].

أما بقية اليوم فقد انقضت في استقبال الزوار، فقد جاء لزيارتنا على التّوالي خازن الشريف الأكبر، وكبير خدمه، وغيرهما من موظفيه، ولست أدري إنْ كان سيدهم قد أرسلهم أم أنهم قاموا بذلك متطوعين. ثم جاء بعدهم أصدقاء أسرة شمس وجيرانهم، وأشخاص آخرون من المدينة دفعهم الفضول إلى المجيء. / ٢٥٩ / نتزاور في الشرق دون سابق معرفة، وهناك تسامح كبير في هذا المجال. فغالباً لا يتّبادل الزائر والمزور كلمة واحدة، ولكن المجاملة هي القانون، ولن يخطر ببال أحد، أياً كان، أن يسأل زائراً، وإن كان غير معروف، لا من يكون؟ ولا لماذا يأتي؟

لقد كان شمس العجوز، وخصوصاً ابنه عبد الله، يقضيان معنا وقتاً أكثر مما يقضيانه في منزلهما، وقد أسديا لنا بطيبة خاطر خدمات جليلة، وزوّدانا بمعلومات

---

(١) قال عرام بن الأصبغ السلمي في كتاب: **أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه**، موثق سابقاً، (**نوادر المخطوطات**)، ج ٢، ص ٤٢٠: "والطائف ذات مزارع ونخيل وموز وأعناب وسائر الفواكه، وبها مياه جارية وأودية تنصب منها إلى تبالة. وجُلّ أهل الطائف ثقيف وحمير، وقوم من قريش، وغَوث من اليمن، وهي من أمهات القرى ... وبالطائف منبر ...". وذكر ياقوت الحموي تعليلات كثيرة لتسميتها بالطائف. وقال البكري: وإنما سميت بالحائط الذي بنوا حولها وأطافوه بها تحصيناً. وكان اسمها: وج. قال أمية بن أبي الصلت (الثقفي):

نحن بنينا طائفاً حصينا ... يقارع الأبطال عن بنينا

ومصيفها معروف من قديم الزمان، قال النميري في زينب بنت يوسف أخت الحجاج يصف نعمتها:

تشتو بمكة نعمة ... ومصيفها بالطائف

عن أشياء تثير فضولنا، لقد كانا باختصار ينتهزان كل الفرص ليكونا مفيدَين لنا، ولطيفَيْن معنا. وخطر ببالهما أن يأتيا بشخص من الجوار يقوم بدور المهرج، أملاً في أن تستطيع حماقاته تسليتنا.

إن للعرب ميلاً واضحاً لهذا النوع من الترويح عن النفس، ويبدو أنه ليس من الصعب إرضاؤهم في اختيار الطرف التي تكاد في غالب الأحيان إباحية. أما أنا فقد كان هذا النوع من الترويح يبدو لي في الأعم الأغلب مضجراً، خصوصاً أن القسم الأعظم من فكاهات المهرج كانت تتناول أشخاصاً أو أشياء غريبة عليّ، ولم تكن في غالب الأحيان إلاّ توريات لم أفهمها في أصلها، وحينما تترجم تفقد روح الدعابة كلها.

لقد أتيح لي بذلك مخالطة عدد كبير من السكان الأصليين، وسنحت لي الفرصة في الطائف كي أتأكد من أمر كنت لاحظته في جدة؛ وهي: أن العرب أكثر نباهة، وأكثر ظرفاً، من الأتراك، ولا نجد / ٢٦٠ / لديهم، كما هو الحال في عدد مز مناطق الشرق، تلك التصرفات الاستعراضية والحمقاء التي تجعلهم يرون أن منزلتهم مرتبطة بلا مبالاتهم.

زرت أسرة شمس في بيتهم الذي انتقلوا إليه ليتركوا لنا منزلهم الذي يسكنونه عادة؛ وبدا لي ضيّقاً جداً لاحتواء أسرة كبيرة مثلهم؛ وقد ازداد تقديري للإزعاج الذي عانوا منه بسببنا. ليس للبيوت في الطائف طابق أرضي كما هو الحال في بيوت مكة المكرمة، ويستقبل الزوار في الطابق الأول. ولست بحاجة للحديث عن الاستقبال الذي لقيته في منزل شمس، فقد بالغوا في إكرامي؛ كانت القهوة والشراب

والحلويات تتابع دون انقطاع، وخصوني بأجمل شيشة في المنزل. وبينما كنت هنا أدخن وأطرح الأسئلة، دخلت علينا شخص يعلوه البياض من الرأس إلى القدمين: لحية بيضاء، وثوب أبيض، ووشاح أبيض، كل شيء باختصار أبيض، عدا الوجه واليدين التي تكاد تكون سوداء. كان رجلاً وقوراً، وحكيماً، عالماً بالشريعة الإسلامية، ومعروفاً بورعه وتقاه. لقد كان حديثه موشى بسلسلة لا تنقطع من آيات القرآن الكريم، والحكم الشائعة في الشرق. وإليكم إحدى الحكم التي أتحفني بها، والتي يمكن أن تعطي فكرة عن الحكم الأخرى: "الصّبْر مُرّ كاسمه، ولكن ما يتلوه حلو كالعسل". إن فهم هذه الحكمة يقتضي / ٢٦١ / فهم التورية[١] التي تقوم عليها: لأن الكلمة العربية: الصبر، تطلق على مسحوق شديد المرارة، شائع في بلادهم، ويمكن أن يكون مأخوذاً من النبتة التي تسميها العامة: عنب الذئب Douce-Amère.

ذهبنا عشية مغادرتنا الطائف لزيارة الشريف ليأذن لنا بالانصراف، وسارت الأمور كما كانت عليه في الزيارة الأولى تماماً، باختلاف بسيط، هو أن جيش البدو الذي كان متجمهراً حول القصر كان أقل عدداً، واستقبلنا بأبهة أقل، ولكن باللياقة نفسها، والاحترام نفسه. كان الشريف الأكبر في تلك الأمسية يرتدي عباءة خضراء كشميرية رائعة، مزينة بسعفات حمراء. ولمّا كنّا قد تعارفنا فإن الحديث كان أكثر دفئاً، تحدثنا عن الكوليرا التي تجتاح مكة المكرمة، وتتجنب الطائف، وعن مصر ومحمد علي الذي كان الشريف يتحدث عنه باعتدال شديد، مع أن هذا الباشا الذي

---

(١) في المثل طباق بين مرارة الصبر وحلاوة العسل.

كاد أن يصبح ملكاً هو الذي قوّض السلطة شبه المطلقة التي كان يتمتع بها والده غالب. كان أكثر قسوة على عباس باشا، وكان يدين أفعاله الخاصة والعامة.

تحدثنا أيضاً عن المعرض الصناعي الكبير الذي كان يُعَدّ له حينئذٍ في باريس، ولمّا دعوت الشريف الأكبر إلى أن يرسل إلى المعرض نماذج من المصنوعات المحلية مؤكداً له أنها يمكن أن تلقى هناك بعض الرواج: "أجابني ضاحكاً، نعم إنه رواج إثارة السخرية". / ٢٦٢ / إن نظري الذي أكاد أفقده تماماً لحظة إملاء حكاية آخر رحلاتي كان حينئذٍ في أسوء حال، وقد أظهر لي الأمير بأصدق العبارات، تمنياته بصحة أفضل، وأعرب عن تعاطفه معي، واهتمامه بي، مؤكداً لي بصدق أن قلبه ينفطر لحالتي. وقال لي على سبيل المواساة: إن واحدة من أصغر نساء حرمه أصيبت بالداء نفسه، وإن لها أن تشتكي من حالها أكثر مني؛ لأنها لا تملك لمداواة ذلك ما نملكه نحن في أوروبا من وسائل، ومن أطباء مهرة. وقد قطع عليّ وعداً صريحاً أن أرسل إليه أخباري، وأن أكتب إليه بمجرد عودتي إلى فرنسا، وقد وفيت بذلك الوعد بإخلاص.

أضيف لكي أنتهي من حديث الزيارة الأخيرة أن الشريف الأكبر كان إبان إقامته الطويلة في إستانبول على علاقة مستمرة بالسفير البريطاني هناك اللورد ستراتفورد كانينغ Stratford Canning، وهو اليوم يحمل لقب دو ردكليف[١] De Redcliffe: وقد

---

(١) 1st Viscount Stratford Canning de Redcliffe = السير ستراتفورد كانينغ دورد كليف (١٧٨٦م — ١٨٨٠ م) دبلوماسي بريطاني كان يحمل لقب فيكونت أول (نبيل =

سأل رفيقي في الرحلة عن أخبار كانينغ، لأن رفيقي كان، كما سبق لي القول، بريطانياً، وقد أكد رفيقي للشريف الأكبر أنه يعرف ذلك الدبلوماسي معرفة وثيقة: واعتماداً على ذلك كلفه الشريف بحمل رسالة منه إلى اللورد، وقد قام السيد كول بلا شك بإرسالها إلى عنوانه.

ولا أستطيع هنا التعبير عن مدى / ٢٦٣ / استيائي، باعتباري أوروبياً وإنساناً، من التصرف الوضيع الذي قام به رفيق رحلتي في حضرة الشريف: ليست المرة الأولى التي تسنح لي الفرصة فيها لإبداء مثل هذه الملاحظة على الإنجليز، وعلى رفيق رحلتي نفسه. كان من المتفق عليه في القرن الأخير، أن الإنجليز هم نموذج الغطرسة، وقد صورهم كذلك جان - جاك روسو(١) J.-J. Rousseau نفسه في

= دون الكونت وفوق البارون)، عمل سفيراً لبلاده سنوات عديدة في إستانبول، وفي وقت من أهم المراحل التي كانت تمرّ بها الدولة العثمانية (النصف الثاني من القرن التاسع عشر) وله بصمات في كثير من الأحداث التي واجهتها الدولة العثمانية في الجزيرة العربية وخصوصاً في عسير والحجاز، ولا غرابة أن تكون له علاقة ومعرفة بالشريف عبد المطلب الذي أقام في إستانبول فترة طويلة، وكان له في الحجاز دور فاق ما كان لغيره وعلى مدى ما يقرب قرن. انظر: **آل زلفة**، الطائف في كتب الرحالة الأوروبيين، موثق سابقاً، الحلقة ٦، **الجزيرة**، العدد ١٠١٧٩، ١١ جمادى الأولى ١٤٢١هـ / ١١ أغسطس (آب) ٢٠٠٠ م، ص ٨. وكتب ديديه Radcliffe والصواب ما أثبتناه في الأصل كما في المعاجم التي ترجمت للرجل. وانظر: **رحلة بيرتون**، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٤٣.

(١) جان - جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) كاتب وفيلسوف فرنسي. كان لآرائه السياسية أثر كبير في تطور الديموقراطية الحديثة.

شخصية الميلورد[1] إدوارد Milord Edouard. وقد ثبتت على الزمن والتجربة، صحة ذلك الحكم المسبق. عرفت أنا كثيراً من الإنجليز، ومن كل المستويات، سواء في البلاد الأجنبية، أم في بلادهم، ورأيتهم في كل الأماكن يخضعون خضوعاً مطلقاً للقوى الحاكمة سواء كانت مغتصبة أم شرعية. وليس لهم في هذا المجال أي نوع من الاستقلالية أو الروية، ويعلمون كل الطبقات تقديس المراكز الاجتماعية، والتفاخر بأتفه الأشياء، حتى لو كان فيها بعض الدناءة، وقد تحدث عن ذلك بموضوعية، وأنبهم عليه بكثير من الظرف مواطنهم ثاكري[2] Thackeray في روايته "معرض الخيلاء" Foire aux Vanits. إن التربيـة هـي التي جعلتهم كذلك، ويبقيهم الروتين في هـذه الهوة. لقد ولدوا ونشؤوا على أرض الإقطاعيين، وشربوا مع حليب أمهاتهم روح الطبقية التي هي أساس تشريعهم الاجتماعي ومبدؤه. إن لدى الإنجليز خيلاء يعادل خيلاء الفرنسيين الذين ذكر دانتي[3] Dante ومكيافيللي[4] Machiavel أنهم أكثر

---

(١) الميلورد: رجل إنجليزي كريم المحتد.

(٢) William Thackeray = وليم ثاكري (١٨١١ – ١٨٦٣) روائي إنجليزي. أشهر آثاره: "معرض الخيلاء" Vanity Fair (عام ١٨٤٨).

(٣) Dante Alighieri = دانتي اليغييري (١٢٦٥ – ١٣٢١ م) كبير شعراء إيطاليا. صاحب ملحمة "الكوميديا الإلهية" La Commedie Divine، Divina Commedia (١٣٠٨ – ١٣٢٠م).

(٤) Niccol Machiavelli = نيقولو مكيافيللي (١٤٦٩ – ١٥٢٧): فيلسوف إيطالي. قال إن:الوسائل كلها مبررة من أجل تحقيق السلطان السياسي (الغاية تبرر الوسيلة)، أشهر كتبه: "**الأمير**".

الشعوب زهواً، وهم (الإنجليز) يجهلون أبسط مفاهيم المساواة. / ٢٦٤ / كم أفضل على ذلك عزة النفس الفطرية لدى بدو الصحراء، الذين يقتربون من أكبر الشخصيات بثقة، ويحدثونهم بحرية، ولا يتنازلون، أمام أيٍ كان، عن الأنفة المشروعة التي تليق بالرجال. ويبدو ذلك واضحاً في علاقتهم مع شيوخ القبائل، فهم لا يذهبون إلا إلى خيامهم لطلب الضيافة، وهم يفعلون مثل ذلك مع الشريف الأكبر نفسه؛ إذ يَعدّون قصره مثل بيوتهم، ومخازن غلاله مثل مخازن غلالهم. يشيع في الشرق كله كما نعلم تقليد تقديم الهدايا، ولم يستثنا الشريف الأكبر من هذا التقليد؛ فأرسلها لنا مع أمين خزانته؛ فتلقيت أنا عباءة بيضاء رائعة، مصنوعة من الصوف البغدادي، وموشاة بالذهب الخالص، وتلقى السيد دوكيه عباءة سوداء، وتلقى رفيق رحلتي قماش سَرْج موشى بالفضة. أما نحن فقد أبدينا كرماً فياضاً إزاء أشخاص منزل الشريف كلهم، ممن أدوا لنا بعض الخدمات، دون أن ننسى بالطبع أفراد أسرة شمس؛ لأننا كنا نظن أنه ينبغي مقابلة الاحترام الذي أبدوه لنا بالبخشيش. وقد طلب السيد دوكيه من الشريف حامد النصيحة في ذلك، فقام الشريف بتحديد حصة كل واحد من خدم البيت؛ ومع أن المبلغ الذي حدده الشريف حامد كان معقولاً، لكنني كنت أرى أن نضاعفه، وشاركني رأيي رفيق رحلتي / ٢٦٥ / الذي كنت أتقاسم معه نفقات الرحلة. وأياً كانت التضحيات التي فرضها علينا ذلك، فإنه كان يليق بالمكانة التي منحونا إياها، وفيها حفاظ على شرف الأوروبيين، وكان ينبغي، في حدود الممكن، أن يكون كرمنا مساوياً للضيافة التي حظينا بها. وأستطيع القول دون أي ادعاء: إن

ما رأيناه باعتبارنا مجرد أشخاص عاديين، كان عظيماً، ويمكن أن يذهب بعض الأوروبيين إلى الطائف بعدنا دون أن يعتريهم الخجل من الذكريات التي تركناها هناك.

ولما لم يكن معي أي شيء مادي يمكن أن يهدى لأسرة شمس، وعدت حفيده الصغير عبد القادر بأن أرسل له فيما بعد تذكاراً مني، ووفيت بكلامي، وأرسلت له من الإسكندرية بوساطة السيد اللطيف أوتري M. Outrey الذي عُيِّنَ بعد فترة من وصولي إلى الإسكندرية قنصلاً لفرنسا في جدة، ساعة ثمينة، وتلقيت إثر ذلك من والده رسالة أثبت هنا ترجمتها الحرفية (إلى الفرنسية طبعاً) نموذجاً للأسلوب الترسلي لدى العرب المعاصرين.

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى عين النبلاء، وفخر أقرانه؛ صديقي السيد شارل ديديه، هداه الله العلي إلى طريق السلام الأبدي ! بعد التعبير عن الاحترام اللائق / ٢٦٦ / بمكانتك، أعلمك أنني لا أني أسأل عن أخبارك. استلمت رسالة من السيد دوكيه، ومعها الساعة التي أرسلتها لابني عبد القادر. سلمتها له، وقبلها مع الاعتراف بالجميل؛ ولمّا كانت الأمور قد جرت بيننا على أساس من التسامح، وعدم الاهتمام بالرسميات، فلم يكن من الواجب أن تجشم نفسك هذا العناء. ورأيت من المناسب في النهاية أن أكتب إليك هذه الرسالة لأخبرك بذلك. والدي وابني عبد القادر ينتهزان هذه الفرصة، ويبعثان إليك تحياتهم واحترامهم.

الطائف في ٢٠ جمادى الأول ١٢٧١هـ

١٥ فبراير (شباط) ١٨٥٥ م

التوقيع: عبد الله بن محمد سيد شمس الدين

الفصل الحادي عشر

من الطائف إلى جدة

غادرنا الطائف في ٢ مارس (آذار)، في الخامسة مساءً، للعودة إلى جدة، وعَبْر طريق أخرى، صالحة لسير الهجن في كل مراحلها، وهي تنحرف عن مكة المكرمة أكثر من الطريق الأولى. كان يوم السفر يوم خميس أيضاً، وهو أكثر أيام الأسبوع مناسبة للسفر كما ذكرت سابقاً. كانت قافلتنا / ٢٦٧ / كما في القدوم: الهجن نفسها، والأرحل نفسها، والمرافقة نفسها، ولم يكن ينقصها إلا العبد أبو سلاسي الذي لم نكن راضين عن تصرفاته. ويبدو أنه شُكي للشريف الأكبر فأبعده عن الطائف خلال وجودنا فيها، واستبدل به في العودة عبدين آخرين من خدمه هما: علي ومرزوق، وكانا مختلفين كل الاختلاف عن أبي سلاسي، وكانا طوال الرحلة يتسابقان لأداء الخدمات، وإشاعة البشاشة والابتهاج. وكان الشريف حامد ورئيس الجمالة أحمد حمودي قد عادا إلى وظيفتهما بمرافقتنا.

وانضم إلينا شريفان آخران لحظة الانطلاق، أحدهما أرسله الشريف الأكبر لمصالحة قبيلتين في حالة حرب، والآخر اسمه عبد المطلب، وهو عجوز عمره ٧٥ عاماً كان عائداً إلى بيته في وادي فاطمة[1] الذي كان ينبغي علينا عبوره. كانا

(١) يقع وادي فاطمة شرقي جدة، ويبعد عنها قرابة ٦٠ كيلومتراً، كما يبعد عن مكة المكرمة حوالي ٢٥ متراً. وفيه أملاك كثير من الأشراف. وفي **معجم أودية الجزيرة** لعبد الله بن خميس أن اسمه القديم: مَرُّ الظَّهران، وهو وادٍ من السفوح الغربية للسراة غرب الطائف ... ويُسَمّى عند أبي حصاني وادي (فاطمة) نسبة إلى فاطمة زوجة بركات بن أبي نُمَيّ أو أمه أو نحوه، ويسمى الوادي أيضاً وادي (الشريف) نسبة إلى الشريف =

يمتطيان هجانين، بينما كانت فرساهما تخبّان بحرّية في وسط القافلة. لم يكن بالإمكان بكل تأكيد أن نسافر برفقة أشخاص أكثر تقديراً من هؤلاء على أرض الإسلام المقدسة.

خرجنا من المدينة عبر الباب المقابل للباب الذي دخلنا[1] منه، وقُدّمَتْ لنا هنا أيضاً، وللمرة الأخيرة، التحية العسكرية من الحرس العثماني. ولم نكد نتجاوز

= أبي نُمَيّ الذي حكم مكة ٦٠ سنة من ٩٣٢ – ٩٩٢هـ، وكان يمتلك الوادي فنسب إليه. وذكر البلادي في **معجم الحجاز** ٨ / ١٠٢ أنه كان في مر الظهران (٣٠٠) عين، وأنه أدرك "٣٦" منها ... أما القرى ففي وادي مر الظهران اليوم ما يزيد على أربعين قرية، وطوله (٢٠٨) كيلومتر. وانظر: **رحلات بوركهارت ...**، موثق سابقاً، ص ٣٨. وقد ذكر البلادي في: **أودية مكة المكرمة**، موثق سابقاً، ص ٩ – ١١ جغرافيته وتاريخه؛ وانظر **مكة المكرمة في شذرات الذهب** للغزاوي، دراسة وتحقيق لبعض المعالم الجغرافية، اختيار وتصنيف وتحقيق د. عبد العزيز صقر الغامدي، و د. محمد محمود السرياني، ومعراج نواب مرزا، مطبوعات نادي مكة الثقافي، ١٤٠٥هـ، ص ٢١٦ – ٢١٩. ويبدو أن أساس ما يذكره ديديه من أن الوادي كان صدقة فاطمة الزهراء رضي الله عنها ما جاء في كتاب عرام بن الأصبغ السلمي: **أسماء جبال تهامة وسكانها**، المنشور ضمن نوادر المخطوطات، تحقيق عبد السلام هارون، ط. دار الجيل، بيروت، ج ٢، ص ٤٠٤، ١٤١١هـ / ١٩٩١م؛ إذ يقول عرام: "... ومنها (أي من القرى في وادي مر الظهران)، أم العيال: قرية صدقة فاطمة بنت رسول الله ﷺ ... وعليها قرية يقال لها: المضيق". ويميل محققو ما جاء عن مكة المكرمة في **شذرات الغزي**، ص ٢١٨ – ٢١٩ (الحاشية) أن الوادي منسوب إلى فاطمة بنت الشريف ثقبة بن رميثة، وقد تزوجت ثلاثة أشراف كانوا يقطنون الوادي، وقضت شطراً كبيراً من حياتها في الوادي ... وربما تكون هي التي أعطت الوادي اسمه الحالي.

(١) لعله باب الحزم الذي يؤدي إلى قصر شبرا، وللطائف ثلاثة أبواب هي: باب الريع، وباب الحزم، وباب ابن عباس. وذكر **تاميزييه في رحلته** (النص الفرنسي)، ج ١، ص ٢٧٢ – ٢٧٣ أن الدخول إلى الطائف عبر ثلاثة أبواب: أولها في الجهة الشمالية الغربية ويسمى: باب مكة أو السيل أو الشريف. (والثاني): باب السلامة، ويقع في الجنوب الغربي... والثالث هو أبو العباس (الصواب، ابن عباس) ويشرف على جهة =

الأسوار، حتى وجدنا على يميننا قصراً ضخماً أبيض، تحيط بـه حديقـة خضراء /٢٦٨/ كثيفة الأشجار، اسمه شُبرا مثل اسم قصر خالد باشا الذي يقع على بعد ثلاثة أميال من القاهرة. ثم دخلنا بعد ذلك في مراعٍ فسيحة حيث أدركنا الليل هناك. وكانت تبدو من بعيد في الظلام باقات من أشجار النخيل، وكان ضجيج قطعان الماشية يختلط بعواء الكلاب. واستمر بنا السير على تلك الحال حتى وصلنا إلى قرية لقيم[1] التي كانت المحطة الأولى في هذه المرحلة.

وكان أحد تجار الطائف، واسمه قاري Kari، وهو عدو لأسرة شمس، يمتلك في هذه القرية منزلاً هيأه لنزولنا، وجاء بنفسه إلى القرية لاستقبالنا مع بعض أقاربه. لقد أراد، وبعد أن استضافتنا أسرة عدوه شمس في الطائف على غير ما كان يتمناه، وتعويضاً عما حصل، أن يستقبلنا في بيته الريفي. لقد أدى واجبه على الوجه الأكمل، وإن كان لي ما آخذه عليه فهو أنه جعلنا ننتظر خروف الضيافة المعتاد حتى بعد منتصف الليل. كان يشرف على العشاء، ولكنه رفض المشاركة فيه: حسبما تقتضي أصول اللياقة. نمنا كما ينام المسافرون، أي بكامل ثيابنا، في غرفة كبيرة في الطابق الأول، وقد فرش فيها من أجلنا السجاد بعضه فوق بعض. ولما أطللت في الصباح

= جـنوب — جنوب غرب ... وقد كان فيما مضى باب رابع اسمه: باب تربة، ولكن محمـد علي عندما استولى على الطائف من الوهابيين أمر بسده لأن هجمات الوهابيين كانت من هذا الجانب، ولم يعد يعرف مكانه من ذلك الحين.

(١) في الأصـل Gouem، ولعـل الصواب لقيم. وقد أشار البلادي في كتابه: **على طريق الهجرة (رحلات في قلب الحجاز)**، د. ت.، ص ٣٧ أن لقيم تنطق مدغومة القيم ولعل ديدييه سمعها كذلك. وقال البلادي إنها من أودية الطائف.

برأسي من النافذة، بل من الكوة التي تسمح للضوء بالدخول إلى الغرفة، وقع ناظري على بركة ماء كبيرة تحيط بها حديقة تغطيها أشجار البرتقال / ٢٦٩ / والرمان والليمون.

قُدم لنا الفطور في سرادق مفتوح، غارق في حضن الخضرة، وجعلنا سحر هذا المكان الرطب نبقى فيه أكثر مما ينبغي للمسافرين، ثم غادرناه متأخرين. كان علينا بادئ ذي بدء أن نعبر أحد المراعي أو ما يُسَمّى بذلك في الجزيرة العربية، وهو سهل رملي فسيح، تنتشر فيه طاقات من الأعشاب التي كانت في ذلك الوقت يابسة من الشمس؛ ونجد في تلك المراعي بعض الأغنام والماعز التي ترعى وحدها. وتبدو هنا أو هناك قرية للرعاة المستقرين تنتشر بيوتها في ذلك السهل. ويُسَمّى هذا البلد كله حزم القميع[1]. وينتهي السهل قريباً، وندخل في منطقة جبلية جرداء فيها أودية مثل: وادي طلح، ويتلوه وادي النبيعة. وكلما توغلنا في المسير أصبح المكان أكثر وحشة وكآبة؛ فيتعرّج الطريق بين المرتفعات الجرانيتّية القاحلة التي أحرقتها الشمس، أمّا الصخر فهو قاس، ويَكْتسي لوناً أمغر، وتلتمع فيه الميكا[2] Mica وكأنها شذور الجوهرة. ومع أن الشعب كثير الحجارة فإن السير فيه كان في البداية سهلاً، ولكنه

(١) كتبت في الترجمة الإنجليزية **لرحلة ديدييه**، موثق سابقاً، ص ١٣٧ Hazm al- Qumayyah وفي أصلنا الفرنسي Hazm-el-Kômée وهو الصواب.

(٢) الميكا أو الميكة: هو أحد مكونات الجرانيت، وكان العرب يسمونه "بلق"، انظر: **معجم المصطلحات العلمية والفنية والهندسية** (إنجليزي – عربي) إعداد أحمد الخطيب – مادة Mica عن حاشية **رحلات بوركهارت ...**، موثق سابقاً، ص ٦٥، الحاشية (١).

ينخفض فجأة، ويصبح الطريق منحدراً انحداراً عمودياً إلى قعر هوة، كان هذا الممر المسمى ريع المنحوت بفضل الله قصيراً، ولكنه كان من الصعوبة بمكان. ولم تكن الهجن لتستطيع السير فيه إلاّ بصعوبة كبيرة، وكانت تنزلق في كل خطوة على /٢٧٠/ الصخور الناتئة أو المتحركة. مع ذلك فإنني لم أهن سحابة، وهو اسم الهجان الذي كنت أركبه، بالنزول من على ظهره، بل بقيت بشجاعة على الرحل، ولم أندم على ذلك.

وصلنا كلانا، الهجان وأنا، سالمين إلى أسفل الهوة، ولم تكن بقية القافلة أقل حظاً منا، ولما تجاوزنا تلك العقبة، دخلنا في ريع أكثر تناسباً مع قدرة الإنسان هو: ريع الزلالة. وقد كان هذا المكان في سالف الأيام يثير رعب المسافرين، الذين كان بدو قبيلة عتيبة يهاجمونهم فيه، ويسلبونهم أمتعتهم؛ وعتيبة[1] قبيلة قوية، ومحبة للحرب، تنتشر في الجبال الممتدة جنوب الطائف حتى المدينة المنورة. ويمكن لها أن تستنفر ثمانية آلاف فارس غالبيتهم مسلحون ببنادق الفتيلة، وهي لا تني تغزو جيرانها. وعلى الرغم من أنها مازالت تتقاضى خوة من القوافل التي تعبر أرضها، فإن سلطتها لم تعد تمتد إلى هذه المنطقة، ولم يخطر ببالي أبداً أن يعرض لنا عارض خطر لأننا كُثُر أولاً، ولأننا ضيوف الشريف الأكبر، ونحن في حمايته، سواء كنا في جنابه أم بعيدين عنه.

---

(١) انظر عن قبيلة عتيبة كتاب: **الطائف، جغرافيته – تاريخه – أنساب قبائله**، موثق سابقاً، ص ٨٦ – ١٠٣.

ينتهي الريع بوادٍ واسعٍ يسمى السيل؛ وهو قاحل، ورملي، وقد أحرقته الشمس. وكانت تنتظرني فيه مفاجأة: إذ ما كدنا ندخله، ونسير فيه بعض الأميال تحت شمس حارقة، وجو خانق، حتّى وجدت نفسي دون سابق إنذار، وكأنما بفعل السحر على حافة / ٢٧١ / نبع غزير، وصاف، ينبجس من الرمل ويتدفق بغزارة، وتنتشر حوله نضارة عذبة. ويوجد بالقرب منه نطاق واسع من الصخور المنحوتة بزوايا مستقيمة، ولا تكاد تظهر على وجه الأرض، ومرتبة بتناسق وكأنها مدرجات.

وإننا لنتخال أن يد الإنسان امتدت إليها بالتنظيم، وسيكون من السهل، بقليل من الخيال المبدع أو حسن النية، أن نرى في هذا المدرج الطبيعي عمل شعب بائد من العمالقة الذين كانوا قبل الطوفان. ولم نكن لنعفي أنفسنا من التوقف في هذا المكان المعدّ أحسن إعداد: لقد توقفنا فيه وقتاً أطول مما ينبغي، وأخرجنا للمرة الأولى المؤنة التي حَمّلونا إياها في الطائف. ولما أذّن العصر هب الأشراف إلى الوضوء والصلاة وسط القوم، وكانوا على سجاجيد الصلاة يركعون ويسجدون بخشوع كما لو كانوا وحدهم. ولا يخجل المسلمون من ذلك في هذا الخصوص؛ فهم يبادرون إلى ممارسة أركان دينهم في أي مكان كانوا، ومع كائن من كان. وانضم إلى الشريفين اللذين رافقانا من الطائف ثالث، ولم أعد أدري في أي مكان حصل ذلك، كان مايزال حَدَثاً، لم يكد يتجاوز سن الطفولة، وليس له من العمر أكثر من أربعة عشر عاماً؛ كان اسمه أحمد، وكان يمتطي جواداً أشهب جميلاً. ولم تقم بيني وبينه أي علاقة، ولست أدري هل هو الخجل؟ أم كوني نصرانياً، هو الذي أبقاه بعيداً عني. أما العجوز عبد المطلب فقد كان أقل عزلة؛ ووعدنا / ٢٧٢ / بالتوقف في منزله عندما نمر به، واتفقنا على أن

نمكث لديه يوماً كاملاً، وعرض أن يدعو على شرفنا عدداً من جيرانه الأشراف. ولكن هذا المشروع لم يُكتب له النجاح، كما سنرى بعد قليل.

إن وادي السيل محاط بالجبال في كل الاتجاهات، ويحدّه من الغرب هرم ضخم من الجرانيت المقوض بعضه فوق بعض، والذي تتراكم صخوره فوق بعضها، راقدة هنا منذ آلاف السنين، وكأنها خرائب الصروح العملاقة. رأيت في هذا المكان راعي الصحراء الحقيقي، وأعني قطيعاً من النوق مع صغارها، وكان أحدها، وقد ولد في اليوم نفسه، محمولاً كالطفل الصغير بين ذراعي أحد الرعاة. لقد استقبلنا هؤلاء الرجال الشجعان استقبالاً حافلاً، وقدموا لنا لبناً كثيراً في صحفات من خشب. وكان وسط السهل بدوي أرخى العنان لجواده واقترب من هجني، ليس ليضربني بسيفه، ولكن من أجل أن يلمس يدي، ومددتها له بطيبة خاطر، ولما قبض عليها حياني على الرغم من كوني غير مسلم بقوله: السلام عليك، وهي تحية يتبادلها المسلمون بينهم. ولعل القرّاء الفرنسيين قد تعرفوا في هاتين الكلمتين العربيتين (السلام عليك) الأصل الاشتقاقي للكلمة الفرنسية Salamalec (بمعنى السلام عليك).

كنا في هذه الأثناء نسير بحذاء أسافل جبل / ٢٧٣ / في غاية القحط؛ إنه جبل يسومين[١]، وكان هناك جبل آخر ليس أقل قحطاً منه هو أم

(١) كتبه ديديه Djebel-Yassoumaïné ، جاء في **معجم معالم الحجاز**، ج ١٠، ص ٢٢: يسوم: المعروف اليوم يسومان: جبلان أسودان متقابلان على جانبي وادي نخلة اليمانية، يسمى الشمالي يسوم سَمُر لشعب يصب منه في نخلة، ويُسمى الثاني – وهو الأشهر – يسوم هِلال لشعب يصب منه في نخلة أيضاً، وهذا الجنوبي هو الأشهر يبعد عن مكة "٦٣" كيلاً شرقاً، يدخل الطريق وسيل نخلة بينهما.

الخصف [1] Djebel-Em-el-Khassaf الذي كان يسد الأفق أمامنا. ولكننا لمّا التففنا حول هذا الجبل الأخير، بدا ممتداً أمامنا واد ضخم، ومع أننا كنا نسير، والشمس توشك على الغروب، فإنها كانت تشع أمام عيوننا؛ مما كان يضايقني على الرغم من أنني كنت أضع كفية للاحتماء منها، ولم أكن أرجو إلاّ رؤيتها تغرب. لقد غربت أخيراً، وعند الغروب كنّا ندخل في وادي الليمون أحد أشهر أودية هذه المنطقة من الحجاز. ولم أكن أستطع الحكم سلفاً إن كان يستحق هذه الشهرة، لأن الليل لم يتأخر في إدراكنا، ولم يتركني أرى إلاّ المظهر العام المظلم للجبال على خلفية ملتمعة من النجوم.

كنا نسير منذ اثنتي أو ثلاث عشرة ساعة، وبدأ البشر والحيوانات يشعرون بالحاجة إلى الراحة. توقفنا لقضاء الليل قرب قرية الزيمة التي لم يكن أي شيء، لا وميض ضوء، ولا أي ضوضاء يدل على أنها في جوارنا، ولمّا لم يكن معنا خيام فإننا خَيَّمْنا في العراء فوق الرمال، كما لو أننا جنود في حملة عسكرية، وذهب العرب الذين برفقتنا ليأتونا بالحليب، وجاؤوا بما يكفي الجميع.

وبدأ غاسبارو في ممارسة مهنته للمرة الثانية منذ أن غادرنا جدة، ولم يتأخر العشاء بفضل المؤنة التي حملناها من الطائف. وبعد وقت قصير كانت القافلة كلها

---

(١) المعروف هو أبو خصف: جبل كبير أشهب يقع على وادي نبع الشرقية مقابل لجبل أظلم من الشمال، قرب الجعرانة (وهي على طريق مكة – الطائف). انظر: **معجم معالم الحجاز للبلادي** ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ج ٣، ص ١٣٠ – ١٣١؛ وانظر: **معجم أودية الجزيرة العربية**، عبد الله بن خميس، ط ١، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤، ج ٢، ص ٣٢٤.

تغط في نوم عميق، ومع أننا كنا / ٢٧٤ / ثلاثين رجلاً، وستة عشر جملاً أو هجاناً، وثلاثة أو أربعة أحصنة في مكان ضيق، فقد نام كل واحد حيثما توفر له المكان. كان الصمت مطبقاً، وحسبت نفسي وحيداً. كنت مستلقياً على سجادتي، وملتفاً بعباءتي، كنت آخر من تسلل النوم إلى جفونه، وبانتظار أن يغلق النوم جفنيَّ أرخيت العنان لبصري ليجول في قبة السماء الواسعة المتلألئة التي لم تكن قد انطفأت بعدُ في نظري، كما هي الحال عليه اليوم. ومنذ أن انطفأ نور السماء أمام عيني، في الوقت الذي تضيء للآخرين، فإنني أعود بذاكرتي برقة خالصة، مشوبة بالحزن، إلى ليالي الجزيرة العربية التي طالماأسعدتني بروعتها، وأحب أن أرى بنور البصيرة ما لم أعد أستطيع رؤيته بطريقة أخرى.

ولما كنت قد حرمت للأبد من أكثر المشاهد التي يمكن للإنسان تأملها روعة، مشهد هو أكثر مهابة أيضاً في تلك المرتفعات المميزة، فإنني أمتح من ذكريات الماضي ما يعزيني في الحاضر، ويمنحني للمستقبل شجاعة وقوة، كي لا أضعف وسط الظلمات التي تحيط بي، وحتى أستطيع، وأنا أحتضر في ظلمتي، وأنا أعيش مستسلماً لها، أن أردد مع أحد الشعراء:

لقد غرقت، وصرت اليوم في لجج   من الظلام ولا أرجو شواطيها
وعالم النور قد سُدَّتْ منافذه   أمام عيني ولا شيء يداويها
وإن روحي تضاء اليوم آملة   أن السلام من الحسرات ينجيها
وإن علمي أن المرء مختبرٌ   أعطى الحياة كثيراً من معانيها

/ ٢٧٥ / كنت في الفجر صاحياً. واكتشفت المشهد الطبيعي شعّت أول حزم الضوء في الصباح؛ ذلك المشهد الذي لم أستطع رؤيته في مساء اليوم السابق. كان قعر الوادي ضيقاً جداً في هذا المكان، تغطيه الرمال القاحلة، ولكن الجوانب مزروعة بالأشجار، يكسوها العشب الأخضر الكثيف على مدى امتدادها، وتتفجر الأرض عيوناً في عدد من الأماكن مما يحافظ على النضارة والخصوبة على الجانبين. وتختفي كل أنواع النباتات على علو الأشجار؛ فجوانب الجبال الجانبية وقممها جرداء تماماً.

لقد كان هناك عدد من البيوت البائسة المنفردة، المفصول بعضها عن بعض، والتي تنتشر على أطراف المنطقة الخضراء، ومنها تتكون قرية الزيمة التي يسكنها بدو متحضرون، ينصرفون إلى زراعة الأرض الصالحة للزراعة، وتربية قطعان الماشية. وينتصب على نتوء صخري، في مكان يشرف على القرية، حصن بُنيَ في سالف الأيام للدفاع عن المكان وحمايته؛ وهو مهدم منذ زمن طويل، ولا يخطر ببال أحد أن يعيد بناءه.

ما كادت القافلة تصبح على أهبة الاستعداد حتّى تدفق علينا الحليب من كل حدب وصوب، لقد جاء من البدو، وبينهم بدويات بقين منقبات بإحكام احتراماً للأشراف؛ ولولا وجودهم لكُنَّ أكثر تهاوناً، ولكنّا رأينا وجوههن بلا صعوبة. ولكنني أعتقد أننا لم نخسر شيئاً إذ لم نر وجوههن؛ لأن هيأتهن لا توحي بأنهن في سن الصبا، وأثواب القطن الأزرق التي تتلفع بها كل / ٢٧٦ / نساء المنطقة بعيدة عن إضفاء الأناقة عليهن. طالما لاحظت فيما مضى أن روح المساواة تسود بين العرب،

ووجدت هنا دليلين آخرين على ذلك: أولهما يكمن في الطريقة التي تعامل بها العرب مع الأشراف ومعنا؛ إنها طريقة عفوية وأبية، ولكنها على الدوام مؤدبة، وثاني الأدلة يكمن في السمة السلوكية التي أذكرها لكم: كان الشريف حامد يأكل معنا عادة، ولكنه كان يمتنع عن ذلك في بعض الأحيان، وفي هذا الصباح على سبيل المثال، تناول فطوره قبل الانطلاق مع أحمد حمودي، رئيس الجمّالة، وآخرين ممن ليسوا من طبقته. لم يكن يتصرف كذلك متصنعاً، ولا سعياً إلى أن يكون له شعبية لديهم، لقد كان يقوم بذلك ببساطة فطرية، ولأن ذلك كان يبدو له أمراً عادياً، متأصلاً في سلوك البلد.

لقد تأخر انطلاقنا بسبب حادث مؤسف: إذ أصيب الشريف العجوز عبدالمطلب بنوبة حمى شديدة جعلته غير قادر على الانطلاق، ولا على مغادرة سجادته. كان التغير الذي اعترى قسماته يدل على اضطراب عميق في أعضاء الجسد ووظائفه. وكان هو نفسه يظن أنه يعيش ساعته الأخيرة؛ ولكنه لمّا كان مستسلماً لمصيره، فلم يكن يصدر عنه أية شكوى أو أنين، ولم يكن يرجو من الله إلاّ أن يمنحه القوة كي يستطيع الوصول إلى أهله ليموت بينهم. كان يقول بصوت خافت: "خمسة وسبعون / ٧٧٢ / عاماً، وأنا على ظهر البسيطة؛ لقد حان الوقت كي ألحق بأسلافي. وأود أن أموت في بيتي بين أهلي وعشيرتي، وإنْ كان القضاء غير ذلك فلتتحقق إرادة الله ! وإنني راضٍ بما قدره من قبل. أينما يمت المسلم فإنه يذهب إلى الجنة؛ إذا كان قد التزم خلال حياته بما شرّعه الله في القرآن الكريم، وأنا التزمت

بذلك طوال حياتي بقدر ما يستطيع الإنسان الضعيف أن يفعل ذلك، وإن حصلت مني مخالفة فذلك بسبب ضعفي، وليس أبداً بنية عصيان الله، وأرجو إذاً أن يرحمني، لأنه الرحمن الرحيم".

لم يقل المريض هذا الكلام متتابعاً، وبصورة خطاب كما ذكرته، ولكنه كان في الغالب متقطعاً بآلام المرض. كنا نحيط به، والحزن يملأ نفوسنا لحاله، ولكن لم يكن بوسعنا القيام بأي شيء لمساعدته؛ إذ لم يكن معنا طبيب ولا صيدلي، ولعل ذلك بالتحديد ما أنقذه. ولما تراجعت نوبة الحمى قليلاً أصبح بالإمكان وضعه على ظهر هجانه في وضعية مريحة، ليستطيع تحمل وعثاء السفر. كان الشريف الصغير الذي أظنه من أقربائه المقربين، يرافقه مع بعض رجال مرافقتنا. وكنت في غاية الرضا عندما علمت في اليوم التالي أنه وصل إلى منزله في حالة أفضل بكثير من حالته عندما غادرنا، إذ لم يكن قد شفي تماماً. وبذلك فشل / ٢٧٨ / مشروع زيارته في بيته خلال مرورنا بديرته.

وكان الشريف الثاني الذي جاء معنا من الطائف قد غادرنا لتنفيذ مهمة المصالحة التي كلفه إياهاالشريف الأكبر، ولم يبق معنا من الأشراف الأربعة الذين كانوا برفقتنا في مساء اليوم السابق إلا الشريف حامد الذي ظل حتى ساعة الرحلة الأخيرة، كما كان عليه في ساعتها الأولى، رجلاً لطيفاً، وظريفاً، وحريصاً، وأكثر الرجال كياسة.

انطلقت القافلة أخيراً، ولكننا لم نسر وقتاً طويلاً لأننا بعد ساعة على الأكثر توقفنا في سوْلة، وهي قرية أحسن بناء من الزيمة، وبيوتها أكثر تجمعاً من بيوت الزيمة.

يبدأ هنا وادي فاطمة المشهور في الحجاز، وهو ينتج الخضار التي تستهلكها مكة المكرمة وجدة. إنه متسع كل الاتساع، ويدين باسمه لفاطمة بنت محمد ﷺ ورضي الله عنها؛ إذ يروى أن النبي ﷺ قدمه لها صدقةً عندما زوّجها علياً ﷺ. ولمّا كان الأشراف ينحدرون منها عَبْر ولدَيها الحسن والحسين ﷺ فإنهم يُكنون لهذا الوادي الغني، والخصب، وللريف الذي يتبعه، و يستعير منه اسمه، اعتباراً خاصاً. ويتخذ منه كثير من الأشراف دار إقامة، ومنهم الشريف اللطيف حامد. ترجلنا من على ظهور المطايا عند باب أحد المنازل الذي كان أصحابه ينتظروننا، ولكنني لم أدخله لأن الشريف حامداً قادني مباشرة إلى بستان مجاور، اسمه النص El-Noss، حيث هيأ لي مفاجأة.

لقد كانت مفاجأة سارة، ومن ألطف ما يمكن أن يكون، لأن / ٢٧٩ / المشهد لم يكن البتة منتظراً، ولم أكن قد رأيت أجمل منه منذ زمن طويل، وفيه بعض أوصاف الجنة كما بينها الله تعالى في القرآن الكريم. ولم يكن ينقص هذا المكان إلاّ الحوريات لكي يستوفي كل أسباب الكمال. كان يتعرج عبر هذه الجنة الصغيرة جدول ماء غزير وصاف، على أرض مملوءة بالحصى الأبيض، وكانت تعرجات الجدول الأنيقة تختفي في كثيرٍ من الأماكن تحت العشب الطويل المتشابك. وتزدهر فيه بروعة، وتتآلف بدقة، أشجار البرتقال، والنخيل، والموز، وغيرها من أشجار المناطق الاستوائية، إنها تختلط، ويقترب بعضها من بعض، حتى إن أشعة الشمس القائظة لا تستطيع اختراق ظلالها لشدة كثافتها وعدم نفوذيتها، وتسود فيه في قلب الظهيرة برودة لذيذة. لم يكن

هناك ما يمكن أن ينتزعني من محيط الخضرة الذي أستحم فيه، كنت مستلقياً قرب جدول الماء تحت شجرة موز(١) كانت أوراقها العريضة بمثابة مظلة فوق رأسي، وتتدلى من حولي كما لو أنها عدد من المراوح، كنت أود تناول طعام الغداء تحتها، والبقاء هنا طوال النهار. ونفهم عندما نرى هذه الشجرة التي لا مثيل لها، لماذا يجلها الهندوس إجلالاً عظيماً، ولماذا يمارسون في ظلها طقوسهم، ويقدمون تحتها قرابينهم، ولماذا يجعلون منها المكان الذي يضعون فيه أكثر آلهتهم تبجيلاً، جانيشا(٢) Ganesha، إلههم الكبير / ٢٨٠ / الذي تجتمع فيه كل الصفات، ويجمع بين وظائف أبولون(٣) Apollon وميركور(٤) Mercure في التقاليد الهيلنيستية.

---

(١) قال البلادي في **معجم معالم الحجاز**، ج ٤، ص ١٥٠، الزيمة: عين ثرة عذبة الماء بوادي نخلة اليمانية ... وهي مشهورة بجودة الموز، ويغرس إلى جانبه النخل والفواكه. يمر بها طريق مكة إلى الطائف المار بنخلة اليمانية على (٤٥) كيلاً.

(٢) واحد من أحب الآلهة وأكثرها شعبية في الديانة الهندوسية بدأت عبادته حوالي عام ٤٠٠ ميلادية ومايزال يُعبد حتى اليوم وتبدأ جميع الطقوس الدينية لدى الهندوس بالتضرع إلى جانيشا، ويمكن أن يكون له عدد كبير من الرموز، ولا سيما الصدَفة أو المحارة والصولجان والقرص وزنبق الماء، ويضرع إليه الناس قبل القيام بأي رحلة أو في بداية مشروع جديد، ونجد صوره في مدخل المعابد والمنازل. انظر: **معجم ديانات ....**، موثق سابقاً، ج ٢ ، ص ١٢ – ١٣.

(٣) أحد آلهة الأولمب الاثني عشر في أساطير اليونان – وهو إله متعدد الوظائف. انظر: **معجم ديانات ....**، موثق سابقاً، ج ١، ص ١٠١ – ١٠٤.

(٤) إله التجار والتجارة في الأساطير الرومانية، وكان يقوم بمهمات عديدة. انظر: **معجم ديانات ....**، موثق سابقاً، ج ٢، ص ٤١٢.

كان يقوم على خدمتي ولد صاحب هذا البستان أو حفيده، وعمره بين ١٤ و ١٥ عاماً، كان يفعل ذلك دون أن يزعجني، فيحمل إلي النارنج؛ وهو نوع البرتقال الوحيد الذي يُنتج في هذه البلاد، ويقوم بتبريد الماء في زجاجة معلقة بالأغصان، كان باختصار، يقدم لي ألطف ما يمكن أن يقدم من واجبات العناية بالضيف، ويفعل ذلك بابتهاج هو من خصوصيات سن الشباب.

كنت متوتراً بفعل القحط، وحر النهار القاسي في اليوم السابق، استرخت أعصاب جسدي كلها بالتدرج بتأثير ذلك الجو الرطب المنعش. كانت كل طاقات الحياة تستعيد فيّ لدونتها. كنت أتنفس بارتياح شديد، وكان الدم يجري في عروقي بحرية أكبر، وقرّت عيناي عندما وقعتا على الكساء الأخضر الفضفاض الذي كان يرفرف من حولي، بعد أن كانتا متعبتين من التماع الرمل والصخور، لقد شعرت بالجملة برغد العيش المادي والمعنوي الذي لم أكن عرفته، أو أنني كنت أظن ذلك. لقد انتهى بي الأمر بفضل الراحة المطلقة، والاستراحة الطويلة، واستمرارية الإحساس الفريد واطراده، الإحساس نفسه على الدوام، بفضل ذلك كله، انتهى بي الأمر إلى الغوص في حلم يقظة عميق، منسلخاً عن العالم الخارجي، وناسياً له تماماً، وانتهى بي أيضاً إلى فقدان الإحساس بالزمان والمكان، وكنت لأياً / ٢٨١ / واعياً بذاتي. من أين أتيت، وأين أنا، وأين أمضي؟ ولم أكن أعي ذلك كله إلاّ بصورة ضبابية مختلطة.

كانت تتراءى أمامي وتعود إلى التراثي أحداث الرحلة التي قمت بها ومراحلها، والأماكن، والصروح، والأشخاص، كما لو أنها أضغاث أحلام. ولم أكن ألمح العودة

إلاّ من خلال ضباب كثيف في مكان بعيد سديمي. وإن حدث لي في الفلتات أن أفكر بأوروبا وباريس، وبأصدقائي وأعدائي الذين تركتهم هناك، وبالصراع المرير الذي كان علي في الماضي أن أخوضه هناك، وبسوء الحظ المرير الذي كان يلازمني هناك، وبالخيانات الغادرة، وبالمصائب المتنوعة التي حلت بي، كل هذه الأشياء، كانت تَعْبر ذاكرتي كما لو أنها ذكريات مبهمة لحياة سابقة لم تنته أبداً: كان الندم والآلام، حتى أكثر المشاعر شرعية، كل ذلك، قد خبا في غمرة انغماسي فيما يفوق الوصف من سكينة وسلام.

استمرت هذه السعادة البالغة، هذا الكيف، بالعبارة المحلية المناسبة لوصف حالة الجسد والروح التي كنت فيها حينئذ، سبع ساعات كاملة، وقد مرت هذه الساعات السبع كما لو أنها ثانية واحدة. لقد أعادني إلى الواقع نفيرالانطلاق، لأنه كان ينبغي في نهاية الأمر أن ننطلق، وبينما كنت منغمساً في الملذات الهانئة لذلك المنتجع الريفي[1]، كان يجري على بعد خطوات أمام البيت الذي نزلنا فيه مشهد /٢٨٢/ مختلف تماماً؛ لقد كان عمل الشريف حامد يقتضي منه أن يكون في مكة المكرمة، إلاّ أنه كان يقيم، كما سبق لي القول، في وادي فاطمة، وله فيه بيته وحريمه، وكان يقضي هناك كل الوقت الذي تتركه له أعماله. لقد كان بالتالي معروفاً هناك، ومحترماً، والناس كلهم يحبونه، ولمّا ذاع نبأ وصوله إلى سوْلة جاء بدو الجوار زرافات، بعضهم للسلام عليه فقط، والآخرون لمذاكرته في شؤونهم. وجدته هناك في وسط حلقة من

(١) في الأصل Gapoue = اسم منتجع ريفي في إيطاليا.

البدو، يجلسون القرفصاء حوله، وكلهم آذان صاغية. كان يوجه للجميع كلاماً لطيفاً؛ إنها محكمة في الهواء الطلق، تثير الإعجاب حقاً، وكنت على الخصوص مأخوذاً باللياقة وبالهدوء اللذين كانا يسودان هذا الجمع الغفير.

نهض كل الحاضرين لدى وصولي، وحَيَّوْني بلطف كبير. ولمّا كنت ضيف الشريف، فإن احترامي من احترامه، ناهيك عن أنني ما زلت ضيف الشريف الأكبر الذي كان، على الرغم من بُعد المسافة، يُسْبغ عليّ حمايته بعد أن سارت الركبان بخبر استقباله لنا. كان وجودنا يثير خيال العرب فتعددت الروايات وشاعت حول هدف رحلتنا. علمت فيما علمت، عند عودتي إلى جدة، أن بعض الناس حسبونا اثنين من الباشاوات أرسلهما السلطان للقبض على الشريف الأكبر؛ كان بعض أولئك البدو (من أتباع الشريف) يرافقوننا / ٢٨٣ / في الذهاب، وقد كان بإمكانهم إطالة الطريق لو أن الشريف حامداً أراد ذلك.

كنا نسير في واد يشبه الوادي الذي قطعناه في الصباح، كان محاطاً مثله من كلا الجانبين ببساتين، وتغطيه في الوسط الرمال الجرداء التي تنتشر فيها بعض الجنيبات الشوكية. ولا يمكن لشيء أن يعطي فكرة عن هذا النوع من الأودية أفضل من تخيل نهر عريض يجري بين شطين تنتشر عليهما الخضرة، ولتخيل ذلك الوادي نستبدل بالماء رملاً. سيكون من التكرار الممجوج القول: إن الجبال الجانبية جرداء تماماً؛ لأنها تتشابه في هذا الجانب، وكان في آخر الوادي جبل مميز بشكله من الجبال الأخرى كلها: فبدلاً من النتوءات والقبب التي تتوج الجبال الأخرى كانت قمة جبل الحرة، وهو اسمه،

مستوية تماماً حتى إن قطعها يحتاج إلى أربعة أيام. كنا قد انطلقنا متأخرين، وكان الليل سيدركنا قريباً، ليل هادئ ومضاء كما هو حال كل الليالي في هذا الجو البهيج. كنا مستريحين بفضل التوقف الطويل في سوْلة؛ لذلك كانت القافلة تسير بسرعة وخفة، وكان الجميع في أحسن حال، وخصوصاً العبد مرزوق الذي كان يسلينا بحيويته وبسروره الدائمين. كان مكلفاً بخدمتي حصراً، وكان يمشي إلى جانب هجاني، وكنت من وقت إلى آخر أردفه ورائي، وقد بدا متأثراً كل التأثر بهذا الاهتمام /٢٨٤/ الذي قابله بمضاعفة اهتمامه بي. ولمّا اقتربنا من الريان؛ وهي قرية في وادي فاطمة حيث يسكن الشريف حامد، وكان علينا النوم فيها، سمعنا من بعيد صوتاً منغماً، وأجابه صوت مماثل انبعث من وسط القافلة؛ ثم ساد الصمت، وبعد لحظات قليلة وجدنا أنفسنا وجهاً لوجهه مع جماعة من الناس؛ منهم من يمشي، ومنهم من يمتطي الهجن؛ لقد كانوا من أسرة الشريف حامد ومن خدمه؛ الشريف حامد الذي تقدمنا، ولم نتأخر في الوصول جميعاً معاً إلى منزله.

يقع منزل الشريف في مكان قليل الجاذبية، محروم من أي ظل، ويرتفع على بعد خطوات منه جبل من الجرانيت، ليس فيه أي خضرة، تسكنه نسور من النوع الكبير. كان المنزل مؤلفاً من عدد من البيوت المربعة، المنخفضة، وغير المنفصلة، ويفصل بينها أفنية وجدران: كان يسكن في أحدها الخدم من الرجال، وفي آخر، أكبر من الأول تسكن الحريم، وكان بيت ثالث يُستخدم ديواناً، ويجلس فيه رب البيت خلال النهار، ويستقبل فيه الأجانب والزوار، ويصرّف شؤونه؛ وقد أعدوا لنا هذا البيت. نما

فيه، ومكثنا الصباح كله فيه؛ وكان يتألف من غرفة واحدة في الطابق الأول، ومن مصطبة / ٢٨٥ / فوقها . وقد أقيم حول الغرفة ديوان للجلوس، وكانت هناك عدة قطع من البورسلين، والزجاجات البيضاء معروضة في طاقات محفورة في قلب الحائط. كان السجاد النفيس والعديد هو الفرش الوحيد في المنزل: لقد عددت منها ما لا يقل عن خمس عشرة سجادة ممدوداً بعضها فوق الآخر. كانت تلك الغرفة الوحيدة تطل على الفناء الرملي، والمسور بجدار من الحجر.

كان جانبا الباب مزينين من الخارج بسلسلة من الدوارق الجميلة جداً، الموضوعة على دعامات صغيرة من الخشب المطلي بألوان زاهية. وجرت العادة أن تعطر تلك الدوارق قبل ملئها بالماء، وليس ذلك مناسباً، لأنها تجعل للماء طعماً غريباً لا يستسيغه الذوق.

واعتماداً على ما قلته وأعدت القول فيه، عن لطف الشريف حامد فإنه يمكن أن نتخيل الطريقة التي استقبلنا بها في بيته. إن أولى فروض الضيافة لدى العربي، هي أن يجعل ضيوفه يأكلون كثيراً، وينبغي على الضيوف مجاملته، والأكل من كل أصناف الطعام التي يقدمها لهم، ولو كان عليهم أن يرتكبوا عشر مرات في اليوم خطيئة الشره. وقد أفرط الشريف في الالتزام بتلك العادة. كان الخروف المحشو بالرز واللوز الذي قدموه لنا في العشاء هائلاً؛ ولم يكن خروفا الفطور والغداء بأقل من ذلك، ناهيك عن عدد كبير من الأكلات المحلية، والحلويات، والمربيات، ومسك ختام كل ذلك كمية

ضخمة من الأرز واللحم والتوابل (البيلاف). / ٢٨٦ / كيف السبيل إلى الأكل بشهية في مثل هذه المأدبة؟ قدموا لنا الطعام على الطريقة المعتادة في هذا البلد، أعني على الأرض، وإلاّ فعلى طاولة مستديرة ترتفع عن الأرض مقدار ست أصابع، ويغطيها طبق من النحاس يُسَمّى: صينية، يتحلّق المدعوون حولها، ولم أجد ذلك مريحاً، وأقل منه راحة أيضاً أن تجد نفسك مجبراً على الأكل باستخدام أصابعك دون صحون ولا فراش. وكان الإبريق يؤدي مهمته بانتظام، لأن كل واحد من الحاضرين يغسل يديه بعناية قبل الطعام وبعده.

أجبرت مستضيفنا على أن يأكل معنا على الرغم من أنه كان يمتنع عن ذلك باعتباره ربّ المنزل، كان لأتباعه وعبيده وخدمه مظهر حسن، كانت تبدو عليهم جميعاً علامات النظافة، يلبسون ثياباً جميلة جداً، وكان بعضهم ينتطق، وهو يقوم بعمله، الخناجر. كانوا يقومون بخدمتنا بلطف نادر، مقتدين في ذلك بسيدهم.

كان صباح اليوم التالي قائظاً، قضيته في راحة تامة. كنت قريباً جداً من الحريم، وكنت أسمع بوضوح جلبة النساء، ولكن دون أن ألمح أياً منهن. لا ينطق الشريف بكلمة واحدة عن أسرته، والعرب لا يتحدثون أبداً عن حياتهم الأسرية، وإنه لمن غير المناسب أبداً أن تتحدث معهم عن ذلك. إلاّ أنني في مقابل ذلك تعرفت على عدد من أشراف المنطقة جاؤوا لزيارتنا. كان بعضهم مايزال يافعاً، وبعضهم الآخر /٢٨٧/ في سن متقدمة. كان لأحد هؤلاء المتقدمين في السن لحية بيضاء موقرة كل الوقار،

وإذا حكمنا بما لقيه من الاحترام، فقد كان من ذوي الاعتبار، إلاّ أنني لم أستفد منه، ولا من أضرابه أي فائدة. إن العرب متحفظون كل التحفظ مع الأجانب، بل هم كذلك بينهم أيضاً، ونتج عن ذلك أن حديثنا لم يكد يخرج من إطار المجاملات والعموميات. أتعرفون ما الذي يدهشهم عندنا؟ إنها أقلامنا التي تكتب بلا مداد، وكبريتنا الكيمائي الذي يشتعل بلا نار.

لقد ألح مستضيفنا الكريم إلحاحاً كبيراً ليجعلنا نبقى في ضيافته إلى اليوم التالي على الأقل؛ ولكن لطفه كان يقتضي الفطنة منا، وألححت لكي ننطلق في اليوم نفسه. وانطلقنا بالفعل في الثانية ظهراً، في أكثر أوقات النهار قيظاً. لم يستطع الشريف حامد أن ينطلق في الوقت نفسه بسبب بعض الزيارات، وبعض الظروف القاهرة، واستقر الأمر على أن يلحق بنا في المغرب.

وما كدنا نخرج من المنزل حتى سلكنا مضيقاً منحدراً وعراً، يضيق شيئاً فشيئاً بين جبلين عموديين، وهناك أرصفة صخرية ضخمة على وجه الأرض تجعل الممر شاقاً وزلقاً. ولجنا في آخر النهار سهلاً واسعاً، سيئ السمعة، مما جعل أحمد حمودي الذي كان يقود القافلة في غياب الشريف، ويظل خلفها، يلتحق بنا / ٢٨٨ / عندما اقتربنا من قرية: أبو شعيب التي يشاع أن سكانها لصوص مهرة؛ إنها مثل الزيمة تتألف من عدد من البيوت المتفرقة التي يشرف عليها حصن صغير متهدم، وهناك على جانب الطريق بئر مطوية، كانت بعض النساء يمتحن الماء منها؛ لأنهن في

الصحراء المسؤولات عن هذا العمل، ونرى في الكتاب المقدس (العهد القديم) أن الأمر كان كذلك في عهد آباء الجنس البشري؛ فعلى البئر قابل يعقوب راحيل[1] Rachel، وموسى صفورة. لم نر أحداً آخر في هذا المكان المشبوه، ولم أر رجلاً واحداً، لا في القرية ولا في نواحيها. وتأتي بعد هذه القرية، قرية أخرى اسمها بوجاري Bougari، سيئة السمعة كسابقتها، وهناك أدركنا الشريف حامد يسوق هجانه مسرعاً. واستمر بنا السير إلى وقت متأخر في وسط الظلمة التي كان الهلال يخفف منها بضوئه السحري، وقضينا الليلة في مقهى حدّة. كنا بذلك قد وصلنا إلى النقطة التي يلتقي بها طريقا الطائف بعد التفاف طويل لكي نتجنب الاقتراب من مكة المكرمة أو رؤيتها حسب التعاليم الإسلامية.

أغمضت عيني بعض الوقت لأننا كنا محاصرين بالجرذان وغيرها من زوار الليل التي لم تكن أقل إزعاجاً منها، لأنها كانت تختبىء في حُصر المقهى، وكنت أسمع طوال الليل أصوات مرور القوافل التي يعلق بعضها أجراساً بأعناق رواحلها، وهي عادة وجدتها بعد ذلك / ٢٨٩ / في سِمْرن[2] Smyrne، في موسم جني العنب. كانت هذه

---

(١) ابـنة لابان Laban الصغرى في الكتاب المقدس (العهد القديم)، أحبها يعقوب، وكانت إحدى زوجاته وأنجب منها يوسف وبنيامين ... وماتت راحيل في طريق إفراتة Eprath "بيت لحم" بعد أن وضعت مولودها الثاني بنيامين فنصب يعقوب عموداً على قبرها وهو عمود راحيل إلى اليوم (سفر التكوين الإصحاح ٣٥: ٢٠). انظر: **معجم ديانات وأساطير العالم**، موثق سابقا، ٣ / ١٧١.

(٢) مدينة في تركية.

الطريق هي طريق جدة إلى مكة المكرمة، وكانت القوافل كلها تتوقف، ولو لحظة في حدة، وقد كان فيها عندما طلع النهار عدد كبير من المسافرين، وكان بينهم مفرزة من جنود المدفعية الأتراك، وقد كان السيد دوكيه يعرف قائدهم: قَدَّمْت له قهوة الصباح، وعلمت منه أنه يتوجه إلى مكة المكرمة ليأخذ أحد المدافع الحربية ويتوجه بها إلى الشريف الأكبر، وكان هذا الأخير قد طلبه من الباشا لاستخدامه في تأديب إحدى القبائل المتمردة.

ولّما كان الشريف الأكبر لا يملك لا مدفعية، ولا فرساناً، ولا جنوداً منظمين فإنه كان مجبراً، على غير رغبته كما نظن، أن يطلب ذلك من السلطة العثمانية كلما كان بحاجة إليه لإخضاع القبائل التي يحكمها أو من المفترض أنه يحكمها، والتي تتمرد عليه. وينتج عن ذلك أنه لا يلجأ إلى القوة إلاّ عند الحاجة الشديدة، وبعد أن يستنفد كل وسائل الصلح.

كنت في أرض أعرفها، ولم يحدث في اليوم التالي ما يهمني. لقد رأيت من جديد خلال مرورنا خيام الباشي بوزوق، وقد وجدنا أنفسنا بعد مسافة قصيرة وسط زمرة منهم كانت تعود إلى معسكرها. وكان الشريف حامد لا يود لقاءهم، ولكن تجنبهم كان مستحيلاً / ٢٩٠ / ولم يكن في اللقاء على أية حال ما أزعجنا: فقد كانت علائم الذل تبدو عليهم، وهم عادة متغطرسون، وبدوا مؤدبين ولو قليلاً. ويبدو أن سبب ذلك ما أخبرونا به من أن سنجقهم (قائدهم) كرد عثمان أغا قد عُزل؛ إذ كانت عداوته للعرب عموماً وللشريف الأكبر خصوصاً معروفة، وكان عزله بالنسبة

إليهم نصراً حاسماً. كان الخبر صحيحاً بدليل أننا قابلنا في مقهى البياضة، وهو المكان الذي أصبت فيه بالحمى في بداية الرحلة، بديل عثمان، وكان يذهب لاستلام منصبه على صوت الطبلة التي يستخدمها الجنود غير النظاميين في مسيرتهم، وكانت حاشية ضخمة وباهرة ترافق القائد الجديد. ولمحنا عند الظهيرة البحر في الأفق. كان الجو قائظاً مع أن الهواء كان عاصفاً؛ ولم يكن ليحمل أية برودة، بل كان يلفح وجوهنا بلظى النار، ويثير حولنا سحابات من الرمال. ومع أننا كنا قريبين كل القرب من المدينة فإننا توقفنا طويلاً في الرغامة حيث ودعنا قبل اثني عشر يوماً أصدقاءنا في جدة. والرغامة مكان كئيب كل الكآبة، وقبيح كل القبح، ولكن المصادفة جعلتنا نجد فيه لبناً لذيذاً منعشاً. وكان هناك أحد الجنود غير النظاميين، تأخر عن زملائه ليريح حصانه، وقد لقينا منه / ٢٩١ /، وهو أمر غريب، عناية فائقة.

إن عزل كرد عثمان أغا قد أذل أولئك الأجلاف. أدى الشريف حامد بالقرب مني بخشوع صلاة العصر، ثالثة الصلوات؛ ولما انتهى من صلاته حملنا عصا الترحال، ودخلنا جدة قبل الرابعة عبر باب مكة المكرمة. كنت في اليوم التالي حريصاً بالطبع على زيارة الشريف حامد في بيت مصطفى أفندي، وكيل الشريف الأكبر، وقد وافقا على دعوتي لهما لتناول العشاء ليودع بعضنا بعضاً؛ وذلك في سكني المؤقت، ودعوت أيضاً السيدين كول ودوكيه، وصديقي خالد بيك بن سعود الذي كانت سعادتي حقيقية برؤيته من جديد. تكفل غاسبارو بإعداد الطعام، عدا الخروف المحشو الذي لم يكن يعرف طريقة تحضيره كما ينبغي؛ لذلك عهدنا بتحضيره إلى طباخ محلي مشهور

في جدة بمهارته في ذلك، فحضره في بيته، وجاء إلينا به في الوقت المحدد، وقد أتقن تحضيره كل الإتقان. يشوى هذا الخروف الذي يعد الوجبة الرئيسية لدى الشرقيين مطموراً في فرن محفور في الأرض لهذه الغاية، وأعترف أن اللحم المشوي بهذه الطريقة يبلغ حداً من الإتقان غير معروف في فن الطهو الغربي[1].

لقد شهد عشاؤنا اضطراباً غيرعادي؛ فقد وصل خالد بيك بن سعود، وعلامات الأسى بادية عليه، وقد احمّرت عيناه من الدموع. لقد أخفى سبب هذا الحزن الشديد عنّا باعتبار أن الأمر حَدَثٌ أسري، والعرب كما سبق لي القول، لا يتحدثون أبداً عمّا يحدث لنسائهم. ولكنني علمت من / ٢٩٢ / مصدر آخر سبب الحزن الذي كان يعتريه؛ وإليكم ما علمته.

في مرحلة من مراحل حياته التي أجهلها، قامت إحدى النساء العربيات بإنقاذ حياته، وذهب أخوها ضحية ما قامت به هذه المرأة، وقد تزوجها خالد بيك بن سعود اعترافاً بجميلها، وكان يحبها ويحنو عليها. كانت حينئذ مريضة، وكان قلقاً كل القلق على حالتها، ولمّا ألححت عليه لبّى دعوتي خوفاً من أن يكدرني بغيابه. ولم أكن قاسياً كي أفرط في استغلال لطفه الشديد، بل سارعت إلى إخباره أنه في حلٍّ

(١) تعرف هذه الطريقة في الطبخ بـ "المندي"، وهو وضع برميل من حديد أو جرة كبيرة من فخار في حفرة في الأرض، ثم يوضع بها مقدار من الحطب وتشعل فيه النار حتى يصبح جمراً، ثم ينزل الخروف أو اللحم أياً كان على الجمر على أن يكون بينهما عازل ثم تغطى هذه الحفرة بالتراب بإحكام حتى ينضج اللحم وعادة يكون بعد ساعة ونصف من وقت دفنه، وهي طريقة اشتهرت في حضرموت.

من دعوتي، فانتهز ذلك للعودة فوراً إلى منزله، وقد أثبت لي تسليمه علي عند المغادرة كم كان متأثراً بحسن تصرفي.

وقد تلا هذا الظرف الطارئ ظرف طارئ آخر؛ فقد انتظرنا الشريف حامداً ومصطفى أفندي ساعتين كاملتين، وعندما وصلا أخيراً كان يرافقهما ثمانية أشخاص غير مدعوين، منهم أحمد حمودي، مما أحدث بعض الاضطراب في الخدمة. وبعد هذا التأخير، أدركنا المغرب في وسط العشاء، وغادر مدعوونا الطاولة لما سمعوا نداء المؤذن لأداء الصلاة في غرفة مجاورة. إنني، باختصار، لم أر في حياتي عشاء أكثر تهافتاً، وأكثر / ٢٩٣ / اضطراباً. لا يمكن إتقان الأمور إلاّ في بيئتها المناسبة. كانت لحظة الوداع حرجة؛ إذ لم يحصل رئيس الجمّالة ومن رافقونا إلى جدة على بخشيشهم في الطائف، وقد وزعنا عليهم تلرات تتناسب مع طول بقائهم معنا، والتعب الذي اعتراهم من خدمتنا، وأضفنا إلى بخشيش رئيسهم ثوباً أحمر طارت له نفسه فرحاً، ولبسه على الفور، وجاب السوق لتراه المدينة كلها.

لم يكن بوسعنا نسيان الشريف حامد نفسه، فقدمنا له تذكاراً هو وشاح كشميري، ثمنه ألفا قرش، وقد بدا راضياً عنه كل الرضا، ووعدنا أن يلبسه إكراماً لذكرانا. وقد علمت، بكل أسف، أنه لم يلبسه طويلاً، لأن هذا الرجل النبيل، الأنموذج الكامل للسيد العربي، توفي بعد بضعة أشهر من تاريخ عودتي إلى فرنسا.

الفصل الثاني عشر

بعض التأملات

لقد قصصت بالتفصيل، بلا زيادة، ودون أية مبالغة، كيف / ٢٩٤ / استقبلني الشريف الأكبر. لم أكن بالتأكيد أنتظر مثل ذلك الاستقبال الذي يذكّر بأجمل أيام الكرم العربي التي تحدثت عنها قصص "ألف ليلة وليلة" الرائعة. لمّا وصلنا إلى جدة كنا نُحَدّث أنفسنا بزيارة الطائف كما فعلنا عندما وصلنا إلى الطور، وزرنا جبل سيناء. لقد طلبنا، أو رجونا أن يُطلب لنا، السماح من الأمير – الشريف لزيارة مكان إقامته؛ لأننا كنا نظن أننا بذلك نقوم بإجراء شكلي لا يمكن تجاهله، كما نفعل في أوروبا عندما نطلب من السفراء وضع تأشيرات البلاد التي سنجوبها على جواز السفر؛ ووضعنا في حسباننا أن استقبالنا سيكون للإجابة بأنه يُسمح لنا بمجرد الزيارة، شرط ألا نبالغ في ذلك، وأن زيارتنا ستكون على مسؤوليتنا الخاصة، وعلى حسابنا، وكما يحلو لنا أن نقوم بذلك. وقد رأينا أن الأمور سارت على خلاف ما كنا نتخيل تماماً.

لقد سئلت في بعض المرات، وسألت نفسي، عن سبب مثل ذلك الاستقبال الذي حظيت به ورفيق رحلتي؛ لأن الأمير – الشريف لم يكن في واقع الأمر يعرف أحداً منا، وإذا قبلنا فرضاً أنه أراد أن يكون لطيفاً مع القنصل البريطاني الذي نقل إليه رغبتنا فيعامل من أوصاه بهم القنصل معاملة جيدة، فقد كان بإمكانه أن يحقق ذلك بأقل مما فعل.

لقد كان السيد كول (القنصل البريطاني) نفسه مندهشاً من تلك الطريقة الرائعة في السلوك. ومعاذ الله أن تكون غايتي من البحث عن السبب هي التقليل / ٢٩٥ / من قيمة ذلك الكرم الرفيع، لكي أزيح عن كاهلي أعباء الاعتراف بالجميل، ولن يكون في بحثي عن الأسباب أي نوع من أنواع إنكار الجميل.

إن العرب حذرون بطبعهم، وخصوصاً من الأوروبيين، والعرب يرون بواعث سرية تكمن وراء تصرفات الأوروبيين كلها، حتّى لو كانت غير ذات بال. والحال أنه من الطبيعي، في الحالة السياسية التي كانت الجزيرة العربية تعيشها آنذاك، أن يكون وجود بريطانيّ وفرنسي يجوبان الحجاز مدعاة للشك، وأن يُظَنّ أن حكومة كلٍ منهما أرسلت مواطنها لدراسة الوضع في البلد، واستطلاع مدى ارتباطه بالباب العالي، وموقفه منه. وعلى الرغم من أن ذلك غير صحيح، فإنه غير مستبعد، ولا مبالغ فيه بسبب الظروف، وإن شك الشريف الأكبر بذلك جعله يعاملنا تلك المعاملة، باعتبار أنه كان لذلك الشك أساس متين. وحتّى لو كان الأمر كذلك، فإنني أكرر أن اعترافي بالجميل لا تشوبه شائبة. كان الشريف الأكبر حريصاً خلال حديثه معنا على ألاّ يُظهر أي تحيز لصالح روسيا، بل بدا قاسياً بأحكامه عليها، معادياً لها، ذا موقف هجومي؛ مع أنه من المستحيل أن تجد عربياً، بَلْهَ الشريف الأكبر، لا يُكِنُّ تعاطفاً خفياً لأعداء تركية. ولا ينبغي أن ننسى أنه ليس للأتراك حق في الجزيرة العربية أكثر مما للنمسا في إيطاليا على سبيل المثال، وأكثر مما لروسيا في بولونيا، وأن الأتراك يسيطرون على الجزيرة العربية بالقوة بعد / ٢٩٦ / أن أسقطوا حكومة الأشراف الوطنية، وبعد أن

وقع غالب والد الشريف عبد المطلب ضحية خيانتهم المشهورة، ومات في المنفى بعد أن نفوه إلى أراضٍ تابعة للدولة العثمانية، وقضى ابنه عبد المطلب نفسه أربعاً وعشرين سنة من عمره في ذلك المنفى، ولمّا عاد في النهاية إلى وطنه ومنصبه الوراثي لم يكن له إلاّ ظل سلطة محدودة.

إن كل ما يضعف الباب العالي لا بد له أن يلقى قبولاً في نفوس العرب عموماً، وفي نفس الشريف الأكبر خصوصاً، وأن يمنحهم أملاً مشروعاً في التخلص من الأتراك. وعلى العكس، إن كل ما يجعل الأتراك منيعي الجانب يحزنهم بالضرورة، ويزيد من أمد خضوعهم لهم.

ولست أرى سبباً وجيهاً للكيل بمكيالين؛ بأن ننكر على العرب تطلعهم للاستقلال، ونجد ذلك عدلاً عند الإيطاليين والبولونيين، وعند كل الشعوب الأوروبية التي تعاني من السيطرة الأجنبية. إن الأصيل يظل على الدوام أصيلاً، وينبغي ألا يجعله كونه بالطبع أقل ذكاء وقيماً ممقوتاً من أولئك الذين يستبد بهم؛ وإن وصوله بنفسه إلى مرحلة التهالك يجعله يحافظ على ما اغتصبه بالمكر والفساد ومساعدة الآخرين.

تلك هي بالتحديد وبالاختصار حال الأتراك مع العرب، كما هي حالهم أيضاً مع اليونانيين والسوريين، ومع كل الشعوب التي خضعت لهم في الماضي. لم يعد/ ٢٩٧/ باستطاعتهم الدفاع عن أنفسهم، ويقمعون الآخرين، وإن ذلك، مهما يمكن أن يقال: وضع خاطئ، ومخالف للواقع، وينبغي أن يوضع حد له، ولا يمكن أن يستمر زمناً

طويلاً؛ وإن كل المؤتمرات والبروتوكولات لن تجعل تركية تنبعث من جديد، لقد انهارت، وكان يمكن أن يزول اسمها منذ زمن طويل من على الخريطة لولا أن الغرب اتفق على اقتسام تركتها. إن كل خطط الإصلاح التي نباهي بها في هذه الأيام، والتي ليست في واقع الأمر إلاّ أطماعاً، هي أوهام وأكاذيب. ويمكن أن استشهد بتلك الشخصية التركية المرموقة التي أُرسلت إلى مؤتمر السلام في باريس، والذي كان أول الساخرين من الأمر السلطاني[١] المشهور في شهر فبراير (شباط) الماضي، وصرح علانية أنه لا يمكن قبوله أبداً.

إننا لا نصلح من مات، ولكن ندفنه؛ وإن لم يقم جيلنا بهذا الواجب فإن الجيل القادم سيقوم به. وتكمن في هذا، المسألة الشرقية التي سبق طرحها، والتي عالجها مونتسكيو[٢]Montesquieu قبل أكثر من قرن، وتحدث عنها مستخدمًا الكلمات نفسها التي نستخدمها اليوم، واقترح لها الحلول نفسها التي نطرحها اليوم.

---

(١) استخدم ديدييه مصطلحاً تركياً جاء في الأصل Hat-Houmayoum، والصواب Hatt-I-Hmayn (خطي همايون)، وهو الاسم العام الذي يطلق على الأوامر الصادرة من السلاطين وبكتابة أيديهم أو ما حرره الكتاب وأمضاه السلطان ... وقد سمي الخط الهمايوني بالخط الشريف أيضاً. انظر: **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، موثق سابقاً، ص ١٠١. ويبدو أن المقصود هنا هو الأمر السلطاني الذي قضى بقبول إنهاء الحرب مع روسيا والذهاب إلى مؤتمر السلام الذي عقد في باريس في مارس (آذار) ١٨٥٦ م.

(٢) مونتسكيو Montesquieu = (١٦٨٩ – ١٧٥٥ م): كاتب وفيلسوف سياسي فرنسي، أشهر آثاره "روح القوانين L Esprit des Lois " (عام ١٧٤٨ م).

إن الأتراك أنفسهم، وأعني هنا عدداً قليلاً منهم؛ ممن لديهم بعد نظر، لا يخدعون أنفسهم، ويغمضون عيونهم عن الوضع المتهافت للإمبراطورية العثمانية، إنهم يعرفون حق المعرفة، المصير الذي ينتظرها في المستقبل، ويعرفون أن تنافس القوى الأوروبية هو الذي يجعلها تحافظ على توازنها المصطنع الذي يمكن أن ينهار انهياراً لا قيام بعده، عند أول مواجهة / ٢٩٨ / حقيقة بين تلك القوى.

لا تتخيلوا أن الأتراك يكنون لفرنسا وبريطانيا أي اعتراف بالجميل: إنهم مقتنعون أن البلدين يقفان في وجه القوة الروسية سعياً لمصالحهما الخاصة، وليس لمصلحة تركية. إن الحماية التي تجعلهم تَبَعاً تحطم كبرياءهم، وإن كان ضعفهم يجبرهم على إخفاء حقدهم، فإن هذا الحقد عميق، وعاجز، ومنكمش على ذاته. أما عامة الشعب التي لا تعرف شيئاً، ولا تفهم شيئاً مما يحدث فإنهم يخدعونهم بحكايات سخيفة: فيجعلونهم على سبيل المثال يعتقدون أن السلطان أجبر فرنسا وبريطانيا على مساعدته ضد الروس دفاعاً عن العلم التركي، وقد سمعت بنفسي هذه الحماقة تتكرر مئة مرة في كل أنحاء تركية التي زرتها.

لنفترض أن الأتراك استطاعوا في القرن السادس عشر، أو بعد ذلك في القرن السابع عشر، وقبل انتصار سوبيسكي[1] Sobieski، أن يفتحوا أوروبا، ولو أنهم

---

(١) Sobieski,(Jean III) = سوبيسكي ملك بولونيا (بولندا) ولد عام ١٦٢٩ م، وتوفي قرب فرصوفيا عام ١٦٩٦ م، وأعظم أعماله الحربية أنه أفلح في إيقاف جيش من ٣٠٠ ألف تركي وتتري عند أسوار فينا ومعه جيش قليل وذلك في عام ١٦٨٣ م، وكان قد تمكن في عام ١٦٦٧م من رد هجوم جيش من الأتراك والتتار والقوقازيين عدده ١٠٠ ألف جندي.

استقروا فيها كما في بيزنطة، كيف كان يمكن أن يعاملوا آباءنا ؟ لن يكونوا بالتأكيد، ولو حصل ذلك، ليهتموا بالتحديث، ولا بالتسامح، ولكانت المقابر غصت بموتى النصارى. كانت الحرب في غير صالحهم، وانتصر العنصر الغربي، وإن الأتراك اليوم تحت رحمة أوروبا، كما أن أوروبا كانت ستكون تحت رحمتهم لو أن الهلال انتصر على الصليب. ولا أطلب أن / ٢٩٩ / نحقد عليهم، ولا أن ننتقم منهم؛ لأن مثل هذه الوسائل لم تعد مناسبة لروح العصر وطباعه، والإنسانية تنكرها . ولكنهم، ودون أن نُعمل فيهم حد السيف كما فعلوا ذلك دون رادع بأعدائهم، وكما كانوا سيفعلون بنا لو كنا تحت رحمتهم، لا يستحقون في آخر الأمر هذا القدر من المراعاة ورحابة الصدر؛ ولمّا كانت تركية، كما يتردد بحق، ليست إلاّ مخيماً عسكرياً في أوروبا، فما عليها إلاّ أن تطوي خيامها وتذهب لتنصبها في مكان آخر: وإن آسيا واسعة لتعوضها عن ذلك. عندما يصبح الأقوى هو الأضعف فإنه ببساطة يخسر كل ما كان يدين به لقوته. وإن كل شعب عاجز عن الدفاع عن نفسه بنفسه، ليس أهلاً للحياة، ومحكوم عليه بالفناء.

لم نعد اليوم نحترم هذه المقاييس العظيمة التي تحل وحدها كبريات المسائل، والتي تجعلها الضرورة حتماً لابد منه. وكلما أجلنا الحلول كان تطبيقها أكثر صعوبة، وفي بعض الأحيان أكثر هولاً، ونجد أنفسنا بعد ذلك، لأننا لم نوجه الضربة الحاسمة في الزمن المناسب، مضطرين لتوجيه ألف ضربة لا تصيب في الغالب هدفها، وتكلف أكثر بكثير. إن اليونان، أو على الأقل قسماً صغيراً من هذه القارة المجيدة، كسرت

قيودها بتشجيع متعاطف من أوروبا وبمساعدتها . وإن الإمارات الدانوبية / ٣٠٠ / ستفعل مثل ذلك قريباً، بانتظار أن تستعيد بلغاريا وصربيا، وتيساليا[١]، ومقدونيا، وكل البلاد التي يسلبها الأتراك حريتها .

لقد جاء دور الجزيرة العربية أخيراً؛ هي أيضاً ينبغي أن تسترد شخصيتها الوطنية، ولا يمكن بالتأكيد لأحد أن يجد سعيها إلى ذلك منكراً . إن الأمة العربية متفوقة على الأتراك في كل المجالات. فإذا أردت الحديث عنها باعتبارها أمة محاربة، فإننا نعرف إلى أين وصلت فتوحاتها؛ إلى آسيا، وإفريقيا الشمالية كلها، وصقلية وإسبانيا، وخضع جنوب فرنسا لسلطانها في بعض الفترات. إنها تلقت ونشرت في أقاصي الأرض ديناً عمره اثنا عشر قرناً، ولن يزول حتى نهاية الزمن.

إنها أمة عالمة ومثقفة؛ نبغت في العلوم قدر ما نبغت في الفن والحروب، لقد كانت خلال أمد طويل أمة مبتكرة حيثما قادها حماسها الديني، لقد كان لها مدارس تزدهر فيها دراسة الطب والعمارة والرياضيات والفلك، وفي هذه المدارس تعلم الغرب، وأبدعت هذه الأمة روائع أدبية مازالت حتى اليوم متعة العقول المثقفة كلها . ماذا لدى الأتراك في موازاة ذلك؟ الجهل والوحشية.

وإن انتقلنا من الماضي إلى الحاضر فإننا نلحظ التفوق نفسه لدى العرب، وخصوصاً في الجانب الأخلاقي. إنهم يتحلّون بفضائل عظيمة، فالشجاعة والكرم / ٣٠١ / والاستقامة تقيم معهم في خيامهم، يحاربون بإنسانية، وبشرف، ويحترمون

(١) مقاطعة يونانية كان يسيطر عليها الأتراك.

العهود والمواثيق، وتسود بين أسرهم صفات الشرف والوئام والإخلاص، ويجهلون العبودية والسفالة: فكل رجل، مهما كان مقامه، يحافظ، وفي كل المناسبات، على إحساسه بالأنفة، وإن حاجاته المحدودة لا تجعل الفقر ينال من أخلاقه.

إن الصحراء صرح المساواة. وإن السيئة الوحيدة الرئيسية لدى البدو هي حبهم الكبير للمال، أو لما يمثله؛ ولكن عذرهم في الفقر؛ ولماذا نأخذ عليهم ذلك، وأي شعب في أوروبا كلها لا يبدي نهماً للذهب يفوق بكثير ما نجده عند أولئك البدو من حب المال: والفارق الوحيد بين الحالتين هو أننا في أوروبا نختلس بمهارة، ونغش، ويبيع المرء ضميره وشرفه، بينما يفرض العربي المال على القوافل، ويغزو أعداء قبيلته من القبائل الأخرى علناً، ويُعَرّض حياته للخطر، ويقترن كل ذلك في ذهنه بمصادفات الحرب، وأخطارها، وقوانينها، وتكون تلك الأفعال مطبوعة في الوقت نفسه بضَرْب من السمو لا تجده بالتأكيد في الاختلاس الصامت والخفي الذي يمارسه الأوروبيون.

ليس لدى الأتراك ما يقدمونه مقابل هذه المناقب والمثالب إلاّ المثالب الخالصة، ومناقب لم تعد موجودة؛ فالشجاعة التي كانت مصدر قوة أسلافهم ونجاحهم لم تعد موجودة لديهم إلاّ في الحكايات؛ فلا يكاد أحد ينجو من شراستهم، ولا يعادل عنفهم / ٣٠٢ / إلاّ غدرهم؛ وهم فاسدون بلا رادع: فالجشع الذي لا يُشْبَع، والارتشاء بلا خجل ينتشران في كل الأعمال العامة والخاصة، من أعلى موظفي الإمبراطورية إلى أدناهم. إذاً، إن العرب يتفوقون عليهم إنْ في الجانب الأخلاقي؛ وإنْ في الذكاء، والعقلية، والثقافة.

وليس بالغريب انطلاقاً من ذلك كله أن يعاني العرب معاناة مضاعفة من تبعيتهم للأتراك؛ لأن ذلك طغيان أجنبي، ولأن الذين يمارسونه هم زعماء محليون. لقد حاولوا في وقت قريب التخلص من نير الأتراك، ولكن المشروع كان ينقصه الاتحاد ففشل. جرى القتال في مكة المكرمة، وخرّ مئة من العرب صرعى في المواجهة الأولى، واستولى الأتراك على المدينة المقدسة، واستعادوا الطائف التي كانت قد أعلنت استقلالها عنهم، والله وحده يعلم ماذا فعلوا بعد نصرهم ! أتعرفون من كان على رأس الحركة؟ إنه الشريف عبد المطلب الذي تعرفنا إليه في هذه الرحلة، والذي امتدحت خصائله باستطراد، والذي استطعت على الرغم من تحفظه، الوصول إلى ميوله الحقيقية. ولمّا كان مقتنعاً بضرورة التمرد فقد قام السلطان بنزع صلاحياته، واستبدل به ابن عون الذي كان عبد المطلب نفسه قد حل محله قبل خمس أو ست سنوات، وهو يقيم في إستانبول. وقد وقع عبد المطلب بعد زمن بأيدي الأتراك فحملوه إلى إستانبول / ٣٠٣ / ونفوه منذ وقت قليل إلى سالونيك Salonique كما نفي إلى هناك قبله والده غالب الذي مات هناك بالطاعون منذ أربعين سنة[1].

---

(١) لم يُنفَ عبد المطلب إلى سالونيك، وإنما ظل في إستانبول حتى عام ١٨٨٠م / ١٢٩٧ هـ عندما عاد ليكون شريفاً للمرة الثالثة، ويموت في البياضة عام ١٨٨٦م / ١٣٠٣ هـ وهو تحت الإقامة الجبرية. انظر ترجمته فيما سبق الحاشية رقم (٢٨٩). انظر: **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، موثق سابقاً، ج ١، ص ٢٨٧؛ ويتحدث ديدييه هنا عما قام به الشريف عبد المطلب عام ١٢٧٢هـ عندما توجه من الطائف إلى مكة المكرمة على رأس عدد من القبائل لقتال الوالي التركي كامل باشا، ولكن عبد المطلب =

ولا يستطيع أحد التنبؤ بالمصير الذي ينتظر الابن على هذه الأرض الغريبة؛ ولكن مهما كان مصيره، وإنْ كان سقوطه نهائياً، أو أن الحظ سيعيده إلى السلطة مرة أخرى، فإنني أعدُّ نفسي سعيداً إذا أتيح له أن يعلم، وهو في منفاه، أنني أحمل له كل الامتنان والتعاطف، وأنني أنذر النذور لكي تستقل أمته التي هي واحدة من أشرف الأمم التي تبوأت مكانها في التاريخ، والتي فرضت عليّ احترامها عندما عرفتها.

= هزم وعاد إلى الطائف، وجرت بينه وبين كامل باشا والشريف عبد الله بن ناصر ثلاث معارك هزم جيش عبد المطلب فيها، وأخرها في الثامن من شعبان ١٢٧٢هـ، وبعدها بيومين وصل إلى مكة المكرمة الشريف محمد بن عون الذي تجهز بالعساكر بعد وصوله بأيام وتوجه بهم إلى الطائف ومعه ابنه الشريف علي باشا والشريف عبد الله بن ناصر واستولوا على الطائف في رمضان ١٢٧٢هـ، وأصبح محمد بن عون شريفاً. انظر: **خلاصة الكلام ...**، موثق سابقاً، ص ٣١٨ — ٣٢٠.

الفصل الثالث عشر

مغـادرة جدة

عند عودتي إلى جدة، كان عزل الحاكم أمراً مقضياً، أو على الأقل شائعاً بين الناس؛ لكنه لم يكن قد غادر بعدُ موقعه الذي كان عليه البقاء فيه حتى وصول خليفته. وأدى عزله إلى عزل عثمان آغا معه، وكان يُعَدّ صنيعته، وقد كان كذلك حقيقة. وكان أحمد عزت ينأى بنفسه، باعتباره من أكبر باشاوات الإمبراطورية العثمانية، عن زيارة أحد، حتى قنصلي بريطانيا وفرنسا اللذين كانا ضعيفَيْن، / ٣٠٤ / ويحتملان منه هذا الغرور.

لم يقم، والحالة هذه، بردّ الزيارة التي خصصته بها عند وصولي إلى جدة، ولم أتلق منه إبان إقامتي كلها في تلك المدينة أي آيات المجاملة، ولعله كان بذلك يود إفهامي أن أكتفي بما كان، وأن أذهب، وألا أعود إليه. إلاّ أنه، لمّا كان حريصاً على إظهار تهذيبه، مع الاحتفاظ بخيلائه، فإنه أرسل إليّ في اليوم الذي تلا يوم عودتي إلى جدة أحد أقربائه ليهنئني باسمه لنجاح رحلتي. وقد غيّرت هذه المجاملة انطباعي الأول، وخصوصاً أنني رأيت أنه من مبادئ الذوق السليم ألاّ أعتب على موظف معزول. فقمت برفقة السيد دوكيه بزيارة استئذان مرت كالزيارة الأولى، بفارق طفيف هو أن الباشا بدا أكثر عجلة، وأكثر إقناعاً، وأثقلني باعتراضاته التي لم أعرها كبير اهتمام. لم يكن ينبغي أن أذكر كلمة واحدة عن رحلتي إلى الطائف، ولا أن يصدر عني أي تلميح للشريف الأكبر. وإن مثل ذلك الصمت يدل كل الدلالة على الحقد الشديد الذي يكنه للأمير الشريف.

ولمّا لم يعد لدي ما أفعله في جدة فلم أكن أفكر إلاّ في مغادرتها في أسرع وقت ممكن، لكي أعود إلى القاهرة، ولكن، عَبْر أي طريق؟ ترددت بعض الوقت، لأن الاختيار لم يكن سهلاً. وينبغي أن أقول في هذه المناسبة إن الشريف الأكبر في الطائف عرض علي أمراً مغرياً: لقد عرض علي / ٣٠٥ /، وإنْ بتلميح دون تصريح، وبوساطة أحد أعوانه، أن يرسلني إلى البصرة وبغداد عَبْر نجد إذا كانت رحلتي تمضي في هذا الاتجاه. وقد كان للأسف يعرض عليَّ السير في الاتجاه المعاكس: كنت أود المرور مرة أخرى عَبْر مصر، ولم أفكر بالذهاب إلى المدينتين المذكورتين، وعلى الأقل بغداد، إلاّ في وقت متأخر عَبْر دمشق وحلب وصحراء الرافدين الواسعة، لأصل بعد ذلك إستانبول عَبْر طربزون[1] Trbizonde.

تماسكت إذاً أمام الإغراء المذكور، وبقيت على مخططي السابق. وقد أصابني في الصيف الماضي زحار شديد لم يسمح إلاّ بإنجاز مرحلة صغيرة من تلك الرحلة، وقد منعني فقدان بصري إلى الأبد من القيام بالرحلة كاملة.

كان بوسعي العودة من جدة إلى القاهرة كما أتيت؛ وقد كان أمين بيك يستعد في تلك الفترة بالتحديد لإرسال سفينة شراعية مصرية إلى القصير، وكنت أستطيع من هناك خلال بضعة أيام أن أذهب لركوب النيل في قنا. وقد تفضل بوضع السفينة تحت تصرفي؛ ولكن هذه الوسيلة التي تبدو في الظاهر سهلة كانت تبدو لي مستحيلة التنفيذ عندما فكرت فيها. لقد كان علي في البداية أن أسلك مرة أخرى طريق العودة من

---

(١) مدينة تركية في القسم الأسيوي (الأناضول) على البحر الأسود.

جدة إلى ينبع، بل أبعد من ذلك، لأن السفن تسير بحذاء الشاطئ أطول وقت ممكن، قبل أن تمخر عباب البحر لتدرك الجانب المصري. إن الرحلة التي لم تستغرق في القدوم / ٣٠٦ / إلاّ عدداً قليلاً من الأيام، بفضل الرياح الموسمية الشمالية التي تكاد تهب على الدوام على البحر الأحمر، تحتاج في العودة خمسة أو ستة أضعاف ذلك الوقت، وغالباً أكثر من ذلك، وتراجعت أمام عبور يحتمل أن يستغرق ثلاثين أو أربعين يوماً. قررت إذاً عبور البحر الأحمر بخط مستقيم من جدة إلى سواكن. وكنت أنوي أن أذهب من هناك لركوب النيل، سواء من النوبة أم في منطقة أبعد من ذلك في الخرطوم، ومن هناك أهبط إلى القاهرة عبر النيل. وقد زودني أمين بيك الذي سلك تلك الطريق بمعلومات مفصلة عن البلد، ولما كان علينا التخييم كل مساء في تلك الصحراء فقد اشتريت خيمة بدل الخيمة التي احترقت في السويس. ولمّا اعتمد رفيق رحلتي الطريق المذكورة نفسها قام السيد دوكيه في اليوم نفسه باستئجار سنبوك من سواكن كان جاهزاً للعودة إليها، وبمبلغ تافه بلغ خمسين قرشاً.

كان ينبغي أن نغادر في يوم ٩ مارس (آذار)، ولكن مغادرتنا تأجلت حتى يوم ١٢ من الشهر نفسه بسبب ظرف سأتحدث عنه.

كان قنصل فرنسا في جدة حينئذ، كما ذكرت ذلك سابقاً، هو روشيه المدعو ديريكور؛ وهي تسمية وهمية أضافها إلى اسمه ليجعله في الظاهر أكثر أرستقراطية. بدأ حياته عاملاً في دباغة الجلود، وقد كان كل شيء فيه، لغته، وطبائعه تدل على بداياته. ثم ذهب بعد ذلك للبحث عن الثروة في الحبشة، ومضى / ٣٠٧ / في

رحلته حتى وصل إلى مملكة خوا[1] Choa، ثم عاد إليها مرة أخرى مع هدايا الملك لويس – فيليب إلى مُلَيْك الحبشة. وقد ظهرت قصة هاتين الرحلتين موقعة باسمه[2]، ولا يمكن أن يكون هو المؤلف: لأنه عاجز عن أن يكتب مجرد رسالة، لقد استعان لكتابتها بقلم أحد الكتاب، أعرفه، وأستطيع ذكر اسمه. وانطلق من ذلك ليعيّن قنصلاً من الدرجة الثانية وفارساً، ثم حصل بعد ذلك على وسام جوقة الشرف برتبة ضابط، ولكن ذلك لم يغير شيئاً من كونه دباغ جلود.

لم يكن له أي حظ من الثقافة، ولا من التعليم، لم يكن مهيّأ ليعطي العرب عن فرنسا فكرة إيجابية، ولم يترك في جدة إلاّ ذكريات محزنة. كان بلا أسرة، ولم يكن اجتماعياً، ويعيش منعزلاً تماماً في منزل ضخم في حي اليمن، وكان قد أذاق السيد دوكيه المترجم وموثق العقود في القنصلية الأمرّين، مما دعا هذا الرجل الرائع إلى مغادرة المنزل القنصلي، والإقامة في منزل خاص ليستطيع العيش بسلام وحرية، ناهيك عن أنه ناصب القنصل البريطاني السيد كول العداء علانية، وبدون أي سبب، وهو زميله، والأوروبي الوحيد المقيم في جدة على الدوام: مما دفع أهل جدة بالطبع إلى الاستنتاج أن حلول الوئام بين الأوروبيين النصارى أمر مستبعد، لأن الأوروبيَّيْن الوحيدَيْن المقيمَيْن في جدة يكنان العداوة لبعضهما.

---

(١) في القسم الجنوبي من بلاد الحبشة، انظر: **اكتشاف ...**، موثق سابقاً، ص ٣٣٨.

(٢) تقول جاكلين بيرين في: **اكتشاف ...**، موثق سابقاً، ص ٣٣٨: "... ومع هذا، لا تخلو قصة رحلته، ومروره بالقصير، وجدة، والحديدة، والمخا، من المعلومات الشائقة؛ إذ كان قد طرأ تبدل عظيم في شؤون البحر الأحمر ما بين سنتي ١٨٣٩ و ١٨٤٢ م، وذلك بتأثير الظروف السياسية الدولية".

لم أسترح لذلك الشخص، ولم أزره خلال إقامتي في جدة إلاّ زيارات قصيرة / ٣٠٨ / للمجاملة، والحق أنه كان مريضاً جداً، ولم يكن يغادر سريره إلاّ قليلاً. ولمّا عدت من الطائف وجدت أن حالته تفاقمت، وبدا لي أنه يعيش أيامه الأخيرة. لقد كانت تلك الأعراض أكيدة: إذ توفي بعد ثلاثة أيام، وشاركت في وضعه في تابوته. وأقام السيد دوكيه في القنصلية ليصرّف شؤونها بالوكالة، وتحدد موعد الدفن على أن يكون في اليوم التالي. وقد وعد الباشا بإرسال مفرزة لائقة من الجنود النظاميين، وعدد من القواسين[1] Cawas يكفي لأن يكونوا في أول الموكب وآخره. ولكنه بدا في اللحظة الأخيرة أنه قام بالأمر على مضض، وبمنتهى السوء، وكنت والسيد كول متفقين على رفض كل ما قدمه من القواسين Cawas والجنود. لقد كنت منزعجاً كل الانزعاج من عدم التقدير الذي يلقاه ممثل فرنسا من ذلك التركي، في الوقت الذي تبذل فيه فرنسا دماء أبنائها وذهبها من أجل تركية؛ وقد كان السيد كول مستاء، وأعلن بصوت عالٍ أن الإهانة لا تمس فرنسا فقط، وإنما تمس بريطانيا نفسها، والعالم المسيحي كله. ورُفِعَتْ شكوى إلى إستانبول وباريس كما ينص القانون في مثل هذه الحالات؛ ولكنني لا أعلم أن الحكومة التركية قامت بالاعتذار عما حدث.

ومهما يكن من أمر فإن جثمان قنصل فرنسا حُمل إلى مثواه الأخير، كما لو أنه من عامة الناس، على أكتاف / ٣٠٩ / أربعة من العرب كانوا، حسب تقاليد البلد، يجرون بالجنازة مسرعين. كنّا نتبعهم؛ أنا ورفيق رحلتي، والسيد كول، والسيد

(١) ضباط الشرطة كما ذكر بيرتون في رحلته، موثق سابقاً، ج ١، ص ٩، ٣٢، ٤٢.

دوكيه، والإخوة ساوة، كانت هذه الحفنة الصغيرة من النصارى الذين جمعتهم المصادفة حول تابوت، يشكلون وحدهم الجماعة التي تُشيّع هذا المسيحي الذي قضى نحبه في ديار المسلمين. لقد حذرونا من تطرف العامة؛ ولكنهم (العامة) بدوا على العكس خلال مرورنا هادئين، ومحتشمين، وتكاد تبدو عليهم علائم الوقار[1].

خرجنا من باب اليمن، وبعد أن اجتزنا سهلاً رملياً يغمره البحر في حالة المد، وصلنا إلى مقبرة صغيرة مسوّرة، ومخصصة للأوروبيين[2] الذين يدركهم الموت في هذه البلاد البعيدة. وكان ينقص مراسم التشييع الوقار والخشوع. لم يكن المتوفى إبّان حياته محترماً أو محبوباً، ومع أن الموت يطهر الذكريات، ويخمد الأضغان، فإن مصير القنصل لم يكن في ساعة الموت يوحي بالرثاء الذي يستحقه. ومهما يكن الدور الذي أديناه في الحياة فإنه مصير محزن أن يدركنا الموت بعيداً عن الوطن والأهل، محاطين بمن لا يهمهم أمرنا وبالأجانب، وأن نقول ونحن نلفظ الأنفاس الأخيرة: "أموت بعيداً وليس حولي صديق ليغلق جفنيّ، ويبكي عليّ".

---

(١) هذا التحذير من الجماعة ليس له ما يسوّغه؛ إذ المشروع أن نحترم الجنازة مهما كانت، ولعل حديث قيام الرسول ﷺ لجنازة اليهودي عندما مرت أمامه في المدينة المنورة دليل على ذلك. إذ ورد في **سنن أبي داود**، باب القيام للجنازة قوله: حدثني جابر قال: كنا مع النبي ﷺ إذ مرت بنا جنازة فقام لها: فلما ذهبنا لنحمل إذا هي جنازة يهودي، فقلنا: يا رسول الله ! إنما هي جنازة يهودي، فقال: "إن الموت فزع فإذا رأيتم جنازة فقوموا".

(٢) يقول بوركهارت في **رحلاته ...**، موثق سابقاً، ص ١٩١: "... إذا مات شخص مسيحي هناك، فمن غير المسموح به أن يُدْفن على الشاطئ، وإنما يُحمل جثمانه إلى جزيرة رملية صغيرة في الميناء ..."، انظر سابقاً الحاشية رقم (١٦٨) وخروج ديديه وأصحابه من باب اليمن يعني أن المقبرة جنوب جدة.

مات القنصل في يوم ٩ مارس (آذار)، ودفن في اليوم العاشر من الشهر نفسه، وفي اليوم الحادي عشر، وبعد أن قمت بآخر واجباتي تجاهه، كما يليق بأحد مواطنيه أن يفعل، أبحرت / ٣١٠ / في الساعة التاسعة مساءً، مع رفيق رحلتي في مركب لينقلنا إلى السنبوك الذي استأجرناه، والذي كان يرسو بعيداً في عرض البحر. وكانت أمتعتنا ومرافقونا قد سبقونا إليه.

كان البحر في أقصى الجزر، وغاص مركبنا في الرمل وسط قنوات الملاحة، وقد كان من المستحيل إخراجه منها؛ وكان علينا أن نظل متسمرين في مكاننا خمس أو ست ساعات بانتظار المد. كان الليل رائعاً، والقمر بدراً، ولكن البرد كان قاسياً، ولما لم يكن معي معطف أو غطاء فإنني وجدت نفسي مضطراً لأن أتلفع بالشراع حتى لا أقاسي من البرد كثيراً. لم نصل السنبوك إلاّ نحو الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً، وفي الثامنة أبحرنا، ونشرنا القلوع باتجاه سواكن.

المصادر والمراجع[1]

أولاً – اللغة العربية :

١ – القرآن الكريم.

٢ – أبو علية، عبد الفتاح، تاريخ الدولة السعودية الثانية، دار المريخ، الرياض، ط ٤، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

٣ – أبو علية، عبد الفتاح، محاضرات في تاريخ الدولة السعودية الأولى، دار المريخ، الرياض، ط ٢، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

٤ – إمام، إمام عبد الفتاح، معجم ديانات وأساطير العالم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ثلاث مجلدات، د. ت.

٥ – الأنصاري، عبد القدوس، موسوعة مدينة جدة، القاهرة، ط ٤، ١٩٨٢م.

٦ – بِدُول، روبن، الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ترجمة د. عبد الله آدم نصيف، الرياض ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

٧ – البقاعي، محمد خير محمود، قراءة في رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عنوانها: إقامة في رحاب الشريف الأكبر – شريف مكة المكرمة–، تأليف شارل ديديه، الدرعية، س ٢، ع ٨، شوال ١٤٢٠هـ / فبراير ٢٠٠٠م.

---

(١) لم نثبت إلا المصادر والمراجع التي عدنا إليها ، أما ما أخذناه عن كتب أخرى فقد أشرنا إليه في الحاشية .

٨ - ناصر الدين دينيه وكتابه: الحج إلى بيت الله الحرام، دراسة ووثائق وترجمة مختارة، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية ، مج ٧، ع ١٠، ١٤٢٢هـ.

٩ - البلادي، عاتق بن غيث، معجم معالم الحجاز، عشرة مجلدات، تواريخ مختلفة من ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م إلى ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

١٠ - البلادي، عاتق بن غيث، على طريق الهجرة (رحلات في قلب الحجاز)، دار مكة، د.ت.

١١ - بوركهارت، جون لويس، رحلات في شبه جزيرة العرب، ترجمة عبدالعزيز بن صالح الهلابي و عبد الرحمن عبد الله الشيخ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

١٢ - بوركهارت، جون لويس، مواد لتاريخ الوهابيين، ترجمة عبدالله الصالح العثيمين، الرياض، ط ٢، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.

١٣ - بيرتون، رتشارد فرانسيس، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، ترجمة وتعليق عبدالرحمن عبدالله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج ١، ١٩٩٤م ، ج ٢، ١٩٩٥م.

١٤ - بيرين، جاكلين، اكتشاف جزيرة العرب، خمسة قرون من المغامرة والعلم، نقله إلى العربية، قدري قلعجي، قدم له الشيخ حمد الجاسر، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

١٥ - تاميزيه، موريس، رحلة في بلاد العرب، الحملة المصرية على عسير ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٤م، ترجمه وعلق عليه محمد بن عبدالله آل زلفة، الرياض ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، والجزء الأول من هذه الرحلة عدنا إليه بأصله الفرنسي.

١٦ – الجاسر، حمد، بلاد ينبع، لمحات تاريخية جغرافية وانطباعات خاصة، دار اليمامة، الرياض، ١٩٦٦م.

١٧ – ابن جريس الحنبلي، راشد بن علي، مثير الوجد في أنساب ملوك نجد، تحقيق محمد بن عمر بن عبد الرحمن العقيل، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

١٨ – الحنبلي، عثمان بن عبد الله بن بشر النجدي، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق عبدالرحمن بن عبداللطيف بن عبد الله آل الشيخ، ط ٤، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م.

١٩ – الخطيب، مصطفى عبد الكريم، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٢٠ – ابن خميس، عبدالله بن محمد، معجم أودية الجزيرة، الرياض، ط ١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٢١ – ابن خميس، عبدالله بن محمد، معجم جبال الجزيرة، الرياض، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

٢٢ – دحلان، أحمد زيني، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، الطبعة الأولى، مصر، المطبعة الخيرية، ١٣٠٥هـ.

٢٣ – ذهني، إلهام محمد علي، مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م.

٢٤ – الرويثي، محمد أحمد، الموانئ السعودية على البحر الأحمر، دراسة في الجغرافيا الاقتصادية، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٢٥ ـ الزركلي، خير الدين، ما رأيت وما سمعت، مكتبة المعارف بالطائف، ١٣٩٨هـ.

٢٦ ـ آل زلفة، دراسات من تاريخ عسير الحديث، ط ١، الرياض، ١٤١٢هـ.

٢٧ ـ الزيد، إبراهيم بن محمد، عثمان بن عبد الرحمن المضايفي أمير الطائف والحجاز في الدولة السعودية الأولى، إصدار لجنة المطبوعات في التنشيط السياحي، محافظة الطائف، ط ١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٢٨ ـ السلمي، عرام بن الأصبغ، أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه، مجلدان، دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، (ضمن نوادر المخطوطات).

٢٩ ـ شامية، جبران، آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ط ١، لندن، رياض الريس، ١٩٨٦م.

٣٠ ـ شقير، نعوم بك، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، دار الجبل، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٣١ ـ صابان، سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ط. مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٣٢ ـ العجيمي، حسن بن علي بن يحيى بن عمر، إهداء اللطائف من أخبار الطائف، تحقيق يحيى محمود ساعاتي (بن جنيد)، دار ثقيف للنشر والتأليف، الطائف، ط ٢، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٣٣ ـ عسيري، علي أحمد عيسى، عسير من ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م إلى ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م، دراسة تاريخية، مطبوعات نادي أبها الأدبي، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٣٤ - فراج، عبدالرحمن، أدب الرحلات إلى المملكة العربية السعودية، قائمة ببليوجرافية مختارة (القسم العربي)، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج٤، ع ٢، ١٩٩٨-١٩٩٩م.
٣٥ - فيلبي، هاري سنت جون، أرض الأنبياء، مدائن صالح، تعريب عمر الديراوي، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، ١٩٦٢م.
٣٦ - فوجت، جوزيف، نظام العبودية القديم والنموذج المثالي للإنسان، تقديم وترجمة وتعليق منيرة كروان، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ١٩٩٩م.
٣٧ - القثامي، مناحي ضاوي حمود، تاريخ الطائف قديماً وحديثاً، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، د.ت.
٣٨ - آل كمال، محمد سعيد بن حسن، الطائف، جغرافيته - تاريخه، أنساب قبائله، مكتبة المعارف بالطائف، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م.
٣٩ - كوبر، لي ديفيد، رينتز، جورج، الحركة الوهابية في عيون الرحالة الأجانب، ترجمة وتعليق عبدالله ناصر الوليعي، الرياض ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
٤٠ - لورنس، هنري، وآخرون، الحملة الفرنسية في مصر، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥م.
٤١ - مرداد، محمد عبد الحميد، مدائن صالح، المكتبة الصغيرة، ٢٩، د.ت.، ط ٢، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٧م.
٤٢ - موسل، أ، شمال الحجاز، نقله إلى العربية د. عبدالمحسن الحسيني، الإسكندرية، ١٩٥٢م.
٤٣ - نصر، أحمد عبدالرحيم، التراث الشعبي في أدب الرحلات، مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، الدوحة، ١٩٩٥م.

٤٤ ـ نواز، ملك أحمد، أدب الرحلات إلى المملكة العربية السعودية (القسم الإنجليزي)، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج ٤، ع ٢، ١٤١٩هـ/ ٩٨-١٩٩٩م.

٤٥ ـ هورخرونيه، سنوك، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، نقله إلى العربية علي عودة الشيوخ، أعاد صياغته وعلق عليه، محمد محمود السرياني، ومعراج نواب مرزا، طبع دارة الملك عبد العزيز، الرياض، مجلدان ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٩م.

٤٦ ـ هيوورد، ميشيل، ر، ورد الطائف، ترجمه بتصرف محمد عبد القادر الفقي، مجلة القافلة، مج ٤٩، ع ٣، ربيع الأول ١٤٢١هـ/ يوليو (تموز) ٢٠٠٠م.

٤٧ ـ ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .

ثانياً - اللغة الأجنبية :

48 - Burton, Richard, Personal Narrative of Pilgrimage to al-Madinah and Mecca, 2 Vol. Dover Publication, New York, 1964.

49 - Carré, Jean Marie, Voyageurs et écrivains Français en Egypte, Le Caire, T. 1-2, 1960.

50 - Courtellemont, Gervais, Mon Voyage à la Mecque, Paris, Librairie Hachette et cie, 1896.

51 - Dinet, E. (Naçir Ed-Dine), Le Pélerinage à La Maison Sacrée D'Allah, Librairie Hachette, Paris, 1347 h.

52 - Encyclopædia Britannica, Volume 18, 1965.

53 - Laffont-Bompiani, Dictionnaire des Œvres, de Tous les temps et de Tous les pays, Société d'Édition, de Dictionnaires, et Encyclopédies, 3 Vol., Paris, 1954.

54 - Larousse du XXeme Siécle, paris, 6 Vol, 1929.

5 - Tamisier, Maurice, Voyage en Arabie, Sejour dans le Hedjaz, Campagne d'Assir, accompagné d'une carte, Paris: Louis Desessart, editeur, 1840.

كشاف الأعلام والأماكن

في متن الكتاب

مطبعة
مركز الملك فيصل
للبحوث والدراسات الاسلامية

هذا الكتاب

لم تلق المؤلفات الفرنسية المتصلة بالجزيرة العربية إلى اليوم الاهتمام الذي يليق بأهميتها في إجلاء كثير من تاريخ هذه المنطقة المهمة من العالم.

واستشعاراً من دار الفيصل الثقافية لأهمية هذه المؤلفات تقدم هذه الترجمة لرحلة الفرنسي شارل ديديه إلى الحجاز لكونها تعرض صورة واضحة عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بها في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي فترة تقل مصادرها.

وتقدم الرحلة معلومات ثرة سواء كانت جغرافية أو اجتماعية أو اقتصادية عن الأماكن التي مر بها ديديه انطلاقاً من السويس حتى الطور، وجبل سيناء، والبحر الأحمر، وينبع، وجدة، والطائف.

ومن فوائد هذا الكتاب أن مؤلفه يركز في البشر بطباعهم ولباسهم ومساكنهم مما يجعله محط اهتمام علماء الأنثروبولوجيا (الإناسة)، وعلماء الاجتماع، والجغرافيا.

ومع أن ديديه ينفي أن تكون رحلته مهمة رسمية، أو أن لها هدفاً سياسياً، إلا أن توليه مهمات سياسية لمصلحة ... أطوار حياته يدعو إلى التساؤل: هل كان ديديه مبعوث ... الثالث لاستكشاف منطقة الحجاز؟

ويكشف الكتاب - أيضاً - ملامح من حياة هذا الرحالة والتي انتهت بصورة مأساوية بانتحاره بعد أن فقد بصره

ردمك: ٩٩٦٠-٦٧٧-١٤-١